إعلام النبلاء

بتاريخ

حلب الشهباء

تأليـف

محمد راغب بن محمود بن هاشم الطبّاخ الحلبي عفي عنه

الجزء الأول

نقّحه ووقف على طباعته

محمد كمال

منشورات دار القلم العربي بحلب

سوريا ــ حلب ــ ص.ب ٧٨

منشورات دار القلم العربي ـــ حلب

الطبعة الأولى ١٣٤١ هجرية ١٩٢٣ ميلادية
الطبعة الثانية ١٤٠٨ هجرية ١٩٨٨ ميلادية



إليكم يا بني الشهبا كتاباً حوى تاريخ أجدادٍ عظام
وروحي في ثناياه تجلّت وذا رسمي إذا غابت عظامي

كلمة الناشر

يسر دار القلم العربي للنشر والتوزيع بحلب أن تقدم إلى الباحثين والمؤرخين والعلماء والأدباء وأبناء مدينة حلب هذا الكتاب الجليل « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » بأجزائه السبعة لعلاّمة حلب الأستاذ المرحوم محمد راغب الطبّاخ ، بعد أن فقدت طبعته الأولى وعزّ الحصول عليه والاستفادة منه ، فكان أن سارعت الدار إلى خدمة الثقافة التراثية المجيدة بإخراجه على هذه الصورة التي تتفق ومعطيات الطباعة الحديثة لتعم الفائدة ويتم النفع .

وقد عهدت الدار إلى المحقق الأستاذ محمد كمال بمهمة الإشراف على طباعته ، فبذل ما بذل من جهده ووقته في سبيل تنقيح النصوص وضبط الأشعار وإصلاح ما وقع في الطبعة الأولى من سهو أو تصحيف ، فله مني الشكر الجزيل .

مع أطيب تحياتي

حلب ١٩٨٨/٤/٧

الناشر

علاء الدين رفاعي

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

تعد مدينة حلب الشهباء من المدن العربية الإسلامية التي ضربت جذورها في أغوار التاريخ ، حتى كان لها شأن كبير في أيام الفتوحات الإسلامية لما لموقعها الجغرافي من أهمية عظمى ، فغدت محط القوافل التجارية وهدف الغزاة المغيرين وملتقى الشرق بالغرب ومركزاً للتقلبات السياسية والحركات العلمية ، إذ عرفت في عصورها السالفة والحاضرة بمجالس العلم ومنتديات الأدب ، فأمها من كل حدب وصوب شداة المعرفة ينهلون من مساجدها ومدارسها وحلقات العلماء فيها شراباً سائغاً هو مزيج من التفسير والفقه والأدب والنحو والمنطق والموسيقا والتاريخ والطب والفلك وغير ذلك من صنوف العلوم والفنون .

فكان حقيقاً بمثل هذه المدينة العريقة أن تستحوذ على اهتمام المشتغلين بالتاريخ والآثار والعلوم فصنفت في تاريخها المصنفات الكثيرة التي بسطت في طياتها ما تعاقب فيها من أحداث وما قام فيها من حضارة وعمران . وظلت هذه الكتب تتوالى بين موسع وموجز وخاص وعام إلى مطالع هذا القرن حتى توجت بكتاب جامع يضم تاريخها السياسي الذي تشعث في عدد كبير من المراجع والمصادر ، ويعرّف بأعلامها على مر العصور من رجال الحكم والقضاء وأصحاب الشأن في مختلف الميادين السياسية والعلمية والأدبية والدينية والاجتماعية ، فكان كتاب « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » ، الذي قيض الله لتصنيفه عالماً من أبنائها جليلاً وبحّاثة ثبتاً ومؤرخاً ضليعاً تفرغ للعلم فأخلص له وأقبل على التأليف فأبدع فيه .

المؤلف :

هو محمد راغب الطباخ بن محمود بن هاشم بن السيد أحمد بن السيد محمد الشهير بالطباخ ، وقد ذكر المؤلف في كتابه هذا الذي نقدمه تحت عنوان : تحقيق في نسب عائلتنا ، أن الأسرة على غالب ظنه منسوبة إلى الرسول ﷺ وأن الجد هو الشيخ حسن بن علي الحنبلي الشافعي الشريف المتوفى سنة ١١٤٠ هـ .

ويروي الأستاذ محمد يحيى الطباخ ابن المؤلف — وهو من المختصين بالتاريخ* — أن والده قد ولد في الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٧ م) وذلك في حي « باب قنسرين » في حلب قريباً من البيمارستان الأرغوني ، وكانت أسرته قد جمعت بين التجارة والعلم والتصوف ، فقد عرض على جده الشيخ هاشم منصب القضاء على الآستانة ، فأبى معتذراً بأن لهم صنعة أغناهم الله بها عن الوظائف وهي صناعة بصم الشاش الأبيض بألوان ونقوش لتتخذ منه العصائب والمناديل والملافع في بلاد كثيرة من الشرقين الأدنى والأوسط .

وكان عمه عبد السلام مكباً على مطالعة الكتب يتنقل بين علوم اللغة والفقه والحديث والفرائض .

أما والد المؤلف فقد نشأ أيضاً في صناعة البصم وتجارتها أسوة بأبيه ، وذلك في خان العلبية وخان البرغل ، جامعاً بين العلم والتجارة ، إلا أن مسائل العلم انحصرت عنده في الأمور الفقهية التي تتعلق بأحكام المعاملات في الشريعة الإسلامية .

وتطالعنا في أسرة الطباخ نزعة إلى الزهد والصلاح هي من ميراث القرون الماضية ، ولكنها ظلت قائمة فيهم إلى عهد غير بعيد ، فجده الشيخ هاشم وهو من رجال القرن الثالث عشر الهجري اتخذ لنفسه الطريقة الخلوتية القادرية على يد الشيخ إبراهيم الدارعزاني

* — « محمد راغب الطباخ : حياته — آثاره » تأليف محمد يحيى الطباخ . وهي رسالة جامعية تقدم بها إلى قسم التاريخ في الجامعة السورية عام ١٩٥٧ .

(الهلالي) وصار يختلي الخلوة الأربعينية في كل سنة كما جرت عادة أهل هذه الطريقة ، أما أبوه الحاج محمود الطباخ فكان يختلف إلى الشيخ محمد الهلالي ابن العالم الزاهد الشيخ إبراهيم الهلالي شيخ الزاوية الهلالية بحلب . وهكذا كان المؤلف رحمه الله يصحب والده في حداثته إلى حلقات الذكر ومجالس أهل المعرفة فيصغي إلى الأناشيد الدينية العذبة حتى تكون لديه حس مرهف وشعور رقيق مما دفعه إلى حب الموسيقا وتعرف أصولها وأصواتها .

وكان رحمه الله قد أتم تلاوة القرآن الكريم في الثامنة من عمره في أحد الكتاتيب المعروفة آنذاك ، ثم بدأ يتلقى أصول الكتابة والخط على يد الخطاط الشيخ محمد العريف المعروف بشيخ الأشرفية (الشرفية) ، ثم دخل المدرسة المنصورية وفيها تعلم مبادىء اللغة التركية والفارسية والإفرنسية بالإضافة إلى العربية .

وقد أتيح له أن يزور الحجاز وهو في الرابعة عشرة من عمره بصحبة والده وعمه الشيخ عبد السلام فالتقى معهما بأهل العلم والفضل هناك وأصغى إلى ما كان يدور في تلك المجالس من مناظرات علمية ومناقشات فكرية . ولما تم شبابه وتفتحت مواهبه أخذ يطوف البلدان طواف المستطلع الظامىء إلى ينابيع المعرفة فكان أن اجتمع بالشيخ عبد القادر المغربي والشيخ بهجة البيطار والشيخ كامل القصاب والشيخ مكي الكتاني ، فإذا تعذر اللقاء وعز السفر عمد إلى مراسلة العلماء في الشرق والغرب أمثال داود جلبي وعيسى إسكندر المعلوف وأحمد تيمور باشا والأمير شكيب أرسلان ، زد عليهم عدداً من المستشرقين الذين سحرهم التراث العربي الإسلامي فتفرغوا له وأبدعوا فيه وعملوا على كشف كنوزه أمثال كرنكو ورايتر ومرجليوث وماير ، فأفاد منهم وأفادوا منه في كثير من الشؤون المتعلقة بالمخطوطات العربية .

ومع ذلك فإن إقباله ـــ رحمه الله ـــ على الكتب والمصنفات وشغفه بالمطالعة والبحث وولعه بالعلم والعلماء لم يكن مما يستغرق منه جل وقته ويصرفه عن الحياة التي تحيط به ، فقد كان له نشاط بارز في ميادين الصحافة والتدريس والتوجيه والإصلاح مع ما يقتضي ذلك من تكوين العلاقات الاجتماعية الواسعة على الصعيدين الرسمي والشعبي ، وقد حظيت بمقالاته العلمية وتحقيقاته التاريخية صحف عربية كثيرة كان من أهمها جريدة ثمرات الفنون ثم جريدة الاتحاد العثماني ، كما راسل جريدة الحقيقة والبلاغ والمفيد في بيروت ، ومجلة

الفتح والمكتبة والزهراء في مصر ، والحقائق والمجمع العلمي في دمشق ، والاعتصام والجامعة الإسلامية والعاديات في حلب .

ولقد عين في مجلس معارف ولاية حلب فانصرف إلى تدريس اللغة العربية والإنشاء والعلوم الدينية في مدرسة شمس المعارف ، ثم لما افتتحت المدرسة الخسروية عام ١٩٢١ انتدب لتدريس السيرة النبوية والحديث ثم التاريخ والثقافة الإسلامية . وقد سعى إلى تعديل برامج هذه المدرسة الدينية بشكل يوافق روح العصر وعلومه الحديثة ، فقرر تدريس التاريخ الإسلامي والجغرافية وقانون الحقوق الطبيعية وقانون الأراضي وأحكام الأوقاف وعلم الحساب والعلوم الطبيعية واللغوية ، وانطلاقاً من إيمانه بضرورة التوفيق بين علوم الدين والدنيا أخذ على عاتقه ــ وقد عين مديراً للمدارس العلمية الدينية عام ١٩٣٧ ــ أن يتولى إصلاح هذه المدارس الشرعية ، فراح يضع المشاريع ويقدم المقترحات لوضع المناهج الكفيلة بتوحيد خطة هذه المدارس وتخريج طلاب تمكنوا من علوم الدّين وتفتحوا على العلوم العصرية والمكتشفات الحديثة .

ولعل قارىء كتابه « إعلام النبلاء » يتبين مدى إقباله على الآثار العمرانية وشغفه بالأوابد التاريخية في مدينة حلب ، وذلك مما يبسطه المؤلف في أثناء كتابه من وصف تفصيلي دقيق للكثير من المساجد والأحياء المتبقية والمنشآت الغابرة والمدارس العامرة أو الداثرة وصفاً يعتمد على استعراض هذا الأثر تاريخاً وتطوراً ، واستقصاء أبعاده ومحتوياته استقصاء الواقف المعاين والأثري الخبير ، فكانت له بذلك يد بيضاء على النشاط الأثري الذي لا يزال ينمو ويزداد في هذه المدينة يوماً بعد يوم .

ولقد اجتمعت في هذا الرجل روافد عديدة كونت شخصيته وأنزلته في قلوب أهل عصره منزلة المحب المكرم من علم غزير وخلق فاضل وهمة بالغة ، فكانت المؤسسات العلمية والأدبية والاجتماعية تتخطفه وتستفيد من سعة اطلاعه وغنى نفسه ، فانتخب عام ١٩٢٣ عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق ، وعضواً في جمعية الآثار القديمة عام ١٩٣٠ ، وعضواً في اللجنة الادارية للمتحف الوطني بحلب عام ١٩٣١ ، وعضواً في جمعية المعارف النعمانية بحيدر آباد الدكن عام ١٩٣٥ ، ورئيساً لجمعية البر والأخلاق الإسلامية

عام ١٩٣٨ ، وأخيراً قام برئاسة رابطة العلماء بحلب إلى أن وافته المنية في الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٩٧٠ هـ ـــ ٢٩ حزيران سنة ١٩٥١ م .

أساتذته :

يقول الأستاذ محمد عبد الغني حسن من مقال نشره في مجلة الرسالة★ : ولكن الذي أعرفه أن المترجم له تتلمذ على أستاذين من أكبر علماء الشام ، وهما الشيخ محمد الزرقا والشيخ بشير الغزي . أما الشيخ الزرقا فقد كان حجة في فقه الإمام أبي حنيفة ، وكان كما يقول تلميذه : لو شاء إملاء مذهب أبي حنيفة من حفظه لأملاه بنصوصه وحروفه . وقد تولى التدريس في المدرسة الشعبانية أولاً ، ثم اشتغل بالقضاء أو رياسة كتّاب المحكمة الشرعية بحلب ، وظل أكثر حياته الطويلة معلماً يلتف حوله التلاميذ ويردون أصفى موارده ، إلى أن توفي سنة ١٣٤٣ هـ ١٩٢٤ م .

أما الشيخ بشير الغزّي فقد كان أميناً للفتوى بحلب فعضواً بمحكمة الحقوق فرئيساً لها ، فمدرساً بالمدرسة الرضائية فقاضياً ، إلى أن عين في آخر أيامه قاضياً لقضاة حلب ، وظل في المنصب إلى أن توفي سنة ١٣٣٩ هـ .

وعلى قدر ما كان الشيخ محمد الزرقا متمكناً من الفقه الإسلامي ضالعاً فيه ، كان الشيخ بشير الغزّي متمكناً من اللغة العربية وشعرها وأدبها ، وكان حاضر الذهن في الاستشهاد باللغة أو بالشعر ، وأعجب من ذلك أن كتب الأغاني لأبي الفرج ، والحماسة لأبي تمام ، والأمالي للقالي ، والكامل للمبرد ، ودواوين أبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري كانت كلها على مناط الطلب ، يحفظها ويروي عنها ويعيها في صدره ، فلا يكاد يخطىء في الرواية عنها أو يعز عليه الاستشهاد منها .

آثاره :

كان الشيخ الطباخ رحمه الله واحداً من أعلامنا المعاصرين الذين كان لهم أثر واضح في إثراء الثقافة الحديثة وإحياء المآثر الفكرية السالفة ، وتحقيقاً لهذه الغاية النبيلة قام

★ ... عدد ٩٥٢ س ١٩٥١ ص ١١١٤ ـ ١١١٧ .

بتأسيس مطبعة خاصة أسماها (المطبعة العلمية) فطبع فيها مؤلفاته ومؤلفات غيره من نفائس كتب الحديث ونوادر كتب اللغة والأدب ، على نفقته الخاصة فكان له من وراء ذلك فضيلة نشر العلم وتسهيل وصوله إلى أيدي القراء وإسداء الخير الى المكتبة العربية .

ولقد أثبت الأستاذ محمد يحيى الطباخ في رسالته آثار والده المطبوعة والمخطوطة فجاءت كما يلي :

الآثار المطبوعة :

١ ـــ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : في سبعة مجلدات كبار .

٢ ـــ ذو القرنين وسد الصين من هو وأين هو : وهو بحث عن شخصية ذي القرنين الوارد ذكرها في القرآن الكريم ، وسد الصين وما ورد فيهما من أحاديث نبوية ، وما قام به العرب من بعثات لاكتشاف معالم السد .

٣ ـــ الأنوار الجلية من مختصر الأثبات الحلبية : وهي :

ـــ الثبت المسمى (كفاية الراوي والسامع وهداية الرائي والسامع) للعلامة المحدث الشيخ يوسف الحسيني الحنفي الحلبي المتوفى سنة ١١٥٣ هـ .

ـــ والثبت المسمى (إنالة الطالبين لعوالي المحدثين) للعلامة المحدث الشيخ عبد الكريم بن الشيخ أحمد الشراباتي الحلبي المتوفى سنة ١١٧٨ هـ .

ـــ والثبت المسمى (منار الإسعاد في طرق الإسناد) للعلامة المحدث الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الحنبلي الحلبي المتوفى سنة ١١٩٢ هـ . وهو مجلد في ٤٤٧ صحيفة .

٤ ـــ المصباح على مقدمة ابن الصلاح : وهي تعليقات على هذا الكتاب طبعت مع الأصل وشرحه المسمى (التقييد والإيضاح لما أطلق أو أغلق من مقدمة ابن الصلاح) للحافظ العراقي .

٥ ـــ الروضيات : وهي ما جمعه من أمهات المخطوطات والكتب القديمة والحديثة من شعر الشاعر المجيد أبي بكر الصنوبري الحلبي أحد شعراء سيف الدولة الحمداني المتوفى سنة ٣٣٤ هـ مع ترجمة حافلة لحياته .

٦ ـــ الثقافة الإسلامية : وهو بحث في الثقافة الإسلامية والعلوم التي تفرعت عن القرآن الكريم والحديث النبوي كالتجويد والتفسير مع بيان طبقات المفسرين وأشهر تآليفهم ، والحديث النبوي ومصطلحه ، وأشهر شراح الكتب الحديثية ، وعلوم الفقه والمذاهب الفقهية ، مع بيان انتشار المذاهب الأربعة في الأقطار الإسلامية ، والتصوف ، ثم العلوم الأدبية والتاريخ ، وبحث في النهضة الفكرية أيام الدولة الأموية والعباسية ، ويختم الكتاب ببحث عن رقود الحركة الفكرية ويقظتها الأخيرة في البلاد العربية .

ولما انتخب لمجلس معارف حلب شارك في تبسيط العلوم فوضع الكتب المدرسية التالية :

٧ ـــ المطالب العلية في الدروس الدينية : وهو في ثلاثة أجزاء .

٨ ـــ عظة الأبناء بتاريخ الأنبياء : في ٦٠ صحيفة .

٩ ـــ تمرين الطلاب في صناعة الإعراب : رسالة في ١٦ صحيفة تسهل على المبتدئين كيفية الإعراب .

١٠ ـــ ترجمة كمال الدين بن العديم المتوفى سنة ٦٦٠ هـ مع بيان تاريخه العظيم « بغية الطلب من تاريخ حلب » وأين توجد أجزاؤه المخطوطة مع الكلام عليها في ٨٠ صحيفة نشر منها ٦٠ صحيفة في مجلة الجامعة الإسلامية .

١١ ـــ المدارس في الإسلام : نشر في ٩ أعداد في مجلة الجامعة الإسلامية في حلب ، عدد في آخر البحث ٤٤ مدرسة دينية في حلب هي الآن موجودة بين عامرة وخربة ، ولم يذكر ما دثر من تلك المدارس .

١٢ ـــ ما جمعه من شعر الأديب عمر بن حبيب الحلبي من أعيان القرن الثامن : نشر في مجلة الاعتصام الحلبية .

١٣ ـــ شرح حديث « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن » : رسالة نشرت في مجلة التمدن الإسلامي الدمشقية .

١٤ ـــ السياسة في القرآن : رسالة شرح فيها قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل إذ قالوا لنبي لهم ﴾ يبين فيها الناحية السياسية في القرآن وما هي عوامل نهوض الأمة ، وقد ألقيت في محاضرة أيام الاحتلال الفرنسي ، ونشرت في مجلة الفتح المصرية .

الآثار المخطوطة :

١ ــ الفتح المبين على نور اليقين في سيرة سيد المرسلين : وهو حاشية على نور اليقين وضعها أثناء تدريسه لتاريخ السيرة في الخسروية في ٤٠٠ صحيفة .

٢ ــ ترجمة مسهبة للحافظ الكبير أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ في ٥٠ صحيفة كبيرة يبين فيها أنه كان أديباً كبيراً كما كان محدثاً كذلك .

٣ ــ رسالة عن البلاد والقرى الملحقة بولاية حلب في عهد الدولة العثمانية ، التقطها من معجم البلدان ولم يضع لها اسماً .

٤ ــ رسالة في شرح حديث طول آدم عليه السلام المذكور في صحيحي البخاري ومسلم والجواب عن الإشكال الذي ذكره الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الحديث ، وهي في ٢١ صحيفة .

٥ ــ ديوان أبي فراس : إذ إنه قام بتصحيح النسخة المطبوعة من هذا الديوان في بيروت لأنها مملوءة بالأغلاط ، وذلك على نسختين خطيتين محفوظتين في مكتبة المدرسة الأحمدية في حلب ، ثم التقط ما في هاتين النسختين الخطيتين من الزوائد وأبياتاً من بعض كتب التاريخ والأدب مما لا وجود له في المخطوطتين ، ورتب الجميع على نسق الحروف الهجائية ، ولم يقدر له طبعه ، وهذه النسخة موجودة لدى السيد أحمد عبيد المكتبي في دمشق .

٦ ــ مالعلماء حلب من المؤلفات والدواوين : ملتقط من كشف الظنون وغيره .

٧ ــ رسائل حديثية هي :

ــ كشف الغم عن حديث السم : وهو حديث ذكره الإمام الترمذي في شمائله أزال فيها وهم بعض الشراح لهذا الحديث .

ــ القول الفصل في مقر العقل ، في القلب أو في الدماغ .

ــ حسن الفهم لحديث الشؤم .

ــ شرح حديث الفخذ عورة .

بالإضافة إلى رسالة مقتضبة في العروض .

أما مقالاته التي تناثرت في المجلات السورية والعربية فكثيرة أهمها :
ــ تحقيقات هامة عن قبر أبي العلاء المعري .
ــ رسالة الكنز المظهر من استخراج المضمر للعلامة رضي الدين محمد بن يوسف الحنبلي الحلبي المؤرخ المتوفى سنة ٩٧١ هـ .
ــ مقالة عن رحلته إلى طرابلس الشام .

الكتاب :

لعل من أول الدوافع التي أدت إلى تأليف هذا السفر التاريخي الجليل أن المؤلف لما قام بنشر شرحي العلامة محمد بن الحسن الكواكبي الحلبي المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ على منظومتيه في الأصول والفروع احتاج إلى ترجمة للمؤلف فقيل له إنها موجودة في « خلاصة الأثر » للعلامة المحبي ، فاستعاره واستنسخ منه الترجمة ، واقتضى ذلك منه أيضاً استعارة « سلك الدرر » للعلامة المرادي ، فلما تصفح هذين التاريخين وجد فيهما تراجم كثيرة لأعيان حلب في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، فنسخها بيده سنة ١٣٢٣ هـ فوقع منه هذا النسخ موقعاً حسناً .

ويذكر المؤلف سبباً آخر شحذ همته لتأليفه تاريخ حلب إذ يقول : «.. وهناك داع آخر لوضعي لهذا التاريخ هو أني ابتعت كتاب «تحف الأنباء بتاريخ حلب الشهباء» للطبيب بيشوف الجرماني ، وهو كتيب في ١٦٠ صحيفة طبع في المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٨٨٠ م فيه حوادث حلب ومن تولاها من عهد الفتح العربي إلى استيلاء سليمان العثماني عليها سنة ٩٢٢ هـ بصورة موجزة ، وهذا الطبيب الجرماني ــ الألماني ــ كان قد جاء إلى حلب أواخر القرن الماضي فاستطابها ورآها بلدة رخيصة الأسعار ، فأقام بها وصار يتعاطى صنعة الطبابة فيها وتوفي أول هذا القرن . فطالعت هذا التاريخ وكان يأخذني العجب كيف أن رجلاً يأتي من بلاد جرمانيا ويقيم في الشهباء وليس من أبناء هذه البلاد ولا يعرف من لغة أهلها إلا القليل كما أنبئت ويضع تاريخاً لها ، أخلت هذه الديار وأقفرت هذه البلاد من رجل فيه فضل وهمة يقوم بهذا الأمر ويسد هذه الثلمة حتى يأتي هذا الرجل الأجنبي ويؤلف لها تاريخاً . فكان ذلك يعظم علي ويكبر جداً لدي ، وأجد في ذلك عاراً كبيراً على هذه البلاد وأهلها ، فكانت النفس تناديني بالنهوض لهذا الأمر الخطير والتشمير عن ساعد

الجد دفعاً لذاك العار وسداً لتلك الثلمة . إلا أني كنت أرجع إليها بقلة البضاعة ونزر المعرفة وثقل هذا العبء والمشاق العظيمة التي ستعتري ولابد» .

وإذا كان المؤلف قد كفانا مؤونة تفصيل الحديث عن الكتاب وأجزائه في مقدمته فإن من المفيد أن نشير إلى أمرين اثنين يتجليان للقارىء حين يتصفح هذا الكتاب .

الأمر الأول ما نلاحظه من إعداد علمي واسع أخذ المؤلف نفسه به واستمر عليه اثنتين وعشرين سنة لا يفتر له عزم ولا تضعف همة ، حتى بلغت مصادره المخطوطة ١٦٥ مخطوطاً والمطبوعة ٥١ جزءاً . ونراه ينظر في هذه الكتب نظر المحقق المتثبت الصابر على الطريق لا يمنعه مانع من زمن أو بعد شقة . ففي المدينة المنورة عثر على أوراق في تاريخ حلب لمؤرخ مجهول — كما يقول فهرس مكتبة عارف بك حكمت — فاستنسخ الأوراق فإذا هي ليست تاريخاً لحلب ، وإنما هي موشح للشيخ علي الميقاتي الحلبي في ذكر متنزهات الشهباء ومدح بعض أعيانها . وفي حلب يعكف على المكتبة الأحمدية فيستخرج منها ما له علاقة بموضوعه كالبداية والنهاية لابن كثير ، وذيل مرآة الزمان للقطب اليونيني وتاريخ ابن إياس المصري ويقع فيه على زيادات على النسخة المطبوعة في مصر ، وطبقات الحنفية للقرشي ، وطبقات الشافعية للأسنوي ، وعجائب المقدور في تاريخ تيمور لابن عربشاه . ثم يفد إلى الظاهرية في دمشق فينظر فيها في تاريخ الحافظ ابن عساكر والكواكب السائرة للبدر الغزي وغيرهما . كما يكتب إلى العلامة المرحوم أحمد تيمور باشا في مصر سائلاً إياه أن يدله على كتب في مكتبته تتصل بتاريخ حلب ، فيكتب له تيمور باشا عن جزءين في مجلد واحد من كتاب « كنوز الذهب في تاريخ حلب » للإمام المحدث موفق الدين أبي ذر ، كما يعيره « المنهل الصافي » لابن تغري بردي و «رحلة القاضي ابن آجا مع الأمير يشبك » ثم يعثر في مكتبة محمد أسعد باشا الجابري في حلب على مخطوطة « در الحبب » لرضي الدين الحنبلي فيستعيرها ثم ينقلها بخطه إلى نسخة حسنة صحيحة الرسم يراها أسعد باشا فيستحسنها ويأخذها بدلاً من مخطوطته ، ثم يجد نسخة من كتاب « الدر المنتخب » المنسوب لابن الشحنة عند أحد علماء حلب فيكتبها بخطه ويقابلها بغيرها من النسخ المخطوطة فيصل إلى أن هذا الكتاب لأبي اليمن بن عبد الرحمن البتروني وليس لابن

الشحنة كما كان معروفاً من قبل . وفي حلب نفسها يلتقي بالمستشرق الفرنسي لويس ماسينيون سنة ١٩٣١ ويذكر له أمله في الحصول على نسخة من مخطوطة « الدر المنتخب » لابن خطيب الناصرية من علماء القرن التاسع الهجري ، فيعود ماسينيون إلى باريس ويصور المخطوطة ويبعث إليه بالنسخة المصورة . كما يلتقي ببعثة أثرية ألمانية زارت حلب سنة ١٣٢٦ هـ مكونة من ثلاثة أشخاص فيطلعونه على كتاب « آداب اللغة العربية» للمستشرق الألماني كارل بروكلمن ويستخرجون له ما هو موجود فيه من تواريخ الشهباء مما حوته المكتبات الأوروبية . وتلك الجهود المضنية التي بذلها المؤلف في سبيل استيفاء المواد الأولية لكتابه كان يرافقها عقل متيقظ ونظرنا فذ فلا يقنعه المأخذ الذي يأخذ عنه سواء أكان مطبوعاً أم مخطوطاً إلا بعد تثبت وتحقيق وتوثيق ، فنراه يصل كلال يومه بكلال نهاره .وهو يقرن النسخة بالنسخة والنص بالنص حتى يجرد ما يجده من تصحيف ويتمم ما يراه من نقص ويكشف ما يقع فيه الناسخون والطابعون من أخطاء ، ولا أدل على ذلك من كشفه انتحال الطبيب الجرماني بيشوف كتاب « زبدة الحلب في تاريخ حلب » ، فيقابل المؤلف هذه النسخة على « تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء » للطبيب بيشوف المطبوع في المطبعة الأدبية في بيروت سنة ١٨٨٠ م فيجدهما متحدتين في العبارة ليس بينهما من الفرق إلا ما يقع عادة من النساخ من تحريف أو إسقاط كلمة أو تقديم جملة وتأخير أخرى . يقول المؤلف : « وإقدام الطبيب المذكور على نسبة جميع الكتاب إلى نفسه وبخسه حق مؤلفه وناظم عقده أمر غريب في بابه جداً ، وهو خيانة كبرى للعلم لا ينبغي أن تصدر عن أمثاله ، وكأنه ظن أن ذلك سيبقى طي الخفاء والكتمان لا تظهره الأيام والأزمان ، ولو أنه عزا الكتاب إلى صاحبه وأدى الأمانة إلى أهلها وذكر ما له في هذا الكتاب من الزيادات لكنا من الشاكرين له والمقدرين لمساعيه » .

والأمر الثاني هو أن الكتاب وإن كان سجلاً زمنياً حافلاً بالأحداث السياسية المتلاحقة ومعرضاً لتراجم أعلام الشهباء من رجال الحكم والعلم والقضاء والأدب والشعر والطب فهو أيضاً مستودع للكثير من المعلومات والفوائد التي يصعب استخلاصها من الكتب والمصادر ، إذ نجد المؤلف يكثر من الوقوف عند الآثار العمرانية القديمة من قلاع

وقصور وجوامع ومساجد وكنائس ومدارس وزوايا وخانقاهات . كما يتعرض في غير موضع لتطور حلب الاقتصادي فيذكر أنواع العملة المتداولة وأوضاع التجارة والصناعة في حالي انحطاطها وازدهارها ، والمكوس المفروضة على المدينة ومقدارها ، وأثمان المحاصيل والمنتجات ، ومقدار الرطل والكيل . ثم نراه يبسط بعض جوانب الحياة الاجتماعية فيذكر ما حل في حلب من فتن وثورات وما اجتاحها من آفات وما انتابها من زلازل وما شاع فيها من عادات كضرب النوبة في القلعة ومواكب السلاطين في المواسم . يقول المؤلف في خاتمة كتابه : «ولا ريب أن تاريخنا باشتماله على هذه الأبحاث أصبح معلمة واسعة جمعت فأوعت ، يجد فيه السياسي بغيته والاجتماعي مقصده والعالم رغبته والأديب مطلبه والأثري مرامه وأربه» .

وبعد :

فقد كان هذا السفر النفيس قد طبع أول ما طبع في سنة ١٩٢٣ في (المطبعة العلمية) الخاصة بالمؤلف ، فلقي رواجاً في الأقطار العربية وانتشاراً في دوائر الاستشراق ، حتى نفدت طبعته وعز الحصول عليه وأصبح الباحث يجد عنتاً كبيراً في الوصول إليه والاستفادة منه ، وصار بعض من يملكه أو يملك جزءاً من أجزائه السبعة كمن يملك درة فريدة يحرص على الحفاظ عليها أو يغلي مهرها . ومن أجل ذلك سعينا إلى إعادة طبع هذا الكتاب ليكون قريباً من أيدي العلماء ورجال الفكر والتاريخ إيماناً منا بضرورة شيوع العلم وأهمية ذيوعه وانتشاره .

غير أن طبعتنا الحديثة هذه قد تيسر لها من الوسائل التقنية اللازمة وطرق الإخراج والتبويب والتنظيم ما لم يتيسر للطبعة الأولى نظراً إلى التقدم الملموس الذي طرأ على فن الطباعة خلال الأعوام السبعين الماضية ، هذا بالإضافة إلى ما بذلناه من جهد متواضع في تصحيح ما وقعت فيه الطبعة الأولى على جودتها من سهو عارض أو خطأ عابر أو تصحيف مخل ، وذلك لأن مصادر المؤلف رحمه الله منها ما كان مخطوطاً ومنها ما كان قد طبع في زمنه طبعات ناقصة يعوزها الضبط والتحقيق ، فعمدنا إلى ما وصل إلى يدنا من تلك المصادر بعد أن ظهر بعضها في حلل جديدة محققة فقارنا النصوص النثرية والشعرية وأثبتنا ما رأيناه

أقرب إلى الصواب من غير أن ننبه إلى ذلك في حواشي الكتاب ، إلا ما يقتضي وقوف القارىء عليه فأشرنا إليه برمز النجمة (*) لنميزه عن حواشي المؤلف نفسه .

أما ما قصر عنه وعينا القاصر وزادنا اليسير فنرجو أن يتداركه القارىء الكريم بعفوه وسماحه .

والله من وراء القصد وهو يهدي إلى سواء السبيل .

حلب في ١٥ رجب ١٤٠٨ هـ
٣ آذار ١٩٨٨ م

محمد كمال

إعلام النبلاء
بتاريخ
حلب الشهباء

حمداً لمن جعل في أنباء من مضى عبرة لمن حضر وصلاة وسلاماً على سيدنا محمد الذي أنار بسيرته وسيرة أصحابه بصائر البشر وبعد :

فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدراً وأرفعها شأناً وأسماها رتبة ، تتطلع إليه أرباب الهمم العالية وتتشوق إليه النفوس الفاضلة ، وهو مرآة يبصر بها المرء ما كان في غابر الأعصار ويرى ما دونه الأقدمون من العلوم والفنون وما صنعته يد الإنسان من الأعمال والآثار ، فيدعو ذلك إلى الاتعاظ والاعتبار والتحلي بمحاسن المحسنين والأخيار والتخلي عن مساوي المسيئين والأشرار ، فتهذب بذلك نفسه وتظرف شمائله وتصفو مرآة فكره ويستنير لبه وتتوسع دائرة معارفه وعلمه وتستقيم أموره وتنتظم أحواله وشؤونه .

فالحاجة إليه أمر بديهي لا يحتاج إلى سرد الشواهدوإقامة البراهين والدلائل ، وحسبنا ما قصه الله على رسوله الأعظم ﷺ من أنباء من مضى تثبيتاً لفؤاده وإرشاداً لأمته .

ومع شدة الحاجة إليه فإن فيه المهم والأهم ، فالأهم وقوف المرء على تاريخ بلدته التي ولد فيها والأمة التي ينتسب إليها والأماكن التي يجاورها والدولة التي هو من رعيتها .

والأمة التي تجهل تاريخ نشأتها وأحوال أسلافها وحوادث أوطانها وأسباب صعودها وهبوطها تظل هائمة في تيه التأخر هاوية في مهاوي الانحطاط ، تحيق بها الرزايا من كل صوب وتتقاذفها أمواج البلايا من كل جهة ، وتعبث بها أيدي الأغيار ولا حول لها ولا طول .

وعلى قدر معرفتها بتاريخ نشأتها وتضلعها بحوادث من تقدمها يكون رقيها وانتظامها ، إذا تقرر هذا فأقول :

لما كانت حلب الشهباء بلدتي فيها مسقط رأسي وبها مرتع أنسي وكان الكثيرون من فضلائها السابقين وعلمائها الماضين وضعوا لها تواريخ تنبيء بعظمة شأنها ورفيع مجدها ، وكانت الأيام قد شتتت شمل هذه التواريخ ونقلتها إلى غير هذه الديار خصوصاً الديار الغربية والمصرية ولم يبق منها في الشهباء إلا نزر يسير وقل من كثير لا يشفي علة و لا يروي غلة .

ووجدت غير واحد من أبناء وطني من ذوي النباهة وممن تلوح على أساريرهم مخايل النبالة تتطلع نفوسهم إلى معرفة تاريخ بلدهم والوقوف على مآثر أسلافهم ومفاخر آبائهم وما مر على الشهباء من أدوار التقدم والتأخر وما كانت عليه من الحضارة والعمران في العصور السالفة والأزمنة المتقادمة علماً منهم بالأمور التي قدمناها والحقايق التي أوضحناها .

رأيت من المتحتم عليَّ على قلة بضاعتي وكثرة شواغلي وتوزع بالي أن أضع لها تاريخاً يكشف النقاب عمن تولاها وينبىء عمن مضى من أعيانها ، فعزمت على ذلك بعد الاتكال على الله ذي الجلال المتفرد بالبقاء والكمال وشمرت عن ساعد الجد ووجهت لهذا المشروع الخطير ركائب الهمة ، مع علمي بصعوبة ذلك المرتقى وما يعترضه من المشاق ، إلا أن ذلك لم يثن من عزيمتي ولم يقصر من همتي ، وجعلت شعاري قول ذلك الشاعر العربي :

لأستسهلن الصعبَ أو أدركَ المنى فما انقادتِ الآمـالُ إلا لصابرِ

ولما قارب الكتاب الإتمام وكاد يفوح منه مسك الختام بعون الملك العلام وسمته بـ

إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء

وقسمته إلى مقدمة وقسمين ، وقسمت المقدمة إلى فصلين ، الفصل الأول في بيان ما وضعه فضلاء الشهباء من التواريخ الخاصة بها ، والفصل الثاني في بيان ما وضعوه من التواريخ العامة مرتباً ذلك على سني وفاة مؤلفيها ، وتكلمت على كل تاريخ بقدر ما أدى إليه بحثي ووصل إليه علمي ، وذكرت المكتبة التي يوجد فيها ذلك الكتاب قاصداً بذلك تسهيل السبيل إليه لمن رام الوقوف أو الحصول عليه :

القسـم الأول

وهو في ثلاثة مجلدات، ذكرت فيه من ملك حلب ومن تولاها من حين الفتح الإسلامي [فتح أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه] سنة ١٦ إلى نهاية سنة ١٣٢٥ وأخبار ملوكها وأمرائها والحوادث التي حصلت في زمنهم وما لهم من الآثار :

وقد وقفت فيه عند هذه السنة لأن السنة التي بعدها حصل الانقلاب العثماني حيث قام فيها نيازي وأنور وغيرهما من الضباط وثاروا مع الجيش العثماني في جهة سلانيك وقصدوا الأستانة وألزموا السلطان عبد الحميد الثاني إقامة حكومة دستورية وإعادة فتح المجلس النيابي الذي كان أغلقه قبل ذلك بسنين ، وحصل من ذلك الحين إلى السنة التي نحن فيها وهي سنة ١٣٤٢ حوادث كثيرة خطيرة يطول شرحها تصلح أن تجعل تاريخاً على حدة ، ووجدت أني إذا تتبعتها وتتبعت ما له علاقة بهذه الحوادث بالشهباء وما حولها أضعت ما ألزمت به نفسي من التنقيب والبحث دائماً عمّا يتعلق بالشهباء من حوادثها القديمة وتراجم أعيانها السابقين المبعثرة في بطون الكتب والأوراق المفردة الملقاة في زوايا الإهمال في الخزائن . وفي البحث عنها وعما جد من الحوادث الأخيرة إضاعة للجهيتن معاً ، فإذا وجدت أن البحث قد بلغ حده وانقطع الأمل من العثور على حوادث الشهباء القديمة وتراجم أعيانها السابقين وكان في الأجل فسحة وفي الوقت متسع وجهت الهمة إلى تدوين ما كان من الحوادث في الشهباء من سنة ١٣٢٦ إلى المدة التي نكون فيها وجعلته ذيلاً على حدة وبالله التوفيق .

خطتي في هذا القسم :

توخيت في هذا القسم خطة البسط ، فما رأيته من الحوادث في كتابين أخذت الأوسع منهما ، وإذا كان في الأقل زيادة مفيدة التقطتها وأضفتها إلى تلك لتكون الفائدة أتم . أردت بذلك أن يخرج الكتاب عن حد الفهرست التي يقل الاستفادة منها كما هو

شأن بعض ما رأيته من التواريخ المتقدمة ، لأن في البسط تتجلى الحوادث وتظهر أسبابها وتستبين نتائجها خصوصاً لمن كان ثاقب الفكر واسع المدارك .

وفي آخر ولاية كل ملك أو وال ذكرت ترجمته مع ماله من الآثار في هذه الديار ، ولم يشذ عني من هذه التراجم إلا القليل ، وقد تناول الكلام على هذا القسم ذكر حوادث البلاد التي كانت معدودة من معاملات حلب على عهد الدولة العثمانية .

والقسم الثاني

وهو في أربعة مجلدات ذكرت فيه تراجم أعيان الشهباء ما بين وزير وأمير كبير ومحدث وفقيه وشريف ووجيه وخطيب وطبيب وشاعر وأديب وتاجر وزعيم وغيرهم من ذوي المزايا وأرباب المناقب .

وقد ابتدأت فيه من أوائل القرن الثالث للهجرة لأني لم أقف على تراجم لأحد من أعيان الشهباء قبل ذلك ، ولعلك تجد لهم ذكراً في تاريخ ابن العديم ، وهذا القسم نقف فيه عند السنة التي ينتهي فيها الطبع إن شاء الله تعالى .

خطتي في هذا القسم :

توخيت في هذا القسم خطة البسط أيضاً ، فما رأيته من التراجم في كتابين أخذت أوسعهما وأضفت إليه ما وجدته من الزوائد المفيدة في الثانية ، وانتهجت منهج الاستقصاء بقدر الإمكان ، فلم يقع نظري على ترجمة لحلبي في كتاب من الكتب التي اطلعت عليها إلا ونظمتها في عقد هذا التاريخ ، لأن في هذا الاستقصاء يتسنى لبعيدي النظر استجلاء سير العلم والاجتماع في العصور السالفة فيقايسون بينها وبين هذا العصر أو بين كل عصر وعصر ، وسيظهر لنا الزمان في المستقبل أن الكثير من هؤلاء المترجمين لهم آثار علمية وأوقاف خيرية لم تذكر في تراجمهم إلى غير ذلك من الفوائد .

وقد التزمت أن لا أذكر إلا من كانت ولادته في الشهباء أو كان ممن توفي فيها ، وأما من نزلها ثم ارتحل عنها أو اجتاز بها فقد ضربت عنه صفحاً لأن ذلك مما يطول شرحه ويحتاج إلى مجلدات كثيرة ، وجعلت أعيان كل قرن على حدة مبتدئاً من القرن الثالث (لأني لم أقف على تراجم لأحد منهم قبل ذلك) إلى هذا العصر مرتباً لهم على مقتضى سني وفاتهم لتكون ترجمة المعاصر مقرونة مع معاصره تقريباً ، وسلسلة حوادثهم متصلة غير منفصلة أو قريبة الارتباط ببعضها ، وجدت أن ذلك أولى من ترتيبهم على حروف المعجم لأن ذلك يجعل من كان من أهل القرن الثالث مع من كان من أهل القرن الثالث عشر وهلمّ جرا فتختلط القرون ببعضها وتتبعثر سلسلة الحوادث فيصعب على القارىء التمييز ويحصل له من التشويش مالا مزيد عليه . وما كان مطبوعاً من مؤلفات علماء الشهباء أشرت إليه بذكره بين هلالين أثناء الترجمة أو في الذيل وأشرت إلى كثير مما هو غير مطبوع إلى المكتبة التي يوجد فيها هذا الكتاب ليسهل الاستحصال عليه لمن رام ذلك ، وهذا القسم في أربعة مجلدات تبلغ نحو ألفي صفحة ، وتنيف عدد التراجم فيه على ألف وخمسمائة ترجمة .

ومن مزايا تاريخي أني عزوت كل حادثة وكل ترجمة إلى الكتاب المنقولة عنه ، وما تجده غير معزو ، أو بعد كلمة أقول ، فإنه مما أملاه فهمي الفاتر وسطره قلمي القاصر ، قصدت بذلك أن يكون القارىء مطمئن البال وليسهل عليه الرجوع إلى الأصل عند اقتضاء الحال .

ويزيد ما تصفحته من الكتب عن ثلثمائة مجلد هذا غير المجاميع والأوراق المبعثرة التي ظفرت بها في الخزائن وما تلقيته من أفواه الرجال الذين أثق بهم ، ولا تسل عما تكبدته من المشاق وما تجشمته من المتاعب في سبيل الحصول على هذه المواد واقتناص شواردها وجمع شملها المتبدد حتى انتظم منها عقد هذا التاريخ وتراصفت مبانيه

وطالما واصلتُ ليلي بالسهرْ أرعى النجومَ لالتقاطيَ الدررْ
كأنَّ سلكَ عقدها المجره أضم فيه درةً فدره

على أن ما صرفته من ثمين الوقت وما لاقيته من المصاعب كنت أجده شراباً سائغاً وموراداً عذباً بجانب الغاية النبيلة التي كنت أقصدها وهي القيام بخدمة بلادي وأبناء وطني بكتاب يوقفهم على تاريخ أوطانهم ومآثر أسلافهم .

هذا وإني لا أدعي الإحاطة بجميع حوادث الشهباء وجميع تراجم أعيانها في هذه القرون مع أني لم آل جهداً في الحصول على ما أمكن الحصول عليه في الديار السورية لأن ذلك من الأمور المستحيلة ، وعلى فرض إمكان ذلك فإنه موقوف على الحصول على جميع التواريخ التي ذكرناها في المقدمة وعلى مراجعة غيرها من التواريخ التي لم نذكرها في كتابنا . ومن رام الزيادة على ما وضعته فعليه أن يشد الرحال إلى الديار المصرية والرومية والغربية فهناك يجد باب الزيادة مفتوحاً أمامه ، خصوصاً إذا كان من الواقفين على اللغات الغربية المشهورة ويكون بذلك قد قام بخدمة جلى لمدينة الشهباء والله الهادي إلى سواء السبيل .

وكنت أود وضع قسمين آخرين يكونان متممين لهذا التاريخ أذكر في قسم محلات حلب ، وما في كل محلة من المدارس والجوامع والمساجد والرباطات والخانات وغير ذلك من الأماكن والآثار القديمة ، وأتكلم على كل مكان فأذكر اسم بانيه وواقفه وما وقفه وما هو نوع ذلك الوقف وحالة ذلك المكان الآن وحالة وقفه ، والقسم الثاني أذكر فيه أعمال الشهباء من البلاد والقرى وأحوالها الماضية والحاضرة وما هناك من الآثار القديمة وبقاياها .

ولا ريب أني أكون بذلك أحسنت الصنع وأكملت الوضع ووفيت تاريخ الشهباء حقه ، غير أني وجدت أن هذا العمل العظيم ليس في وسعي أن أقوم به وحدي ويحتاج إلى عدة أشخاص من الواقفين على اللغات الأجنبية والآثار القديمة يقومون بسياحة طويلة في هذه الأماكن ، ويقتضي لهؤلاء نفقات كثيرة لا يقوم بها إلا الحكومة ، فاكتفيت بما وضعته واقتنعت بما جمعته ، ولعل الله يلهم أولي الأمر بالقيام بهذا العمل الجليل في مستقبل الأيام .

هذا وإني أبسط يد الرجاء إلى الناقد البصير أن يسبل ذيل العفو ويصفح عما يجده من التقصير والسهو ، فإن الكمال لله جل جلاله والعصمة لأنبيائه العظام ورسله الفخام .

يا ناظراً فيما قصدتُ لجمعهِ ... اعذر فإن أخا الفضيلة يعذرُ
واعلم بأن المرء لو بلغ المدى ... في العمر لاقى الموت وهو مقصّرٌ
فإذا ظفرتَ بزلة فافتح لها ... بابَ التجاوز فالتجاوز أجدرُ
ومن المحال بأن يُرى أحدٌ حوى ... كنهَ الكمال وذا هو المتعذرُ
غير النبي المصطفى الهادي الذي ... يفنى الزمان وفضله لا يحصرُ

والله أسأل وبنبيه الأعظم ﷺ أتوسل أن يجعل سعيي مشكوراً وعملي خالصاً مقبولاً ، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير . وقد آن أن أشرع بالمقصود بعون الملك المعبود . .

المقــدمــة

وفيها فصلان :

الفصل الأول : فيما وضعه فضلاء الشهباء من التواريخ الخاصة بها :

(١) الكلام على بغية الطلب

قال العلامة رضي الدين محمد بن الحنبلي المتوفى سنة ٩٧١ في خطبة تاريخه « در الحبب في تاريخ حلب» : « اهتم بأمر تاريخ الشهباء جماعة من النبلاء وشرذمة من الفضلاء ، فكان ممن أقدم وكتب لها تاريخاً حسناً فيما تقدم : المولى الصاحب صاحب المآثر والمناقب كمال الدين أبو حفص عمر بن أبي جرادة العقيلي المعروف بابن العديم الحلبي الحنفي ، وهو التاريخ الكبير الذي سماه « بغية الطلب في تاريخ حلب » وانتزع عنه تاريخه المسمى بزبدة الحلب في تاريخ حلب ، حتى انتزعنا منه وزدنا عليه سوى ما تلقيناه عنه سنة إحدى وخمسين وتسعماية مختصرنا الذي سميناه بالزبد والضرب في تاريخ حلب ، وكانت وفاته سنة ستين وستماية» . وقال في التاريخ المنسوب لابن الشحنة : « وقد رأيت جماعة من العلماء جمعوا تواريخ لبلادهم على أنحاء شتى بحسب اجتهادهم ولم أر لحلب تاريخاً مختصاً بذكرها منطوياً على بث محاسنها ونشرها ، وهي خليقة بذلك لأنها واسطة عقد الممالك وزمامها الذي من ملكه تصرف فيها بكل الأمور التي تريدها نفسه وتشتهيها ، إلا ما جمعه تاريخاً مستوعباً لها الإمام العلامة كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن العديم الحلبي الحنفي فأتقن وأجاد وأطال ، ولم يبيض منه إلا اليسير ، وأطال فيه من ذكر الروايات

والطرف فجاء معنى قليلاً في لفظ كثير ، ولم يسبقه أحد بتاريخ لها على الخصوص وسماه : « بغية الطلب بتاريخ حلب » رتبه على حروف المعجم ، كما أخبرني بذلك الأمير النقيب بدر الدين الحسيني نقيب السادة الأشراف في المملكة الحلبية رحمه الله أن مسودته كانت تبلغ نحو أربعين جزءاً كباراً والمبيضة تجيء كذلك ، لكن اخترمته المنية قبل إكمال الأمنية وتفرقت أجزاؤه قبل الفتنة التيمورية ، فلا تجد الآن منها إلا نزراً لم أقف منها إلا على جزء واحد بخطه فيه بعض حرف الميم وفيه ترجمة الملك العادل نور الدين محمود وترجمة جدي الأمير حسام الدين محمود شحنة حلب وبعض تراجم غيرها ، وهو عندي ، وبلغني أنه ذكر في الجزء الأول من خصائص حلب وفضائلها ومعاملاتها ومضافاتها » انتهى .

أقول : إن هذا التاريخ أجل تواريخ الديار الحلبية وأعظمها شأناً وهو بالسند على نسق كثير من تواريخ المتقدمين طالما رأينا من الأجانب الذين يفدون إلى الشهباء يبحثون عنه توصلاً إلى الحصول على نسخة أو قطعة منه .

قال صاحب مجلة المشرق في محاضرته التي ألقاها في حلب سنة ١٩٠٦ م ونشرها في السنة التاسعة من مجلته : وقد عني الأوربيون بنقل تاريخ كمال الدين إلى الإفرنسية ونشره لكثرة فوائده .

وهو مفقود منذ أعصار من هذه الديار ، غير أنا فيما سنتلوه عليك من القول والدلائل يظهر لك أنه قد بيض معظمه بل لم يبق منه في المسودة إلا النزر اليسير ، أعني من سنة ٦٤٠ إلى سنة ٦٦٠ وهي السنة التي توفي فيها المؤرخ رحمه الله خلافاً لما ذكره في الدر المنتخب من أنه لم يبيض منه إلا اليسير .

يوجد منه جلدان في مكتبة الأمة في باريس رقمهما «٢١٣٨» ابتدأ فيهما بترجمة إسحق بن منصور وانتهى بترجمة أمين بن عبد الله الأموي ، وهما محرران من نحو ٥٠٠ سنة ويوجد جزء منه في المتحف البريطاني في لوندره ، ويوجد منه جلد واحد في مكتبة أياصوفيا في عاصمة السلطنة العثمانية ورقمه «٣٠٣٦» وهو في «٥٢٥» صحيفة بخط حسن وعدة صحف في آخره ممحوة يتعذر قراءتها ، ويغلب على الظن أن هذا الجلد أول التاريخ .

ويوجد في إحدى مكتبات باريس قطعة منه ترجمها إلى الإفرنسية ؟ أبلوش وطبعت سنة ١٩٠٠ م في مطبعة « ليرو » في « ٢٥٥ » صحيفة استحضر نسخة منها أندره

ماركوبلي أحد الوجهاء الإيطاليين المتوطنين هنا ، وقد أطلعني عليها وترجم لي جانباً منها ، وحوت هذه القطعة المترجمة من سنة ٥٤٠ إلى سنة ٦٤٠ أعني إلى قبل وفاة المؤلف بعشرين عاماً ، وفي أول هذه القطعة ترجمة نور الدين الشهيد وذكر ما له من الآثار ، وفي آخرها ترجمة جمال الدولة إقبال الخاتوني حينما أتى إلى حلب .

وقد عني مؤرخو الإفرنسيين بجمع ما كتبه مؤرخو الإسلام عن الحروب الصليبية في عشرة مجلدات ضخمة مع ترجمة ذلك إلى اللغة الإفرنسية رأيتها في المكتبة اليسوعية في بيروت ورأيت منها سبعة عند الخواجه هانري ماركوبلي أحد وجهاء الإيطاليين المتوطنين في حلب ذكروا تحت عنوان (منتخبات من تاريخ حلب لكمال الدين) حوادث حلب من سنة ٤٩٠ إلى سنة ٥٤١ وهي السنة التي توفي فيها زنكي والد نور الدين الشهيد ، وهي في ٥٧ ورقة ، ثم ذكروا بعدها تحت عنوان (منتخبات من بغية الطلب) ترجمة إسماعيل بن بوري المتوفى سنة ٥٢٩ وترجمة إسماعيل بن نور الدين الشهيد المتوفى سنة ٥٧٧ وترجمة آق سنقر بن عبد الله المتوفى سنة ٤٨٧ وترجمة آق سنقر البرسقي المتوفى سنة ٥٢٠ وترجمة آلب أرسلان بن رضوان المتوفى سنة ٥٠٨ وهي في ١٩ ورقة ، وقد أتيت على ما في القطعتين في محالها مما له علاقة بحلب ، وقد وجدت فيهما من التفصيل مالم أجده في غيرهما ، وذلك مما يحتم علينا تطلب جميع هذا التاريخ والاستحصال عليه لعظيم فوائده .

وأخبرني الفاضل الرحالة خليل أفندي الخالدي من أهالي القدس الشريف في ٢٢ محرم الحرام سنة ١٣٢٨ حينما مر من الشهباء قاصداً ولاية ديار بكر معيناً قاضياً بها أنه وجد في دار الخلافة في المكتبة السلطانية في سراي طوب قبو نسخة كاملة من تاريخ ابن العديم بخط مؤلفه وأن المجلد الموجود في مكتبة أياصوفيا هو بخط المؤلف أيضاً وأنه كتب في آخر النسختين أنه سمع منه التاريخ شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن الدمياطي ، وعبد المؤمن هذا توفي سنة ٧٠٥ وهو من تلامذة ابن العديم ومن كبار أئمة الحديث ممن انتهت الرحلة إليه وله ترجمة حافلة في طبقات الشافعية لعبد الرحيم الأسنوي وهي موجودة في المكتبة الأحمدية بحلب .

والصلاح الصفدي حينما سرد أسماء التواريخ في مقدمة تاريخه ذكر[1] تاريخ ابن العديم ولم يقل إن شيئاً منه لم يزل في المسودة .

وقد عده الجلال السيوطي في أوائل تاريخه « بغية الوعاة في طبقات النحاة » من جملة التواريخ التي طالعها ، وقال إنه في عشرة مجلدات ، وقال في آخر تاريخه ما نصه :

وأما الشام فوقفنا على تاريخها لابن عساكر وأعظم به وتاريخ حلب لابن العديم ، ونقل عنه في ترجمة ابن خالويه النحوي ما نصه : رأيت في تاريخ حلب لابن العديم بخطه . قال : رأيت في جزء من أمالي ابن خالويه سأل سيف الدولة جماعة من العلماء بحضرته ذات ليلة : هل تعرفون اسماً ممدوداً وجمعه مقصور ؟ فقالوا : لا ، فقال لابن خالويه : ما تقول أنت ؟ قلت : أنا أعرف اسمين ، قال : ما هما ؟ قال : لا أقول لك إلا بألف درهم لئلا تؤخذ بلا شكر وهما صحراء وصحارى وعذراء وعذارى ، فلما كان بعد شهر أصبت حرفين آخرين ذكرهما الجرمي في كتاب التنبيه ، وهما صلفاء وصلافي : الأرض الغليظة وخبراء وخبارى وهي أرض فيها ندوّة ، ثم بعد عشرين سنة وجدت حرفاً خامساً ذكره ابن دريد في الجمهرة وهي سبناء وسبانى وهي الأرض الخشنة . اهـ .

قال صاحب فوات الوفيات في ترجمة المؤلف : إنه مات قبل إكمال تبييضه ، وقال العلامة اليونيني في الذيل في حوادث سنة ٦٦٠ في ترجمة المؤلف ما نصه : « وجمع لحلب تاريخاً أحسن فيه ما شاء ومات وبعضه مسودة لم يبيضه ولو تكمل تبييضه كان أكثر من أربعين مجلداً » .

(٢) الكلام على تاريخ حمدان بن عبد الرحيم الأثاربي المسمى بالقوت
(٣)وتاريخ ابن العظيمي
(٤) وتاريخ ابن حميدة المسمى بمعادن الذهب

صريح ما قدمناه عن در الحبب والدر المنتخب أن أول تاريخ وضع للشهباء هو بغية الطلب للكمال ابن العديم ، لكن قال في كشف الظنون : ومن تواريخ حلب كتاب أبي

(١) من مخطوطات المكتبة الأحمدية بحلب

عبد الله محمد بن علي العظيمي ومعادن الذهب لابن أبي علي يحيى بن حميدة الحلبي ، وهو تاريخ كبير وذيله له أيضاً ، وقال في الكشف أيضاً في صحيفة ٢٢٨ « تاريخ العظيمي هو أبو عبد الله محمد بن علي رتبه على السنين وله تاريخ حلب أيضاً » وقال الحافظ السخاوي في كتاب التوبيخ لمن ذم التاريخ[1] في الكلام على حلب مانصه «جمع تاريخها من سنة تسعين وأربعماية يتضمن أخبار الفرنج وأيامهم وخروجهم إلى الشام من السنة المذكورة وما بعدها أبو الفوارس حمدان بن عبد الرحيم بن حمدان التميمي الأثاربي ثم الحلبي سماه القوت » اهـ . وقال ياقوت في معجم البلدان في الكلام على الأثارب « وحمدان بن عبد الرحيم الأثاربي طبيب متأدب وله شعر وأدب وصنف تاريخاً كان في أيام طغندكين صاحب دمشق بعد الخمسماية اهـ» . وهذا يفيد أن أول من وضع تاريخاً للشهباء هو حمدان الأثاربي ثم ابن العظيمي ثم ابن حميدة ثم ابن العديم ، لأن العظيمي على ما سيأتي في ترجمته كانت ولادته سنة ٤٨٣ أربعمائة وثلاث وثمانين ، ولم يذكر المؤرخون تاريخ وفاته ويظهر أنها كانت في أواسط القرن السادس وابن حميدة كانت وفاته سنة ٦٣٠ وابن العديم كانت وفاته سنة ٦٦٠) فالعظيمي على هذا له تاريخان تاريخ خاص بالشهباء وتاريخ عام رتبه على السنين ولم أقف على اسمي هذين التاريخين .

وتراجم هؤلاء المؤرخين والذين بعدهم سنذكرها جميعها في القسم الثاني حيث نجد ترجمة كل واحد في السنة التي توفي فيها فراجعها ثمة .

(٥) الكلام على زبدة الحلب في تاريخ حلب

هو لكمال الدين أبي القاسم عمر بن أبي جرادة المتوفى سنة ٦٦٠ انتزعه من تاريخه الكبير بغية الطلب المقدم ذكره وهو مرتب على السنين إلى سنة ٦٤١ يوجد منه نسخة في بطرسبرج في المكتبة العمومية ونسخة منه في باريس في المكتبة العمومية أيضاً ورقمها (١٦٦٦) في ٢٦٨ صحيفة ، ويظهر أن هذه النسخة تامة وقد ترجم إلى اللغة الإفرنسية وطبع في باريس سنة (١٨٩٦) وسنة (١٨٩٨) ونشر في مجلة الشرق اللاتيني .

---

(١) من مخطوطات المكتبة الأحمدية

ويوجد قطعة منه في المكتبة الخديوية في القاهرة ، ففي فهرستها الأولى في حرف الزاي ما نصه : « نبذة من زبدة الحلب في تاريخ حلب لأبي حفص عمر بن أحمد بن هبة الله الشهير بابن العديم المتوفي سنة ٦٦٠ طبع حروف بباريس سنة ١٨١٩ ومعها مقدمة تاريخية ، وترجمة النبذة المذكورة باللغة اللاتينية لمسيوفيرتيك »
نس ج ان خ ١٠٦٧ ن ع ٢٤٥٨٠ اهـ .

انتحال الطبيب بيشوف لهذا الكتاب وتحقيق ذلك :

لما قرأت هذه العبارة في الفهرست كتبت إلى عبد اللطيف ابن أخي الشيخ محمد رحمه الله فاستنسخ هذه القطعة وأرسلها لي شكر الله سعيه ، وهي في ٤٨ صحيفة مفتتحة بمسير سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى حلب ومختتمة باستقرار ولاية حلب لسيف الدولة بن حمدان سنة ٣٣٦ ، وقد أدرجت تلك القطعة بتمامها في محالها كما ستراه .

وقد قابلتها على « تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء » للطبيب بيشوف الجرماني المطبوع في المطبعة الأدبية في بيروت سنة ١٨٨٠ م فوجدتهما متحدتين في العبارة ليس بينهما من الفرق إلا ما يقع عادة من النساخ من تحريف حرف أو إسقاط كلمة أو تقديم جملة وتأخير أخرى .

فظهر لي من هذا ظهور الشمس في رابعة النهار أن الطبيب المذكور ظفر بنسخة تامة من زبدة الحلب الذي نحن في صدد الكلام عليه فأخذها برمتها ونسبها إلى نفسه ، لأن توارد الخواطر على ٤٨ صحيفة مما يستبعده العقل جداً ، وليس ببعيد أن يكون ما ذكره من الحوادث بعده سنة ٦٤١ إلى سنة ٩٢٢ هو أيضاً لبعض مؤرخي الشهباء ظفر به فنسب الجميع إلى نفسه ، فعلى هذا لا يكون للطبيب المذكور في هذا الكتاب سوى المقدمة ، وأما الخطبة فإنها بلا ريب من إنشاء بعض أدباء الشهباء ، فقد حدثني من أثق به ممن يعرف الطبيب المذكور حق المعرفة وعاشره مدة غير قليلة أنه لم يكن من الواقفين على شيء من العلوم العربية ولا يعرف من العربية إلا اللغة العامية ، وهذا مما يزيدك برهاناً على أن الكتاب المذكور ليس له فيه شيء . نعم ما ذكره في آخر الكتاب من الكتابات والنقوش التي على أبواب الجوامع والمساجد والمدارس والخانات هو له ، وقد حدثنا من شاهده وهو يدور في

أزقة الشهباء ويقرأ ما كتب على تلك الأماكن ويحرر ذلك عنده ، وقد كانت وفاة الطبيب المذكور في أوائل هذا القرن ولم أقف على تاريخ مجيئه من بلاده إلى هنا .

وإقدام الطبيب المذكور على نسبة جميع الكتاب إلى نفسه وبخسه حق مؤلفه وناظم عقده أمر غريب في بابه جداً وهو خيانة كبرى للعلم لا ينبغي أن تصدر من أمثاله ، وكأنه ظن أن ذلك سيبقى تحت طي الخفاء والكتمان لا تظهره الأيام والأزمان ، ولو أنه عزا الكتاب إلى صاحبه وأدى الأمانة إلى أهلها وذكر ماله في هذا الكتاب من الزيادات لكنا من الشاكرين له والمقدرين لمساعيه .

ومما يجدر التنبيه عليه أن الطبيب المذكور لم يستقص في كتابه جميع الكتابات المنقوشة على أبواب وجدران الجوامع والمدارس والخانات والقساطل والمنارات والزوايا والرباطات والذي كاد يستقصي ذلك لجنة ألمانية حضرت إلى الشهباء سنة ١٣٢٦ مؤلفة من ثلاثة أشخاص يدعى أحدهم (صوبرنهام) والثاني (برنهارد سوفير) والثالث الطبيب (إرنست هارتز فيلد) بقيت تتجول في الشهباء وضواحيها مقدار ثلاثة أشهر ، إلا أنها لم تأخذ النقوش التي كتبت بعد الفتح السليمي ، وقد تعرفت بهؤلاء الثلاثة حينما أتوا إلى محلتنا (باب قنسرين) وأخذوا يقرؤون ما كتب على الحجر المدور الموضوع فوق باب المسجد المعروف الآن بمسجد الشيخ حمود الملاصق للبيمارستان الأرغوني ، فساعدتهم على قراءة ما كتب على ذلك الحجر بالخط الكوفي والكتابة مما يسر قراءتها وهي :

[بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عمر ابتغاء ثواب الله تعالى أبو المكارم الأسكافي عفا الله عنه سنة اثنين وأربعين وخمسماية] وحينما وقفوا عند البيمارستان الأرغوني وأخذوا في قراءة ما كتب على بابه رأيتهم يقرؤون ثم يراجعون ذلك في كتاب بيشوف فلحظوا مني أمارة التعجب من ذلك فقال لي أحدهم : إنا لا نثق كثيراً بما كتبه بيشوف لأنه قد لا يقف على كلمة حق الوقوف فيثبتها محرفة والاختبار أيد عندنا ذلك ، فلهذا نحن مضطرون إلى القراءة ثم المراجعة ليكون علمنا يقينياً لا ريب فيه .

ورافقت هؤلاء في يوم ذهبوا فيه إلى تربة الصالحين فتساعدنا على قراءة ما كتب فوق باب قبلية المسجد بجانب المقام الذي فيه أثر قدم كبيرة يقال إنها أثر قدم سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ، وبعد مشقة ووقت غير قليل تمكنا من قراءة ما نقش

عليه وهو أقدم كتابة عربية رأيناها في الشهباء بعد الكتابة التي على منارة الجامع الأعظم ، وهذا نصها :

السطر الأول : مما أمر بعمله ملك الملو

السطر الثاني : ك عضد الدولة أبو شجاع أحمد

السطر الثالث : ابن يمين أمير المؤمنين وجرى ذلك

السطر الرابع : على يد تاج الملوك أبي الغنائم في سنة

السطر الخامس : تسع وتسعين وأربع مائة

وأطلعني هؤلاء الثلاثة في اجتماع خاص في الفندق النازلين فيه على الجزء الثاني من كتاب آداب اللغة العربية في الألمانية تأليف (بروكلن) من مستشرقي الألمان فيه تراجم مؤرخي العرب مع الإشارة إلى المكتبة التي يوجد فيها شيء من هذه التواريخ واستخرجوا لي ماهو موجود من تواريخ الشهباء في المكتبات الأوربية ، وقد أثبت ما استخرجوه لي في محلاته ، والجزء الأول لم يكن معهم وأخبروني أن (هوار) من مستشرقي الإفرنسيين له كتاب في هذا الموضوع .

(٦) الكلام على حضرة النديم من تاريخ ابن العديم

هو مختصر من زبدة الحلب المتقدم ، قال في كشف الظنون : « وللشيخ طاهر بن حسن المعروف بابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٨٠٨ تاريخ منتزع منه أيضاً أي من زبدة الحلب سماه حضرة النديم من تاريخ ابن العديم هكذا وجدته » ثم رأيت في درة الأسلاك لوالده حسن بن حبيب أنه يقول في ترجمة الكمال ابن العديم « جمعت من تاريخه ومن خطه كتاباً لطيفاً سميته حضرة النديم » اهـ .

(٧) الكلام على الزبد والضرب في تاريخ حلب

الذي هو مختصر من زبدة الحلب أيضاً

هو لرضي الدين محمد بن الحنبلي صاحب در الحبب المتوفي سنة ٩٧١ ، قال في كشف الظنون : هو تاريخ مختصر انتخبه من زبدة الحلب وزاد من سنة ٦٦٠ إلى سنة

٩٥١ اهـ . وهذه العبارة تفيد أنه زاد على الأصل حوادث من سنة ٦٦٠ إلى سنة ٩٥١ وليس كذلك ، فإن المؤلف لم يزد على الأصل شيئاً بل وصل فيه إلى سنة ٦٤١ وقال في آخره : وإلى هذه السنة (أي سنة ٦٤١) انتهى ما وجدته من نسخة الأصل وهي نسخة منقولة من نسخة كتبت من خط مؤلفها المولى الصاحب كمال الدين أبي حفص عمر بن أبي جرادة .

نعم زاد بعض حوادث في ضمن هذا المختصر لم تذكر في الأصل كما قال في خطبة كتابه ، وتأليفه هذا المختصر كان سنة ٩٥١ لا أنه زاد من سنة ٦٦٠ إلى سنة ٩٥١ كما توهمه صاحب الكشف . والذي أوقعه في هذا السهو غموض عبارة در الحبب التي قدمناها في ابتداء الكلام على بغية الطلب .

يوجد هذا المختصر في بطرسبرج عاصمة روسيا ورقمه (٢٠٣) وفي المتحف البريطاني في لوندرة ورقمه (٣٣٤) وفي أكسفورد ورقمه (٨٣٦) وفي المدينة المنورة في مكتبة عارف حكمة بك الشهيرة في ضمن مجموع رقمه (٥٩) ، وقد ذكره صاحب مجلة المقتبس في رحلته إلى المدينة المنورة المنشورة في مجلته ، وعلى إثر ذلك أرسلت فاستنسخته وهو في ثلاث كراريس تنتهي حوادثه إلى سنة ٦٤١ كما قدمنا ، وقال في آخره : وكان الفراغ من انتخابه في يوم الجمعة المبارك السابع والعشرين من ربيع الآخر من شهور سنة إحدى وخمسين وتسعماية اهـ . وقد أدرجنا جميع ما فيه في القسم الأول كما ستراه .

[**تنبيه**] : في فهرست مكتبة عارف حكمة بك الكائنة في المدينة المنورة ما نصه : (نمرة ٩٤ تاريخ حلب مجهول في ورقة ١٤) وقد استنسخت هذه الأوراق فإذا هي ليست تاريخاً لحلب بل هي موشح للشيخ أبي الفتوح علي الميقاتي الحلبي المتوفى سنة ١١٧٤ ذكر فيه منتزهات الشهباء ومدح فيها بعض وجهائها في عصره ، قال في مطلعه :

حلب الشهبا وهاد النظر ومهاد قد تعالت عن نظير
بينها والمدن حسن من نظر قال بالسبق لها دون النظير

ثم شرحه في عشرة أوراق ، وقد نبهنا عليه لئلا يغتر به من يقرأ تلك الفهرست

(٨) الكلام على الدر المنتخب لابن خطيب الناصرية

قال في در الحبب : ثم ذيل عليه (أي على بغية الطلب) العلامة الأوحد الحافظ قاضي القضاة علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن سعد الطائي الجبريني ثم الحلبي الشافعي المشهور بابن خطيب الناصرية فوضع تاريخه المسمى بالدر المنتخب في تاريخ حلب ، وكانت وفاته بحلب سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة ، ولم يخلف بعده بها مثله من الشافعية كما ذكره الحافظ السخاوي في تاريخه الموسوم بالضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، وقد ضمن تاريخه هذا تراجم أعيانها ورتبهم على حروف المعجم لتسهيل بيانهم وبيانها ، ولما وصل إلى حلب حافظ العصر الشهاب ابن حجر العسقلاني المصري القاهري الشافعي سنة ست وثلاثين وثمانمائة طالع هذا التاريخ من المبيضة ثم من المسودة وألحق فيه أشياء كثيرة ، كما تعرض لهذا في ديباجة تاريخه المشهور بأنباء الغمر بأبناء العمر وأثنى على صاحبه وأفاد أن كلاً منهما سمع من صاحبه اهـ .

أقول : وهو في مجلدين يوجد نسخة منه في برلين ورقمها (٩٧٩١) وفي مدينة كوتاه (غوطا) ورقمها (٩٧٧٢) وفي لوندرة ورقمها (٤٣٦) ويوجد الجزء الثالث في مكتبة الأمة في باريس ورقمه (٢١٣٩) ابتدىء فيه بترجمة عبد الكريم بن أحمد المصري الأصل واختتم بترجمة محمد بن تمام بن يحيى الحميري وهو في ١٥٠ ورقة ، ويغلب على الظن أنه بخط المؤلف .

وفي سنة ١٣٣٩ هـ ١٩٢١ م حضر إلى الشهباء (لويس ماسينيون) المستشرق الإفرنسي وأتيح لنا الاجتماع به وتذاكرنا معه في عدة مسائل تتعلق بالآثار الشرقية فانساق معنا الحديث (والحديث شجون) إلى ذكر تواريخ حلب وما هو موجود منها في مكتبات باريس ، وذكرنا له هذا الجزء وأعربنا له عن رغبتنا في الاستحصال عليه ، فلما عاد إلى باريس تفضل بأخذه بالمصور الشمسي (الفوتوغراف) وأرسله إلينا .

فنحن نصوغ له عقود الثناء ونشكره على صنعه الجميل مزيد الشكر ، وسنقتطف ما في هذا الجزء من التراجم التي ليست عندنا ونثبتها في مكانها على شرطنا المتقدم .

وفي مكتبة (لالهلي) في الأستانة ورقمها (٢٠٣٦) و٢٠٣٧ وفي مكتبة خالص بك مستشار الخاصة في الأستانة وهي مكتبة شهيرة ملك لصاحبها المذكور ويغلب على الظن أنه توفي من عهد قريب ، وكان في مكتبة الأحمدية بمدينة حلب نسخة في جزئين الثاني منهما مطموس الآخر كما ذكره في فهرست المكتبة المذكورة استعارها على ما بلغني بعض العلماء منذ خمس وعشرين سنة ولم يعدها إلى الآن فعسى أن يلهمه الله إعادتها إلى مكانها فيكون قد أدى الأمانة إلى أهلها وحفظ هذا الأثر المهم من التشتت والضياع ، وهذا التاريخ أحد مواد الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، والضوء اللامع موجود في المكتبة الظاهرية في دمشق وقد استنسخنا منه ما فيه من تراجم الحلبيين .

وقال جرجي زيدان في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) في الجزء الثالث منه في صحيفة ١٧١: إن الدر المنتخب لابن خطيب الناصرية هو مختصر من بغية الطلب لابن العديم ، وهذا وهم منه بل هو ذيل له كما عرفت .

وفي فهرست المكتبة الخالدية في القدس الشريف في قسم التراجم مجموعة فيها تراجم وأدبيات بخط جامعها ابن خطيب الناصرية ورقمها (٣١) فيها مقدار ١٥٠ ترجمة وخطها سقيم .

(٩) الكلام على المنتخب من الدر المنتخب

اختصر الدر المنتخب في مجلدين الإمام العلامة الشيخ أحمد بن محمد الشهير بالملا المتوفى سنة ١٠٠٣ وولده الشيخ محمد المتوفى سنة ١٠١٠ ، اختصر الشيخ أحمد المجلد الأول وولده المجلد الثاني ، يوجد المجلد الأول عند بعض أصحابنا في حلب وهو محرر بخط الشيخ محمد الملا ابن الشيخ أحمد المتقدم الذكر يبتدىء أوله بترجمة إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الله المعروف بابن الرعياني وفيه ٦٨ إبراهيم ، ثم ترجمة (أبغا) ابن هولاكو ثم ١٩٨ أحمد ثم من اسمه إسماعيل وهكذا ، وينتهي آخره بترجمة ست النعم بنت يوسف بن محمد ابن النصيبي المتوفاة سنة ٦٨١ وهو محرر سنة ١٠٠٩ قال في آخره : يتلوه باب الشين المعجمة .

(وعلى هامش النسخة ما نصه) : لقد انتفع واستفاد كاتب هذه الأحرف ومحرر هذه المداد وبلغ من فوائد هذا التاريخ الجامع المراد ، وهو مما انتخبه العلامة جامع الفضائل الشيخ أحمد بن الملا محمد الشهير بابن الملا والد كاتب هذه الكلمات وشيخه وأستاذه وهو من اختصاره بخطه إلى نحو النصف ، ثم إن النصف الثاني أتمه وأكمله بخطه بعده شقيقي العلامة ورفيقي الملا محمد ابن شيخ الإسلام المختصر المذكور ... في ذلك بالنسبة إلى الأصل ، فالله تعالى يجزل أجورهم ويوفر بمساعيهم المشكورة حبورهم ويملأ بالسرور قبورهم ويمن علينا بما عليهم مَنَّ وتفضل ، قاله وكتبه إبراهيم بن أحمد الملا محمد العباسي الشافعي الحلبي حرر ذلك سنة ثمان عشرة وألف . اهـ . وقد توج هذه العبارة بلفظ المنتخب من الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب لابن خطيب الناصرية . '

وقال في مقدمته : قال عفا الله عنه : وبعد فلما كان حب الوطن يعد من الخلق الحسن وكانت حلب وطني عظيماً قدرها جليلاً أمرها مع حصانة حصنها وكثرة أعمالها ومدنها وطيب نقعها وصحة تربتها ورقة هوائها وعذوبة مائها وغزارة فضلها وكثرة العلماء والشعراء من أهلها ووفور الطارش من العلماء عليها والواردين من الأعيان والفضلاء إليها وقد جمع تاريخاً مستوعباً لذلك الإمام العلامة أبو القاسم كمال الدين عمر بن أحمد ابن العديم الحلبي الحنفي رحمه الله فأتقن وأجاد وأطال ولم يسبقه أحد إلى تاريخ لها على الخصوص وسماه بغية الطلب في تاريخ حلب (ثم قال) : أحببت أن أذيل عليه ذيلاً مختصراً وقبل الخوض في ذكر الأسماء أصدره بفصول الفصل الأول في حلب وأسمائها ومن بناها ، الثاني في ذكر حدودها وأعمالها ، الثالث في عظم فضلها. وخصائصها ، الرابع في فتحها ، الخامس في نهرها وقناتها ومساجدها ومعابدها (إلى أن قال) : ثم أذكر منها ومن بلادها ومن أخبارها من العلماء والرواة والفضلاء والرؤساء ومن كان بها من الصالحين والعباد ومن نزل بها واجتاز بها أو بمعاملتها من الشعراء وأرباب الإنشاء ومن دخلها أو ملكها من السلاطين أو وليها من الأمراء والنواب والقضاة ومن وفد إليها أو إلى معاملتها من فضلاء غيرها من البلاد ممن

كانت وفاته من سنة ثمان وخمسين وستماية وهي السنة التي أخذ هولاكو فيها حلب وخربها . الفصل الأول في حلب وأسمائها الخ .

يوجد مثل هذا الجزء في مكتبة داماد إبراهيم باشا في الأستانة في مجلد واحد ورقمه [٩٢٢] وهو في ٢٤٢ ورقة أو ٤٨٤ صفحة في كل صفحة ٢٥ سطراً بالقلم الفارسي المتوسط ، وهو منقول عن الجزء الذي هو بخط ابن المؤلف الموجود في حلب كتب في آخره : أنهاه كتابة واختصاراً أفقر عفو الله الصمد محمد محمد بن أحمد بن محمد الملا الشافعي العباسي الحلبي في التاسع من ذي القعدة سنة ١٠٠٩ أحسن الله سبحانه ختامها ، يتلوه باب الشين المعجمة نقله من خط المختصر له الفقير ابن قاسم القاسمي الحلبي غفر الله له ولوالديه . اهـ .

قال جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية في الجزء الرابع في كلامه على المستشرقين في ترجمته (فريتاغ) الألماني : إن من جملة ما نشره كتاب المنتخب من تاريخ حلب . اهـ . ولم يذكر مؤلفه ويغلب على الظن أنه غير الذي نحن في صدد الكلام عليه .

(١٠) الكلام على كنوز الذهب لموفق الدين أبي ذر

قال في در الحبب : ثم ذيل عليه [أي الدر المنتخب] الشيخ الإمام المحدث موفق الدين أبو ذر أحمد بن الحافظ المتقن برهان الدين إبراهيم بن محمد بن خليل الحلبي الشافعي سبط ابن العجمي وأنشأ تاريخه الموسوم [بكنوز الذهب في تاريخ حلب] وضمنه ذكر الأعيان والحوادث معاً ، وشنف بذكر اشتمالاتها مسمعاً ، وخلع به على قوم خلعاً ، ولم ينكل في حق آخرين عن الضرب مسمعاً ، واضعاً للشيء في محله حالَيْ عقده وحله وجبره وفله في كثير الكلام وقله ، وقد جزم في موضع من تاريخه هذا بما هو حق وصدق من أن موضوع علم التاريخ الإخبار عن الأخيار والأشرار بصدق ، وكانت وفاته بحلب سنة أربع وثمانين وثمانماية . اهـ .

أقول : إن هذا الكتاب نادر الوجود ولعل السبب في ذلك أن المؤلف كان يضن بكتبه كما يضن بكتب والده كما ستقرأه في ترجمته فلم تنتشر بين الناس بسبب ذلك .

وكتب لي الفاضل الوجيه سعادة أحمد تيمور باشا المصري أن في مكتبته من هذا الكتاب جزئين من مجلد واحد كلاهما به خروم ، أحدهما في حوادث حلب ومن تولاها وآخر في خططها ودورها ومساجدها ، ويتخللهما بعض تراجم لأعيانها ، غير أن النقص الذي

بهما شوهما وذهب بالفائدة في مواضع فيهما . ورأيت المجلد الأول منه عند صديقنا الفاضل الشيخ كامل الغزي مؤلف نهر الذهب في تاريخ حلب ، وهو بخط عدة من النساخ والكثير من تلك الخطوط منها ما يتعسر قراءتها ومنها ما يكاد يتعذر ، وهو غير مرتب ويظهر أنه مسودة المؤلف شيء منه بخطه وشيء بخط تلامذته ، وفي أوله مقدمة طويلة لكن معظمها مما لا تعلق به بالتاريخ ولا فيما هو في صدده من تأليف تاريخ لوطنه ، وقد اقتضبنا منها ما يأتي ، قال في أوله :

أما بعد حمداً لله الذي حكم بالموت على الغني والفقير والمأمور والأمير والكبير والصغير وأشهد أن لا إله إلا الله العلي الكبير والصلاة والسلام على سيدنا محمد السراج المنير سيد الأنام الذي كان بموته تعزية للخاص والعام وعلى آله وصحبه الكرام ما غرد القمري وناح الحمام لفقد إلفه بالحمام وسلم تسليماً كثيراً .

وهل عدلت يوماً رزية هالك ... رزية يوم مات فيه محمد
وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يُفقد

ثم قال بعد أن ذكر ما تجمع عنده من التواريخ الخاصة والعامة : فلما اجتمعت عندي هذه الأوراق التي التقطتها من هذه التواريخ المتعلقة بحلب ومعاملاتها صرت إذا أردت أن أرجع إلى لطيفة عسر عليّ الكشف فأردت ترتيبها وتهذيبها وتذهيبها وكنت قد شرعت في الذيل على تاريخ شيخنا المشار إليه وعلمت أن الذي يطالع هذا الذيل ربما يتشوق معه إلى النظر في معرفة من بنى حلب وتراجم أهلها وملوكها الذين سلفوا وتراجم أوليائها وما قيل في نهرها وجبلها وقلعتها إلى غير ذلك فيشق عليه عدم ذكر ذلك وهو من غير شرطي لذلك ، وتذكرت قول الأرجاني :

إذا ما درى الإنسان أخبار من مضى ... فتحسبه قد عاش من أول الدهر
وتحسبه قد عاش آخر عمره ... إلى الحشر إن أبقى الجميل من الذكر
وقد عاش كل الدهر من عاش عالماً ... حليماً كريماً فاغتنم أطول العمر

فقدمت بين يدي ذيلي مقدمة تتعلق بذلك تشتمل على أربعة عشر فصلاً نقلتها من التواريخ المقدم ذكرها إلخ .

(١١) الكواكب المضية

هو لأبي ذر المذكور ذكره ابن ميرو في تاريخه ونقل عنه ، قال بعد أن ترجم عامراً المصري المقري وذكر (المدرسة الحلاوية) : قال الحافظ أبو ذر بن البرهان في تاريخه الكواكب المضية : هذه المدرسة تجاه باب الجامع الكبير إلخ .

وعندي أربعة كراريس فيها حوادث معظمها مما يتعلق بالشهباء كنت نقلتها عن بعض المجاميع ، وهي على ما يظهر لبعض علماء حلب ، قال في أولها : هذا ما اخترت تعليقه من تاريخ الكواكب المضية في الذيل على تاريخ ابن خطيب الناصرية ، ولم يذكر اسم المختار لهذه الحوادث من التاريخ المذكور ولم يذكر صاحب الكشف هذا التاريخ ، ولا ذكر له في ترجمته ، وقد نقلت ما في هذه الكراريس من الحوادث والتراجم المتعلقة بالشهباء في محلها .

(١٢) الكلام على در الحبب لرضي الدين الحنبلي

هو لمحمد بن إبراهيم بن يوسف المشهور بابن الحنبلي المتوفى سنة ٩٧١ ، قال في خطبة تاريخه : ثم لم أظفر بذيل على هذا الذيل [يشير إلى تاريخ كنوز الذهب المتقدم ذكره] ولا سال وادي تاريخ حلب بعد ذلك السيل ، إلى أن قال : فشددت العزم وشددت الحزم ووجهت جواد الطلب إلى وضع تاريخ لأعيان حلب ممن وفقت لضبط أخبارهم ووفياتهم دون من لا اكتراث بفوت خبرهم ووفاتهم ، إلى أن قال : وشرطي في تاريخي هذا ذكر من عاصرتهم من أهلها أو عاصرت من عاصرهم وذكر من دخلها من غير أهلها ممن عاصرتهم أو عاصرت من عاصرهم ، وذكرُ من لم أعاصرهم ولا عاصرت من عاصرهم من الفريقين نادر إلا لأمر دعا إلى ذلك وحث على ما هنالك . اهـ .

أقول : ومجموع ما فيه من التراجم [٦٣٣] ترجمة وهو ليس خاصاً بأعيان الشهباء بل فيه تراجم للكثير من نزلائها من الحمويين والحمصيين والطرابلسيين والدمشقيين والحجازيين والمصريين والمغاربة والروميين والعراقيين والهنديين ، ولم يقتصر فيه على الملوك

والأمراء والعلماء والشعراء والقضاة والأطباء والتجار والخطباء بل تعدى إلى ذكر الظرفاء في نوادرهم والحذاق في صناعتهم ، وحبذا لو كان نسج على منواله جميع المؤرخين ، وإذا كانوا لم يدونوا الصناعات التي كانت في هذه البلاد فلا أقل من أن يترجموا المجيدين لها والبارعين فيها تنويهاً بشأنهم وتخليداً لذكرهم ، وبما قدمناه يعلم ما في كلام النجم الغزي الذي ذكره في خطبة تاريخه الكواكب السائرة حينما وقف على هذا التاريخ من النظر .

يوجد منه نسخة في مكتبة الأمة في باريس ورقمها [٢١٤٠] و [٢١٤١] و [٢١٤٢] و [٢١٤٣] أي في أربعة مجلدات صغار ،ونسخة في مكتبة (يكي جامع) في الأستانة ورقمها [٨٥٠] وهي محررة سنة ٩٧٦ أي بعد وفاة المؤلف بخمس سنوات ، ونسخة في مكتبة نور عثمانية في الأستانة أيضاً ورقمها [٣٦٩٣] .

وقال جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية في الجزء الثالث منه في صحيفة ٣٠٠ : هو موجود أيضاً في [غوطا] و[فينا] و[المتحف البريطاني] و [أكسفورد] . اهـ .

ويوجد نسخة في الإسكندرية في مكتبة مجلسها البلدي اشتراها المجلس من مدة عشر سنوات مع مكتبة خطية نفيسة من أحد علماء الشهباء .

ويوجد منه في حلب أربع نسخ الأولى في مكتبة المدرسة الحلوية معظمها بخط الشيخ إبراهيم الملا أحد علماء القرن الحادي عشر وقد كانت ناقصة بعض أوراق أكملتها بخطي .

الثانية في مكتبة المرحوم بشير أفندي الأبري أحد وجهاء الشهباء .

الثالثة في مكتبة المرحوم محمد أسعد باشا الجابري أحد وجهاء الشهباء وهذه جميعها بخطي .

الرابعة في مكتبتي وهذه كانت لمحمد أسعد باشا المذكور استعرتها منه ونقلت عنها نسخة جميعها بخطي، ولما رآها استحسنها ورغب في أخذها بدل نسخته ، وقد قابلتها على النسختين الأوليين فصارت أصح نسخة من هذا التاريخ إلا أنه من حرف الغين إلى آخر الكتاب النسخة التي عندي والتي في مكتبة المرحوم بشير أفندي ناسخهما واحد وعدد صفحات نسختي ٥٥٩ صحيفة بقطع متوسط .

وسنأتي على ما فيه من تراجم الحلبيين في القرن التاسع والعاشر على شرطنا المتقدم .

(١٣) شفاء السقيم بآيات إبراهيم
لمحمد بن أحمد بن الملا المتوفى سنة ١٠١٠

نسب صاحب كشف الظنون هذا التاريخ إلى إبراهيم بن أحمد بن الملا ، وهذا سهو منه فهو لأخيه محمد بن أحمد ، ففي ترجمة محمد بن الملا المذكورة في خلاصة الأثر مانصه : (ثم إن محمداً تصدر للتأليف فكتب تاريخاً لحلب تعرض فيه لمن حكم فيها من حين فتحها الصحابة إلى زمن إبراهيم باشا الملقب بالحاج إبراهيم أجاد فيه وأنبأ عن اطلاع عظيم . اهـ).

يوجد نسخة منه عند الشيخ كامل أفندي الغزي لكني لم أقف عليها ولم أعثر في الفهارس على نسخة غيرها . وإبراهيم باشا المذكور تولى حلب سنة ١٠٠٨ كما سيأتي .

(١٤) إنعاش الروح بمآثر نصوح لإبراهيم بن الملا

قال في الكشف في صحيفة (١٦٠) : إنعاش الروح بمآثر نصوح للبرهان إبراهيم ابن أحمد المعروف بابن الملا الحلبي المتوفى بعد سنة ثلاثين وألف بقليل رسالة في وقائع نصوح باشا حينما كان والياً على حلب مع عسكر الشام ألفها سنة (١٠٢٠) وسلك فيها طريقة الإنشاء والسجع . اهـ .

نصوح باشا كان والياً على حلب من سنة ١٠١١ إلى سنة ١٠١٣ كما في السالنامه .

(١٥) الكلام على الدر المنتخب

(المنسوب لمحب الدين أبي الفضل ابن الشحنة المتوفى سنة ٨٩٠ وتحقيق)
(أنه إلى أبي اليمن بن عبد الرحمن البتروني المتوفى سنة ١٠٤٦)

المشهور بين الناس أن هذا التاريخ لابن الشحنة المذكور ، والناظر فيه لأول وهلة يظن هذا الظن وذلك لما يراه على ظاهر نسخه من نسبته إليه .

لكن من يقرأ الخطبة الثانية ويتتبع بقية الكتاب يجزم بفساد ذلك الظن ونصها بعد حذف الألقاب والأوصاف (أما بعد فهذه نبذة انتخبتها من كتاب نزهة النواظر في روض المناظر تأليف . مولانا أبي الفضل محمد بن الشحنة الحلبي) فهذه العبارة صريحة في أن الدر المنتخب ليس لأبي الفضل المذكور ، ثم إن نزهة النواظر الذي يقول إنه انتخب هذه النبذة منه ليس تاريخاً خاصاً للشهباء بل هو تاريخ عام مقسم إلى تسع طبقات بعدد القرون التسعة في كل طبقة ذكر حوادثها المشهورة ووفيات أعيانها المشهورين كما سيأتي الكلام عليه ، وقد ظهر لي بعد تتبع الكتاب والبحث أن التاريخ المذكور هو لأبي اليمن بن عبد الرحمن البتروني المتوفى سنة ١٠٤٦ التقطه من كتاب نزهة النواظر لأبي الفضل محمد بن الشحنة ، غير أنه أبقى العبارات التي عني بها ابن الشحنة نفسه على حالها فنشأ منها هذا الظن .

ومما يدل على أن الكتاب لأبي اليمن البتروني قولهُ في عدة مواضع : يقول كاتبه أبو اليمن البتروني ، وقال في الكلام على الإسكندرونة (حاشية لكاتبه وجامعه) ونقلهُ في عدة مواضع عن الملا وعن تاريخ الجنابي ، وهذا كانت وفاته سنة ٩٩٧ كما ذكره صاحب الكشف ، وابن الملا توفي بعد الألف كما قدمنا آنفاً. وأما ابن الشحنة فكانت وفاته ٨٩٠ وأيضاً لو كان الدر المنتخب لأبي الفضل بن الشحنة لذكره رضي الدين محمد بن الحنبلي المتوفي سنة ٩٧١ في تاريخه در الحبب في ترجمة أبي الفضل المذكور ويستبعد أن يسهو عنه مع قرب العهد والقرابة التي بينهما .

ثم إن الخطبة الأولى هي خطبة [الدر المنتخب لابن خطيب الناصرية المتقدم ذكره] مع تحريف [راجع خطبة مختصرة لابن الملا] نقلها جامع الكتاب أبو اليمن أو غيره من النساخ ووقع في هذه الخطبة ذكر الدر المنتخب فظن الناسخ أن هذا الاسم هو اسم لهذا التاريخ أيضاً وسماه به واشتهر التاريخ بتاريخ ابن الشحنة ، وتبع هذا الساهي أولئك الساهون ، والحقيقة هي ما ذكرناه والله أعلم .

قال جرجي زيدان [في الثالث من تاريخ آداب اللغة العربية في صحيفة ١٨٤] : منه نسخ في ليدن وبرلين وفينا وبطرسبورج ونور عثمانية ، وطبع في بيروت سنة ١٩٠٩ وفيه وصف آثارها ومدارسها فضلاً عن التاريخ . اهـ .

أقول : ويوجد من هذا الكتاب نسخة عندي بخط يدي استنسختها قبل أن يطبع عن نسخة كانت عند الشيخ نجيب النعساني أحد مجاوري مدرسة الشعبانية ثم صححتها على نسخة قديمة الخط عند إبراهيم أفندي المرعشي من وجهاء الشهباء ، ويوجد منه نسخة عند أحمد أفندي الحسبي ، ونسخة عند المرحوم محمد أسعد باشا الجابري استنسخها عن هذه ، ونسخة في مكتبة المرحوم محمود أفندي الجزار الموضوعة في الجامع الكبير في حجرة الفتوى ، ونسخة حديثة عهد بالكتابة في مكتبة الخواجه أندره ماركوبلي ، ونسخة في مكتبة المجلس البلدي بالإسكندرية وفي المكتبة السلطانية بمصر وفي غيرها من دور العلم ثمة .

وطبع هذا التاريخ في بيروت في المطبعة الكاثوليكية لليسوعيين سنة ١٩٠٩ م ووقف على طبعه وعلق عليه بعض الحواشي الأديب يوسف بن إليان سركيس الدمشقي وكتب في آخره ما نصه :

كان الاعتماد في نشر هذا الكتاب على أربع نسخ خطية الأولى في خزانة دير الشرفية بجبل لبنان كتبت سنة ١١٧٩ هـ ، الثانية في خزانة أفرام رحماني بطريرك الطائفة السريانية وهي التي أشرنا إليها بحرف (ب) كتبت سنة ١١٥٨ ، الثالثة هي نسخة قديمة لا ذكر لتاريخ كتابتها موجودة عند الكتبي الشهير إبراهيم صادر وأشرنا إليها بحرف (ص) ، الرابعة في خزانة المكتبة الشرفية في دير الآباء اليسوعيين وهي حديثة أشرنا إليها بحرف (ي) اهـ . ومما يجدر التنبيه عليه ما قاله ناشر هذا الكتاب في مقدمته ونص عبارته : ومما جاء في مقدمة أبي اليمن البتروني قوله إنه نقل نبذة من كتاب نزهة النواظر في روض المناظر لأبي الفضل محمد بن الشحنة فاستغربنا هذا القول لأننا لم نقف على كتاب له بهذا الاسم ، وما نعرفه أن أبا الوليد محمد بن الشحنة ألف كتاباً سماه روض المناظر في أخبار الأوائل والأواخر وهو تاريخ عام لا علاقة له بتاريخ حلب اهـ . وكأنه ظن أن نزهة النواظر لأبي الوليد أيضاً وهذا وهم منه ، فإن روض المناظر المطبوع على هامش الكامل لابن الأثير هو لمحمد بن الشحنة المتوفى سنة ٨١٥ الملقب بأبي الوليد ونزهة النواظر هو لولده محمد الملقب بأبي الفضل المتوفى سنة ٨٩٠ وهو كالشرح لتاريخ والده وسيأتي الكلام عليهما ، وقد جاءت هذه الشبهة للناشر من اتحاد اسمي المؤلفين وقد بينا تاريخ وفاة كل منهما وأنهما مفترقان باللقب فزالت الشبهة ، وقال ناشره أيضاً : ولم أكن لأجهل وعورة المسلك إلى الغاية التي توخيتها من

تقديم الكتاب إلى القارىء خالياً من كل الشوائب خصوصاً وأن الفريدة التي تداولتها الأيدي تكاد لاتكون نسخة منها كاملة صحيحة فبعضها ناقص في أوله وبعضها في آخره ، هذا فضلاً عن حوادث وأخبار عديدة قد أهملها النساخ ، وأغلاط جمة لم ينتبهوا إليها وأخصها تحريفهم الأسماء . اهـ .

أقول : إنه بهذا الاعتراف قد أنصف غاية الإنصاف ، فالكتاب لم يخرج خالياً من الأغلاط والتحريف لأسماء الأماكن ، وكثير مما أثبته في الهامش هو الصواب وما أثبته في الداخل هو الخطأ ، يعرف ذلك من أكثر من مطالعة هذا التاريخ وكان من أبناء هذه البلاد الواقفين على أسماء أماكنها . وعلى كل فنحن من الشاكرين له سعيه في طبعه تعميماً لنفعه .

(١٦) الكلام على معادن الذهب لأبي الوفا العرضي المتوفى سنة ١٠٧١

قال في الكشف : « ومعادن الذهب في الأعيان الذين تشرفت بهم حلب لابن عمر العرضي ذكره الشهاب في الخبايا » اهـ .

أقول : وهو ذيل لدر الحبب ترجم فيه أعيان عصره ومعظمه على طريق السجع يوجد منه نسخة في برلين ورقمها (٩٤٧٦) .

ووقع للمحبي صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر قطعة منه التقط منها تراجم لزمته كما صرح به في خطبة كتابه .

ويوجد قطعة منه في نحو خمس كراريس عند الشيخ كامل الغزي وهي من الأول إلى حرف الخاء . أول الكتاب : الحمد لله ذي البقاء المطلق والغناء المحقق والكمال التام سلطانه الباهر وحكمه القاهر . وأول ما في هذه القطعة من التراجم ترجمة أبي بكر أبي الوفا المجذوب صاحب المزار المشهور، وآخرها ترجمة خليل بن عبد الله الوزير الأعظم ، ولعل نظير هذه القطعة هي التي وقعت للمحبي ولا أدري إن كانت النسخة التي في برلين تامة أو ناقصة .

(١٧) الكلام على التاريخ الطبيعي لحلب

هو في مجلدين باللغة الإنكليزية تأليف الطبيب باترك روسسل اشترك معه في التأليف أخوه إسكندر روسسل ، وكان المؤلف أتى إلى حلب عدة مرات منها سنة

١٧٥٣ م وكانت وفاته سنة ١٧٦٨ ، وطبع الكتاب في لوندرة في محل (أياترنوستررردو) سنة ١٧٩٤ وطبع مرة ثانية في لوندرة أيضاً وطبع في كوتونكين سنة ١٨٩٧ .

وهو ينقسم إلى ستة أبحاث (١) في وصف البلد ومحيطها والمواسم والزراعة فيها والبساتين (٢) في السكان ووصف حكومة البلد (٣) في إحصاء السكان الأوروبيين والسكان المسيحيين واليهود وفي الآداب العربية الحاضرة في سوريا (٤) في الحيوانات ذات القوائم الأربع والطيور والأسماك والحشرات والنباتات (٥) يحتوي على ملاحظات فلكية وعلى بيان الأمراض الاستيلائية (الأوبئة) أثناء إقامة المؤلف في حلب (٦) يبحث خاصة في الطاعون والطريق التي اتخذتها الأوروبيون في مقاومته ، والمجلد الأول فيه البحث الأول وهو الذي اطلعت عليه ، وحدثني بعض الأفاضل أن الكتاب ترجم إلى اللغة الألمانية .

(١٨) الكلام على تاريخ عبد الله ميرو المتوفى سنة ١١٨٤

من الذين تصدّوا في أواخر القرن الثاني عشر لوضع تاريخ خاص بالشهباء الفاضل عبد الله أفندي بن حسن ميرو الملقب بأبي المواهب المتوفى سنة ١١٨٤ كما قرأته على قبره في تربة الصالحين ، وقفت على مسودة هذا التاريخ عند الشيخ كامل أفندي الغزي ، غير أنه قد فقد منه بعض أوراق وبعض التراجم فيه ليست بخط المؤلف ، وقد قسمه إلى قسمين قسم تكلم فيه على مدارس الشهباء ، وقسم ترجم فيه أعيان القرن الثاني عشر ، غير أن معظم هذه التراجم هي لأعيان حلب وبعض من تولاها في عصره ، وفيه تراجم أشخاص ذكر أن وفاتهم بعد سنة ١١٨٤ ، وهذا يفيد أنها لغير ابن ميرو أدرجت فيه ، ولم يظهر لي بعد البحث الكثير من هو ذلك المترجم ولا السبب في إدراجها فيه ، والتاريخ لم يتم ، ولذا لم يضع له المؤلف خطبة ولم يسمه . وفي رحلتي إلى دمشق في جمادى الأولى سنة ١٣٤٠ أطلعني الفاضل الهمام السيد تاج الدين أفندي الحسني نجل الأستاذ الكبير محدث الشام الشيخ بدر الدين أفندي على مجموع فيه تراجم لكثير من الحلبيين لم يذكر فيه اسم المؤلف . وقد تفضل بإعارة هذا المجموع واستصحابه معي إلى حلب حينما علم أني بصدد وضع تاريخ لها ، فجزاه الله خير الجزاء ، وبعد عودتي قابلت الكثير من هذه التراجم على المسودة التي عند الشيخ كامل أفندي الغزي فإذا هي هي ، فعلمت أن هذه مبيضة تلك .

وما في سلك الدرر في أعيان القرن الحادي عشر للسيد خليل المرادي الدمشقي من تراجم الحلبيين هو مأخوذ عن هذا التاريخ ، تبين لي ذلك من مقابلة ما فيه على ما في سلك الدرر إلا في محلات قلائل فيها بعض زيادات التقطها المؤلف من غيره .

ويغلب على الظن أن هذه النسخة بعينها وقعت للسيد خليل أفندي المرادي وعنها أخذ ما في تاريخه من أعيان الحلبيين في هذا القرن . وتبين لي لدى التتبع أن السيد المرادي قد أهمل عدة تراجم من هذا التاريخ وأهمل ترجمة المؤلف على ما فيها من الأهمية . وسنأتي إن شاء الله تعالى على جميع ما فيه من تراجم الحلبيين ونضيف إليه ما في سلك الدرر من الزيادات في بعض الأماكن وبالله التوفيق .

(١٩) الكلام على نهر الذهب في تاريخ حلب

(لصديقنا الأديب الفاضل الشيخ كامل أفندي ابن الشيخ حسين الغزي الحلبي)

هو في أربع مجلدات في فتوحها وآثارها وخططها وأعمالها وتراجم أعيانها وحوادثها جمعه من الدر المنتخب لابن خطيب الناصرية ومن الجزء الأول من كنوز الذهب لموفق الدين أبي ذر ومن در الحبب لرضي الدين الحنبلي ومن القطعة التي وقعت له من معادن الذهب لأبي الوفا العرضي ومن التاريخ المنسوب لابن الشحنة ومن تاريخ ابن الملا ومن مسودة بخط أبي المواهب أفندي ميرو المتوفي سنة ١١٨٤ ذكر فيها تراجم أهل عصره ومن خلاصة الأثر للمحبي ومن سلك الدرر للمرادي ومن غير ذلك مما شاهده أو تلقاه من الأفواه إلى وقتنا هذا .

تصفحت منه ثلاث مجلدات في زيارة لمؤلفه في منزله ونقلت منه بعد استئذانه ترجمة ابن أبي طي يحيى بن حميدة الحلبي المؤرخ المتوفى سنة ٦٣٠ وترجمة ابن عشائر الحلبي المؤرخ المتوفى سنة ٧٨٩ ، وقد عزوتهما إلى تاريخه هذا .

والذي دعا لنقل هاتين الترجمتين من تاريخه أني ألزمت نفسي أن أذكر في تاريخي تراجم جميع المؤرخين من علماء الشهباء ، وقد ظفرت بها إلا بهاتين الترجمتين فإني لم أظفر بهما بعد بحث طويل ، فسألته عنهما فأجاب بوجودهما عنده وأذن بنقلهما ، فتم لي بذلك

ما ألزمت به نفسي ، ثم ظفرت بترجمة ابن عشائر في الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر وسنراها في محلها .

وهو مرتب على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة .

تشتمل المقدمة على الكلام على التاريخ الهجري والميلادي الشرقي وعلى الكلام على تواريخ حلب وجغرافيتها وساحات حلب وخراباتها وحدود ولايتها وبحيراتها وجبالها الخ ما يتعلق بهذا البحث . ثم الكلام على معادنها ونهرها وقناتها وما مدحت به والملل والنحل التي فيها ، وعلى أمراضها وحيواناتها وموظفي الدولة فيها إلى غير ذلك وهو يستوعب ستمائة صحيفة .

ويليها (الباب الأول) ذكر فيه الحوادث على السنين استهله بإجمال عن الخلفاء الراشدين والخلفاء من بني أمية وبني العباس . وقد وصل فيه إلى حوادث سنة ١٣٣٨ .

ويليه (الباب الثاني) وهو باب الكلام على الآثار ويستوعب نحو أربعمائة صحيفة تكلم فيه على خلاصة ما قاله المتقدمون في أسوار حلب وأبوابها وقلعتها ، وبعد ذلك شرع بتكلم على كل محلة من محلات حلب على حدتها فيذكر اسمها وعدد سكانها وما فيها من الآثار الخيرية مبيناً اسم صاحب الأثر وتاريخ بنائه وتشخيصه في الحالة الحاضرة وأوقافه وما فيها من الخانات والمدر والقياصر والحمامات إلى غير ذلك .

ويليه (الباب الثالث) وقد تكلم فيه على الألوية والأقضية .

ويليه (الباب الرابع) وفيه تراجم أعيانها ، وقد التزم فيه أن لا يذكر فيه سوى صاحب أثر أو عظيم خطر أو مستعذب خبر ، على شرط أن يكون ممن ولد في حلب أو نزلها أو أخذ عن شيوخها أو أقام فيها زمناً أو تولاها بحكم أو توفي فيها أو كان من أعمالها قديماً وحديثاً لا من اجتاز بها . وهذا الباب يستوعب ستمائة صحيفة ويبلغ عدد المترجمين فيه ألفاً ومائة ما بين رجل وامرأة .

والخاتمة تكلم فيها على الأوقاف في مدينة حلب وخلاصة كتب الواقفين وجداول في حالة الأوقاف وبيان أنها من الخيرات أو من أوقاف الذرية . ويلي ذلك الكلام على أسماء قضاتها من سنة ٢١٥ إلى سنة ١٣٤١ ، ويلي ذلك أرجوزة من نظم الشيخ وفا الرفاعي

تضمنت ذكر المقامات العالية وأضرحة الأولياء والصالحين الذين تشرفت مدينة حلب بمراقدهم المباركة ، وبهذه الأرجوزة انتهى الكتاب .

وقد اقتطفت الكلام عليه من مقدمة بين فيها ما اشتمل عليه تاريخه ، وقد طبعها ووزعها قبيل شروعه بالطبع . وقد باشر بطبعه في المطبعة المارونية بحلب في أواخر السنة الماضية أعني سنة ١٣٤١ .

ابتدأ منه بطبع الجزء الثاني الذي فيه الكلام على الآثار والمأمول أن ينجز هذا الجزء في ربيع الآخر من سنة ١٣٤٢ .

وقد كان شروعي بطبع تاريخي في ربيع الأول من هذه السنة ، وفقنا الله جميعاً للإتمام بمنه وكرمه .

وإني من الشاكرين لمساعيه المقدرين لجليل عمله ، فقد عانى في جمع تاريخه ما عانيته وقاسى ما قاسيته وقام بمأثرة عظيمة نحو بلاده ووطنه ، له من الله الجزاء الأوفى ومنا الثناء الأوفر .

هذا وقد اجتمع عند كل واحد منا من المواد ما لم يجتمع عند الآخر واطلع على مالم يطلع عليه ، فسترى في تاريخه مالا ذكر له عندي وستجد في تاريخي مالا تجده في تاريخه ، فلا يستغنى بأحدهما عن الآخر كما قيل لا يغني كتاب عن كتاب ، فإذا سهل المولى الكريم طبع التاريخين يجد القراء فيهما على اختلاف مشاربهم وتباين مقاصدهم ماترتاح إليه نفوسهم وتنشرح به صدورهم ويشفي غليلهم .

هذا وإن كلاً من التاريخين لا يغني من رام التوسع في الوقوف على تاريخ الشهباء والاطلاع على حوادثها وتراجم أعيانها خصوصاً في صدر الإسلام والقرون الأولى للهجرة ، فالحاجة إلى تواريخها الخاصة التي تكلمنا عليها في هذا الفصل وتواريخ علمائها العامة التي سنتكلم عليها في الفصل الثاني لم تزل باقية ، وقد أرشدناك أثناء ذلك إلى محال وجودها بقدر ما أدى إليه بحثنا وتنقيبنا ، ولا نيأس من رجال يأتون بعدنا من أبناء وطننا يمتطون غارب الاغتراب ويحثون الركاب ويبذلون النفس والنفيس في الاستحصال عليها واستخراجها من زواياها وإبرازها لعالم المطبوعات للاقتباس من فوائدها وتعميم النفع منها .

ولا ريب أن من وفقه الله إلى ذلك سيكون سعيه مشكوراً وعمله مبروراً ، ويكون قد قدم لوطنه خدمة جلى تخلد له ذكراً حسناً وأثراً جميلاً .

وسيكون ذلك إذا توفر في الشهباء العلماء وانتشرت العلوم بين طبقات أبنائها ، وحينئذٍ تصح العزيمة لرجال منها فينهضون إلى إحياء آثار أسلافهم ومفاخر آبائهم ورد بضاعتهم إليهم ، ويرون عاراً كبيراً عليهم أن تبقى تلك الآثار في الديار الغربية يتمتع غيرهم بها ويستجلون محاسنها وهم بعيدون عنها محرومون منها وهم أحق بها وأهلها .

(٢٠) طرائف النديم في تاريخ حلب القديم ولطائف الحديث في تاريخ حلب الحديث

من التواريخ الخاصة بحلب تاريخ صديقنا الشاعر الأديب ميخائيل أفندي أنطون الصقال المالطي مولداً الحلبي وطناً ، قسمه إلى قسمين قسم تكلم فيه عن سكان سوريا قبل الطوفان وبعده إلى زمن المسيح عليه السلام وأسهب في المقال عن حوادث سوريا في تلك العصور وسماه (طرائف النديم في تاريخ حلب القديم) ، وهو في ثلاثة أجزاء تبلغ ٦٠٠ صحيفة ، والقسم الثاني ابتدأ فيه من القرن الأول للمسيح عليه السلام وفي عزمه أن يصل فيه إلى زمننا هذا ، وسمى هذا القسم (لطائف الحديث في تاريخ حلب الحديث) ولما وصل إلى الفتح الإسلامي تكلم عن تاريخ العرب وأصلهم ومواقع بلادهم ، ثم تكلم عن صاحب الرسالة ﷺ ثم عن الخلفاء الراشدين ثم عن الدولة الأموية ثم عن العباسية والطولونية ومن أتى بعدهم ومن تولى حلب من الملوك والأمراء وذكر الحوادث التي حصلت في زمنهم لكن بصورة مختصرة ، وفي خلال الكلام على الحوادث ذكر ما وقف عليه من أعيان المسيحيين في حلب من القرن الأول إلى القرن العاشر للمسيح ، ومن القرن العاشر أخذ يذكر أعيان المسلمين والمسيحيين ، وفي هذه السنة ١٣٤٢ هـ ١٩٢٣ م وصل فيه إلى سنة ١٨٠٠ م ، وهو آخذ في إكماله إلى عصرنا هذا .

الفصل الثاني في بيان التواريخ العامة :

أما وقد أنهينا الكلام على التواريخ الخاصة بالشهباء فلنشرع في الكلام على ما ألفه

فضلاؤها من التواريخ العامة بقدر ما وصل إليه بحثنا وتتبعنا ، ويغلب على الظن أنه لم يفتنا شيء منها ، وقد راعينا في ترتيبها سني وفاة مؤلفيها أيضاً ، وهذه التواريخ وإن كانت عامة إلا أن مؤلفيها أكثروا فيها من ذكر حوادث الشهباء وتراجم أعيانها خصوصاً في العصر الذي كانوا فيه ، يرشدك إلى ذلك ذيل العلامة ابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ على تاريخ أبي الفداء المشهور المطبوعان معاً ، وأواخر تاريخ روض المناظر لمحب الدين أبي الوليد بن الشحنة .

(١) أولها مراتب النحويين

لعبد الواحد بن علي أبي الطيب اللغوي الحلبي المتوفى سنة ٣٥١ ، قال الجلال السيوطي في خطبة تاريخه « بغية الوعاة في طبقات النحاة » : وقفت على طبقات النحاة البصريين لأبي سعيد السيرافي فإذا هي كراسان ، ثم على كتاب مراتب النحويين لأبي الطيب عبد الواحد بن علي الحلبي اللغوي فإذا هو أربع كراريس إلخ .

(٢) تاريخ المبارك بن شرارة

قال الوزير القفطي في أخبار العلماء في ترجمة المبارك بن شرارة أبي الخير الطبيب الحلبي النصراني المتوفى سنة ٤٩٠ إن له كتاباً في التاريخ ذكر فيه حوادث ما قرب من أيامه يشتمل على قطعة حسنة من أخبار حلب في أوانه ، ولم أجد منه سوى مختصر جاءني من مصر اختصره بعض المتأخرين اختصاراً لم يأت فيه بطائل . اهـ .

(٣) تاريخ العظيمي

لم أقف على اسم هذا التاريخ ، وهو مرتب على السنين كما ذكره في الكشف في صحيفة ٢٢٨ وفي التاريخ المنسوب لابن الشحنة ، وكذا في تاريخ ابن خلكان نقول عنه ، وكانت ولادة المؤلف سنة ثلاث وثمانين وأربعماية ووفاته في أواسط القرن السادس .

(٤) الإشارات إلى معرفة الزيارات

قال في الكشف : مختصر للشيخ أبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي السائح المتوفى

سنة ٦١١ ابتدأ فيه من مدينة حلب وكتب ما رآه براً وبحراً من المزارات المتبركة والمشاهد ، وذكر أنه لم ير كثيراً مما ذكره أصحاب التواريخ ببلاد الشام والعراق وخراسان والمغرب واليمن وجزائر البحر ، ولا شك أن قبورهم اندرست ، وذكر أن الأنكتار ملك الفرنج أخذ كتابه ورغب في وصوله إليه فلم يجب ومنها ماغرق في البحر وأنه زار أماكن ودخل بلاداً من سنين كثيرة فنسي أكثر ما رآه واعتذر عنه مع أنه ذكر فيه زيارات الشام وبلاد الإفرنج والأراضي المقدسة وديار مصر والصعيدين والمغرب وجزائر البحر وبلاد الروم والجزيرة والعراق وأطراف الهند والحرمين واليمن وبلاد العجم ، وهذا مقام لا يدركه أحد من السائحين والزهاد إلا رجل كال الأرض بقدمه وأثبت ما ذكره بقلبه وقلمه . اهـ .

أقول : هذا الكتاب من جملة مخطوطات مكتبة المدرسة العثمانية بحلب ، وهو في مجلد لطيف يبلغ ست كراريس أوله : قال العبد الفقير إلى رحمة ربه المستغفر من خطيئته وذنبه علي بن أبي بكر الهروي غفر الله له ولجميع المسلمين يا رب العالمين : الحمد لله حق حمده والصلاة على خير خلقه محمد النبي الأمي وآله وصحبه وشرف وكرم ، أما بعد فقد سألني بعض الأخوان الصالحين والخلان الناصحين أن أذكر له ما زرته من الزيارات وما شاهدته من العجائب والعمارات ورأيته من الأصنام والطلسمات في الربع المسكون والقطر المعمور إلخ . وقد فقد هذا الكتاب من المكتبة المذكورة من عشر سنوات كما فقد منها جل نفائس المخطوطات وذلك لإهمال متولي وقف المدرسة وقيّم المكتبة ، وعد الفاضل أحمد تيمور باشا المصري في مقالته التي نشرها في مجلة الهلال المصرية في سنتها الثامنة والعشرين هذا الكتاب في نوادر المخطوطات ، وقال : يوجد منه نسخة في المكتبة السلطانية ونسختان في خزانتنا اهـ . ووجدت نسخة منه عند الفاضل أديب أفندي تقي الدين نقيب الأشراف سابقاً بدمشق الشام ، ولهذا الكتاب مختصر في مكتبة المدرسة العثمانية لا زال موجوداً كتب عليه إن مختصره علي بن سعيد [ولا أعلم من هو] قال المختصر : صنف الكتاب الأصلي الشيخ الزاهد السائح علي بن أبي بكر الهروي بعد ما طاف البلاد براً وبحراً إلخ .

(٥) معجم البلدان لياقوت الرومي الحموي المتوفى بحلب سنة ٦٢٦

قال جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية : هو معجم جغرافي كبير بأسماء البلاد ، بل هو خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية ، لأنه إذا ذكر بلداً أورد شيئاً من

تاريخه ومن اشتهر فيه أو انتسب إليه من الأدباء أو الشعراء أو الفقهاء أو غيرهم من أهل العلم ، في صدره مقدمة في الجغرافية على الإجمال موضحة بالرسوم ، وفصل في تفسير الألفاظ الاصطلاحية التي وردت في ذلك الكتاب ، ثم أسماء البلدان مرتبة على الهجاء . طبع للمرة الأولى في ليبسك سنة ١٨٦٦ ١٨٧٠ في أربعة مجلدات ضخمة ومجلدين للفهارس والحواشي ، ثم طبع بمصر سنة ١٩٠٩ ز وتمتاز طبعة ليبسك فضلاً عن الفهارس والتعاليق بأن الناشر روستفيلد أشار في ذيول صفحات الفهارس إلى أماكن وجود تراجم أهم الأعلام الوارد ذكرها في ذلك الكتاب وهي تعد بالمئات اهـ .

والطبعة المصرية في ثمان مجلدات ، وطبع معه ذيله في مجلدين وقال فيه : إن الذيل لمحمد أمين الخانجي الكتبي الحلبي نزيل مصر ، إنما أخبرني صديقنا الفاضل الشيخ محمود السمكري الحلبي أن الذيل له شرع فيه وهو مقيم في مصر أثناء تصحيحه للأصل ، ومحمد أمين الخانجي كان يقدم له ما يحتاج إليه من الكتب في هذا الموضوع ، ولم يرغب الشيخ محمود أن ينسب شيء منه إليه وهو ثقة فيما تقوله .

وكتاب المعجم كتاب جليل المقدار عظيم النفع يحتاج إليه كما قال مؤلفه في مقدمته المؤرخ والأديب والجغرافي والمحدث إلخ ما ذكره في مقدمته ، ويدل على غزارة فضل مؤلفه وسعة معارفه وكثرة اطلاعه (انظر ما كتبه عنه صديقنا محمد أفندي كرد علي في مجلته المقتبس) وقد التقطت منه سنة ١٣٢٨ ما ذكره من البلاد والأماكن والقرى المعدودة تلك السنة من جملة معاملات حلب ، وكذا نقلت منه ما ذكره من الجبال والأنهار والأديرة والقلاع والبحيرات الممدودة من توابعها في تلك السنة أيضاً فجاء الكتاب في ١٤٤ صحيفة ، وهو مفيد جداً خصوصاً لمن رام أن يؤلف كتاباً في أحوال البلاد والقرى التي حول حلب والمضافة إليها اهـ .

(٦) معجم الأدباء لياقوت المذكور

قال جرجي زيدان في كتابه المتقدم الذكر : هو معجم تاريخي يشبه معجمه الجغرافي لكنه أكبر منه وأوسع ، ترجم فيه النحويين واللغويين والنسابين والشعراء والإخباريين والمؤرخين والوراقين والكتاب وأصحاب الرسائل وأرباب الخطوط وكل من ألف في الأدب ، يدخل في

مجلدات عديدة متفرقة في مكاتب أوروبا والأستانة لا يطمع بالحصول على نسخة كاملة منها ، فنشط الأستاذ مرجليوث للاشتغال بجمع شتات هذا الكتاب والوقوف على طبعه واهتمت لجنة تذكار جيب بنشر ما يمكن العثور عليه من أجزائه فوفقا حتى الآن إلى نشر خمسة أجزاء منه وهي الأول والثاني ونصف الثالث من مكتبة أكسفورد والخامس من مكتبة كوبرلي في الأستانة والسادس تحت الطبع ينقص القسم الأخير منه ، والسعي متواصل في البحث عن مظان سائر الأجزاء . [ثم قال] : وتجد في هذا الكتاب كثيراً من التراجم التي لا وجود لها في سواها فضلاً عن توسعه وتحقيقه اهـ .

أقول : وصل هذا الكتاب إلى حلب في السنة الماضية وهي سنة ١٣٣٨ والحرب العامة حالت دون وصوله إليها حينما نجز بعض أجزائه ، والحق يقال إنه من نفائس الكتب واسع التراجم جم الفوائد ، وقد التقطنا منه ما فيه من رجال الشهباء ووضعنا كل ترجمة في مكانها على شرطنا الذي قدمناه..

(٧) كتاب الدول لياقوت المذكور

لم يذكره صاحب الكشف لكن ذكره ابن خلكان في ترجمته .

(٨) المبدأ والمآل

ذكره صاحب الكشف في صحيفة ٣٧٧ لكن لم يكتب عنه شيئاً ، وقال ابن خلكان في ترجمة مؤلفه إنه في التاريخ .

مؤلفات ابن أبي طي يحيى بن حميدة الحلبي المتوفى سنة ٦٣٠

[٩] أخبار الشعراء الشيعة ، ذكره في كشف الظنون في صحيفة ٦١ .

[١٠] تاريخ مصر ، قال في الكشف في كلامه على تواريخ مصر : ومنها تاريخ بن أبي طي يحيى بن حميدة .

[١١] مختار تاريخ الغرب، قال في الكشف في كلامه على تواريخ المغرب : ومختار اريخ الغرب لابن أبي طي يحيى بن حميدة .

[١٢] حوادث الزمان ، قال في الكشف : إنه في خمس مجلدات على ترتيب الحروف .

[١٣] سلك النظام في تاريخ الشام ، قال في الكشف : إنه في أربع مجلدات .

[١٤] طبقات العلماء ، ذكره في الكشف في صحيفة ٩٥ .

[١٥] عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر ، قال في الكشف في صحيفة ٢/١٢٦ :

عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر بيبرس التركي لابن أبي طي يحيى بن حميدة الحلبي المتوفى سنة ٦٣٠ . وفي الدر المنتخب المنسوب لابن الشحنة في صحيفة ١٤٦ نقل عنه حيث قال : قال ابن شداد : ذكر منتخب الدين أبو زكريا يحيى بن أبي طي النجار الحلبي في الكتاب الذي وضعه في تاريخ حلب وسماه [عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر] إلخ ، وهذه العبارة تفيد أنه من التواريخ الخاصة بها .

[١٦] كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين ، ذكره في الكشف في صحيفة ٣٣٦ .

[١٧] النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية للقاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ .

هي سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ، وقد كان المؤلف رافقه في كثير من حروبه فكتب ما شاهده أو عمن شاهد تلك الحروب ، طبعت في مجلد واحد سنة ١٣١٧ في مطبعة التمدن بمصر .

قال جرجي زيدان : طبعت في لندن سنة ١٧٣٢ مع منتخبات عن صلاح الدين من تواريخ أبي الفداء وعماد الدين وغيرها مع ترجمة ذلك كله باللغة اللاتينية ، وقد ترجمت أيضاً إلى الفرنساوية وطبعت في باريس سنة ١٨٨٤ وطبعت في لندن مع تعليقات بالإنكليزية . اهـ .

وقال جرجي زيدان هنا : إن له تاريخ حلب ومنه نسخة في بطرسبورج ، وهذا وهم منه فابن شداد هذا ليس له تاريخ لحلب ولو كان لذكره ابن خلكان وغيره من مترجميه ،

وقد سبقه في ذلك الوهم صاحب الكشف حيث قال في صحيفة ١٢٣ : الأعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة لابن شداد أبي العز يوسف بن رافع الحلبي المتوفى سنة ٦٣٢ اهـ ، والأعلاق الخطيرة هو لعز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن علي بن شداد [من هذه جاءهما الوهم]المتوفى سنة ٦٨٤ وسيأتي الكلام عليه .

المؤلفات التاريخية للوزير الأكرم
جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي
المتوفى بحلب سنة ٦٤٦

[١٨] الدر الثمين في أخبار المتيمين .

[١٩] كتاب من ألوت عليه الأيام فرفعته ثم التوت عليه فوضعته .

[٢٠] كتاب أخبار المضنفين وما صنفوه .

[٢١] أخبار المغرب .

[٢٢] تاريخ محمود بن سبكتكين .

[٢٣] الاستئناس في أخبار آل مرداس

[٢٤] كتاب مشيخة تاج الدين الكندي .

لا ذكر لهذه المؤلفات السبعة في كشف الظنون .

[٢٥] أخبار الشعراء المحمديين وأشعارهم ، لا ذكر له في الكشف أيضاً ، وذكره جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ٧٠ جلد ٣ وقال إن نسخة منه في باريس .

[٢٦] كتاب أخبار مصر، ذكره في الكشف مع تواريخ مصر، ونقل زيدان أنه في ستة مجلدات ولا يعرف مكانه . وقال ابن خلكان في ترجمة محمد بن تومرت المنعوت بالمهدي إن للقاضي ابن الأكرم وزير حلب تاريخاً مرتباً على السنين ونقل عنه . ولا أدري هو تاريخ مصر أو غيره .

[٢٧] تاريخ اليمن ، ذكره في الكشف في صحيفة ٢٣٦ .

[٢٨] تاريخ آل بويه ، ذكره في الكشف في صحيفة ٢١٧ .

[٢٩] تاريخ آل سلجوق ، ذكره في الكشف في صحيفة ٢١٨ وفي ٢٢٩ . يوجد منه نسخة في يكي جامع في الأستانة رقمها ٨٤٩ .

[٣٠] أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ذكره في الكشف وسماه المنتخبات الملتقطات في تاريخ الحكماء والأطباء ، ويوجد منه نسخة في يكي جامع بالأستانة باسم [روضة العلماء] في مجلد واحد محررة سنة ٦٤٦ أي في السنة التي توفي فيها المؤلف . ويوجد منه ثلاث نسخ خطية في المكتبة السلطانية في مصر وعليها اعتمد السيد محمد أمين الخانجي الحلبي الكتبي نزيل مصر في طبع هذا الكتاب في مطبعته سنة ١٣٢٦ . قال جرجي زيدان : وهو معجم تاريخي للفلاسفة والأطباء والعلماء وأصحاب الرياضيات واللغة من العرب وغيرهم مرتب على الأبجدية قل من نسج على منواله ، ومنه نسخ خطية في أكثر مكاتب أوروبا .

وانظر ما كتبه عنه صاحب مجلة المقتبس في المجلد الخامس في الجزء الخامس من مجلته في صحيفة ٣٣٥ والمقارنة بينه وبين كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة .

وعندي منه نسخة مطبوعة وقد التقطت منه ما فيه من تراجم الحلبيين وسنذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى .

[٣١] إنباء الرواة على أنباء النحاة ، ذكره صاحب الكشف في صحيفة ١٥٢ ، قال جرجي زيدان : منه نسخة خطية في جملة كتب زكي باشا في السلطانية ، وذكر صاحب مجلة المقتبس في المجلد الخامس في الجزء الثاني عشر أن زكي باشا المذكور عزم على طبعه . وقد مضى نحو تسع سنوات ولم يطبع ولعل الحرب العامة حالت دون طبعه وطبع كثير من الكتب الهامة التي عول على طبعها .

(٣٢) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤

قال في الكشف في صحيفة ٤٨٤ : الدرة الخطيرة في أسماء الشام والجزيرة لعز

الدين محمد بن علي الحلبي الكاتب المتوفى سنة ٦٨٤ ، وفي الكشف أيضاً في صحيفة ١٢٣ : الأعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة لابن شداد أبي العز يوسف بن رافع الحلبي المتوفى سنة ٦٣٢ ، وهذا سهو منه والصحيح الأول . قال في خطبة الدر المنتخب المنسوب لابن الشحنة إن شمس الدين أبا عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد الحلبي ألف كتاباً سماه الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة .

قال جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية في صحيفة ١٨٤ ج٣ : إن منه نسخة في المتحف البريطاني . اهـ .

ويوجد الجزء الثاني في المكتبة اليسوعية في بيروت رقمها ٢٨٨ وقد نسخه لنفسه الأديب رزق الله حسون الحلبي سنة ١٨٧٦ الموافقة لسنة ١٢٩٣ هجرية اشترته الكلية اليسوعية من تركته ، وهو منقول من جزء قديم كتب في آخره ما نصه : (وكان الفراغ منه بكرة نهار السبت خامس عشرين رجب في سنة تسع وثمانين وسبعماية على يد أضعف العباد الراجي عفو ربه وغفرانه سليمان بن غازي الأيوبي) وأوله : الحمد لله المعين على المقاصد السديدة والهادي إلى مظان الإرادات الرشيدة . إلى أن قال : فقد كنا قدمنا فيما سلف من كتابنا ذكر الشام وتنقل بلاده في أيدي الملوك والأمراء وهنا نحن عاطفون عليه بذكر الجزيرة ومن ملكها أولاً وأخيراً إلى حين خروجها عن أيدي المسلمين إلى أيدي التتر أنقذها الله منهم ونختم بذكر الموصل وإن لم تكن من الجزيرة وإنما ساقنا إلى ذكرها المجاورة والمصاقبة .

ويوجد الجزء الأول عند الشيخ ناجي الكردي أحد خدمة المسجد الأعظم بحلب وأول الكتاب : الحمد لله المعين على المقاصد السديدة والهادي إلى مظان الإرادات الرشيدة ، إلى أن قال : يقول العبد الفقير إلى الله تعالى الغني محمد بن إبراهيم بن شداد بن خليفة بن شداد : الحمد لله الذي قص من أنباء الرسل ما ثبت به فؤاد رسوله وتلا عليه من أخبار الأمم ما بلغ به تصديقه غاية سوله وبعد فإنه لما حللت بمصر المحروسة وتبوأت محالها المأنوسة وشملني من إنعام السلطان السيد الأجل إلخ الملك الظاهر أبي الفتح بيبرس رأيت أن أضع كتاباً أذكر فيه الفتوحات وملكه ما كان بأيدي الكفرة من الحصون المنيعات والقلاع وما وطئته سنابك خيوله مفصلاً كل جند من أجناد الشام والجزيرة بأعماله

وحدوده ومكانه من المعمور وأطواله وعروضه ومطلع سعوده ملتزماً في كل بلد ذكر من وليه من أول الفتوح إلى وقت فروغ هذا الكتاب ، وأبدأ بذكر (جند حلب) لكونها مسقط رأسي ومحل أنسي وناسي ، إلى أن قال : ووسمته [بالأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة] ثم قال : فقد آن أن أبتدىء كتابي هذا بذكر حلب على ما تقدم به الوعد وأرتب الكلام فيه على ثلاثة أقسام القسم الأول أضمنه سبعة عشر باباً في أمر البلد وما اشتمل عليه بنيانه ظاهراً وباطناً ، القسم الثاني أضمنه سبعة أبواب ويشتمل على حدود نواحيها الخارجة عنها ، القسم الثالث في ذكر أمرائها منذ فتحت إلى عصرنا هذا الذي وضعنا فيه هذا الكتاب .

الباب الأول في ذكر مواضعها المعمورة ٢ في ذكر الطالع الذي بنيت فيه ٣ في تسميتها واشتقاقها ٤ في ذكر صفة عمارتها ٥ في ذكر عدد أبوابها ٦ في ذكر بناء قلعتها والقصور القديمة ٧ في ذكر ما ورد في فضلها ٨ في ذكر مسجدها الجامع والجوامع التي بظاهرها وضواحيها ٩ في ذكر المزارات التي بباطنها وظاهرها ١٠ في ذكر المساجد التي بباطن حلب وظاهرها ١١ في ذكر الحلقات والربط ١٢ في ذكر المدارس ١٣ في ذكر ما بحلب ونواحيها من الطلسمات والخواص ١٤ في ذكر الحمامات ١٥ في ذكر نهرها وقناتها ١٦ في ذكر ارتفاع قصبتها ١٧ في ذكر ما مدحت به نظماً ونثراً .

ثم قال بعد أن تكلم على هذه الأبواب السبعة عشر : القسم الثاني في ذكر ما اشتمل عليه جند قنسرين وما أضفنا إليه من بلاد العواصم والثغور وبلاد حمص وقلنا إنها جندان . الباب الأول في تعديد بلاد جند قنسرين وصفاتها . الباب الثاني في ذكر الثغور وتحديد بقاعها . الباب الثالث في ذكر العواصم وحصونها . الباب الرابع في ذكر ما حوى جند حمص من البلاد . الباب الخامس في ذكر ما في مجموع هذه البلاد من الأنهار . الباب السادس في ذكر مافيه من البحيرات. الباب السابع في ذكر ما فيه من الجبال . وقد ذكر في نسخة الشيخ ناجي الباب الأول والثاني ثم ذكر القسم الثالث وهو أمراؤها منذ فتحت إلى عصره ثم ذكر الباب الثالث وهنا انتهى الكلام فيكون قد أقحم القسم الثالث بين الباب الثاني والباب الثالث ، ولعل ذلك من الناسخ ، وأما الباب الرابع وما بعده من الأبواب التي هي تتمة القسم الثاني فلا وجود لها في هذه النسخة وكأن الناسخ لها أسقطها

ظناً منه أنه لا علاقة لها بحلب سامحه الله وعفا عنه . وأبو الفضل بن الشحنة قد أتى في كتابه نزهة النواظر على ما في هذا الكتاب وزاد عليه . وأبو اليمن البتروني قد التقط جميع ما في نزهة النواظر مما هو متعلق بحلب في كتاب له سماه الدر المنتخب وهو مطبوع وقد قدمنا الكلام عليه وسيأتي الكلام على نزهة النواظر .

(٣٣) عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار لعماد الدين إسماعيل بن الأثير الحلبي

قال في كشف الظنون في ج ٢ ص ١٠٦ : عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار لعماد الدين إسماعيل بن أحمد بن سعيد المعروف بابن الأثير الحلبي المتوفى سنة ٦٩٩ ، اقتصر فيه على الملوك والخلفاء في البلاد كلها من غير تعرض لشيء من الوفيات وهو في مجلدين اهـ . وذكره صاحب الكشف مرة ثانية وسماه عين أولي الأبصار في ملوك الأمصار .

(٣٤) تاريخ مصر لقطب الدين عبد الكريم ابن عبد النور الحلبي المتوفى سنة ٧٣٥

قال الكشف (صحيفة ٢٢٩) : تاريخ قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور الحلبي المتوفى سنة ٧٣٥ رتبه على الأسماء وزاد ولده تقي الدين في المحمديين كثيراً ومات سنة ٧٧٢ ، وقال أيضاً في صحيفة ٢٣٢ في الكلام على تواريخ مصر : ولقطب الدين عبد الكريم بن عبد النور بن منير الحلبي المتوفى سنة ٧٣٥ في بضع عشرة مجلداً ولم يكمله .

(٣٥) تتمة المختصر في أخبار البشر لزين الدين عمر بن الوردي الحلبي المتوفى سنة ٧٤٩

قال في كشف الظنون (صحيفة ٤٠٢ جلد ٢) : المختصر في أخبار البشر في مجلدين للملك المؤيد إسماعيل بن علي صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ اختصره ابن الوردي والقاضي أبو الوليد محمد بن محمد بن الشحنة الحلبي الحنفي المتوفي سنة ٨١٥ وذيله إلى

زمانه اهـ . طبع الأصل الذي هو للملك المؤيد المشهور بتاريخ أبي الفداء في مجلدين بالأستانة ومصر وطبع المختصر المسمى تتمة المختصر لابن الوردي في المطبعة الوهبية بمصر في مجلدين أيضاً سنة ١٢٨٥ ، قال في أوله : اختصرته في نحو ثلثيه اختصاراً زاده حسناً وألحقته أعياناً وأودعته شيئاً من نظمي ونثري وقلت في أول ما زدته [قلت] وفي آخره (والله أعلم) وسأذيله من سنة تسع وسبعمائة التي وقف المؤلف عليها إلى هذه السنة وسميته تتمة المختصر في أخبار البشر اهـ . ويظهر أن النسخة التي وقعت له من الأصل محرر فيها إلى سنة ٧١٠ وذيل عليها من هذه السنة إلى سنة ٧٤٩ ، ولكن من يطالع الأصل المطبوع مع ذيله يجد من سياق الكلام أن أبا الفدا وصل في تاريخه إلى سنة ٧٣٠ وأن ابن الوردي ذيل عليه من هذه السنة إلى سنة ٧٤٩ وقد طبع مع الأصل ماذيله ابن الوردي من سنة ٧٣٠ إلى سنة ٧٤٩ وطبع مع المختصر ما ذيله من سنة ٧١٠ إلى سنة ٧٤٩ ، يرشدك إلى ذلك اختلاف العبارة من سنة ٧١٠ إلى سنة ٧٣٠ واتحادها في الكتابين من سنة ٧٣٠ إلى سنة ٧٤٩ ، والذي اختصره القاضي أبو الوليد وذيله إلى زمانه سماه (روض المناظر) وهو مطبوع أيضاً على هامش مروج الذهب للمسعودي وعلى هامش الكامل لابن الأثير وسيأتي الكلام عليه .

المؤلفات التاريخية لبدر الدين حسن بن عمر بن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٧٩

(٣٦) **أخبار الدول وتذكار الأول** ، قال في كشف الظنون : هو تاريخ مختصر مسجع ذكر فيه الأنبياء والخلفاء والملوك اهـ .

(٣٧) **جهينة الأخبار** ، له أيضاً ، قال في الكشف : ألفه على السجع ورعاية الفقرات اهـ . يوجد نسخة منه في المكتبة السلطانية في مجلد بقلم عادي س١ ج١ ن خ ١١٥٤ ن ع ٢٤٢٣٧ .

قال جرجي زيدان : جهينة الأخبار في ملوك الأمصار يشتمل على نتف تاريخية مرتبة في طبقات حسب الأعصر والدول من الأنبياء فاليهود فالفرس فالقبط فالعرب فالمسلمين إلى المغول باختصار . منه نسخة في المكتبة السلطانية في ٩٢ صفحة وفي كوبريلي اهـ .

(٣٨) تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، وهو السلطان قلاوون وبنوه ذكره جرجي زيدان وقال : إن منه نسخة في برلين والمتحف البريطاني .

(٣٩) معاني أهل البيان من وفيات ابن خلكان ، قال في الكشف في صحيفة ٦٣٩ جلد ٢ في كلامه على وفيات الأعيان لابن خلكان : وممن اختصره أيضاً الشيخ بدر الدين حسن بن عمر بن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٧٩ وسماه معاني آل البيان من وفيات ابن خلكان أتى فيه بمائتين وسبعة وثلاثين نفراً مع أشعارهم وآثارهم اهـ. أقول : وفي المكتبة العثمانية بحلب محرر عليه (المختصر المختار) من وفيات الأعيان اختصار تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي وهو محرر سنة ٩٨٦ بخط أحمد بن أبي بكر السنفي المالكي ، وهذا الكتاب مع كتاب آخر محرر عليه المنتخب من البداية والنهاية لابن كثير ، ولم أقف على ترجمة لأحمد بن الأثير ، وصاحب الكشف لم يذكر هذا المختصر في الكلام على وفيات الأعيان .

(٤٠) درة الأسلاك في دولة الأتراك

قال في الكشف في صحيفة ٤٨٢ جلد ١ : درة الأسلاك في دولة الأتراك لبدر الدين حسن بن عمر بن حبيب الحلبي وهو تاريخ مرتب على السنين في مجلد أوله : الحمد لله المبين (هكذا وصوابه المميت) الوارث ، ابتدأ فيه من سنة ٦٤٨ وانتهى إلى آخر سنة ٧٧٨ والتزم رعاية السجع في كلامه ، ولذلك قال صاحب المنهل الصافي (هو تغري وبردي) في ترجمة سليمان بن مهنا بعد نقل كلامه فيه : انتهى فشار بن حبيب وركيك ألفاظه وربما إذا كانت ضاقت عليه القافية يذم المشكور ويشكر المذموم لما ألزم نفسه في جميع تاريخه بهذا النوع السافل في فن التأريخ ، وقال أيضاً في غير هذا المحل : ولم يذكر المولد والوفاة وإنما هو رجل مقصده تركيب كلام مسجع لا غير ، انتهى ، ثم ذيله ولده عز الدين أبو العز طاهر بالسجع على طريقة أبيه بلغ إلى سنة ٨٠٢ وتوفي سنة ٨٠٨ ، والشيخ زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفي المتوفى سنة ٨٧٩ منتقى درة الأسلاك ولابن خطيب الناصرية ملخصه اهـ .

يوجد منه نسخة في مكتبة داماد زاده قاضيعسكر رقمها ١٤٥٤ ونسخة في مكتبة يكي جامع ورقمها ٨٤٩ وهي محررة سنة ٧٧٩ أي في السنة التي توفي فيها المؤلف ، وفي

مكتبة سلطان أحمد خان ورقمها ٢٣٣ وهي محررة سنة ٧٧٩ أيضاً وهذه المكاتب الثلاث في الأستانة ...

ويوجد نسخة منه في باريس ذكر هذه في قاموس الأعلام .

قال جرجي زيدان : يوجد نسخ منه في برلين ويكي جامع وباريس ، وأطلعنا الأستاذ مرجليوث على نسختين من هذا الكتاب في أكسفورد إحداهما مسجعة والأخرى مرسلة ، وقد لقب في أحدهما بدر الدين وفي الآخر شهاب الدين وفي مكتبة ديفريمري جزء من درة الأسلاك بخط المؤلف اهـ .

وقال في ترجمة ابن قاضي شهبة المتوفى سنة ٨٥١ : وله مختصر درة الأسلاك لابن حبيب الحلبي منه نسخة في باريس اهـ .

(٤١) تاج النسرين في تاريخ قنسرين
لابن عشائر الحلبي المتوفى سنة ٧٨٩

قال في الكشف (جلد ١ صحيفة ٢١٢) : تاج النسرين في تاريخ قنسرين لمحمد ابن علي بن محمد بن عشائر الحلبي المتوفى سنة ٧٨٩ اهـ .

قال ياقوت في معجم البلدان : وكانت قنسرين بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم وبعض يدخل قنسرين في العواصم ، وما زالت عامرة آهلة إلى أن كانت سنة ٣٥١ وغلبت الروم على مدينة حلب وقتلت جميع ما كان بربضها ، فخاف أهل قنسرين وتفرقوا في البلاد ، فطائفة عبرت الفرات وطائفة نقلها سيف الدولة بن حمدان إلى حلب كثر بهم من بقي من أهلها فليس بها اليوم إلا خان ينزله القوافل وعشار السلطان وفريضة صغيرة ، وقال بعضهم : كان خراب قنسرين في سنة ٣٥٥ قبل موت سيف الدولة بأشهر ، كان قد خرج إليها ملك الروم وعجز سيف الدولة عن لقائه فأمال عنه فجاء إلى قنسرين وخربها وأحرق مساجدها ولم تعمر بعد ذلك اهـ . أقول : والآن هي قرية صغيرة ليس فيها على ما أخبرني بعض من رآها سوى بعض أحجار من أنقاض أبنيتها القديمة وإليها تنسب باب قنسرين محلة في حلب في قبليها لأن في آخرها باباً عظيماً اكتنفته البقية الباقية من أسوار حلب القديمة هو طريق المسافرين إليها وإلى حماة وحمص .

(٤٢) روض المناظر في علم الأوائل والأواخر
لأبي الوليد محمد بن الشحنة المتوفى سنة ٨١٥

قال في كشف الظنون في جلد ١ صحيفة ٥٨٠ : (روض المناظر في علم الأوائل والأواخر) وهو تاريخ مشهور لأبي الوليد قاضي القضاة زين الدين محمد بن محمد الشهير بابن الشحنة الحلبي الحنفي المتوفى سنة ٨١٥ ، قال : قد التمس مني عماد الدين محمد بن موسى النائب بمدينة حلب أن أجمع له كتاباً في التاريخ وجيز الألفاظ فأجبته وجعلت له مفتاحاً ومصراعين وخاتمة ، أما المفتاح ففي بدء خلق الدنيا وأما المصراع الأول ففي ما بين هبوط آدم إلى الهجرة والثاني منها إلى آخر مدة يقدرها الله ، والخاتمة مشتملة على ما هو كالعيان مما يكون في آخر الزمان، وقد انتهى في المصراع الثاني إلى سنة ٨٠٦، ثم سأله بعض طلبته من أسباط الملك المؤيد صاحب حماة في اختصاره فأجابه ووسمه بالمنتقى وبالغ في الإيجاز ، إلا أن ناقلة الأول نقله من مسودة فقدم وأخر وزاد ونقص فترتب عليه مفاسد ، ولذلك ألف ابنه القاضي أبو الفضل محب الدين محمد نزهة النواظر في روض المناظر وهو كالشرح عليه ، وتوفي سنة ٨٩٠ ، وله أي للقاضي محب الدين ذيل في الأصل يسمى باقتطاف الأزاهر في ذيل روض المناظر وهو الذي انتقى منه ابن بنته جلال الدين النصيبي كراسة وسماها نور الخلاف في منتخب الاقتطاف اهـ . يوجد منه نسخة في المكتبة الخديوية ج ١ ن خ ٤٥ ن ع ٧٤٧٥ عدد أوراقها ٢٠٠ وفي آخر هذه النسخة عبارة منقولة عن ولد المؤلف هذا نصها باختصار : وكان الفراغ منه بعد عصر يوم الأحد السادس والعشرين من رمضان سنة ٨٢٥ وقد اجتهدت غاية الاجتهاد في موافقة المقصود وتحرير المراد فإن نسخ هذا التاريخ طارت في البلاد منقولة من نسخة السواد مختصر منها كثير من السنين محذوف منها جماعة من المترجمين ، وهذه النسخ أصح ما يوجد وأولى ما عليه يعتمد اهـ .

أقول : وهو مطبوع على هامش الجزء الحادي عشر والجزء الثاني عشر من تاريخ ابن الأثير المسمى بالكامل وعلى هامش مروج الذهب للمسعودي لكن ليس في أول له ذكر لعماد الدين محمد بن موسى النائب بمدينة حلب ، وفي السالنامة الحلبية ليس له ذكر بين النواب الذين تولوا حلب وهو مختصر من تاريخ أبي الفداء المسمى بالمختصر في أخبار البشر وذيله

إلى زمانه ، ذكر ذلك صاحب الكشف في صحيفة ٤٠٢ جلد ٢ وتاريخ أبي الفداء مختصر من تاريخ الكامل ، فيكون هذا مختصر المختصر ، وأحسن مايستفاد منه أواخره والحديث الذي دار بينه وبين تيمورلنك في آخره والأعمال والفظائع التي عملها تيمورلنك حين استيلائه على حلب ، وسترى ذلك في محله إن شاء الله تعالى .

وقد اطلعت هنا على نسخة خطية من هذا التاريخ عند بني الحسبي فيها زيادة ثمان ورقات على المطبوع ذكر فيها الملاحم والفتن وأشراط الساعة وكلها أهملت في الطبع ، ويظهر أن ذلك لانتهاء تاريخ ابن الأثير أو لأن للملاحم والفتن وأشراط الساعة ذكراً في كثير من كتب الحديث وغيرها .

قال جرجي زيدان في آداب اللغة العربية (في صحيفة ١٩٥ جلد ٣) : ومنه نسخ في معظم مكاتب أوروبا ، وقال في صحيفة (١٣٧ جلد ٤) : ونسخة في المكتبة اليسوعية في بيروت اهـ . أقول : ذكر المؤلف في أول تاريخه وفي آخره أن الحوت هو الحامل لهذه الدنيا تلك الخرافة التي يتحدث بها العجائز والبسطاء ، وفي ذلك دلالة على أن ابن الشحنة على جلالة فضله وغزارة علمه في العلوم الفقهية والأدبية كان بعيداً عن علم الجغرافيا كل البعد والكمال لله وحده اهـ .

(٤٣) نزهة النواظر في روض المناظر لأبي الفضل محمد بن أبي الوليد

قال في الكشف في صحيفة ٥٩٨ جلد ٢ ، نزهة النواظر في روض المناظر لقاضي القضاة محب الدين أبي الفضل محمد بن أبي الوليد محمد بن الشحنة الحلبي المتوفى سنة ٨٩٠ ، وهو تاريخ كبير جعله كالشرح لتاريخ أبيه المسمى بروض المناظرفي علم الأوائل والأواخر ، ثم سرد الأسباب التي دعته إلى تأليفه وقد نقلها عن در الحبب لرضي الدين الحنبلي .

قال الحنبلي في ترجمته : ومما ألفه أيضاً التاريخ المسمى نزهة النواظر في روض المناظر لما أنه كما قال في صدر تاريخ مستقل وشرح لتاريخ أبيه (هكذا ولعل الصواب لما أنه كما قال تاريخ مستقل كالشرح لتاريخ أبيه) سأل أباه بعض طلبته من نبهاء الأمراء والفضلاء من أسباط المؤيد عماد الدين صاحب حماة في اختصاره فأجابه إلى ما التمس وبالغ في الإيجاز فلم

يطل النفس ، غير أن ناقله الأول نقله من مسودة أبيه فقدم وأخر وزاد ونقص فترتب على ذلك مفاسد ، قال : وكان صاحبنا الشيخ العلامة شمس الدين القرماني رحمه الله أشار عليّ أن أنبه على ما زاده الناسخ وما أهمل وأهذبه كما فعل الإمام عبد الله بمسند والده الإمام أحمد ابن حنبل فشرعت بذلك مضيفاً إليه معظم الملة الحنيفية وجمهور أئمة العلماء الحنفية من أولي المعرفة والدراية وأهل الحديث والرواية ، ثم أعرضت عن ذلك فتركته على ما صح عنده وتحرر وثبت لديه وتقرر على ما أفسده الناسخ الذي قدمه في المعرفة غير راسخ على ما توهم فيه الأوهام المرتبة على قصور الأفهام فأحسنت اتباعه فيما عمله وبسطت ما طواه وفصلت ماأجمله مختصراً للمكرر مقتصراً على المحرر (إلى أن قال) : غير أني قسمت المصراع منه وقد كان صير له مفتاحاً ومصراعين وجعل له خاتمة فيما ينزل من الأخبار منزلة رؤية العين إلى ثلاثة فصول الأول في خلق آدم عليه السلام وما اتفق له ولأولاده ، الثاني في طبقات الأمم ، الثالث في المبشرات الواردة في التوراة والإنجيل وعلى ألسنة الأحبار والرهبان والهتفان والكهان لظهوره ﷺ والمقدمات التي جاءت قبل مبعثه وهجرته ، وقسمت الثاني إلى تسع طبقات بحسب القرون أذكر فيها ما اشتهر من الحوادث الغريبة مرتبة على السنين ثم أتبعه بوفيات الأعيان المشهورين على الحروف ، وزدت على ذلك زيادات جمة ووشحته بفوائد مهمة وضبطت ما فيه من لفظ عربي مخافة تصحيف غبي وذيلت عليه من استقبال القرن التاسع إلى آخر مدة يقدر الله الوصول إليها ، انتهى ملخصاً .

أقول : ظفرت بمسودة المؤلف بخطه في صندوق ملقى في المكتبة الأحمدية لم يكن ليعبأ بما فيه ، إلا أنها ناقصة كثيراً وسقيمة الخط جداً وتتبعت ما بقي من الأوراق التي لها علاقة بحلب فوجدتها ١١ ورقة .

ويوجد منه نسخة في مكتبة ابن الحكيم بالأستانة في مجلد ورقمها ٨١٤ ونسخة في مكتبة داماد إبراهيم باشا بالأستانة حررت سنة ١١٠٠ ورقمها ٨٧١ وهي في مجلد واحد عدد أوراقه ١٨٦ .

وهذه فهرست الكتاب : فصل في المقدمة . فصل ثان فيها . فصل ثالث فيها خاتمة فيها . فصل في الأوائل . أوليات آدم . أوليات شيث عليهما السلام (ثم ذكر) أوليات الأنبياء إلى آخر أيام النبي ﷺ . ثم في أوليات مشاهير الصحابة . أولهم أبو بكر رضي

الله عنه . ثم أوليات مشاهير التابعين ثم فصل في القضاة وأوائلهم ثم أوليات القرون الماضية ثم العرب الخاصة بهم ثم العجم الخاصة بهم ثم أوليات النساء ثم ختم جميع الأوليات بأوليات إبليس اللعين ثم أبواب وفصول في فضائل مكة والمدينة والمسجد الحرام وغير ذلك من البلدان المباركة إلى دمشق الشام .

ثم قال : فصل في فضل حلب . الثاني في ذكر الطالع الذي بنيت فيه حلب . الثالث في تسميتها واشتقاقها . الرابع في فتح حلب . الخامس في صفة عمارتها . السادس في عدد أبوابها . السابع في ذكر القلعة الحلبية . في ذكر القصور التي كانت لملوك حلب . في مسجدها الجامع . في منارة الجامع . الجوامع التي في حلب . جامع القلعة الحلبية . ذكر المزارات التي في باطن حلب وظاهرها . المشاهد التي بحلب . ذكر ما في قرى حلب وأعمالها من المزارات . في ذكر المساجد التي في باطن حلب وظاهرها . في ذكر ما بباطن حلب وظاهرها من الخوانق والربط . في ذكر ما بباطن حلب وظاهرها من المدارس . المدارس الشافعية بظاهر حلب . في ذكر ما بحلب وأعمالها من الطلسمات . ذكر ما بباطن حلب من الحمامات . في ذكر نهرها وقناتها . ذكر القنى المتفرعة من القناة العظمى . ذكر ارتفاع قصبة حلب . في ذكر ما مدحت به حلب نظماً ونثراً . في ذكر حدودها ومضافاتها وذكر العواصم . وبعد أن تكلم على جميع ما تقدم تكلم على أطرافها فذكر : صفين . الرصافة . خناصرة . قنسرين . حاضر قنسرين . سرمين . الفوعة . معرة مصرين . حارم . قلعة دركوش . الراوندان . تل هراق . برج الرصاص . تل باشر . الباب وبزاعا . تادف . أبو كلكل . الاسكندرونة . المثقب . سيس . مرعش . زبطرة . عمورية . ملطية . سمسياط (ثم قال بعد ذلك) : فصل في ذكر العواصم : أنطاكية . بغراس . درب سلم . حصن لوقا . تيزين . أرتاح . دلوك . قورس . منبج (ثم قال) : الباب الحادي والعشرين فيما تجدد من المساجد . الترب التي ظاهر حلب . الترب التي ظاهر باب النيرب . الترب التي ظاهر باب الجنان . وباب أنطاكية . في ذكر ما بها من الحارات . في ذكر ما بها من الجنينات . في ذكر الأمور المختصة بحلب . في ذكر منتزهاتها . في أحوال نواب حلب (وبه تم الكلام على حلب وما يتعلق بها) ثم تكلم عن مدينة طرابلس وغيرها من البلاد الشامية ثم عن مدينة مصر وملحقاتها . ثم جملة مختصرة

عن مشاهير البلدان ثم عقد فصلاً مختصراً وصف فيه البلاد وطبائعها وصفاً دقيقاً أبدع فيه وأجاد ، ثم ختم الكتاب بقوله : (تتمة) ذكر بطليموس أنه أحصى مدن الدنيا في زمنه فإذا هي ٤٢٠٠ مدينة ، وأما القلاع والحصون والأبنية التي اتخذها الجبابرة فلا يحصرها عد ولايبلغها حد ، وكذا الجزائر والبحار فإنها متعذرة الانحصار والله الموفق بمنه وكرمه (تم الكتاب) ، وإذا تأملت في هذه الفهرست تجد أن معظم الكتاب يتعلق بتاريخ حلب وهو جدير بأن يعد في تواريخها الخاصة لولا ما فيه من المقدمات والأوليات .

وإذا قابلت بينها وبين فهرست الكتاب المسمى بالدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب (وهو مطبوع كما قدمنا) ظهر لك ما حققناه من أن الدر المنتخب هو لأبي اليمن البتروني التقطه من نزهة النواظر هذا بل إنه كاد يستوعب ما فيهما هو متعلق بحلب ، ومع هذا فإن الأصل أعني نزهة النواظر جدير بالطبع لما فيه من الفوائد التاريخية عن غير الشهباء التي ربما لا تجدها في غيره على هذا النسق .

(٤٤) اقتطاف الأزاهر في ذيل روض المناظر لابن الشحنة المذكور

قال الحنبلي في در الحبب في ترجمته : ومما ألفه اقتطاف الأزاهر في روض المناظر جعله ذيلاً على تاريخ هو الذي بيض منه كراسة سماها نور الخلاف ومنتخب الاقتطاف ابن بنته الجلال النصيبي اهـ . أقول : هذه الكراسة موجودة في مكتبة الأحمدية مع كتاب الأنباء في قبائل الرواة لابن عبد البر المحدث ورقم الكتاب ٣٤٧ وهي سقيمة الخط جداً يظهر أنها بخط ابن منتخبها ابن النصيبي ، وفيها عدة تراجم منقولة في تاريخنا عن غيرها وهي ثمان ورقات .

(٤٥) الجوهرة المضية في طبقات الحنفية لأبي الفضل المذكور

في فهرست مكتبة قلج علي باشا في الآستانة ما نصه : الجوهرة المضية لمحمد بن أبي الوليد الحلبي ورقمها ٧٣٩ ونسخة في بروسة في مكتبة حسن جلبي ، ولم يذكر هذا التاريخ صاحب الكشف وقد ذكره الحافظ السخاوي في تاريخه الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع في ترجمة أبي الفضل المذكور حيث قال : إن من جملة مصنفاته طبقات الحنفية في

مجلدات ، ونقل الحنبلي في تاريخه الزبد والضرب عبارة عن هذه الطبقات لكنه سماها الجواهر المضية قال أيضاً إنها لأبي الفضل المذكور .

(٤٦) القبس الحاوي لغرر ضوء السخاوي لزين الدين عمر الشماع الحلبي المتوفى سنة ٩٣٦

قال في الكشف في صحيفة ٨٥ جلد ٢ : الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ رتبه على الحروف وانتخبه الشيخ زين الدين عمر بن أحمد الشماع الحلبي المتوفى سنة ٩٣٦ وسماه القبس الحاوي لغرر ضوء السخاوي اهـ .

يوجد نسخة من الضوء اللامع في المكتبة الظاهرية بدمشق ، وقد التقطنا ما فيه من تراجم الحلبيين في مجلد بواسطة بعض النساخ الملازمين للمكتبة ، ويوجد نسخة منه في مجلدين في المكتبة العمومية في الأستانة ورقمها ٥٢١٠ ، وقال جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (في صحيفة ١٦٩ جلد ٣) في ترجمة شمس الدين السخاوي وبيان آثاره بعد أن تكلم على الضوء اللامع : وقد اختصره أيضاً زين الدين الشماع الحلبي المتوفى سنة ٩٣٦ في كتاب سماه القبس الحاوي لغرر ضوء السخاوي في أكسفورد اهـ .

(٤٧) عيون الأخبار فيما وقع لجامعه في الإقامة والأسفار له أيضاً
(٤٨) النبذ الزاكية فيما يتعلق بذكر أنطاكية له أيضاً

لم يذكر هذين التاريخين صاحب الكشف وهما مذكوران في ترجمته الآتية في در الحبب ، وقال عن عيون الأخبار إنه انتهى فيه إلى المحرم سنة ٩٣٦ أي إلى السنة التي توفي فيها المؤلف .

(٤٩) سفينة نوح للزين الشماع أيضاً

ذكرها جرجي زيدان في آداب اللغة العربية في صحيفة ٢٨٤ جلد ٣ قال : سفينة نوح لعمر بن أحمد بن علي الحلبي الشماع جمعها بمكة سنة ٩٢٧ وفيها أخبار وتراجم

وآداب وأشعار وحكم وفقه وأحكام وغير ذلك في عدة مجلدات منها المجلد ٢٢ في المكتبة الخديوية بخط قديم اهـ .

(٥٠) ذيل العبر في أسماء من غبر له أيضاً

العبر هو للحافظ الذهبي ، قال جرجي زيدان في الكلام عليه (في صحيفة ١٩١ جلد ٣) : واختصره كثيرون وصلنا من ذيوله تذييل ابن الشماع المتوفى سنة ٩٣٦ منه نسخة في المتحف البريطاني بخط المؤلف اهـ .

(٥١) الآثار الرفيعة في مآثر بني ربيعة للرضي الحنبلي

قال صاحب الكشف في صحيفة ٤٩ جلد ١ : هو لرضي الدين محمد بن إبراهيم الحنبلي المتوفى سنة ٩٧١ ذكره في ظل العريش (اسم كتاب للمؤلف) وأن نسبته من ربيعة اهـ .

(٥٢) المنتقى من تاريخ الإسلام للذهبي
للشيخ أحمد بن محمد الملا المتوفى سنة ١٠٠٣

لم يذكر صاحب الكشف هذا التاريخ ولا هو مذكور في ترجمة مؤلفه ، لكن يوجد منه ست مجلدات في مكتبة المدرسة الأحمدية بمدينة حلب بخط ولده إبراهيم ، وربما كان بعضها بخط نفس المؤلف ، وقد ذكر ولده أن الاختصار لوالده وسماه المنتقى .

(٥٣) ذات العماد في أخبار أم البلاد لابن قضيب البان

ذكره صاحب الكشف في صحيفة ٥٢٦ جلد ١ وقال : إنه للشيخ محي الدين عبد القادر بن محمد الشهير بابن قضيب البان المتوفى بحلب سنة ١٠٤٠ اهـ . وأم البلاد هي مكة .

(٥٤) تاريخ مصطفى نعيما الحلبي المتوفى سنة ١١٢٨ بالأستانة

هو تاريخ تركي في ست مجلدات مطبوع في المطبعة العامرة في الأستانة سنة ١٢٨٣ أرخ فيه حوادث الدولة العثمانية من سنة ألف إلى سنة ١٠٧٠ وفيه حوادث عن الشهباء ترجمناها عنه .

(٥٥) المقامة البحرية لإسحق بن محمد البخشي المتوفى سنة ١١٤٠

قال المرادي في سلك الدرر في ترجمة المؤلف : ولما اصطحبه معه الوزير قبطان إبراهيم باشا لسفر الموره من البحر وحصل لهم الفتح والنصر أنشأ مقامة بحرية ووصف فيها كيفية الذهاب والإياب وكيفية القتال براً وبحراً وما يسره الله من الفتح والنصر بألفاظ عذبة أنيقة وشاع ذكرها بين أدباء العصر .

انتهت المقدمة

الكلام على حدود سوريا ومساحتها

قال ابن الشحنة : أما حدود الشام [سورية] فهي أربعة : فالحد الجنوبي من العريش مما يلي مصر والشرقي البادية من أيلة إلى الفرات والشمالي بلاد الروم والغربي بحر الروم .

وفي النخبة الأزهرية : يسمى الإقليم الواقع شرق البحر الأبيض المتوسط سورية ، وقد أطلق العرب عليه منذ افتتاحها اسم بلاد الشام . أما حدود هذا الإقليم فشمالاً آسيا الصغرى وشرقاً الفرات والصحراء وجنوباً صحراء العرب وغرباً البحر الأبيض المتوسط . وتبلغ مساحة سورية مائة ألف من الكيلومترات المربعة اهـ . وفي لاروس أن مساحتها ١١٥٠٠٠ من الكيلو مترات .

وفي منجم (ذيل معجم البلدان) أن سورية ممتدة من ٣١ درجة إلى ٣٦ درجة و٣٠ دقيقة طولاً شمالياً ، ومساحتها نحو ٢٨ ألف ميل مربع .

وفي الدر المنتخب : وسوريا يطلق على الشام الأولى وهي حلب وأعمالها ، وبناحية الأحص من بلد حلب مدينة خربت تسمى سوريا وإليها ينسب القلم السرياني واللسان السرياني .

سكان سورية الأقدمون

قال في منجم العمران : أول من حل البلاد السورية من الأمم هم قبائل ينفيليم وأميم ورافايم وزوريم وعناقيم وزمزوميم ثم تبعتهم قبائل الأموريين والصيدونيين والجرجاشيين والعراقيين والسريانيين والأرواديين والحماتيين والصماديين وهم الذين سماهم اليونانيون الفينيقيين ، ثم لحقهم بنو تارح وتناسل منهم إسرائيل وأدوم وموآب وعمون ، ثم لما ضاقت تلك البلاد بتجاراتهم وصناعاتهم وأرادوا التوسع في ذلك أخذوا يضربون في البحار حتى انتشروا في قبرص ورودس وكريد اليونانية وصقلية وكوزو ومالطه وكورسيكا وماجوركا وأنبكا وقرطاجن ، ثم جاوزوا البحر المتوسط إلى جزر بريطانيا وشمالي فرنسا وبلجيكا وبرعوا في الصنائع واتسع

(٣) هو هيركلوف الحماتيني أو الكيتا ، هذه الكلمة أي الهيروكليف تعرف في أوربا بالكتان الحماتية نسبة إلى أهالي حماة قديماً ، وهي مكتوبة على حجارة سود وجد منها في حلب حجر وحجران في حماة وحجارة كثيرة في جرابلس وهي في نواحي الفرات تبعد نحو ست ساعات عن برهجيك ، وقد كانت جرابلس في أيام الآشوريين تسمى قاركمش ومعناها مدينة الإله كمش ، وقد كانوا يقدمون له أولادهم هدايا ، وقد كانت هذه المدينة أكبر مدن الحماتيين وقد ملكها شلمناصر الرابع ملك نينوى سنة ٨٦٠ قبل المسيح وأرسل جملة من هذه الحجارة موسيو هندرسون قنصل الإنكليز في حلب إلى لوندرا . اهـ منه .

نطاق تجارتهم وصنعوا السفن ، وكان العريش محطاً لقوافل بلاد العرب[1] وسائر واردات الخليج الفارسي والهند وأقصى الشرق وأصبحت تجارتهم ممتدة بين اليونان ومصر وسوريا وبلاد النهرين والأرمن والكلدان والهند وبلاد الإنكليز وإسبانيا ، ومهروا في كثير من الصنائع كالصباغة والنسيج ، واستجلبوا بزر الحرير من بلاد فارس وصنعة الزجاج والنقش والحفر وصب الذهب والفضة ، وكانت لغتهم شبيهة بالسامية ومشتقة منها ، وكان قلمهم الهيروكليفي ومنه اتخذ اليونان حروفهم ، وكان لكل أمة ملك يسوسهم ويدينون بدينه ، وكانت سيادة المدائن في صيدا ثم انتقلت إلى صور وكان صاحبها يلقب بملكارات ، وكانت الأمم كل سنة ترسل وفداً إلى صور لعبادة ملكارات ، وكانت الأراضي ملكاً للملك يستغلها وينعم بما شاء على من شاء ، وقد كانوا في بدء أمرهم يدينون بالوحدانية جرياً على النهج القديم الذي كانت تنهجه الأمم الذين قبلهم قبل أن تتلوث الأديان بالدين الوثني وتنطمس القلوب بعبادة الأجرام السماوية وهياكلها وصورها .

ثم لما كثر اختلاط الأمم بعضها ببعض تولدت الشحناء بينهم واستحكم فيهم حب الغلبة والاستبداد وأخذت الحروب تتداول بينهم وصارت سجية لهم وقوي التحزب والطمع وأخذ القوي يسطو على الضعيف ، واشتدت المشاحنة بين الإسرائيليين والكنعانيين والفلسطينيين ، وتوالت على سورية فتوحات اليونانيين والفرس والأروام إلى أوائل القرن السابع من الميلاد وبه قامت الدعوة الإسلامية وأرسل رسول الله ﷺ يدعو قيصر الروم إلى الإسلام .

وفي تحف الأنباء : أول من استوطن هذه البقعة (سورية) بنو حام بن نوح ، فإنهم كانوا مستوطنين من شط بغداد إلى شط مصر ، وقد كانت فرقة منهم فيها تسمى (الكيتا) فسكنت بقعة حمص وحماة وحلب . وأما بنو سام فسكنوا بقعة بغداد والجانب الآخر من الشط ، وأما بنو يافث فسكنوا بقعة الهند والعجم ، ثم إن إبراهيم الخليل عليه السلام لما فر من النمرود أتى بقعة (حلب) وسكنها ، ثم جاء بعده بنو آدم بن لوط من بني سام واستولوا على تلك البقعة وأخرجوا منها أولاد حام ومن ثم سميت مملكة الآراميين

---

(١) وفي عهد دولة الأنباط الشاميين أشهر محطة للقوافل في بلاد العريش هي (بطرا) قصبتهم .

والسريانيين ، وقسموها إلى ثلاثة أقسام : الأولى جزيرة الآرام وهي من الخابور إلى الفرات ، والثانية المملكة الشامية وهي دمشق وماقرب منها ، والثالثة مملكة آرام صوبا وهي الجبّول وماقرب منها .

لغة سكان سورية وأديانهم وعدد نفوسهم الآن

اللغة العربية هي لغة معظم السوريين ، ويوجد من يتكلم باللغة التركية والكردية والسريانية والجركسية ، واللغة الجامعة للإسرائيليين هي العبرانية ، ولما أنشئت المدارس الرسمية والوطنية والأجنبية تسربت إليها اللغات الأوروبية الإفرنسية وهي أكثرهن شيوعاً ثم الإنكليزية والألمانية والإيطالية .

والدين الغالب في بلاد سورية هو الإسلام ثم المسيحي بجميع مذاهبه ثم اليهودي ، ويوجد بها قليل من الإسماعيلية والمتاولة والدروز وغير ذلك .

وعدد سكانها على الإحصاءات الأخيرة يزيد عن الثلاث مليونات من النفوس من عرب وأتراك وأعجام وتركمان وإفرنج وغيرهم .

عدد ولايات سورية

تنقسم البلاد السورية إلى ثلاث ولايات : هي حلب والشام وبيروت ، وإلى متصرفيتين هما القدس الشريف وجبل لبنان ، وغرضنا في هذا الكتاب بيان تاريخ الأولى التي عاصمتها (مدينة حلب) الموصوفة والمشهورة بالشهباء .

موقع حلب من الكرة الأرضية وحدودها

قال في معجم البلدان : قال بطليموس : طول مدينة حلب تسع وستون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها خمسة وثلاثون وخمسة وعشرون دقيقة داخلة في الإقليم الرابع ، والذي في كتب الزيجات أنها واقعة في عرض (لو) أي ٣٦ ؛ وهي في عموم الخرائط المطبوعة في أوروبا والأستانة ومصر مثبتة في عرض ٣٦ . وفي الثمار الشهية أنها تبعد عن

(١) أقول : بحثت كثيراً عن هذا الحجر فلم أجد له أثراً ولعل الجدار الذي كان فيه خرب وذهب مع الأنقاض . /

البحر المتوسط ٧٠ ميلاً أو ١٥٠ كيلو متراً . وفي الدر المنتخب نقلاً عن ابن الخطيب : أجناد الشام خمسة : فأولها جند قنسرين ومدينتهم العظمى حلب وهي أكبر جنود الشام وأكثرها مدناً وحصوناً ، حدها من جهة المغرب البحر الرومي أي الأبيض المتوسط ومن جهة المشرق الفرات وبعض البادية إلى منتهى المناظر ومن جهة الشمال درب الروم ومن جهة الجنوب حدود حمص وينتهي إلى قرية تعرف بالقرشية بالقرب من اللاذقية إلى حدود سلمية .

وفيه نقلاً عن العقد الشام : الخامسة قنسرين ومدينتها العظمى حلب وبينهما أربع فراسخ ومن ساحلها أنطاكية مدينة عظيمة ، ومن ثغور حلب المصّيصة وطرسوس وفيها سيحان وجيحان .

وفي منجم العمران : يحدها شمالاً ولايتا مغمورة العزيز وسيواس وشرقاً ولايتا ديار بكر والزور وجنوباً ولاية الشام وغرباً البحر الأبيض المتوسط وولاية آطنة ومسافتها ٣٠٠ ٤٠٠ ميل مربع وعدد سكانها على عهد الدولة العثمانية نحو مليون وربع . وفي السالنامة : طول ولاية حلب من الشرق إلى الغرب ٨٥ ساعة وعرضها ٩٠ ساعة .

ذكر بناء حلب وسبب تسميتها بحلب ووصفها بالشهباء

قال في الباب الثاني من الدر المنتخب : قال كمال الدين بن العديم : قرأت في كتاب الجامع للتاريخ المتضمن ذكر مبدأ الدول ومنشأ الأمم ومواليد الأنبياء وأوقات بناء المدن وذكر الحوادث مما عني بجمعه أبو النصر يحيى بن جرير الطبيب التكريتي النصراني من عهد آدم إلى دولة بني مروان ونقلت ذلك من خطه قال :

ذكر أن في دولة المواصلة أن بلوكوش الموصلي ملك خمساً وأربعين سنة وأول ملكه في سنة ثلاث آلاف وتسعماية وتسعة وثمانين سنة ٣٩٨٩ لآدم عليه السلام وهو الذي بنى مدينة حلب . وكذا قال أبو الريحان أحمد بن محمد البيروني في كتاب القانون المسعودي ، إلا أنه سماه بلقورس ، غير أن هذه الأسماء الأعجمية لا يكاد المسمون لها يتفقون على صورة واحدة لاختلاف ألسنتهم .

وقال هو وصاحب المعجم : لما ملك بلقورس الأثوري الموصل وقصبتها يومئذ نينوى كان المتولي على خطة قنسرين حلب بن المهر (بفتح الميم) أحد بني الخاب* بن مكنف من العمالقة فاختط مدينة حلب وسميت به ، وكان ذلك على مضي ثلاثة آلاف وتسعمائة وتسعين سنة لآدم ، وكانت مدة بلقورس هذا ثلاثين عاماً . وكان بناها بعد ورود إبراهيم عليه السلام إلى الديار الشامية بخمسمائة وتسع وأربعين سنة لأن إبراهيم ابتلي بما ابتلي به من نمرود زمانه واسمه راميس وهو الرابع من ملوك أثورا ، وكانت مدة ملكه تسعة وثلاثين سنة ومدة ما بينه وبين آدم ثلاثة آلاف وأربعماية وثلاث عشرة سنة . وفي السنة الرابعة والعشرين من ملكه ابتلي إبراهيم عليه السلام بنار نمرود فهرب منه مع عشيرته إلى ناحية حران ثم انتقل إلى جبل البيت المقدس ، وكانت عمارتها بعد خروج موسى من مصر وبني إسرائيل إلى التيه وغرق فرعون بمائة وعشرة أعوام .

وكان أكبر الأسباب في عمارتها ما حل بالعماليق في البلاد الشامية من خلفاء موسى عليه السلام ، وذلك أن يوشع بن نون لما خلفه موسى قاتل أريحا والغور وافتتحها وسبى وقتل وأحرق وضرب ثم افتتح بعد ذلك بلدة عمان ، وارتفع العماليق من تلك الديار إلى أرض سوريا وهي قنسرين وبنوا حلب وجعلوها حصناً لأنفسهم وأموالهم ولم يزالوا متحصنين بعواصمها إلى أن بعث الله داود عليه السلام فانتزعها منهم .

أقول : إن بين آدم والهجرة كما في أبي الفدا ٦٢١٦ ، فإذا أسقطنا منها المدة التي بين بلوكوش وآدم وهي ٣٩٩٠ سنة يبقى ٢٢٢٦ سنة ، فإذا اعتبرنا أنه عمرها بعد مضي ١٥ سنة من ملكه وأضفنا إلى ذلك من الهجرة إلى الآن مع المسامحة بالفرق بين السنين الشمسية والسنين القمرية وهو ١٣٤٢ يكون المجموع ٣٦٨٣ سنة هي المدة التي مضت على بناء حلب للمرة الأولى إلى الآن .

صورة أخرى أن بين مولد إبراهيم وآدم كما في أبي الفدا ٣٣٢٣ ومن مولده إلى هجرته إلى الشام وولادة إسماعيل له ٨٥ تقريباً وبناء حلب بعد ذلك كما تقدم بـ ٥٤٩ يكون المجموع ٣٩٥٧ ، فإذا أسقطنا ذلك من ٦٢١٦ يبقى ٢٢٥٧ ، وإذا أضفنا إلى ذلك من

---

* في معجم البلدان : الجان .

الهجرة إلى الآن ١٣٤٢ يكون المجموع ٣٥٩٩ سنة هي المدة التي مضت على بنائها للمرة الأولى فتكون الروايتان متقاربتين من بعضهما ، بل إذا اعتبرنا أن بناء بلوكوش لها في أواخر مدته يكون الفرق بين الروايتين أربع أو خمس سنين .

وقال في الدر المنتخب : إنها كانت تسمى باليونانية باروا وقيل بيروا ، والصابئة كانت تسميها مابوغ ، وقال : قد كانت حلب تعرف بمدينة الأحبار عند الصابئة وجد في كتاب بابا الصابي الحراني في المقالة الرابعة في ذكر خروج الحبشة وفسادهم في البلاد : وينزل الفرات وتامن مدينة الأحبار المسماة مابوغ وهي حلب . وقال في المقالة السادسة : وأنت يا مابوغ وهي حلب مدينة الأحبار يأتي رجل سلطان يحل بك ويعلي أسوارك ويجدد أسواقك ويجري العين التي فيك وبعد قليل يؤخذ منك .

قال : ولما شرع السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف في بناية الأسوار والأبراج بحلب وعمر السوقين الذين أنشأهما شرقي الجامع بمدينة حلب أحدهما نقل إليه الحريريين والآخر نقل إليه النحاسين .

قال في معجم البلدان وكذا في الدر المنتخب : ذكر آخرون في سبب عمارة حلب أن العماليق لما استولوا على البلاد الشامية وتقاسموها بينهم استوطن ملكهم مدينة عمان ومدينة أريحا الغور ودعاهم الناس الجبارين ، وكانت قنسرين يومئذ عامرة ولم يكن يومئذ اسمها قنسرين وإنما كان اسمها سوريا وكان هذا الجبل المعروف الآن بسمعان يعرف بجبل نبو ، ونبو صنم كانوا يعبدونه في موضع يعرف اليوم بكفر نبو ، والعمائر الموجودة في هذا الجبل إلى اليوم هي آثار المقيمين في جوار هذا الصنم ، وقيل بلعام بن باعورا البالسي إنما بعثه الله إلى عباد هذا الصنم لينهاهم عن عبادته ، وقد جاء ذكر هذا الصنم في بعض كتب بني إسرائيل وأمر الله بعض أنبيائهم بكسره . زاد في الدر المنتخب نقلاً عن مختصر البلدان : وبه قبة الصنم اهـ . وسيأتي بيان أن عباد هذا الصنم هم البابليون . وفي الدر المنتخب أنها سميت حلب باسم من بناها وهو حلب بن مهر من ولد جان★ من العمالقة ، وقيل إن حلب وحمص ابنا مهر بن حمص بن جان★ ابن مكنّف من بني عمليق هما اللذان بنيا حلب وحمص فنسبتا إليهما .

★ أثبتها كذلك ، وهي في الطبعة الأولى : خاب .

وقال نقلاً عن ابن شداد عن مختصر البلدان لابن عبد الحق : قيل كان حلب وحمص وبردعة أخوة من بني عمليق فبنى كل واحد منهم مدينة سميت به .

فتبين مما تقدم أن الباني لحلب للمرة الأولى على التحقيق هو بلوكوش ملك الموصل ، وكان الوالي من قبله على خطة حلب هو حلب بن مهر فسميت باسم الوالي ، ومنه يتبين أن ما قيل في سبب تسميتها أن إبراهيم عليه السلام كان يحلب غنمه فيها الجمعات ويتصدق به فيقول الفقراء حلب حلب فسميت به لا أصل له ، وتفنيد صاحب المعجم لهذا القول في محله .

ومما يؤيد ما حققناه أن حلب ممنوعة من الصرف ولو كانت عربية مأخوذة من الحلب لنونت وصرفت .

وفي المعجم : وتلقب بالشهباء والبيضاء لبياض أرضها وأحجارها ولأنها إذا أشرف عليها تراءت له بيضاء .

ذكر بناء حلب للمرة الثانية

قال في الدر المنتخب : قال أوشارس إن في السنة الأولى من تاريخ الإسكندر ملك سلوقوس الذي يقال له نيكافوس على سوريا وبابل وهذا الرجل بنى سلوقية وأفامية والرها وحلب واللاذقية

وقال نقلاً عنه : وجدت في بعض الكتب أن جميع عدد السنين منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى أول سنة من عدد اليونانيين وتعرف بسني الإسكندر خمسة آلاف ومايتان وإحدى وعشرين سنة (في أبي الفدا ٥٢٨١) وهذا يدل على أن سلوقوس بنى حلب مرة ثانية ، ولعلها كانت خربت بعد بناء بلوكوش فجدد بناءها سلوقوس فإن ما بين المدتين ما يزيد على ألف ومائتي سنة .

وقال صاحب المعجم نقلاً عن أبي نصر يحيى بن جرير الطبيب التكريتي النصراني : كان الملك على سوريا وبابل والبلاد العليا سلوقوس نيقطور وهو سرياني وملك في السنة الثالثة لبطليموس بن لاغوس بعد ممات الإسكندر ، وفي السنة الثالثة عشرة من مملكته بنى

سلوقوس اللاذقية وسلوقية وأفامية باروا وهي حلب وأراسا وهي الرها وكمل بناء أنطاكية اهـ .

وفي الدر المنتخب نقلاً عن كمال الدين بن العديم قال : نقلت من خط إدريس ابن حسن الإدريسي ما ذكر أنه نقله من تاريخ أنطاكية قال صاحب تاريخ أنطاكية وهو أحد المسيحية الشوريانية ، إن الذي بنى حلب بعد الإسكندر هو بطليموس الأديب وهو الذي بنى سلوقية وأفامية والرها واللاذقية وباروا وهي حلب وهذا بطلموس الأديب هو سلوقوس ، لكن اليونانيون كانوا يسمون كل من ملك عليهم كسرى وكما تسمي الروم كل من ملك عليهم قيصر . اهـ .

أقول : والمدة بين الإسكندر وبين الهجرة ٩٣٤ سنة ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما مضى من سني الهجرة وهو ١٣٤٢ تكون المدة التي مضت على بنائها للمرة الثانية إلى الآن ألفين ومائتين وثلاث وسبعين سنة تقريباً ٢٢٧٣ .

ذكر إلزام اليهود بسكنى حلب وبناء القلعة

قال في الدر المنتخب نقلاً عن أبي الريحان أحمد بن محمد البيروني في كتاب القانون المسعودي : وفي السنة الحادية والعشرين من ملك بلقورس (صوابه سلوقوس) ألزم اليهود أن يقيموا في المدينة التي بناها واضطرهم إلى ذلك وقرر عليهم الجزية التي أزالها شمعون بعد مائة وسبعين سنة اهـ .

وفي تحف الأنباء : لما استولى على أنطاكية سليكس وهو أحد الملوك الرومانيين سنة إحدى وعشرين من جلوسه قبل ولادة المسيح بثلاثمائة واثنتي عشرة سنة جدد بناء مقدار النصف من مدينة حلب الذي كان انهدم ، وهو الذي بنى القلعة على التل المشهور عند العرب أنه لإبراهيم الخليل وأمر اليهود أن يترددوا إلى هذه البلدة للتجارة ويقيموا فيها ورتب عليهم دفع تكاليف أميرية ، فاستوطنوها وكثر عددهم فبلغت مساحة دورهم نصف ساعة طولاً . وكان لهم ضمن هذا البناء ثلاث كنائس أولها لم تزل عامرة إلى الآن وهي معبدهم

الكائن في محلتهم[١] ، والثانية عامرة أيضاً وهي معبد للمسلمين وتسمى الآن جامع الحيات وكانت عمارتها بعد ظهور المسيح بمائة سنة وجدد بناءها هليل بن ناتان كما هو مكتوب في حائطها بالقلم العبراني واللفظ عربي[٢] ، والثالثة خارج باب النصر عند جامع المدرسة في بادنجك ولكنها درست ولم يبق منها سوى بعض حروف عبرانية منقوشة على بعض حجارة هناك وفقدت منذ ثلاثين سنة ، وكان أكثر سكانها يهود ولذلك كانت تسمى مدينة الأحبار حتى إن أحد أبوابها اسمه باب اليهود ، واستمر على ذلك الاسم إلى أن أتت الملوك الأيوبية فغيرت اسمه وسمته باب النصر .

تتمة لهذه الفصول وذكر الحجر الموجودة في حلب المرسومة بالقلم الهيروكليفي وذكر غير ذلك من الأدلة التي تثبت أن العمالقة هم الذين بنوا حلب

قال في تحف الأنباء : إن الذي تحقق عندي أن حلب من بناء العمالقة ودليل ذلك الكتابة الموجودة الآن على الحجر الأسود في الحائط بظاهر جامع القيقان (صوابه قاقان) في داخل باب أنطاكية (في محلة العقبة) فإنها مرسومة بقلم الهيروكليف[٣] بلغة الكيتا أو الحماتيين ، وهذه الكتابة كان اصطلاحهم عليها في أيامهم وكان اسم حلب بلغتهم هلبون

---

(١) أقول : في الجدار الأيمن من الكنيسة في داخلها في المحل المعد للصلاة حجر مربع محرر عليه بالعبرانية (هذا القبو بناه من بيت عيلي ابن بارناتان ابن بارحادم ابن ابن مياسير من ماله الخاص سنة ١٤٥) أي للإسكندر وقد مضى على تاريخ الإسكندر ٢٢٣٥ سنة فيكون قد مضى على تاريخ بناء هذا المحل ٢٠٩٠ سنة وطول الكنيسة نحو ٣٠ متراً وعرضها نحو ١٥ متراً وفي الصحن منبر من حجر قطعة واحدة طوله أربعة أذرع كسر من أسفله في الزلزلة العظيمة التي حصلت سنة ١٢٣٧ ، ويقال إنه مبني من حين بنيت الكنيسة ، وفي الصحن ستة عواميد وهناك حجر تفيد أن بناء هذه العواميد كان سنة ١٧١٦ من تملك الإسكندر فيكون قد مضى عليها إلى وقتنا هذا ٥١٩ سنة ، وقد تجدد فيها بعد هذا غير ذلك .

(٢) الحجر في الجدار الشرقي من الجامع والمكتوب عليها ثلاثة أسطر وهي :

١ ــ تاريخ هذا الحائط سنة ٥٥٣

٢ ــ لتاريخ الإسكندر بناه الأمّان

٣ ــ هليل الكاهن بارناتان بلا أجرة

الأمان كلمة سريانية ومعناه المعلم وبار كلمة عبرانية معناها ابن وقد مضى للإسكندر ٢٢٣٥ سنة فإذا طرحنا منها ٥٥٣ يبقى ١٦٧٢ سنة .

وهَلْبه واستمرت بأيديهم إلى أن أتى الملوك المصريون وحاربوهم وملكوها منهم وهم تُدْمُس الأول وتدمس الثاني وسباتى الأول ورمْسس الأول وذلك قبل التاريخ المسيحي ما بين ألفي سنة وخمسمائة إلى ثلاثة آلاف سنة (يرد هذا القول ما يأتي بعد أسطر) وهذا دليل على أنها من بناء بني حام ، ثم إن الكيتا صالحوا الملوك المصريين واستردوها منهم فلم تزل في أيديهم إلى أن أتى بنو آرام وتغلبوا على البلاد وأخذوها منهم كما قدمنا وحينئذ اشتهرت دولة بني آرام .

وفي مجلة (المشرق جلد ٢ صحيفة ١٤) من مقالة لبولس جوون اليسوعي وصف بها حلب قال : ومما لا سبيل إلى إنكاره أن حلب كانت في القرن الرابع عشر قبل المسيح مدينة عامرة تشهد بذلك كتابة مصرية ترتقي إلى زمن رعمسيس الثاني وصف فيها سفر بعض المصريين إلى شمالي سورية جاء فيها مراراً ذكر [حلبو] أي حلب ، وورد أيضاً في رقيم هيكل رعمسيس المذكور أن هذا الفرعون انتصر على أمير حلب وكان أتى في ١٨٠٠٠ لنصرة ملوك الخطيين أو الحثيين في واقعة قاديش فغلبه رعمسيس ورماه في نهر العاصي فنجا منه بهمة جنوده وصورته على هذه البناية تمثاله معلقاً برجليه يتقيأ ما تجرعه من الماء .

ولم تخل الكتابات البابلية من ذكر حلب وهي تدعى فيها باسم حلبو كما بين ذلك العلامة أوبير ، وزعم قوم أن بانيها نمرود أول ملوك بابل [هو بلوكوش الذي قدمنا ذكره] .

وما نراه الأرجح في أصل مدينة حلب أن بناتها الحثيون من سلالة حام بن نوح ، وكانوا شعباً قوياً تملكوا على سوريا الشمالية قبل فتوحات ملوك مصر من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر قبل المسيح ، وقد أبقوا آثاراً جليلة من ملكهم في جهات حمص وحماة وحلب ، وقد وجد في تلك الجهات تماثيل ورسوم وكتابات كثيرة سطرت بلغتهم التي لم يهتد العلماء حتى الآن إلى حل رموزها ، ونظن أن هذه المدن نفسها مشتقة من هذه اللغة الحثية ، ومما يؤيد رأينا أن في قلاع المدن المذكورة تشابهاً عظيماً وكلها مبنية فوق تلال مركومة صناعياً وجوانبها مصفحة بصفائح الحجارة ، كما أن رسوم الكتابات الحثية فيها متشابهة تنبىء بأصل واحد .

وقد بقي في حلب من هذه الخطوط كتابة غاية في القدم قد ذهب بقسم منها فطمسه وهي الآن في حائط الجامع الشهير المعروف بجامع القيقان الذي يشرف على سورها القديم من جهة الغرب .

أقوال اليهود فيمن بنى حلب
والأمم التي استولت عليها إلى أن أتى الإسلام

قال في تحف الأنباء : أما اليهود فإنهم يقولون إن أول من بنى هذه المدينة بنو آرام ويسمونها آرام صوبا مستدلين بما ذكر في التوراة في الكتاب الثاني لصموئيل في القسم الثامن في السطر الثالث وهو أنه لما نزل داود إلى الفرات ضرب حاتا تيثر بن ريجوبا ملك آرام صوبا .

ولكن أقول إن هذا الوادي الذي ضرب به الآراميون هو بين الجبول وسبت، وهي شرقي الجبول من جهة الجنوب ، والدليل على ذلك أن لفظ سبت أقرب للفظ صوبا من حيث مخارج الحروف بخلاف لفظ حلب وأن سبت كانت مدينة عظيمة مآثرها موجودة حتى الآن والوادي الذي بين الجبول معروف مشاهد بين جبلين وليس كذلك بين حلب والجبول فإن بينهما سهلاً ، وأخبرني أحد حاخامي الإسرائيليين أنه سنة ألف ومائتين وعشرين من الهجرة رأى حجراً بقلعة حلب مكتوباً عليه بالعبرانية [أن إيواب بن سيرويا أخذت هذه القلعة] (١) وهذا إيواب كان رئيس جيش داود النبي ، وكان داود النبي قبل التاريخ المسيحي ما بين ألف وسبع عشرة سنة إلى ألف وثمان وخمسين سنة ، واستمرت بأيديهم إلى أن أتى الملوك البابليون وتحاربوا مع السريانيين وأخرجوهم منها وملكوها وذلك قبل التاريخ المسيحي بستمائة وستين سنة .

وكان البابليون ممن يعبدون الأصنام ولهم صنم يقال له نابو ، ولم أقف على ما يدل على آثارهم ، سوى أني وجدت بقرية من قرى حلب في جبل سمعان يقال لها كفر نابو أثر بناء لمحل الصنم الذي كان يعبده البابليون ، فإن معنى نابو بلغتهم إله فيكون معنى كفر نابو قرية الإله .

ثم حارب الملك شلمناصر الرابع الحماتيين جملة حروب ، وفي سنة ٨٦٠ قبل التاريخ المسيحي جيش في نينوى جيشاً عظيماً وقطع به نهر الخابور ونهر البليق ثم مضى إلى مدينة بتيرا أو بتيروا ، هذا ما كتب في تاريخ نينوى بالقلم المساري ؛ ومن مدينة بيترا قطع نهر الساجور وأتى مدينة قاركمش وملكها .

وفي السنة نفسها أتى مدينتي آتا وباكا وملكهما ومن هناك تسم جيشه جيشين الجيش الواحد أتى مدينتي عزاز وأرفاد وهما الآن ضيعتا عزاز وتل أرفاد والجيش الآخر أتى مدينة هلبون وهي حلب وملكها ، ومن حلب أتى حماة وملكها . وأما جيش اعزاز وأرفاد فإنه قطع نهر عفرين واجتمع بجيش حماة ، وبعد ما ملك شلمناصر الرابع كل هذه البلاد وكسر الحماتيين رجع نينوى وبقيت الملوك الحماتية تحت سلطة الملوك البابليين إلى أن أتى ملوك العجم والساسانيين وملكوا نينوى . ثم أتت العجم واستولت على هذه البلاد وأخرجت البابليين منها وبقيت بأيديهم إلى أن أتى الإسكندر وأخذها منهم فصارت مسكناً للروم اليونانيين . فكانوا يقولون للمدينة حلبا ولما حولها خالبين بالخاء المعجمة وذلك لأن الحاء لم يستعملوها في لغتهم فأبدلوها بالخاء المعجمة ، وأيضاً كانوا يقولون لها بروبا قيل سماها اليونانيون برّويا لأنها تشبه إحدى مدنهم المسماة بهذا الاسم .

ثم إن الروم استولوا عليها وأخذوها من اليونانيين مع وسوريا وأنطاكية وجعلوها تختاً لكرسي مملكتهم .

وفي سنة مائة وسبع أو سبع عشرة من التاريخ المسيحي أمر الإمبراطور ترايان اللاتيني بضرب السكة في حلب فشرعوا فيها ، وكان مرسوماً على أحد جانبيها صورة الإمبراطور وعلى الجانب الآخر (بروبا) وهو اسم حلب كما قدمنا بالقلم اليوناني .

ثم إن السيلاكيدين أولاد سليكس اليونانيين أرادوا أن يزيدوا في بناء حلب ويوسعوها لمحبتهم لها وطيب هوائها وعذوبة مائها فلم يمكنهم ذلك لأن القوافل التي كانت تأتي من البحر إلى الفرات ومن الفرات إلى البحر كان طريقها إلى قنسرين ولم تكن حلب حينئذ ممراً لهم لأنها كانت صغيرة جداً ولم يوجد بها ما يوجد في قنسرين من صناعات وغيرها ، فلذا تركوا توسيعها لأن قنسرين كانت محطاً لرحال التجار وتقصدها القوافل والركبان ، حتى إن تجار أوروبا كانت تأتي إليها من السويدية في طريق أنطاكية وتأتي إليها تجار العجم من الفرات

بطريق بالس المسماة الآن مسكنة يجتمعون فيها كل سنة مرتين يبيعون فيها أموالهم ، ولم تكن الطرق في ذلك الوقت سالكة إلى حلب إلا من يقصد الذهاب إلى منبج فيكون طريقه إلى حلب .

ذكر الصنم الذي كان يعبده أهل منبج وأهل حلب وتاريخ دخول النصرانية إلى حلب

قال في تحف الأنباء : كانت منبج إذ ذاك مقر صنم كبير اسمه تركيد ويعبده أهلها وكانت تسمى هيرابلس . وأما أهل حلب فإن أكثر أهلها كانوا ممن يعبدون هذا الصنم لقربها من منبج وعدم مرور القوافل عليها كما قدمنا ، ولذلك تأخر وجود النصارى فيها لأنه كما قيل لم يدخل إليها أسقف إلا بعد ثلاثماية وأربع عشرة سنة من التاريخ المسيحي . وفي سنة ثلاثماية وثلاث عشرة إلى سنة ثلاثماية وأربع وعشرين من التاريخ المذكور عمرت الملكة هيلانة أم الملك قسطنطين الكبير لنصاري حلب الكنيسة الكبيرة التي كانوا يسمونها الكنيسة العظمى . وكنيسة هيلانة في وسط المدينة وهي الآن المدرسة المسماة بالهيلانية ، وأما المشهور من أن اسمها الحلوية فهذا غلط لا أصل له[1] ، وجددت أيضاً بناء قناة حلب الآتية لها من قرية حيلان ، وأصلحت ما تهدم منها وليست هي التي أنشأتها كما زعمه كثيرون وإنما هي قديمة من زمن اليونانيين ولم يعلم اسم بانيها .

ثم بعد أن تمت عمارة الكنيسة المذكورة طلبت من ابنها قسطنطين أن يرسل بطركاً إلى نصارى حلب ، فأرسل لها بطركاً يقال له أوسطاطس ، ثم أرسل بعده مطرانين يقال لأحدهما كيروبس والآخر ملاكس ، ثم إن ملاكس وصل إلى أنطاكية بطركاً فيها سنة ثلاثماية وإحدى وستين .

---

[1] أقول : إن تسميتها بالحلوية لا باعتبار أنها محرفة عن الهيلانية كما قال بل لأن من شرط الواقف أن يضع ليلة النصف من شعبان في كل سنة حلوى مجلونة ، وقيل لأن السوق الذي هناك كان سوقاً للحلويين ، فكيفما كان فالحلوية نسبة إلى الحلوى بلا ريب وسيأتي الكلام على ذلك عند ذكر آثار نور الدين الشهيد .

وفي سنة ثلاثمائة وثلاث وثلاثين أتى الإمبراطور يوليانس من أنطاكية إلى حلب لمحاربة العجم في منبج وكان بطرك حلب حينئذ يقال له أنطوليكس .

وفي سنة أربعمائة واثنتين وثلاثين صار في حلب مجمع من الأساقفة الشرقية وكان به البطرك أكايس ، وفي سنة خمسماية وأربعين حاربت العجم الملك كيروبس النشرواني في أنطاكية وحلب وقنسرين ومنبج وملكتها الأعاجم وأحرقت منبج وأنطاكية وقنسرين ، وأما حلب فإن بطركها ميكاس صالحهم على دراهم دفعها لهم فتركوها .

ثم إن الملك كيروبس جدد بناء ما تهدم من سورها وقت المحاربة وذلك من باب الجنين إلى باب النصر وكان بناؤه من الحجر القرميد الغليظ وعمر بالقرب من باب أنطاكية بيتاً لأجل النار فإنه كان ممن يعبدونها فاشتملت وقتئذ المدينة على أربعة أنواع من الديانات حسب الفرق التي كانت فيها وهي اليهود والنصارى وعبدة الأوثان وعبدة النار ، ثم بعد أن أحرق البلاد المذكورة وعمر سوق حلب رجع إلى بلاد العجم من طريق مسكنة ، ولا يخفى ما صادف هذه المملكة من ذلك التاريخ إلى بعد برهة مائة سنة أي إلى حين ما افتتحها العرب في تاريخ سنة ستماية وثلاث وثلاثين وأخذوها من يد الإمبراطور هرقل من المحاربة وشن الغارات عليها ، وهذا هو المانع من اتساع ساحتها ونشاط أهلها . اهـ .

ذكر ملوك الروم في البلاد السورية عند ظهور الإسلام

قال المسعودي في مروج الذهب : وجدت في كتب التواريخ تنازعاً في مولد النبي ﷺ وفي عصر من كان من ملوك الروم ، فمنهم من ذهب إلى ما قدمناه من مولده وهجرته ، ومنهم من رأى أن مولده عليه الصلاة والسلام كان في ملك نوسطورس الأول وكان ملكه تسعاً وعشرين سنة (ثم ملك نوسطورس) وكان ملكه عشرين سنة (ثم ملك بعده هرقل بن منطيوس) وهو الذي في كتب الزيجات والنجوم وعليه يعمل أهل الحساب . وفي تواريخ ملوك الروم ممن سلف وخلف أن ملك الروم كان في وقت ظهور الإسلام وأيام أبي بكر وعمر هرقل ، وفي تواريخ أصحاب السير أن رسول الله ﷺ هاجر وملك الروم قيصر بن مورق ثم ملك بعده قيصر بن قيصر وذلك في أيام أبي بكر الصديق رضي الله

عنه ، ثم ملك على الروم هرقل بن قيصر وذلك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو الذي حاربه أمراء الإسلام الذين فتحوا الشام مثل أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم من أمراء الإسلام حين أخرجوه من الشام .

ذكر وضع التاريخ في الإسلام

قال ابن الأثير في الكامل : الصحيح المشهور أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بوضع التاريخ ، وسبب ذلك أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر أنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ ،فجمع عمر الناس للمشورة فقال بعضهم :أرخ بمبعث النبي ﷺ ، وقال بعضهم : بمهاجرة رسول الله ، فقال عمر : بل نؤرخ بمهاجرة رسول الله فإن مهاجرته فرق بين الحق والباطل ، قاله الشعبي ، وقال ميمون بن مهران : رفع إلى عمر صك محله شعبان فقال : أي شعبان أشعبان هو آت أم شعبان الذي نحن فيه ، ثم قال لأصحاب رسول الله ﷺ : ضعوا للناس شيئاً يعرفونه ، فقال بعضهم : اكتبوا على تاريخ الروم فإنهم يؤرخون من عهد ذي القرنين ، فقال : هذا يطول ، فقال : اكتبوا على تاريخ الفرس ، فقيل إن الفرس كلما أقام ملك طرح تاريخ من كان قبله ، فاجتمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله بالمدينة فوجدوه عشر سنين فكتبوا التاريخ من هجرة رسول الله ﷺ . وقال محمد بن سيرين : قام رجل إلى عمر فقال : أرخوا فقال عمر : ما أرخوا ؟ فقال : شيء تفعله الأعاجم في شهر كذا من سنة كذا ، فقال عمر : حسن ، فأرخوا فاتفقوا على الهجرة ، ثم قالوا : من أي الشهور ؟ فقالوا : من رمضان ، ثم قالوا : فالمحرم هو منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام ، فأجمعوا عليه . وقال سعيد بن المسيب : جمع عمر الناس فقال : من أي يوم نكتب ؟ فقال علي : من مهاجرة رسول الله ﷺ وفراقه أرض الشرك ، ففعله عمر . اهـ .

وقال الذهبي في تاريخه عن سعيد بن المسيب قال : أول من كتب التاريخ عمر بن الخطاب لسنتين ونصف من خلافته في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة من الهجرة بمشورة علي رضي الله عنهم أجمعين .

قال في المصباح : ويعتبر التاريخ بالليالي لأن الليل عند العرب سابق على النهار لأنهم كانوا أميين لا يحسنون الكتابة ولم يعرفوا حساب غيرهم من الأمم فتمسكوا بظهور الهلال وإنما يظهر بالليل فجعلوه ابتداء التاريخ . اهـ .

ذكر فتح الديار الحلبية

قال ابن الأثير في حوادث سنة ١٥ خمس عشرة : لما فرغ أبو عبيدة من فتح دمشق وحمص وبعلبك وحماة مضى نحو شيزر فخرجوا إليه يسألون الصلح على ما صالح عليه أهل حماة ، وسار أبو عبيدة إلى معرة حمص وهي معرة النعمان نسبت بعد إلى النعمان بن بشير الأنصاري فأذعنوا له بالصلح على ما صالح عليه أهل حمص ، ثم أتى اللاذقية فقاتله أهلها وكان لها باب عظيم يفتحه جمع من الناس فعسكر المسلمون على بعد منها ، ثم أمر فحفر حفائر عظيمة تستر الحفرة منها الفارس راكباً ، ثم أظهروا أنهم عائدون عنها ورحلوا ، فلما جنهم الليل عادوا واستتروا في تلك الحفائر وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا عنه فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد ، فلم يرعهم إلا والمسلمون يصيحون بهم ودخلوا معهم المدينة وملكت عنوة وهرب قوم من النصارى ، ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم فقوطعوا على خراج يؤدونه قلوا أو كثروا ، وتركت لهم كنيستهم وبنى المسلمون بها مسجداً جامعاً بناه عبادة بن الصامت ثم وسع فيه بعد ، ولما فتح المسلمون اللاذقية جلا أهل جبلة من الروم عنها .

ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين ، فلما نزل الحاضر زحف إليهم الروم وعليهم ميناس وكان من أعظم الروم بعد هرقل فاقتتلوا فقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها فماتوا على دم واحد .

وفي تاريخ الإمام ابن جرير الطبري أن أهل الحاضر أرسلوا إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم .

وقال البلاذري في فتوح البلدان : سار أبو عبيدة بن الجراح بعد فراغه من أرض اليرموك إلى حمص فاستقراها ثم أتى قنسرين وعلى مقدمته خالد بن الوليد فقاتله أهل مدينة

قنسرين ثم لجأوا إلى حصنهم وطلبوا الصلح فصالحهم أبو عبيدة على مثل صلح حمص وغلب المسلمون على أرضها وقراها ، وكان حاضر قنسرين لتنوخ مذ أول ما تنخوا بالشام نزلوه وهم في خيم الشعر ثم ابتنوا به المنازل فدعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليم بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، فحدثني بعض ولد يزيد بن حنين الطائي الأنطاكي عن أشياخهم أن جملة من أهل ذلك الحاضر أسلموا في خلافة أمير المؤمنين المهدي فكتب على أيديهم بالخضرة قنسرين . اهـ .

قال ابن الأثير : وسار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصنوا منه ، فقال : لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا ، فنظروا في أمرهم ورأوا ما لقي أهل حمص فصالحوهم على صلح حمص فأبى خالد إلا على خراب المدينة فأخربها فعند ذلك دخل هرقل القسطنطينية ، وسببه أن خالداً وعياضاً أدربا إلى هرقل من الشام وأدرب عمرو بن مالك من الكوفة فخرج من ناحية قرقيسيا وأدرب عبد الله بن المعنم من ناحية الموصل ، ثم رجعوا فعندها دخل هرقل القسطنطينية ، وكانت هذه أول مدربة في الإسلام سنة خمس عشرة وقيل ست عشرة ، فلما بلغ عمر صنيع خالد قال: أمرخالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني، وقدكان عزله والمثنى بن حارثة وقال إني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما ، فأما المثنى فإنه رجع عن رأيه فيه لما قام بعد أبي عبيدة ورجع خالد بعد قنسرين .. قال في زبدة الحلب : يعني أن خالداً كان أمير المسلمين من جهة أبي بكر رضي الله عنه على الشام فلما ولي عمر عزله وولى أبا عبيدة ثم ولاه عمر رضي الله عنه على قنسرين . ثم قال ابن الأثير : وأما هرقل فإنه خرج من الرها وكان أول من أنبح كلابها ونفر دجاجها من المسلمين زياد بن حنظلة وكان من الصحابة ، وسار هرقل فنزل بشمشاط ثم أدرب منها نحو القسطنطينية فلما أراد المسير منها علا على نشز ثم التفت إلى الشام فقال : السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً حتى يولد المولود المشؤوم ويا ليته لا يولد فما أحلى فعله وأمرَّ فتنته (في موضع آخر عاقبته) على الروم ، ثم سار فدخل القسطنطينية[1] وأخذ أهل الحصون التي بين إسكندرية

---

(١) قال ابن العبري في تاريخه مختصر الدول في خلافة عمر : رحل هرقل من أنطاكية إلى القسطنطينية وهو يقول باليونانية (سوزة سوريه) وهي كلمة وداع لأرض الشام وبلادها . اهـ . وفي الهامش سوزة كلمة يونانية أي كوني بسلام .

(إسكندرونة) وطرسوس معه لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم وشعث الحصون فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً وربما كمن الروم عندها فأصابوا غرة المتخلفين فاحتاط المسلمون لذلك . اهـ .

وفي ابن جرير : لما خرج هرقل من الرها واستتبع أهلها قالوا : نحن ههنا خير منا معك ، وأبوا أن يتبعوه وتفرقوا عنه وعن المسلمين .

ولحقه رجل من الروم كان أسيراً في أيدي المسلمين فأفلت فقال : أخبرني عن هؤلاء القوم فقال : أحدثك كأنك تنظر إليهم ، فرسان بالنهار ورهبان بالليل ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن . ولا يدخلون إلا بسلام ، يقفون على ما حاربهم حتى يأتوا عليه فقال : لئن كنت صدقتني ليرثنَّ ما تحت قدميَّ هاتين .

ذكر فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم

قال ابن الأثير : لما فرغ أبو عبيدة من قنسرين سار إلى حلب فبلغه أن أهل قنسرين نقضوا أو غدروا ، فوجه إليهم السمط بن الأسود الكندي فحصرهم وفتحها وأصاب فيها بقراً وغنماً فقسم بعضه في جيشه وجعل بقيته في المغنم .

وفي فتوح البلدان لأحمد بن يحيى البلاذري قال : حدثني هشام بن عمار الدمشقي قال حدثنا يحيى بن حمزة عن أبي عبد العزيز عن عبادة بن نسي عن عبد الرحمن بن غنم قال : رابطنا بمدينة قنسرين مع السمط (أو قال مع شرحبيل بن السمط) الخ ماتقدم .
قال في زبدة الحلب : وكان حاضر قنسرين قديماً نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم حين نزل الجبلين من نزل منهم ، فلما ورد أبو عبيدة عليهم أسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك بيسير إلا من شذ منهم .

قال ابن الأثير : ثم أتى أبو عبيدة حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهري فتحصن أهلها وحصرهم المسلمون فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم وحصنهم فأعطوا ذلك واستثنى عليهم موضع المسجد ، وكان الذي صالحهم عياض فأجاز أبو عبيدة ذلك ، وقيل صولحوا على أن يقاسموا منازلهم وكنائسهم ،

وقيل إن أبا عبيدة لم يصادف بحلب أحداً لأن أهلها انتقلوا إلى أنطاكية وأرسلوا في الصلح ، فلما تم ذلك رجعوا إليها .

وقال الكمال بن العديم في زبدة الحلب : إن خالداً رضي الله عنه سار إلى حلب فتحصن منه أهل حلب وجاء أبو عبيدة حتى نزل عليهم فطلبوا إلى المسلمين الصلح والأمان فقبل منهم أبو عبيدة وصالحهم وكتب لهم أماناً ودخل المسلمون حلب من باب أنطاكية ووقفوا داخل الباب ووضعوا أتراسهم في مكان فبني ذلك المكان مسجداً وهو المسجد المعروف بالغضايري داخل باب أنطاكية ويعرف الآن بمسجد شعيب .

وقال ابن شداد في الكلام على المساجد : (ومسجد الغضايري) ويعرف الآن بمسجد شعيب وهو أول مسجد اختطه المسلمون ، ولما فتح المسلمون حلب دخلوها من باب أنطاكية ووقفوا داخل البلد ووضعوا أتراسهم في مكان بني به هذا المسجد وعرف أولاً بأبي الحسن علي بن عبد الحميد الغضايري(١) أحد الأولياء من أصحاب سري السقطي رحمه الله تعالى وعرف ثانياً بمسجد شعيب وهو شعيب بن أحمد الأندلسي(٢) الفقيه كان من الفقهاء والزهاد ،وكان نور الدين محمود بن زنكي يعتقد فيه ويتردد إليه فوقف على هذا المسجد وقفاً ورتب فيه شعيباً المذكور مدرساً على مذهب الشافعي رضي الله عنه . اهـ .

قال البلاذري في فتوح البلدان : كان بقرب مدينة حلب حاضر يدعى حاضر حلب يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ، ثم إنهم أسلموا بعد ذلك فكانوا مقيمين وأعقابهم به إلى بعيد وفاة أمير المؤمنين الرشيد ، ثم إن أهل ذلك الحاضر حاربوا أهل مدينة حلب وأرادوا إخراجهم منها فكتب الهاشميون من أهلها إلى جميع من حولهم من قبائل العرب يستنجدونهم فكان أسبقهم إلى إنجادهم وإغاثتهم العباس ابن زفر الهلالي فلم يكن لأهل ذلك الحاضر بهم طاقة فأجلوهم عن حاضرهم وأخربوه وذلك في أيام فتنة محمد بن الرشيد ، فانتقلوا إلى قنسرين وأرادوا التغلب عليها فأخرجوهم عنها فتفرقوا في البلاد .

---

(١) انظر وفيات سنة ٣١٣

(٢) انظر وفيات سنة ٥٩٦ .

قال ابن الأثير : وسار أبو عبيدة من حلب يريد أنطاكية وقد تحصن بها كثير من الخلق من قنسرين وغيرها ، فلما قاربها لقيه جمع العدو فهزمهم فألجأهم إلى المدينة وحصرها من جميع نواحيها ، ثم إنهم صالحوه على الجلاء أو الجزية فجلا بعض وأقام بعض فأمنهم ثم نقضوا فوجه إليه أبو عبيدة عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحها على الصلح الأول (وكان مبلغ ذلك كما في فتوح البلاد للبلاذري على كل حالم منهم ديناراً وجريباً ، وذكر أن القرية التي التقى عندها الجيشان يقال لها (مهرويه) وهي على قريب فرسخين من مدينة أنطاكية) .

وكانت أنطاكية عظيمة الذكر عند المسلمين فلما فتحت كتب عمر إلى أبي عبيدة أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء ، وبلغ أبا عبيدة أن جمعاً من الروم بين معرة مصرين وحلب فسار إليهم فلقيهم فهزمهم وقتل عدة بطارقة وسبى وغنم وفتح معرة مصرين على مثل صلح حلب وجالت خيوله فبلغت بوقا وفتحت قرى الجومة وسرمين ومرتحوان وتيزين[1] وغلبوا على جميع أرض قنسرين وأنطاكية ، ثم أتى أبو عبيدة حلب وقد التاث أهلها فلم يزل بهم حتى أذعنوا وفتحوا المدينة ، وسار أبو عبيدة يريد قورس وعلى مقدمته عياض فلقيه راهب من رهبانها يسأله الصلح فبعث به إلى أبي عبيدة فصالحه على صلح أنطاكية وبث خيله فغلب على جميع أرض قورس[2] وفتح تل عزاز ، وكان سلمان بن ربيعة الباهلي في جيش أبي عبيدة فنزل في حصن بقورس فنسب إليه فهو يعرف بحصن سلمان ، ثم سار أبو عبيدة إلى منبج وعلى مقدمته عياض فلحقه وقد صالح أهلها على مثل صلح أنطاكية وسير عياضاً إلى ناحية دلوك[3] ورعبان فصالحه أهلها على مثل منبج واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بخبر الروم ، وولى أبو عبيدة كل كورة

(١) زاد البلاذري هنا : وصالحوا أهل دير طايا ودير الغسيلة على أن يضيفوا من مر بهم من المسلمين وأتاه نصارى خناصرة فصالحهم ، حدثني العباس بن هشام عن أبيه قال خناصرة نسبت إلى خناصرة بن عمرو بن الحارث الكلبي ثم الكناني وكان صاحبها . اهـ .

(٢) زاد البلاذري إلى آخر حد نقابلس

(٣) دلوك كانت بلدة قريبة من عينتاب بينهما ساعة دثرت وصارت الشهرة لعينتاب ، ورعبان كما في معجم البلدان مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة في العواصم وهي قلعة تحت جبل خربتها الزلزلة في سنة ٣٤٠ فأنفذ سيف الدولة أبا فراس بن حمدان في قطعة من الجيش فأعاد عمارتها في سبعة وثلاثين يوماً فقال أحد شعرائه يمدحه :

أرضيت ربك وابن عمك والقنا ... وبذلت نفساً لم تزل بذالها
ونزلت رعباناً بما أوليتها ... تثني عليك سهولها وجبالها

فتحها عاملاً وضم إليه جماعة وشحن النواحي المخوفة وسار إلى بالس (مسكنة) وبعث جيشاً مع حبيب بن مسلمة إلى (قاصرين) ، وكانت بالس وقاصرين لأخوين من أشراف الروم أقطعا القرى التي بالقرب منها وجعلا حافظين لما بينهما من مدن الروم بالشام ، فلما نزل المسلمون بها صالحهم أهلها على الجزية والجلاء فجلا أكثرهم إلى بلد الروم وأرض الجزيرة وقرية حسر منبج ، ولم يكن الجسر يومئذ وإنما اتخذ في خلافة عثمان للصوائف ،وقيل بل كان له رسم قديم .

قال البلاذري : ورتب أبو عبيدة ببالس جماعة من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام وقوماً لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادي من قيس وأسكن قاصرين قوماً ثم رفضوها أو أعقابهم ، وبلغ أبو عبيدة الفرات ثم رجع إلى فلسطين ، وكانت بالس والقرى المنسوبة إليها في حدها الأعلى والأوسط والأسفل أعذاء عشرية ، فلما كان مسلمة بن عبد الملك توجه غازياً للروم من نحو الثغور الجزرية عسكر ببالس فأتاه أهلها وأهل بويلس وقاصرين وعابدين وصفين وهي قرية منسوبة إليها فأتاه أهل الحد الأعلى فسألوه جميعاً أن يحفر لهم نهراً من الفرات يسقي أرضهم على أن يجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان الذي كان يأخذه ففعل فحفر النهر المعروف بنهر مسلمة ووفوا بالشرط ورم سور المدينة وأحكمه ، ويقال بل كان ابتداء الفرض من مسلمة وأنه دعاهم إلى هذه المعاملة .

قال ابن الأثير : وكان بجبل اللكام مدينة يقال لها جرجرومة وأهلها يقال لهم الجراجمة فسار حبيب بن مسلمة إليها من أنطاكية فافتتحها صلحاً على أن يكونوا أعواناً للمسلمين ، وفيها سير أبو عبيدة بن الجراح جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي فسلكوا درب بغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم وهو أول من سلك هذا الدرب فلقي جمعاً للروم معهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم لحق به مالك الأشتر النخفي مدداً من قبل أبي عبيدة وهو بأنطاكية فسلموا وعادوا ، وسيّر جيشاً آخر إلى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وأخربها ، وسيّر جيشاً آخر مع حبيب بن مسلمة إلى حصن الحدث ، وإنما سمي الحدث لأن المسلمين لقوا عليه غلاماً حدثاً فقاتلهم في أصحابه فقيل درب الحدث ، وقيل لأن المسلمين أصيبوا به فقيل درب الحدث ، وكان بنو أمية يسمونه درب السلامة لهذا المعنى .

ذكر فتح الرقة وحرّان والرها وسروج

قال ابن الأثير في حوادث سنة سبع عشرة : وفي هذه السنة قصد الروم أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين بحمص وكان المهيج للروم أهل الجزيرة فإنهم أرسلوا إلى ملكهم وبعثوه على إرسال الجنود إلى الشام ووعدوا من أنفسهم المعاونة ففعل ذلك،فلما سمع المسلمون باجتماعهم ضم أبو عبيدة إليه مسالحهم وعسكر بفناء مدينة حمص ، وأقبل خالد من قنسرين إليهم فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصين إلى مجيء الغياث فأشار خالد بالمناجزة وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبة عمر فأطاعهم وكتب إلى عمر بذلك ، فلما سمع الخبر كتب إلى سعد بن وقّاص أن اندب الناس مع القعقاع بن عمر وسرحهم من يومهم فإن أبا عبيدة قد أحيط به ، وكتب إليه أيضاً : سرح سهيل بن عدي إلى الرقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص ، وأمره أن يسرح عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ثم ليقصد (حرّان والرها) وأن يسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأن يسرح عياض بن غنم فإن كان قتال فأمرُهم إلى عياض ، فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم إلى حمص ،.وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة.وأخذوا طريق الجزيرة وتوجه كل أمير إلى الكورة التي أمر عليها ، وخرج عمر من المدينة فأتى الجابية لأبي عبيدة مغيثاً يريد حمص ، ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص وهم معهم خبر الجنود الإسلامية تفرقوا إلى بلادهم وفارقوا الروم ، فلما فارقوهم استشار أبو عبيدة خالداً في الخروج إلى الروم فأشار به فخرج إليهم فقاتلهم ففتح الله عليه ، وقدم القعقاع بن عمر بعد الوقعة بثلاثة أيام فكتبوا إلى عمر بالفتح وبقدوم المدد عليهم والحكم في ذلك ، فكتب إليهم أن أشركوهم فإنهم نفروا إليكم وانفرق لهم عدوكم .

قدمنا أن عمر كتب إلى سعد أنْ سرح سهيل بن عدي إلى الرقة ، فسار سهيل إليها وقد أرفض أهل الجزيرة عن حمص إلى كورهم حين سمعوا بأهل الكوفة فنزل عليهم فأقام يحاصرهم حتى صالحوه فبعثوا في ذلك إلى عياض وهو في منزل وسط بين الجزيرة فقبل منهم وصالحهم وصاروا ذمة .

وخرج عبد الله بن عتبان على الموصل إلى نصيبين فلقوه بالصلح وصنعوا كصنع أهل الرقة فكتبوا إلى عياض فقبل منهم وعقد لهم .

وخرج الوليد بن عقبة فقدم على عرب الجزيرة فنهض معه مسلمهم وكافرهم إلا إياد ابن نزار فإنهم دخلوا أرض الروم ، فكتب الوليد بذلك إلى عمر ، ولما أخذوا الرقة ونصيبين ضم عياض إليه سهيلاً وعبد الله وسار بالناس إلى حران فلما وصل أجابه أهلها إلى الجزية فقبل منهم ثم إن عياضاً سرّح سهيلاً وعبد الله إلى الرها فأجابوهما إلى الجزية وأجروا كل ما أخذوه من الجزية عنوة مجرى الذمة ، فكانت الجزيرة أسهل البلدان فتحاً ، ورجع سهيل وعبد الله إلى الكوفة .

وقال ابن إسحق : إن فتح الجزيرة كان سنة تسع عشرة على يد عياض بن غنم (أي بعد وفاة أبي عبيدة) وأطال في بيان ذلك .

ثم قال ابن الأثير : وقيل إن أبا عبيدة لما توفي استخلف عياضاً فورد عليه كتاب عمر بولاية حمص وقنسرين والجزيرة سنة ثمان عشرة للنصف من شعبان في خمس آلاف فارس وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي وعلى ميسرته صفوان بن المعطل وعلى مقدمته هبيرة بن مسروق ، فانتهت طليعة عياض إلى الرقة فأغاروا على الفلاحين وحصروا المدينة وبث عياض السرايا فأتوه بالأسرى والأطعمة وكان حصرها ستة أيام فطلب أهلها الصلح فصالحهم على أنفسهم وذراريهم وأموالهم ومدينتهم ، وقال عياض : الأرض لنا قد وطئناها وملكناها ، فأقرها في أيديهم على الخراج ووضع الجزية ، ثم سار إلى حران فجعل عليها عسكراً يحصرها عليهم صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلمة وسارهو إلى الرها فقاتله أهلها ثم انهزموا وحصرهم المسلمون في مدينتهم فطلب أهلها الصلح فصالحهم وعاد إلى حران فوجد صفوان وحبيباً قد غلبا على حصون وقرى من أعمال حران فصالحه أهلها على مثل صلح الرها ، وكان عياض يغزو ويعود إلى الرها . وفتح سميساط وأتى سروج ورأس كيفا والأرض البيضاء فصالحه أهلها على صلح الرها ثم إن أهل سميساط غدروا فرجع إليهم عياض فحاصرهم حتى فتحها ثم أتى قريات على الفرات وهي جسر منبج وما يليها ففتحها . ثم سرد ابن الأثير بقية فتوحاته فيما وراء ذلك من بلاد الجزيرة إلى أن قال : ثم

عاد عياض إلى الرقة ومضى إلى حمص فمات سنة عشرين . واستعمل عمر سعيد بن عامر ابن حذيم فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات فاستعمل عمير بن سعد الأنصاري .

ذكر عزل خالد بن الوليد

قال ابن الأثير : في هذه السنة وهي سنة سبع عشرة عزل خالد بن الوليد عما كان عليه من التقدم على الجيوش والسرايا ، وسبب ذلك أنه كان أدرب هو وعياض بن غنم فأصابا أموالاً عظيمة ، وكانا توجها من الجابية مرجع عمر إلى المدينة وعلى حمص أبو عبيدة وخالد تحت يده على قنسرين وعلى دمشق يزيد وعلى الأردن معاوية وعلى فلسطين علقمة بن محرز وعلى الساحل عبد الله بن قيس ، فبلغ الناس ما أصاب خالد فانتجعه رجال وكان منهم الأشعث بن قيس فأجازه بعشرة آلاف ، ودخل خالد الحمام فتدلك بغسل فيه خمر فكتب إليه عمر : بلغني أنك تدلكت بخمر وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه ومسه فلا تمسوها أجسادكم ، فكتب إليه خالد : إنا فتنّاها فعادت غسولاً غير خمر ، فكتب إليه عمر : إن آل المغيرة ابتلوا بالجفاء فلا أماتكم الله عليه .

فلما فرق خالد في الذين أنتجوه الأموال سمع بذلك عمر بن الخطاب وكان لا يخفى عليه شيء من عمله ، فدعا عمر البَريد فكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمكم من أين أجاز الأشعث أمن ماله أم من مال إصابة أصابها ، فإن زعم أنه فرقه من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة وإن زعم أنه من ماله فقد أسرف وأعزله على كل حال وأضمم إليك عمله ، فكتب أبو عبيدة إلى خالد (قدمنا أن عمر رضي الله عنه ولاه قنسرين) فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر فقام البريد فسأل خالداً من أين أجاز الأشعث فلم يجبه وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً ، فقام بلال فقال : إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ، ونزع عمامته فلم يمنعه سمعاً وطاعة ووضع قلنسوته ثم أقامه فعقله بعمامته وقال : من أين أجزت الأشعث من مالك أجزت أم من إصابة أصبتها ؟ فقال : بل من مالي ، فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال : نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا ، وأقام خالد متحيراً لا يدري أمعزول أم غير معزول ولا

يعلمه أبو عبيدة بذلك تكرمة وتفخمة ، فلما تأخر قدومه على عمر ظن الذي كان فكتب إلى خالد بالإقبال إليه فرجع إلى قنسرين فخطب الناس وودعهم ورجع إلى حمص فخطبهم ثم سار إلى المدينة فلما قدم على عمر شكاه وقال : قد شكوتك إلى المسلمين فبالله إنك في أمري لغير مجمل ، فقال : من أين هذا الثراء ؟ قال : من الأنفال والسهمان ما زاد على ستين ألفاً فلك ، فقوم عمر ماله فزاد عشرين ألفاً فجعلها في بيت المال ، ثم قال : يا خالد والله إنك عليّ لكريم وإنك إليّ لحبيب ، وكتب إلى الأمصار إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن النسا فحموه وفتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة ، وعوضه عما أخذ منه . اهـ .

وفي زبدة الحلب : لما كتب عمر إلى خالد بالإقبال إليه أتى أبا عبيدة فقال : رحمك الله ما أردت إلى ما صنعت ؟ كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم ، فقال أبو عبيدة : إني والله ما كنت لأروعك ما وجدت من ذلك بداً ، وقد علمت أن ذلك يروعك ، قال : فرجع خالد إلى قنسرين فخطب عمله وودعهم . وقال خالد : إن عمر ولاني الشام حتى إذا ألقى بوانيه وصارت بثينة وعسلاً عزلني واستعمل غيري ، وتحمل إلى حمص فخطبهم إلخ ما تقدم . قال : ثم إن أبا عبيدة استعمل على قنسرين حبيب بن مسلمة بن مالك .

ترجمة فاتحي الشهباء وقنسرين

أبو عبيدة بن الجراح . خالد بن الوليد . عياض بن غنم . شرحبيل بن السمط الأسود الكندي رضي الله عنهم

أبو عبيدة

هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشي الفهري أمين هذه الأمة وأحد العشرة وأحد الرجلين الذين عينهما أبو بكر للخلافة يوم السقيفة ، روى عنه جابر وأبو أمامة وأسلَم مولى عمر وجماعة وولي إمرة أمراء الأجناد بالشام ، وكان من السابقين الأولين شهد بدراً ونزع الحلقتين اللتين دخلتا من المغفر في وجه رسول الله ﷺ يوم أحد بأسنانه رفقاً بالنبي عليه الصلاة والسلام فانتزعت ثنيتاه فحسن بها فاه حتى قيل ما رؤي أحسن من فم أبي عبيدة ، وقد انقرض عقبه ، وكان نحيفاً معروق الوجه خفيف اللحية طوالاً أحنأ أثرم الثنيتين ، وقد أمد النبي ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل بجيش فيهم أبو بكر وعمر وأمّر عليهم أبا عبيدة . وعن عمر قال : إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حي استخلفته فإن سألني الله لم استخلفته قلت إني سمعت نبيك يقول: إن لكل أمة أميناً وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وقال عبد الله بن شقيق : سألت عائشة : أي أصحاب رسول الله ﷺ أحب إليه قالت : أبو بكر ثم عمر ثم أبو عبيدة . وقال عروة بن الزبير : قدم عمر الشام فتلقوه فقال : أين أخي أبو عبيدة ؟ قالوا : يأتيك الآن ، فجاء على ناقة مخطومة فسلم عليه ثم قال للناس : انصرفوا عنا ، فسار معه حتى أتى منزله فنزل عليه فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله ، فقال له عمر : لو اتخذت متاعاً أو قال شيئاً ، قال : يا أمير المؤمنين إن هذا سيبلغنا المقيل . ومناقب أبي عبيدة كثيرة ذكرها الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق . وقال أبو الموحد المروزي : زعموا أن أبا عبيدة كان في ستة وثلاثين ألفاً من الجند فلم يبق يعني من الطاعون إلا ستة

آلاف . وقال عروة : إن وجع عمواس كان معافى منه أبو عبيدة وأهله فقال:اللهم نصيبك في آل عبيدة ، فخرجت بثرة فجعل ينظر إليها فقيل إنها ليست بشيء ، فقال : إني لأرجو أن يبارك الله فيها . وعن عروة بن رويم أن أبا عبيدة أدركه أجله بِفِحْل فتوفي بها وهي بقرب بيسان يزار[1] .

قال القلانسي : توفي وله ثمان وخمسون سنة . اهـ . (مختصر الذهبي للشيخ أحمد ابن الملا بخطه) وله في الرياض النضرة في مناقب. العشرة ترجمة واسعة فليرجع إليها من أحب .

خالد بن الوليد

ابن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي أبو سليمان المكي سيف الله ، كذا لقبه النبي ﷺ ، وأمه لبابة أخت ميمون بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين ، شهد غزوة مؤتة وما بعدها ، روى عنه ابن عباس وقيس بن أبي حازم وأبو وائل وجماعة ، وكان بطلاً شجاعاً ميمون النقيبة باشر حروباً كثيرة ومات على فراشه وهو ابن ستين سنة ولم يكن في جسده نحو شبر إلا وعليه طابع الشهداء ، وكان من أمد الناس بصراً . ولما استخلف عمر كتب إلى أبي عبيدة إني قد وليت وعزلت خالداً . توفي سنة إحدى وعشرين بحمص ، قاله أبو عبيدة وإبراهيم بن المنذر وجماعة ، وقال رحيم وحده : مات بالمدينة .

ومناقب خالد كثيرة ساقها ابن عساكر ، من أصحها ما روي عن قيس بن أبي حازم قال : رأيت خالد بن الوليد أتي بسم فقال ما هذا ؟ قالوا سم ، فقال : بسم الله وشربه . وروى الأعمش عن خيثمة أتي برجل معه زق خمر فقال : اللهم اجعله خلاً فصار خلاً . وعن ابن عباس قال : وقع بين خالد بن الوليد وعمار كلام فقال خالد : لقد

---

(١) رأيت في رحلتي إلى دمشق في صفر سنة ١٣٣٩ في المتحف الدمشقي في العادلية سيف أبي عبيدة رضي الله عنه واستشكلت في قبضته لأن هيئتها لا تدل على قدم كثير وصنعتها تدل على أنها من آثار العجم منذ ١٥٠ أو ٢٠٠ سنة فأخبرني قيّم المتحف أن نصال السيف استخرج من قبر أبي عبيدة حينا رم وأما قبضته فهي حديثة يرجع عهدها إلى ما قلت .

همت أن لا أكلمك أبداً ، فقال النبي ﷺ : يا خالد مالك ولعمار رجل من أهل الجنة قد شهد بدراً ، وقال : يا عمار إن خالداً سيف من سيوف الله على الكفار ، قال خالد : فما زلت أحب عماراً من يومئذ . وروي أن أبا بكر عقد لخالد وقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد سيف من سيوف الله على الكفار والمنافقين . رواه أحمد . اهـ . [مختصر الذهبي من وفيات سنة إحدى وعشرين]
وقال الحافظ بن حجر في كتابة الإصابة في أسماء الصحابة : قال خالد عند موته : ما كان في الأرض من ليلة أحب إلي من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو فعليكم بالجهاد . وقال ابن المبارك في كتاب الجهاد بسنده إلى أبي وائل قال : لما حضرت خالداً الوفاة قال : لقد طلبت القتل مظانه فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي وما من عمل شيء أرجى عندي بعد أن لا إله إلا الله من ليلة بتها وأنا متترس والسماء تهلني تمطر إلى صبح حتى نغير على الكفار ، ثم قال : إذا أنا مت فانظروا في سلاحي وفرسي فاجعلوه عدة في سبيل الله . اهـ .

عياض بن غنم

الفهري أبو سعيد من المهاجرين الأولين ، شهد بدراً وغيرها واستخلفه أبو عبيدة عند وفاته على الشام ، وكان رجلاً صالحاً زاهداً سمحاً جواداً فأقره عمر على الشام ، وهو الذي افتتح الجزيرة صلحاً ، وعاش ستين سنة ، وهو عياض بن غنم بن زهير بن أبي شداد ابن ربيعة . اهـ . [مختصر الذهبي من وفيات سنة عشرين] وفي الإصابة في أسماء الصحابة للحافظ بن حجر : كان يقال لعياض زاد الراكب لأنه كان يطعم رفقته ما كان عنده وإذا كان مسافراً آثرهم بزاده فإن نفد نحر لهم جمله . اهـ .

شرحبيل بن السمط الأسود الكندي

أبو يزيد ، له صحبة ورواية ، وروى أيضاً عن عمر وسلمان وعن جبير بن نغير وكثير بن مرة وجماعة ، قال البخاري : كان على حمص وهو الذي افتتحها وكان فارساً بطلاً

شجاعاً ، قيل إنه شهد القادسية ، وكان قد غلب الأشعث بن قيس على شرق كندة ، واستقدمه معاوية قبل صفين يستشيره ، وقد قال الشعبي إن عمراً استعمل شرحبيل بن السمط على المداين واستعمل أباه بالشام فكتب إلى عمر إنك تأمر أن لا يفرق بين السبايا وأولادهن وإنك قد فرقت بيني وبين ابني فألحقه بابنه . اهـ [مختصر الذهبي من وفيات سنة أربعين] وقال الحافظ بن حجر في الإصابة في ترجمته ، شهد القادسية ثم نزل حمص قسمها منازل ، وذكر خليفة أنه كان عاملاً لمعاوية على حمص نحواً من عشرين سنة ، وقال أبو عمر : شهد صفين مع معاوية وله بها أثر عظيم ، وذكره ابن حبان في الصحابة وقال : كان عاملاً على حمص ومات بها ، وقال يزيد بن عبد ربه : مات سنة أربعين وقال غيره سنة اثنتين وأربعين .

ولاة حلب وقنسرين من سنة ١٦ إلى ٢٠

في السنة التي فتحت فيها قنسرين وحلب تولى أمرهما كل من أبي عبيدة وخالد بن الوليد رضي الله عنهما ، قال في زبدة الحلب : ثم إن أبا عبيدة استعمل على قنسرين حبيب ابن مسلمة بن مالك وطعن أبو عبيدة سنة ثمان عشرة فاستخلف على عمله عياض بن غنم وهو ابن عمه وخاله وكان جواداً مشهوراً بالجود فقال : إني لم أكن مغيراً أمراً قضاه أبو عبيدة ، ومات عياض سنة عشرين فأمّر عمر رضي الله عنه على حمص وقنسرين سعيد بن عامر بن خذيم الجمحي ومات سنة عشرين .

ترجمة حبيب بن مسلمة بن مالك :

قال في مختصر الذهبي : حبيب بن مسلمة القرشي له صحبة وهو الذي افتتح أرمينية زمن عثمان ثم كان من خواص معاوية وله معه آثار محمودة شكرها له معاوية ، يروى أن الحسن قال : يا حبيب رب مشير لك في غير طاعة الله ، قال : أما إلى أبيك فلا ، قال : بلى والله لقد طاوعت معاوية على دنياه وسارعت في هواه فلئن كان قام بك في دنياك لقد قعد بك في دينك وليتك إذ أسأت الفعل أحسنت القول . قيل توفي سنة اثنتين وقيل سنة أربع وأربعين ، و كان شريفاً مطاعاً معظماً . اهـ . وفي الإصابة : كان حبيب بن

مسلمة مجاب الدعوة ولم يزل مع معاوية في حروبه ووجهه إلى أرمينية والياً فمات بها سنة اثنتين وأربعين ولم يبلغ خمسين .

ترجمة سعيد بن عامر :

قال في مختصر الذهبي : سعيد بن عامر بن خذيم الجمحي من أشراف خذيم بني جمح ، له صحبة ورواية ، ذكر ابن سعيد أنه شهد خيبر ، قال حسان بن عطية : بلغ عمر أن سعيد بن عامر ، وكان قد استعمله على بعض الشام يعني حمص ، أصابته حاجة فأرسل إليه ألف دينار فقال لزوجته ألا نعطي هذا المال لمن يتاجر لنا فيه ، قالت : نعم ، فخرج وتصدق به ، وذكر الحديث . وروى يزيد بن أبي زياد أن عمر أرسل إلى سعيد بن عامر : إني مستعملك على هؤلاء تسير بهم إلى أرض العدو فتجاهد بهم ، فقال : يا عمر لا تفتني ، قال : والله لا أدعكم جعلتموها في عنقي ثم تخليتم عني إنما أبعثك على قوم لست بأفضلهم . اهـ من وفيات سنة عشرين . وذكر ابن الأثير وفاته في هذه السنة ، وقيل سنة تسع عشرة وقيل سنة إحدى وعشرين ، وقال : شهد فتح خيبر وكان فاضلاً وكان على حمص حتى مات وعمره أربعون سنة اهـ .

ولاية عمير بن سعد من سنة ٢٠ إلى ٢٦

قال في زبدة الحلب : بعد أن مات سعيد بن عامر أمّر عمر مكانه عمير بن سعد ابن عبيد الأنصاري على حمص وقنسرين ، ومات عمر رضي الله عنه مقتولاً في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وعمير بن سعد على حمص وقنسرين ومعاوية على دمشق والسواحل وأنطاكية ، فمرض عمير في إمارة عثمان مرضاً طال به فاستعفى عثمان واستأذنه بالرجوع إلى أهله فأذن له وضم حمص وقنسرين إلى معاوية سنة ست وعشرين فاجتمعت ولاية الشام جميعها على معاوية لسنتين من خلافة عثمان .

ترجمة عمير بن سعد :

قال في مختصر الذهبي : عمير بن سعد بن شهيد بن قيس الأنصاري الأوسي كان من زهاد الصحابة وفضلائهم ، روى عنه ابنه محمود وأبو إدريس الخولاني وكثير بن مرة

وغيرهم ، وكان يسميه عمر نسيج وحده ، ولاه عمر حمص بعد سعيد بن عامر بن خذيم فبقي على إمرتها حتى قتل عمر ، ثم نزعه عثمان . قال الحسن بن أبي الحسن : كان عمر بعث عمير بن سعد أميراً على حمص فأقام بها حولاً فأرسل إليه عمر وكتب إليه : بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب إلى عمير بن سعد السلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وقد وليناك شيئاً من أمر المسلمين فلا أدري ما صنعت أوفيت بعهدنا أم خنتنا ، فإذا أتاك كتابي هذا إن شاء الله فاحمل إلينا ما قبلك من فيء المسلمين ثم أقبل والسلام عليك ، قال : فأقبل عمير ماشياً من حمص بيده عكازة وإداوة وقصعة وجراب كثير الشعر ، فلما قدم على عمر قال له : يا عمير ما هذا الذي أرى من سوء حالك أكانت البلاد بلاد سوء أم هذه خديعة منك ، قال عمير : يا عمر بن الخطاب ألم ينهك الله عن التجسس وسوء الظن ، ألست تراني طاهر الدم صحيح البدن ومعي الدنيا بقرابها ، قال عمر : ما معك من الدنيا ؟ قال : مزودي أجعل فيه طعامي وقصعة آكل فيها ومعي عكازتي هذه أتوكأ عليها وأجاهد بها عدواً إن لقيته وأقتل بها حية إن لقيتها فما بقي من الدنيا ، قال : صدقت فأخبرني ما حال من خلفت من المسلمين ؟ قال : يصلون ويوحدون وقد نهى الله أن يسأل عما وراء ذلك ، قال : ما صنع أهل العهد ؟ قال عمير : أخذنا منهم الجزية عن يد وهم صاغرون ، قال : فما صنعت بما أخذت منهم ؟ قال : وما أنت وذاك يا عمر ، أرسلتني أميناً فنظرت لنفسي ، وأيم الله لولا أني أكره أن أغمك لم أحدثك يا أمير المؤمنين ، قدمت بلاد الشام فدعوت المسلمين وأمرتهم بما حق لهم عليَّ فيما افترض الله تعالى عليهم، ودعوت أهل العهد فخلعت من عسبهم[1] فأخذناه منهم ثم رددناه على فقرائهم ومجهوديهم لم ينلك من ذلك شيء فلو نالك بلغناك إياه وذكر حديثاً طويلاً منكراً[2] . قال المفضل العلائي : زهاد الأنصار ثلاثة أبو الدرداء وشداد بن أوس وعمير بن سعد اهـ . وذكره قبل ذلك في فصل من توفي في خلافة عثمان ، وقد كانت وفاة عثمان رضي الله عنه سنة خمس وثلاثين . وفي الإصابة قال الواقدي : كان عمر يقول : وددت أن لي رجالاً مثل عمير بن سعد أستعين بهم على أعمال

---

(١) هكذا في الأصل

(٢) الحديث المنكر هو الذي انفرد به راو لم يبلغ رتبة من يحتمل تفرده .

المسلمين . وأخرج ابن منده بسند حسن عن عبد الرحمن بن عمير بن سعد قال : قال لي ابن عمر : ما كان بالشام أفضل من أبيك .

ولاية حبيب بن مسلمة بن مالك من سنة ٢٦ إلى ٤٢

قال في زبدة الحلب : بعد أن اجتمعت ولاية الشام جميعها على معاوية لسنتين من خلافة عثمان ولى معاوية حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري على قنسرين ، وكان يسمى حبيب الروم لكثرة غزوه لهم ، ومات عثمان رضي الله عنه مقتولاً في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين والشام على معاوية وحبيب على قنسرين من تحت يده ، ثم قال بعد ذكره لخلافة علي رضي الله عنه : وبويع معاوية بالخلافة سنة إحدى وأربعين فمصر معاوية قنسرين فأفردها عن حمص ، وقيل إنما فعل ذلك ابنه يزيد ، وصار الذكر في ولاية قنسرين ووظف معاوية الخراج على قنسرين أربعماية ألف وخمسين ألف دينار وحلب للخلفاء من بني أمية لمقامهم بالشام وكون الولاة في أيامهم بمنزلة الشرطة لا يستقلون بالأمور والحروب . هـ

قال البلاذري في فتوح البلدان : نقل معاوية بن أبي سفيان إلى أنطاكية في سنة ٤٢ جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص ومن المصريين فكان منهم مسلم بن عبد الله جد عبد الله بن حبيب بن النعمان بن مسلم الأنطاكي ، وكان مسلم قتل على باب من أبواب أنطاكية يعرف اليوم بباب مسلم ، وذلك أن الروم خرجت من الساحل فأناخت على أنطاكية فكان مسلم على السور فرماه علج بحجر فقتله . وترجمة حبيب بن مسلمة تقدمت عند ذكر ولايته الأولى .

ولاية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد من سنة ٤٣ إلى ٤٦

ذكر ذلك في سالنامة ولاية حلب .

ترجمته :

قال في مختصر الذهبي : عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، أدرك النبي ﷺ ورآه وشهد اليرموك مع أبيه . قال سعد : وكان عمره يومئذ ثمان عشر سنة ،

وسكن حمص ، وكان أحد الأبطال كأبيه ، وكان معه لواء معاوية يوم صفين وكان يستعمله معاوية على غزو الروم ، وكان شريفاً شجاعاً ممدحاً . قال أبو عبيدة وغيره : توفي سنة ست وأربعين . اهـ .

قال ابن الأثير : وكان سبب موته أنه كان قد عظم شأنه عند أهل الشام ومالوا إليه لما عندهم من آثار أبيه ولغنائه في بلاد الروم ولشدة بأسه فخافه معاوية وخشي منه وأمر ابن أثال النصراني أن يحتال في قتله وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش وأن يوليه خراج حمص ، فلما قدم عبد الرحمن من الروم دس إليه ابن أثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص فوفى له معاوية بما ضمن له، وقدم خالد بن عبد الرحمن بن خالد المدينة فجلس يوماً إلى عروة بن الزبير فقال له عروة : ما فعل ابن أثال ؟ فقام من عنده وسار إلى حمص فقتل ابن أثال فحمل إلى معاوية فحبسه أياماً ثم غرمه ديته ورجع خالد إلى المدينة فأتى عروة فقال عروة : ما فعل ابن أثال ؟ فقال : قد كفيتك ابن أثال ولكن ما فعل ابن جرموز ؟ يعني قاتل الزبير فسكت عروة اهـ ، وفي الإصابة أن القاتل لابن أثال كان المهاجر بن خالد أخا عبد الرحمن بن خالد ، قال : كان المهاجر بن خالد بلغه أن ابن أثال الطبيب وكان نصرانياً دس على أخيه عبد الرحمن سماً فدخل إلى الشام واعترض لابن أثال فقتله ، ثم لم يزل مخالفاً لبني أمتة وشهد مع ابن الزبير القتال بمكة وكان قتل ابن أثال لعبد الرحمن بن خالد بالسم بحمص . اهـ .

ولاية مالك بن عبد الله الخثعمي من سنة ٤٧ إلى ٥٠

ذكر ذلك في سالنامة حلب .

ترجمته :

قال في مختصر الذهبي : مالك بن عبد الله الخثعمي أبو حكيم الفلسطيني المعروف بمالك السرايا ، قيل له صحبة ، قدم على معاوية برسالة عثمان وقاد الصوائف أربعين سنة وكسر فيما قيل على قبره أربعون لواء ، وكان صواماً قواماً شتى سنة ست وخمسين بأرض الروم وعاش بعد ذلك . اهـ .

وفي الإصابة في أسماء الصحابة عن علي بن أبي جميلة قال : ما ضرب ناقوس قط بليل إلا ومالك قد جمع عليه ثيابه يصلي في مسجد بيته وفضائله كثيرة . اهـ .

ولاية بسر بن أبي أرطاة من سنة ٥٠ إلى ٥١

(وفضالة بن عبيد من سنة ٥١ إلى سنة ٥١ وبسر بن أبي أرطاة مرة ثانية)

ذكر ذلك في السالنامة .

ترجمة بسر :

قال في مختصر الذهبي : بسر بن أبي أرطاة عمير بن عويمر بن عمران أبو عبدالرحمن العامري القرشي نزل دمشق، قال الواقدي: ولد قبل موت النبي ﷺ بسنتين ولم يسمع منه شيئاً وعليه أحمد وابن معين ، وقال ابن يونس : كان صحابياً شهد فتح مصر وله بها دار وحمام ، وكان من شيعة معاوية وولي الحجاز واليمن له ففعل فعالاً قبيحة ، وقال صاحب الأصل : كان أميراً سرياً بطلاً شجاعاً فاتكاً ساق ابن عساكر أخباره في تاريخه ، والصحيح أنه لا صحبة له ، روى ابن سعد عن عطاء بن أبي مروان قال : بعث معاوية بسر بن أبي أرطاة إلى الحجاز واليمن فقتل من كان في طاعة علي وأقام بالمدينة شهراً لا يقال له هذا ممن أعان على قتل عثمان إلا قتله . ويروى عن الشعبي أن بسراً هدم بالمدينة دوراً كثيرة ، وصعد المنبر وصاح : يادينار شيخ سمح عهد به ههنا بالأمس ما فعل يعني عثمان ، يا أهل المدينة لولا عهد أمير المؤمنين ما تركت بها محتلماً إلا قتلته ، ثم مضى إلى اليمن وقتل بها ولدين صبيين مليحين لعبد الله بن عباس وكان عبد الله والياً على اليمن من قبل علي ، وقتل من همدان أكثر من مائتين وقتل من الأبناء طائفة ، وبقي إلى خلافة عبد الملك . اهـ .
وقال أبو الفداء في حوادث سنة أربعين : وفي هذه السنة سير معاوية بسر بن أرطاة في عسكر إلى الحجاز فأتى المدينة وبها أبو أيوب الأنصاري عاملاً لعلي فهرب ولحق بعلي ودخل بسر المدينة وسفك فيها الدماء واستكره الناس على البيعة لمعاوية ثم سار إلى اليمن وقتل ألوفاً

من الناس فهرب منه عبيد الله بن عباس عامل علي باليمن فوجد لعبيد الله صبيين فذبحهما وأتى في ذلك بعظيمة ، فقالت أمهما وهي عائشة بنت عبد الله المدان تبكيهما :

يا من أحسَّ بابنيَّ اللذين هما كالدرتين تشظّى عنهما الصدف
يا من أحسَّ بابنيَّ اللذين هما مخ العظام فمخي اليوم مزدهف
يا من أحسَّ بابنيَّ اللذين هما قلبي وسمعي فقلبي اليوم مختطف
من ذل والهة حيرى مدلهة على صبيين ذلا إذ غدا السلف
نبئت بسراً وما صدقت ما زعموا من إفكهم ومن القول الذي اقترفوا
أخنى علي ودجّى ابنـيّ مرهفـة من الشفار كذاك الإثم يقترف

قال في الإصابة : مات أيام معاوية ، وقيل بقي إلى خلافة عبد الملك بن مروان ، وقيل مات في خلافة الوليد سنة ست وثمانين . اهـ .

ترجمة فضالة بن عبيد :

قال في مختصر الذهبي : فضالة بن عبيد أبو محمد الأنصاري قاضي دمشق ، كان أحد من شهد بيعة الرضوان وولي الغزو لمعاوية ثم ولي قضاء دمشق وناب عن معاوية بها ، روى عنه عبد الله بن محيريز وعبد الرحمن بن جبير بن نقير وجماعة ، توفي سنة ثلاث وخمسين قاله المدائني ، وقال خليفة سنة تسع وخمسين . اهـ .

ولاية سفيان بن عوف من سنة ٥٢ إلى سنة ٥٢

ذكر ذلك في السالنامة .

ترجمتـه :

قال في مختصر الذهبي : سفيان بن عوف الأزدي الغامدي الأمير ، شهد فتح دمشق وولي غزو الصائفة لمعاوية ، توفي مرابطـاً بأرض الروم سنة اثنتين وخمسين ولا صحبة

له . اهـ . هكذا ذكر هنا تاريخ وفاته ، وذكر في السالنامة أنه تولى إمرة حلب مرة ثانية من سنة ٥٥ إلى سنة ٥٦ وإذا تحققت أي القولين أصح ألحقته وإلا فليحرر .

أقول : ثم رأيت بعد ذلك في الإصابة في أسماء الصحابة في ترجمته ما نصه : ذكر خليفة أنه مات سنة ثلاث وخمسين وأبو عبيدة سنة اثنتين والواقدي سنة أربع فالله أعلم . اهـ . فعلى هذا يكون لا صحة لما ذكره في السالنامة أنه وليها من سنة ٥٥ إلى ٥٦ . وفي الإصابة روى ابن عائذ بسنده عن بعض أشياخه قال : كنا مع سفيان بن عوف سائرين بأرض الروم فأغار على باب الذهب حتى خرج أهل القسطنطينية فقالوا والله ماندري أخطأ تم الحساب أم كذب الكتاب أم استعجلتم المقدر فإنا وأنتم نعلم أنها ستفتح ولكن ليس هذا زمانه . اهـ .

وقال أبو الفدا في سنة ثمان وأربعين : سير معاوية جيشاً كثيفاً مع سفيان بن عوف إلى القسطنطينية فأوغلوا في بلاد الروم وكان في ذلك الجيش ابن عباس وعمرو بن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وتوفي في مدة الحصار أبو أيوب الأنصاري ودفن بالقرب من سورها . اهـ .

ولاية محمد بن عبد الله الثقفي من سنة ٥٢ إلى سنة ٥٣

ذكر ذلك في السالنامة .

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٥٢ : فيها كانت غزوة سفيان بن عوف الأسدي الروم وشتى بأرضهم وتوفي بها في قول فاستخلف عبد الله بن مسعدة الفزاري ، وقيل إن الذي شتى هذه السنة بأرض الروم بسر بن أبي أرطاة ومعه سفيان بن عوف (الذي تقدم) وغزا الصائفة هذه السنة محمد بن عبد الله الثقفي .

ولاية عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي من سنة ٥٣ إلى سنة ٥٤

ذكر ذلك في السالنامة .

وقال ابن الأثير في حوادث سنة ٥٣ : فيها كان مشتى عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي بأرض الروم . اهـ .

ولاية محمد بن مالك ومعن بن يزيد السلمي
من سنة ٥٤ إلى سنة ٥٥

ذكر في السالنامة .

وقال ابن الأثير في حوادث سنة ٥٤ : فيها كان مشتى محمد بن مالك بأرض الروم وصائفة معن بن يزيد السلمي .

ترجمة معن بن يزيد السلمي :

أما محمد بن مالك فلم أقف له على ترجمة ، وأما معن بن يزيد فقد ترجمه الحافظ ابن حجر في كتابه الإصابة في أسماء الصحابة قال : معن بن يزيد بن الأخنس بن حبيب السلمي ثبت ذكره في صحيح البخاري من طريق أبي الجويرية الجرمي عن معن بن يزيد قال : بايعت النبي ﷺ أنا وأبي وجدي وخاصمت إليه فأفلحني وخطب عليَّ فأنكحني ، وكان ينزل الكوفة ودخل مصر ثم سكن دمشق وشهد وقعة مرج راهط مع الضحاك بن قيس في سنة أربع وخمسين ، ويقال إنه كان مع معاوية في حروبه . قال ابن عساكر : شهد فتح دمشق وكان له مكان عند عمر بن الخطاب . وذكره أبو زرعة الدمشقي فيمن سكن الشام وقتل بمرج راهط . وذكر محمد بن سلام الجمحي أن معن بن يزيد قال لمعاوية : ما ولدت قرشية من قرشي شراً منك ، قال : لم ؟ قال : لأنك عودت الناس عادة يعني في الحلم وكأني بهم قد طلبوها من غيرك فإذا هم صرعى ، فقال : ويحك لقد كنت إليها قتيلاً . اهـ ببعض اختصار .

ولاية سفيان بن عوف مرة ثانية من سنة ٥٥ إلى سنة ٥٦

هكذا ذكر في السالنامة وانظر ترجمته التي قدمناها آنفاً . وقال ابن الأثير في حوادث سنة ٥٥ : في هذه السنة كان مشتى سفيان بن عوف الأزدي في قول . وقيل إن

الذي شتى في هذه السنة عمرو بن محرز ، وقيل ابن عبد الله بن قيس الفزاري ، وقيل بل مالك بن عبد الله . اهـ . وقدمنا ما فيه في الكلام على ولايته سنة ٥٢ .

ولاية جنادة بن أبي أمية من سنة ٥٦ إلى سنة ٥٧

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٥٦ : فيها كان مشتى جنادة بن أمية بأرض الروم .
قال في مختصر الذهبي : جنادة بن أبي أمية الأزدي الدوسي له صحبة وروى عن معاذ وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وعمر بن الخطاب ، روى عنه ابنه سليمان وبشر بن سعيد ومجاهد ورجاء بن حيوه وآخرون . ولي البحرين لمعاوية وشهد فتح مصر وأدرك الجاهلية وعده ابن سعد وأحمد العجلي وطائفة في تابعي الشام ، قال بعضهم وهو الحق . قال ابن يونس : توفي سنة ثمانين ، وقال المدائني : سنةِ خمس وسبعين وتابعه يحيى بن معين وقال الهيثم بن عدي : سنة سبع وسبعين ، وقال علي بن عبد الله التميمي سنة ست وثمانين . اهـ .

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٥٦ : فيها كان مشتى جنادة بن أمية بأرض الروم .

ولاية عبد الله بن قيس من سنة ٥٧ إلى سنة ٥٨

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٥٧ : فيها كان مشتى عبد الله بن قيس بأرض الروم .

ترجمته :

قال في الإصابة : عبد الله بن قيس حليف بني فزارة الحارثي له إدراك (أي صحبة) وكان معاوية يرسله في غزو البحر فغزا خمسين غزوة ما بين صائفة وشاتية لم ينكب فيها ولم يغرق معه أحد إلى أن قتل سنة ثلاثٍ أو أربعٍ وخمسين ، ذكره الطبري في تاريخه وكان أول ما غزا سنة سبع وعشرين . اهـ .

أقول : لعل ولايته كانت قبل ذلك أو أن وفاته تأخرت عن سنة ثلاث أو أربع وخمسين .

ولاية مالك بن عبد الله الخثعمي مرة ثانية
من سنة ٥٨ إلى سنة ٦٦

ذكر ذلك في السالنامة وقد تقدمت ترجمته ، إنما في السالنامة لم يقيده في ولايته الأولى بالخثعمي بل قيده في الثانية والظاهر أنه هو .

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٥٨ : في هذه السنة غزا مالك بن عبد الله الخثعمي أرض الروم . اهـ . وقال في حوادث سنة ٥٩ : في هذه السنة كان مشتى عمرو بن مرة الجهني بأرض الروم . فعلى هذا يكون ماذكره في السالنامة من أن ولاية مالك بن عبد الله من سنة ٥٨ إلى سنة ٦٦ فيه شك ، وابن الأثير لم يذكر من شتى أو من غزا الصائفة في هذه السنين .

ولاية عبد الملك بن مروان من سنة ٦٦ إلى سنة ٧٣ .

هكذا في السالنامة والصحيح أنه تولى هذه البلاد قبل ذلك مروان والد عبد الملك ، ففي تاريخ الخلفاء للجلال السيوطي في ترجمة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه : لما مات يزيد بن معاوية في ربيع الأول سنة أربع وستين ٦٤ بويع لابن الزبير بالخلافة وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ولم يبق خارجاً عنه إلا الشام ومصر فإنه بويع بهما معاوية بن يزيد فلم تطل مدة خلافته ، قيل شهران وقيل ثلاثة وقيل أربعون يوماً ، فلما مات أطاع أهلهما ابن الزبير وبايعوه ، ثم خرج مروان بن الحكم فغلب على الشام ثم مصر واستمر إلى أن مات سنة خمس وستين في رمضان فتكون مدة ولايته سنة ونحو ثلاثة أشهر ، وقد عهد إلى ابنه عبد الملك . قال الذهبي : الأصح أن مروان لا يعد في أمراء المؤمنين بل هو باغ خارج على ابن الزبير ولا عهده إلى ابنه بصحيح وإنما صحت خلافة عبد الملك من حين قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين .

ترجمتـــه :

قال الجلال السيوطي في تاريخ الخلفاء : عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي

العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن الوليد ولد سنة ست وعشرين ، بويع بعهدٍ من أبيه في خلافة ابن الزبير فلم تصح خلافته ، وبقي متغلباً على مصر والشام ثم غلب على العراق وما والاها إلى أن قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين فصحت خلافته من يومئذ واستوثق له الأمر إلخ .

ولاية محمد بن مروان من سنة ٧٣ إلى سنة ٧٧
ثم الوليد بن عبد الملك من سنة ٧٧ إلى سنة ٨٥
ثم محمد بن مروان مرة ثانية من سنة ٨٥ إلى سنة ٨٦

هكذا ذكر في السالنامة ، ويستفاد من ابن الأثير من حوادث هذه السنين أن الوليد تولى إمرة هذه البلاد من سنة ٧٧ إلى ٨٢ ثم تولاها محمد بن مروان من سنة ٨٢ إلى سنة ٩٠ . قال في زبدة الحلب : تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة سنة ٨٦ ومحمد بن مروان على ولايته فما زال كذلك إلى أن عزله الوليد بن عبد الملك في سنة ٩٠ وولى مكانه أخاه مسلمة بن عبد الملك . اهـ . وقال ابن الأثير في حوادث سنة ٩١ : وفيها عزل الوليد عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأرمينية واستعمل عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك .

ترجمته :

قال في مختصر الذهبي : محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي الأمير سمع أباه وعنه الزهري وغيره ، ولي الجزيرة لأخيه عبد الملك وأمه أم ولد . روى الأصمعي عن عيسى بن عمر قال : كان محمد بن مروان قوياً في بدنه شديد البأس فكان عبد الملك يحسده على ذلك وكان يفعل أشياء لا يزال يراها منه ، فلما استوثق الأمر لعبد الملك جعل يبدي له الشيء مما في نفسه ويعامله بما يكره ، فلما رأى محمد ذلك تهيأ للرحيل إلى أرمينية وأصلح جهازه ورحل إبله ودخل يودع أخاه فقال له : ما بعثك على ذلك ؟ فأنشأ يقول :

وإنك لا ترى طرحاً لحر كإلصاق به بعض الهوان
فلو كنا بمنزلة جميعاً جريت وأنت مضطرب العنان

فقال : أقسمت عليك إلا ما أقمت فوالله لا رأيت مكروهاً ، فأقام . ولمحمد عدة وقعات ومصافات مع الروم ذكرها ابن عائذ وغيره وهو والد مروان الخليفة . قال خليفة : توفي سنة إحدى ومائة . اهـ .

[ذكر بناء حصن سلوقية]

قال البلاذري في فتوح البلدان : حدثني جماعة من مشايخ أهل أنطاكية منهم ابن برد الفقيه أن الوليد بن عبد الملك أقطع جنداً بأنطاكية أرض سلوقية عند الساحل وصير الغاثر (وهو الجريب) بدينار ومُدَّيْ قمح فعمرها وجرى ذلك لهم وبنى حصن سلوقية .

ولاية مسلمة بن عبد الملك من سنة ٩٠ على ما حققنا إلى سنة ٩١
وولاية عبد العزيز بن الوليد من سنة ٩١ إلى سنة ٩٢
وولاية مسلمة بن عبد الملك منها إلى سنة ٩٣ مرةً ثانيةً
وولاية عباس بن الوليد من سنة ٩٣ إلى سنة ٩٩

ترجمة مسلمة بن عبد الملك :

قال في مختصر الذهبي : مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأمير أبو سعيد وأبو الإصبع الأموي ويسمى الجرادة الصفراء ، سمع عمر بن عبد العزيز وروى عنه معاوية بن صالح ويحيى بن يحيىٰ الغساني ، وله دار بدمشق ، ولي غزو القسطنطينية لأخيه سليمان وغزا الروم مرات وكان بطلاً شجاعاً مهيباً له آثار حميدة ، وقد ولي لأخيه يزيد إمرة العراقين ، ثم عزل وولي أرمينية حفظاً لذلك الثغر وأول ما ولي غزو الروم في آخر دولة أبيه افتتح ثلاثة حصون ، وفي سنة تسع وثمانين غزا عمورية والتقى بالمشركين فهزمهم ، وفي سنة تسعين افتتح خمسة حصون ، وفي سنة إحدى عزل محمد بن مروان عن أرمينية وأذربيجان بمسلمة فغزا مسلمة الترك حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان فافتتح مدائن وحصوناً ثم

افتتح سندرة ثم حج بالناس ثم افتتح بعد ذلك فتحاً كثيراً وشهد غير مصاف ، ولما بلغ مسلمة حديث لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها حدثه به بشر الغنوي وقيل الخثعمي غزاها .

ومن كلامه : إن أقل الناس هماً في الدنيا أقلهم هماً في الآخرة . وقال سعيد بن عبد العزيز : أوصى مسملة بثلث ماله لطلاب الأدب وقال : إنها صناعة مجفو أهلها .

وللوليد بن يزيد بن عبد الملك في رثائه :

أقول وما البعد إلا الردى ... أمسلم لا تبعدن مسلمه
فقد كنت نوراً لنا في البلاد ... مضيئاً وقد أصبحت مظلمه
ونكتم موتك نخشى اليقين ... فأبدى اليقين عن الجمجمه

توفي سنة عشرين ومائة وقيل سنة إحدى وعشرين .

وقال في زبدة الحلب : وكان أكثر مقام مسلمة بالناعورة وبنى فيها قصراً بالحجر الأسود الصلد وحصناً بقي منه برج إلى زماننا هذا . اهـ . وفي المعجم : الناعورة : موضع بين حلب وبالس [مسكنة] بينه وبين حلب ثمانية أميال .

وقال البلاذري : قالوا كانت أرض بغراس لمسلمة بن عبد الملك فوقفها في سبيل البر ، وكانت عين السلور وبحيرتها له أيضاً . اهـ .

ترجمة عبد العزيز بن الوليد :

قال في مختصر الذهبي : عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الأمير أبو الأصبع الأموي وهو ابن أخت عمر بن عبد العزيز ، سعى أبوه الوليد في خلع سليمان من العهده وتولية عبد العزيز هذا فلم يتم له ما رامه ، وقد ولي نيابة دمشق لأبيه وداره بناحية الكشكية قبلي دار بطيخ العتيقة ، وله ذرية بالمرج بقرب الجامع ، روى عن مالك بن أنس ، قال : أراد الوليد أن يبايع لابنه فأراد عمر بن عبد العزيز على ذلك قال : يا أمير المؤمنين بيعة في أعناقنا ، فأخذه الوليد وطين عليه ثم فتح عنه بعد ثلاث فأدركوه وقد مالت عنقه ، قال أبو زرعة : فكان ذلك الميل فيه إلى أن مات ، وحكى نحوه محمد بن سلام

الجمحي إلا أنه قال : فخنق بمنديل حتى صاحت أخته أم البنين فشكر سليمان لعمر وعهد إليه بالخلافة ، وقد حج عبد العزيز بالناس سنة ثلاثة وتسعين وغزا الروم سنة أربع وتسعين وكان من ألباء بني أمية وعقلائهم . عن عامر بن شبل عن عبد العزيز بن الوليد أن عمر بن عبد العزيز قال له : يا ابن أختي بلغني أنك سيرت إلى دمشق تدعو إلى نفسك ولو فعلت ما نازعتك .قال عامر : أنا ممن سار مع عبد العزيز إلى دمشق فجاء الخبر بأن عمر بن عبد العزيز قد بويع ونحن بدير الجلجل فانصرفنا . اهـ .

ترجمة العباس بن الوليد :

قال في مختصر الذهبي : العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم أبو الحارث الأموي كان من الأبطال المذكورين والأسخياء الموصوفين ، وكان يقال له فارس بني مروان ، استعمله أبوه على حمص وولي المغازي وافتتح عدة حصون ولكنه كان ينال من عمر ابن عبد العزيز لجهله ، وقد مات في سجن مروان بن محمد . اهـ .

ولاية هلال بن عبد الأعلى في سنة ٩٩
وولاية الوليد بن هشام المعيطي منها إلى سنة ١٠١ إحدى ومائة

قال في زبدة الحلب : رابط سليمان بن عبد الملك بمرج دابق إلى أن مات به سنة تسع وتسعين ، وولي عمر بن عبد العزيز فكان أكثر مقامه بخناصرة الأحص وولي من قبله على قنسرين هلال بن عبد الأعلى ثم ولي أيضاً عليها الوليد بن هشام المعيطي على الجند ، وتوفي عمر بدير سمعان من أرض معرة النعمان يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة . اهـ . قال في معجم البلدان : دابق بكسر الباء وقد روى بفتحها وآخره قاف : قرية قرب حلب من أعمال عزاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ ، عندها مرج معشب نزه كان ينزله بنو مروان إذا غزوا الصائفة إلى ثغر مصيصة وبه قبر سليمان بن عبد الملك بن مروان ، وكان سليمان قد عسكر بدابق وعزم أن لا يرجع حتى تفتح القسطنطينية أو تؤدي الجزية فشتى بدابق شتاء بعد شتاء إذ ركب ذات عشية من يوم جمعة فمر بالتل

الذي يقال له تل سليمان اليوم فرأى عليه قبراً فقال : من صاحب هذا القبر ؟ قالوا : هذا قبر عبد الله بن مسافع بن عبد الله الأكبر بن شيبة بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب القرشي الحجبي فمات هناك ، فقال سليمان : يا ويحه لقد أمسى قبره بدار غربة ، قال : ومرض سليمان في إثر ذلك ومات ودفن إلى جانب قبر عبد الله بن مسافع في الجمعة التي تليه أو الثانية ، وبقربها قرية أخرى يقال لها دويبق بالتصغير . وقال الجوهري : دابق : اسم بلد والأغلب عليه التذكير والصرف لأنه في الأصل اسم نهر وقد يؤنث ، وقد ذكره الشعراء فقال عيسى بن سعدان عصري حلبي :

ناجَوك من أقصى الحجاز وليتهم ... ناجوك ما بين الأحصِّ ودابق
أمفارقي حلب وطيب نسيمها ... يهنيكم أن الرقاد مفارقي
والله ما خفق النسيم بأرضكم ... إلا طربت من النسيم الخافق
وإذا الجنوب تخطرت أنفاسها ... من سفح جوشن كنت أول ناشق

وأنشد ابن الأعرابي :

لقد خاب قوم قلدوك أمورهم ... بدابق إذ قيل العدوُّ قريبُ
رأوا رجلاً ضخماً فقالوا مقاتلٌ ... ولم يعلموا أن الفؤاد نخيبُ

وقال الحارث بن الدؤلي :

أقول وما شأني وسعد بن نوفل ... وشأن بكائي نوفلَ بنَ مُساحقِ
ألا إنما كانت سوابقَ عبرة ... على نوفل من كاذبٍ غيرِ صادق
فهلا على قبر الوليد وبقعة ... وقبر سليمان الذي عند دابق

وقال في المعجم أيضاً : خناصرة بليدة من أعمال حلب تحاذي قنسرين نحو البادية ، وهي قصبة كورة الأحص التي ذكرها الجعدي فقال :

فقال تجاوزت الأحصّ وماءه

وقد ذكرها عدي بن الرقاع فقال :

وإذا الربيعُ تتابعت أنواؤه ... فسقى خُناصرةَ الأحصِّ وزادها

وذكرها المتنبيء فقال :

أحبُّ حمصاً إلى خُناصرةٍ وكلُّ نفس تُحِب مَحْياها

اهـ . قال الطرشوشي في كتابه سراج الملوك في باب سيرة السلطان : قال رجاء ابن حيوه : بينا نحن بخناصرة إذا بامرأة تسأل عن دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فأرشدناها إلى الدار فرأت داراً مهشمةً فقالت لخياط هناك : استأذن لي على فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز، قال: فادخلي وصوّتي بها فإنها تأذن لك، فدخلت فلما أبصرت ما هناك قالت: جئت أرمُّ فقري من بيت الفقراء ، وإذا رجل يعمل في الطين فسألتها عن أمير المؤمنين فقالت : هو ذلك يعمل في الطين ، فقالت له : يا أمير المؤمنين مات زوجي وترك ثمان بنات ، فبكى عمر بكاءً شديداً ثم قال لها : ما تريدين ؟ قالت : تفرض لهن ، قال : نفرض للكبرى ما اسمها قالت : فلانة ، فكتبها فقالت : الحمد لله : قال : ما اسم الثانية ؟ قالت : فلانة فكتبها فقالت : الحمد لله حتى كتب السابعة فقالت : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين . فطرح القلم من يده وقال لها : أما إنك لو وليتِ الحمد أهله لأتممناهن لك ، مري السبع يواسين هذه الثامنة . اهـ .

وقال في الجزء الثامن من الأغاني : حدثنا شعيب قال : أخبرني ابن عمار بسنده أن عمر بن عبد العزيز خطب بخناصرة خطبة لم يخطب بعدها ، حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ولم تتركوا سدىً ، وإن لكم معاداً يتولى الله فيه الحكم فيكم والفصل بينكم فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض ، واعلموا أن الأمان غداً لمن حذر الله وخافه وباع قليلاً بكثير ونافداً بباق وخوفاً بأمان ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلفها من بعدكم الباقون ، وكذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين ، ثم إنكم في كل يوم وليلة تشيعون غادياً إلى الله ورائحاً قد قضى نحبه وانقضى أجله ، ثم تضعونه في صدع من الأرض في بطن لحد ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسلاب وفارق الأحباب ووجه للحساب ، غنياً عما ترك ، فقيراً إلى ما قدم ، وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة ولا أعلم عند أحد منكم أكثر مما عندي ، وأستغفر الله لي ولكم ، وما يبلغنا أحد منكم حاجة يسعها ما عندنا إلا سددنا من حاجته ما قدرنا عليه ولا أحد يتسع له ما عندنا إلا وددت أنه بديء به

وبلحمتي الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم ، وأيم الله لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به مني ناطقاً ذلولاً عالماً بأسبابه ، ولكنه من الله عز وجل كتاب ناطق وسنة عادلة ، دل فيهما على طاعته ونهى فيهما عن معصيته ، ثم بكى فتلقى دموعه بأطراف ردائه ، ثم نزل فلم ير على تلك الأعواد بعد حتى قبضه الله إليه رحمة الله عليه . اهـ .

وقال في المعجم : [دير سمعان] يقال بكسر السين وفتحها وهو دير بنواحي دمشق في موضع وبساتين محدقة به وعنده قصور ودور ، وعنده قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . ثم قال : ودير سمعان أيضاً بنواحي حلب بين جبل بني عليم والجبل الأعلى . أقول : إن عمر بن عبد العزيز مدفون بدير سمعان الذي بنواحي حلب كما نقلناه عن زبدة الحلب .

وقال الذهبي في العبر في حوادث سنة إحدى ومائة : فيها في رجب توفي الإمام العادل أمير المؤمنين وخامس الخلفاء الراشدين أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي بدير سمعان من أرض المعرة وله أربعون سنة . اهـ .

قال في المعجم : قال فيه بعض الشعراء يرثيه

قد قلت إذ ودعوك التربَ وانصرفوا   لا يبعدن قوامُ العدل والدينِ
قد غيبوا في ضريح الترب منفرداً   بدير سمعانَ قسطاسَ الموازينِ
من لم يكن همه عيناً يفجرها   ولا النخيل ولا ركض البراذينِ

وقال كثيّر :

سقى ربنا من دير سمعانَ حفرةً   بها عمرُ الخيرات رهناً دفينها
صوابح من مزن ثقال غوادياً   دوالح دُهماً ماخضات دجونها

وقال الشريف الرضي الموسوي :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيـ   ـنُ فتى من أميةٍ لبكيتك
أنت أنقذتنا من السب والشتـ   ـم فلو أمكن الجزا لجزيتك

اقتصر في المعجم على هذه الأبيات الثلاثة ، وأورد في عيون التواريخ ما قاله الشريف الرضي بأكثر من ذلك فقال بعد البيت الأول :

غير أني أقول قد طبت واللـ	ـه وإن لم يطب ولم يزك بيتك
أنت نزهتنا عن السب والقذ	ف فلو أمكن الجزاءُ جزيتك
ولو اني رأيت قبرك لاستحيـ	ـيت من أن أرى وما حييتك
وقليل أن لو بذلت دما	ء البدن صرفاً على الذرى وسقيتك
دير سمعان فيك مأوى أبي	حفص فودّي لو أنني أوتيتك
وعجيب أني قليت بني مروا	ن طراً وأنني ما قليتك
قرب العدل منك لما نأى الجو	رُ بهم فاجتويتهم واجتبيتك
فلو اني ملكت دفعاً لِما نا	بك من طارقِ الردى لفديتك★

وأما هلال بن عبد الأعلى فإني لم أقف له على ترجمة .

ترجمة الوليد بن هشام المعيطي :

قال في مختصر الذهبي : الوليد بن هشام بن معاوية الأموي المعيطي أبو يعيش متولي قنسرين لعمر بن عبد العزيز عن معدان بن أبي طلحة اليعمري وأم الدرداء وعبد الله بن محيريز وعنه ابنه يعيش والأوزاعي وصالح بن أبي الأخضر وسفيان بن عيينة . وصفه الواقدي بالنسك والدين ولولا ذا ما أمّره عمر ووثقه ابن معين ، وقد ولي غزو الصائفة . اهـ . (من وفيات ما بين ١٢٠ و ١٣٠) .

قال في زبدة الحلب : توفي عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه وولي بعده الخلافة يزيد بن عبد الملك والوليد بن هشام على قنسرين وكان مرائياً ، سأل عمر أن ينقص رزقه ، وكتب إلى يزيد وهو ولي عهده أن الوليد بن هشام كتب إلي كتاباً أكثر ظني أنه تزين بما ليس هو عليه ، فأنا أقسم عليك إن حدث بي حدث وأفضى هذا الأمر إليك فسألك أن ترد رزقه وذكر أني نقصته فلا يظفر منك بهذا ، فلما استخلف يزيد كتب

★ أصاب الأبيات في الطبعة الأولى تصحيف واختلال واختلاف في الرواية فأثبتها نقلاً عن ديوان الشريف الرضي .

الوليد إليه أن عمر نقص رزقي وظلمني ، فغضب يزيد وعزله وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها فلم يل له عملاً حتى مات ، ومات يزيد بن عبد الملك بالبلقاء في شعبان سنة خمس ومابة ، والبلقاء كورة كبيرة بين منبج وحلب وهي من أعمال منبج قبليها قرب وادي بطنان .

خلافة هشام بن عبد الملك

وولي الخلافة بعده أخوه هشام بن عبد الملك وتوفي سنة خمس وعشرين ومابة . وقال أبو الفرج الأصبهاني في الجزء الرابع من الأغاني :

أخبرني عمي قال : حدثنا أحمد بن أبي حيثمة قال : ذكر ابن أبي النطاح عن أبي اليقظان أن إسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك في خلافته وهو بالرصافة جالس على بركة له في قصره فاستنشده وهو يرى أنه يمدحه فأنشده قصيدته التي يفتخر فيها بالعجم :

يا ربع رامةَ بالعلياءِ من ريمِ ... هل ترجعنّ إذا حييتُ تسليمي
ما بال حي غدت بُزل المطي بهم ... تخذى لغربتهم سيراً بتقحيم
كأنني يوم ساروا شاربٌ سلبت ... فؤادَه قهوةٌ من خمر داروم

حتى انتهى إلى قوله :

إني وجدك ما عودي بذي خور ... عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم
أصلي كريم ومجدي لا يقاس به ... ولي لسانٌ كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقوام ذوي حسب ... من كل قَرم بتاج الملك معموم
جحاجح سادة بلج مرازبة ... جرد عتاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابورَ الجنود معاً ... والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا ... وهم أذلوا ملوكَ الترك والروم
يمشون في حَلَق الماذيِّ سابغةً ... مشي الضراغمة الأسد اللهاميم
هناك إن تسألي تنبي بأن لنا ... جرثومةً قهرت عز الجراثيم

قال فغضب هشام وقال له : يا عاض بظر أمه أعلي تفخر وإياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ، غطوه في الماء ، فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر بإخراجه وهو بشر ونفاه من وقته ، فأخرج عن الرصافة منفياً ، قال وكان مبتلى بالعصبية للعجم والفخر بهم فكان لا يزال مضروباً محروماً مطروداً . اهـ .

قال في معجم البلدان في الكلام على الرصافة :

الرصافة في مواضع كثيرة ، منها رصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة بينهما أربعة فراسخ على طرف البرية ، بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام وكان يسكنها في الصيف كذا ذكره بعضهم . ووجدت في أخبار ملوك غسان ثم ملك النعمان الحارث بن الأيهم وهو الذي أصلح صهاريج الرصافة وصنع صهريجها الأعظم ، وهذا يؤذن بأنها كانت قبل الإسلام بدهر ليس بالقصير . ولعل هشاماً عمر سورها أو بنى بها أبنية يسكنها .

وقال أحمد بن يحيى : وأما رصافة الشام فإن هشام بن عبد الملك أحدثها وكان ينزل فيها الزيتونة . قال الأصمعي : الزوراء رصافة هشام وفيها دير عجيب وعليها سور وليس عندها نهر ولا عين جارية إنما شربهم من صهاريج عندهم داخل السور ، وربما فرغت في أثناء الصيف فلأهل الثروة منهم عبيد وحمير يمضي أحدهم إلى الفرات العصر فيجيء بالماء في غداة غد لأنه يمضي أربعة فراسخ أو ثلاثة ويرجع مثلها، وعندهم آبار طول رشاء كل بئر مائة وعشرون ذراعا وأكثر وهو مع ذلك ملح رديء ، وهي في وسط البرية ، ولبني خفاجة عليهم خفارة يؤدونها إليهم صاغرين . وبالجملة لولا حب الوطن لخربت . وفيها جماعة من أهل الثروة لأنهم بين تاجر يسافر إلى أقطار البلاد ومنهم مقيم فيها يعامل العرب ، وفيها سويق عدة عشرة دكاكين ، ولهم حذق في عمل الأكسية ، وكل رجل فيها غنيهم وفقيرهم يغزل الصوف ونساؤهم ينسجن .

وذكرها ابن بطلان الطبيب في رسالته إلى هلال بن المحسن فقال : وبين الرصافة والرحبة مسيرة أربعة أيام ، قال : وهذا القصر يعني قصر الرصافة حصن دون دار الخلافة ببغداد مبني بالحجارة ، وفيه بيعة عظيمة ظاهرها بالفص المذهب ، أنشأه قسطنطين بن هيلانة ، وجدد الرصافة وسكنها هشام بن عبد الملك وكان يفزع إليها من البق في شاطىء الفرات ، وتحت البيعة صهريج في الأرض على مثل بناء الكنيسة معقود على أساطين الرخام

مبلط بالمرمر مملوء من ماء المطر ، وسكان هذا الحصن بادية أكثرهم نصارى ، معاشهم تخفير القوافل وجلب المتاع والصعاليك مع اللصوص ، وهذا القصر في وسط برية مستوية السطح لا يرد البصر من جوانبها إلا الأفق ، ورحلنا منها إلى حلب في أربع رحلات . وكان ابن بطلان كتب هذه الرسالة في سنة (٤٤٠) .

وحدث برصافة الشام أبو سليمان محمد بن مسلم بن شهاب الزهري فروى عنه من أهلها أبو منيع عبيد الله بن أبي زياد الرصافي ، وكان(١) الحجاج من العلماء ، كان أعلم الناس بخلق الفرس من رأسه إلى رجله وبالنبات ، روى عنه هلال بن أبي العلاء الرقي وغيره ، وكان ثقة ثبتاً حديثه في الصحيح ، ومات في سنة ٢٢١ ، قاله ابن حبان . وقال محمد بن الوليد : أقمت مع الزهري بالرصافة عشر سنين . وقال مدرك بن حصين الأسدي وكان قدم الشام هو ورجل من بني عمه يقال له ابن ماهي وطعن ابن ماهي فكبر جرحه فقال :

عليك ابن ماهي ليت عينك لم ترم ... بلادي وإن لم يرع إلا ذرينُها
ويا ذكرة والنفس خائفة الردى ... مخاطرة والعين يهمي معينُها
ذكرت وأبواب الرصافة بينها ... وبيني وجعدياتها وقرينها
وصفين والنهيُ الهنيء ولجةٌ ... من البحر موقوف عليها سفينها
بدائبةٍ للحفر فيها عجاجة ... وللموت أخرى لا يبلّ طعينها

وقال جرير :

طرقت جُعادةُ بالرصافة أرحلاً ... من رامتين لشط ذاك مزارا
وإذا نزلتِ من البلاد بمنزلٍ ... وُقيَ النحوس وأسقيَ الأمطارا

ولاية الوليد بن القعقاع

قال في السالنامة : ثم ولي سليمان بن الوليد القعقاع العبسي من سنة ١٠١ إلى سنة ١٢٥ .

هذا سهو والصواب أن الذي تولى هو الوليد بن القعقاع بن خليد العبسي ، وأما سليمان فهو سليمان بن عبد الملك وهو ابن أخت الوليد بن القعقاع .

(١) قال مصحح المعجم هكذا في الأصل وليحرر .

قال في زبدة الحلب : ثم عزل الوليد بن هشام المعيطي وولي على قنسرين وعملها خال أبيه سليمان وهو الوليد بن القعقاع بن خليد العبسي ، وقيل إنه ولي عبد الملك بن القعقاع على قنسرين ، وإليهم ينسب خيار بني عبس وإليهم تنسب القعقاعية قرية من بلد الغايا ، ولما توفي هشام بن عبد الملك سنة خمس وعشرين كما تقدم وولي الخلافة بعده الوليد ابن يزيد بن عبد الملك وكان بينه وبين الوليد بن القعقاع وحشة هرب الوليد بن القعقاع وغيره من بني أبيه فعاذوا بقبر يزيد بن عبد الملك ، فولى الوليد على قنسرين يزيد بن عمر بن هبيرة وهو على قنسرين فعذبه وأهله فمات الوليد بن القعقاع في العذاب .

قال ابن جرير في حوادث سنة ١٢٦ : وكان هشام (رواية زبدة الحلب يزيد أخوه) استعمل الوليد بن القعقاع على قنسرين وعبد الملك بن القعقاع على حمص ، فضرب الوليد ابن القعقاع مائة سوط ، فلما قام الوليد [أي تولى الخلافة] هرب بنو القعقاع وعبد الملك ابن القعقاع ورجلان معهما من آل القعقاع . اهـ .

قال ابن الأثير في حوادث سنة ١٠٢ : كان ابن هبيرة بينه وبين القعقاع بن خليد العبسي تحاسد وكان بينهما يوماً كلام ، فقال له القعقاع : يا ابن اللخناء من قدّمك ؟ فقال : قدّمك أنت وأهلك أعجاز الغواني وقدمني صدور العوالي ، فسكت القعقاع ، يعني أن عبد الملك قدمهم لما تزّوج إليهم فإن أم الوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان عبسية . اهـ .

قال في السالنامة : ثم ولي يزيد بن عمر بن هبيرة سنة ١٢٥ ، ثم ولي مسرور بن الوليد سنة ١٢٦ ، ثم ولي عبد الملك بن كوثر الغنوي سنة ١٢٧ .

قدمنا أن الوليد بن يزيد ولى على قنسرين يزيد بن هبيرة ، وكانت وفاة الوليد سنة ١٢٦ وولي الخلافة بعده يزيد الملقب بالناقص ، ولم يمتع بالخلافة بل مات من عامه في سابع ذي الحجة ، وولى يزيد على قنسرين أخاه مسروراً وأخاه بشراً .

ولما مات يزيد قام بالأمر بعده إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، فلم يتم له الأمر فكان يسلم عليه تارة بالخلافة وتارة بالإمارة وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما ، فمكث أربعة أشهر وقيل سبعين يوماً ، ثم سار إليه مروان بن محمد فخلعه ، وكان مروان بن محمد أميراً على الجزيرة من طرف الوليد بن عبد الملك .

قال ابن الأثير في حوادث سنة ١٢٧ : في هذه السنة سار مروان بن محمد إلى الشام لمحاربة إبراهيم بن الوليد ، وكان السبب في ذلك ما قد ذكرنا بعضه من مسير مروان بعد مقتل الوليد وإنكاره قتله وغلبته على الجزيرة ثم مبايعته ليزيد بن الوليد وما ولاه يزيد من عمل أبيه ، فلما مات يزيد بن الوليد سار مروان في جنود الجزيرة وخلف ابنه عبد الملك في جمع عظيم بالرقة ، فلما انتهى مروان إلى قنسرين لقي بها بشر بن الوليد وكان ولاه أخوه يزيد قنسرين ومعه أخوه مسرور بن الوليد ، فتصافحوا ودعاهم مروان إلى بيعته فمال إليه يزيد بن عمر بن هبيرة في القيسية وأسلموا بشراً وأخاه مسروراً ، فأخذهما مروان فحبسهما وسار معه أهل قنسرين متوجهاً إلى حمص ، ثم ساق ابن الأثير بقية ما كان من أمر مروان إلى أن استتب له الأمر وبويع بالخلافة في دمشق .

قال في زبدة الحلب : لما قبض مروان بن محمد على مسرور وبشر ابني الوليد قتلهما وولى على قنسرين وحلب عبد الملك بن كوثر الغنوي .

وقال ابن الأثير في حوادث السنة المذكورة : وفي هذه السنة خلع سليمان بن هشام مروان بن محمد وحاربه ، وكان السبب في ذلك ما ذكرناه من قدوم الجنود عليه وتحسينهم له خلع مروان وقالوا له : أنت أوضأ عند الناس من مروان وأولى بالخلافة ، فأجابهم إلى ذلك ، وسار بأخوته ومواليه معهم فعسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فأتوه من كل وجه ، وبلغ الخبر مروان فرجع إليه من قرقيسيا [بلد بالجزيرة] وكتب إلى ابن هبيرة يأمره بالمقام ، واجتاز مروان في رجوعه بحصن الكامل وفيه جماعة من موالي سليمان وأولاد هشام فتحصنوا منه فأرسل إليهم إني أحذركم أن تتعرضوا لأحد يتبعني من جندي بأذى فإن فعلتم فلا أمان لكم عندي ، فأرسلوا إليه إنا نستكف ، ومضى مروان فجعلوا يغيرون على من يتبعه من أخريات الناس ، وبلغه ذلك فتغيظ عليهم ، واجتمع إلى سليمان نحو من سبعين ألفاً من أهل الشام والذكوانية وغيرهم وعسكر بقرية خساف من أرض قنسرين وأتاه مروان فواقعه عند وصوله ، فاشتد بينهم القتال وانهزم سليمان ومن معه واتبعتهم خيل مروان تقتل وتأسر واستباحوا عسكرهم ، ووقف مروان موقفاً ووقف ابناه موقفين ووقف كوثر صاحب شرطته (والد عبد الملك بن كوثر) موقفاً وأمرهم أن لا يأتوه بأسير إلا قتلوه إلا عبداً مملوكاً ، فأحصي من قتلاهم يومئذ ما ينوف على ثلاثين ألفاً ، وقتل إبراهيم بن سليمان وأكثر ولده

وخالد بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك ، وادعى كثير من الأسراء للجند أنهم عبيد فكف عن قتلهم وأمر ببيعهم فيمن يزيد مع من أصيب من عسكرهم ، وسار مروان إلى حصن الكامل حنقاً على من فيه فحصرهم وأنزلهم على حكمه فمثل بهم ، وأخذهم أهل الرقة فداووا جراحاتهم فهلك بعضهم وبقي أكثرهم وكانت عدتهم نحواً من ثلثمائة .

قال في زبدة الحلب : وكان الحكم وعثمان ابنا الوليد بن يزيد حبسا بقلعة قنسرين ، وكان ابن الوليد حبسهما فنهض عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد القسري فقتلاهما وقتلا معهما يوسف بن عمر الثقفي بقنسرين وأخذا بعد ذلك فقتلهما مروان وصلبهما .

قال ابن الأثير وابن جرير في حوادث سنة ١٣٠ : فيها غزا الصائفة الوليد بن هشام منزل العمق وبنى حصن مرعش . اهـ .

تراجم من تولى من سنة ١٠١ إلى سنة ١٣٢

الوليد بن القعقاع العبسي :

لم أقف له على ترجمة مخصوصة ، غير أن ماذكرته في الكلام على ولايته بمثابة ترجمته ، وتقدم أن قتله كان سنة ١٢٥ .

يزيد بن عمر بن هبيرة :

ترجمه ابن خلكان ترجمة واسعة حافلة نقتطف منها ماله تعلق بهذه البلاد وبحالته الشخصية وعاداته ، قال : هو يزيد بن عمر بن هبيرة بن معية بن سكين بن خديج بن بغيض بن مالك بن سعد بن عدي بن فزارة ، أصله من الشام ، ولي قنسرين للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وكان مع مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية يوم غلب على دمشق وجمع له ولاية العراق ، ومولده سنة سبع وثمانين ، وذكره ابن عياش في تسميته من ولي العراق وجمع له المصران وهما البصرة والكوفة ، وكذلك ذكره ابن قتيبة في كتاب المعارف في تسمية من ولي العراقين وكان أبو جعفر المنصور حصر يزيد بواسط شهوراً ثم أمنه وافتتح البلد صلحاً ، وركب إليه يزيد في أهل بيته ، وكان أبو جعفر يقول : لايعز ملك هذا فيه ثم

قتله، وقال خليفة بن خياط :وفي سنة ثمان وعشرين ومائة وجه مروان بن محمد يزيد بن عمر ابن هبيرة والياً على العراق ، ثم ساق ما جرى له من الأمور مع أبي جعفر المنصور إلى أن قتله سنة اثنتين وثلاثين ومابة ، ثم قال : وقال الحافظ ابن شاكر في تاريخه الكبير : كان هبيرة إذا أصبح أتى بعس (العس بضم العين القدح الكبير) وفيه لبن قد حلب على عسل وأحياناً على سكر فيشربه قبل صلاة الغداة فإذا صلى الغداة جلس في مصلاه حتى تحل الصلاة فيصلي ثم يدخل فيحركه اللبن فيدعو بالغذاء فيأكل دجاجتين وناهضين ونصف جدي وألواناً من اللحم (والناهض بالنون الفرخ من الحمام) ثم يخرج فينظر في أمور الناس ويدعو بالغذاء فيتغذى ويضع منديلاً على صدره ويعظم اللقم ويتابع ، فإذا فرغ من الغذاء تفرق من كان عنده ودخل إلى نسائه فلا يزال حتى يخرج إلى صلاة الظهر ، ثم ينظر بعد الظهر في أمور الناس فإذا صلى العصر وضع له سرير ووضعت الكراسي للناس ، فإذا أخذ الناس مجالسهم أتوهم بعساس اللبن والعسل وألوان الأشربة ، ثم توضع السفرة والطعام للعامة ويوضع له ولأصحابه خوان مرتفع فيأكل معه الوجوه إلى المغرب ، ثم يتفرقون للصلاة ثم تأتيه سماره فيحضرون مجلساً يجلسون فيه حتى يدعوهم فيسامروه حتى يذهب عامة الليل ، وكان يسأل في كل ليلة عشر حوائج ، فإذا أصبحوا قضيت ، وكان رزقه ستماية ألف درهم فكان يقسم في كل شهر في أصحابه من قومه ومن الفقهاء والوجوه وأهل البيوتات جملة مستكثرة . وقال شيخ من قريش : أذن يزيد بن عمر بن هبيرة في يوم صائف شديد الحر للناس فدخلوا عليه وعليه قميص خلق مرقوع الجيب فجعلوا ينظرون إليه ويتعجبون منه ففطن لهم فتمثل بقول إبراهيم بن هرمة :

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خَلَق وجيبُ قميصه مرقــوعُ

وأخباره ومحاسنه كثيرة مشهورة . اهـ .

مسرور بن الوليد وأخوه بشر :

لم أقف لهما على ترجمة ، وقد قدمت أنهما قتلا سنة ١٢٧ قتلهما مروان بن محمد .

عبد الملك بن كوثر الغنوي :

لم أقف له على ترجمة .

ابتداء الدولة العباسية سنة ١٣٢

فيها في ربيع الأنور بويع أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بالكوفة على يد أبي مسلم الخراساني وانقرضت دولة بني أمية وكان آخر خلفائهم مروان بن محمد .

وكان الوالي في تلك السنة على قنسرين أبا الورد مجزأة بن زفر بن الحارث الكلابي وهو أخو عبد الملك بن الكوثر .

قال في زبدة حلب : بعد أن بويع أبو العباس السفاح سير عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس في جمع عظيم للقاء مروان بن محمد ، وكان مروان في جيوش كثيفة فالتقيا بالزاب من أرض الموصل في جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة فهزم مروان واستولى على عسكره ، وسار مروان منهزماً حتى عبر الفرات من جسر منبج فأحرقه ، فلما مر على قنسرين وثبت عليه طي وتنوخ واقتطفوا مؤخر عسكره ونهبوه ، وقد كان تعصب عليهم وجفاهم أيام دولته وقتل منهم جماعة ، وتبعه عبد الله بن علي وسار خلفه حتى أتى منبج فنزلها وبعث إليه أهل حلب بالبيعة مع أبي أمية التغلبي ، وقدم عليه أخوه عبد الصمد ابن علي فقلده حلب وقنسرين ، وسار عبد الله وعبد الصمد أخوه معه إليها فبايعه أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي وكان من أصحاب مروان ودخل فيما دخل فيه الناس من الطاعة ، وسار عبد الله إلى دمشق ثم إلى الديار المصرية وهناك ظفر بمروان بن محمد ببوصير فقتله ثم عاد إلى دمشق وعين والياً عليها .

انتقاض أبي الورد مجزأة بن الكوثر

قال ابن الأثير في حوادث هذه السنة : وفيها خلع أبو الورد مجزأة بن الكوثر وكان من أصحاب مروان وقواده ، وكان سبب ذلك أن مروان لما انهزم قام أبو الورد بقنسرين فقدمها عبد الله بن علي فبايعه أبو الورد ودخل فيما دخل فيه جنده ، وكان ولد مسلمة بن عبد الملك مجاورين له ببالس (مسكنة) والناعورة، فقدم بالس قائد من قواد عبد الله بن علي فعبث بولد مسلمة ونسائهم فشكا بعضهم ذلك إلى أبي الود فخرج من مزرعة يقال لها

خساف فقتل ذلك القائد ومن معه وأظهر التبييض والخلع (معنى التبييض لبس البياض ونصب الرايات البيض مخالفة لشعار العباسية في ذلك قاله ابن خلدون ، وشعار بني العباس كان السواد) لعبد الله ودعا أهل قنسرين إلى ذلك فبيضوا جميعهم والسفاح يومئذ بالحيرة وعبد الله بن علي مشتغل بحرب حبيب بن مرة المري بأرض البلقاء وحوران والبثينة على ما ذكرناه ، فلما بلغ عبد الله تبييض أهل قنسرين وخلعهم صالح حبيب بن مرة وسار نحو قنسرين للقاء أبي الورد فمر بدمشق فخلف بها أبا غانم عبد الحميد بن ربعي الطائي في أربعة آلاف ، وكان بدمشق أهل عبد الله وأمهات أولاده وثقله ، فلما قدم حمص انتقض له أهل دمشق وتبيضوا وقاموا مع عثمان بن عبد الأعلى بن سراقة الأزدي فلقوا أبا غانم ومن معه فهزموه وقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة وانتهبوا ما كان عبد الله خلف من ثقله ولم يعرضوا لأهله واجتمعوا على الخلاف ، وسار عبد الله وكان قد اجتمع مع أبي الورد جماعة من أهل قنسرين وكاتبوا من يليهم من أهل حمص وتدمر ، فقدم منهم ألوف عليهم أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ودعوا إليه وقالوا : هذا السفياني الذي كان يذكر ، وهم في نحو من أربعين ألفاً فعسكروا بمرج الأحزم ، ودنا منهم عبد الله بن علي ووجه إليهم أخاه عبد الصمد بن علي في عشرة آلاف ، وكان أبو الورد هو المدبر لعسكر قنسرين وصاحب القتال فناهضهم القتال وكثر القتل في الفريقين وانكشف عبد الصمد ومن معه وقتل منهم ألوف ولحق بأخيه عبد الله ، فأقبل عبد الله معه وجماعة القواد فالتقوا ثانية بمرج الأخرم فاقتتلوا قتالاً شديداً وثبت عبد الله فانهزم أصحاب أبي الورد وثبت هو في نحو من خمسماية من قومه وأصحابه فقتلوا جميعاً ، وهرب أبو محمد ومن معه حتى لحقوا بتدمر وأمن عبد الله أهل دمشق لما كان من تبييضهم ، فلما دنا منهم هرب الناس ولم يكن منهم قتال وأمن عبد الله أهلها وبايعوه ولم يؤاخذهم بما كان منهم .

قال في زبدة الحلب : بعد أن انصرف عبد الله بن علي راجعاً إلى دمشق أقام بهاشهراً فبلغه أن العباس بن محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان السفياني قد لبس الحمرة وخالف وأظهر المعصية بحلب ، فارتحل نحوه حتى وصل إلى حمص فبلغه أن أبا جعفر المنصور وكان يلي الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وجه مقاتل بن حكيم العكي من الرقة في خيل عظيمة لقتال السفياني وأن العكي قد نزل منبج ، فسار عبد الله مسرعاً حتى نزل

مرج الأخرم فبلغه أن العكي واقع السفياني وهزمه واستباح عسكره وافتتح حلب عنوة وجمع الغنائم وسار بها إلى أبي جعفر المنصور وهو بحران ، فارتحل عبد الله إلى دابق وشتى بها ، ثم نزل سميساط وحصر فيها إسحق بن مسلم العقيلي حتى سلمها ودخل في الطاعة ، ثم قدم أبان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك في أربعة آلاف من نخبة من كان مع إسحق بن مسلم فسير إليه حميد بن قحطبة فهزم أباناً ودخل سميساط فسار إليها عبد الله ونازلها حتى افتتحها عنوة .

وكتب إليه أبو العباس السفاح يأمره بالمسير إلى الناعورة وأن يترك القتال ويرفع السيف عن الناس ، وذلك في النصف من رمضان سنة ثلاث وثلاثين ومائة وهرب أبو محمد السفياني ومن معه من الكلبية إلى تدمر ثم خرج إلى الحجاز فظفر به وقتل . اهـ .

سنة **١٣٣** : قال ابن جرير : فيها كان الوالي على كور الشام عبد الله بن علي .

سنة **١٣٤** : قال ابن جرير : فيها كان الوالي على كور الشام عبد الله ابن علي .

سنة **١٣٥** : قال ابن جرير : فيها كان الوالي على كور الشام عبد الله بن علي .

سنة **١٣٦** : قال ابن جرير : وفي هذه السنة قدم عبد الله ابن علي على أبي العباس السفاح فعقد له أبو العباس على الصائفة في أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل فسار فبلغ دلوك ولم يدرب حتى أتته وفاة أبي العباس . اهـ .

ولاية زفر بن عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي وأبي مسلم الخراساني سنة ١٣٧

قال في زبدة الحلب : لما وصل عبد الله بن علي إلى دلوك يريد الإدراب كتب إليه عامله بحلب يخبره بوفاة السفاح وبيعة المنصور ، فرجع من دلوك وأتى حران ودعا إلى نفسه وزعم أن السفاح جعله ولي عهده ، وغلب على حلب وقنسرين وديار ربيعة ومضر وسائر الشام ولم يبايع المنصور ، وبايعه حميد بن قحطبة وقواده الذين كانوا معه وولى على حلب زفر ابن عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي أبا عبد الله سنة سبع وثلاثين ومائة .

قال ابن الأثير في حوادث سنة ١٣٧ : وفي هذه السنة عقد السفاح عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لأخيه أبي جعفر عبد الله بن محمد بالخلافة من بعده وجعله ولي عهد المسلمين ، ومن بعد أبي جعفر ولد أخيه عيسى بن محمد بن علي ، وجعل العهد في ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى ، فلما توفي السفاح كان أبو جعفر بمكة فأخذ البيعة لأبي جعفر عيسى بن موسى وكتب إليه يعلمه بوفاة السفاح والبيعة له .

قال ابن جرير الطبري : وذكر علي بن محمد عن الوليد عن أبيه أن عيسى بن موسى كان قد أحرز بيوت الأموال والخزائن والدواوين حتى قدم عليه أبو جعفر الأنبار فبايع الناس له بالخلافة ثم لعيسى بن موسى من بعده ، فسلم عيسى بن موسى إلى أبي جعفر الأمر ، وقد كان عيسى بن موسى بعث أبا غسان واسمه يزيد بن زياد وهو صاحب أبي العباس إلى عبد الله بن علي ببيعة أبي جعفر وذلك بأمر أبي العباس قبل أن يموت حين أمر الناس بالبيعة لأبي جعفر من بعده ، فقدم أبو غسان على عبد الله بن علي بأفواه الدروب متوجهاً يريد الروم ، فلما قدم عليه أبو غسان بوفاة أبي العباس وهو نازل بموضع يقال له دلوك أمر منادياً فنادى الصلاة جامعة ، فاجتمع إليه القواد والجند فقرأ عليهم الكتاب بوفاة أبي العباس ودعا الناس إلى نفسه وأخبرهم أن أبا العباس حين أراد أن يوجه الجنود إلى أبي مروان بن محمد دعا بني أبيه فأرادهم على المسير إلى مروان بن محمد وقال : من انتدب منكم فسار إليه فهو ولي عهدي ، فلم ينتدب له غيري ، فعلى هذا خرجت من عنده وقتلت من قتلت ، فقام أبو غانم الطائي وخفاف المروروذي في عدة من قواد أهل خراسان فشهدوا له بذلك فبايعه أبو غانم وخفاف وأبو الأصبع وجميع من كان معه من أولئك القواد فيهم حميد بن قحطبة وخفاف الجرجاني وحياش بن حبيب ومخارق بن غفار وترار خداو وغيرهم من أهل خراسان والشام والجزيرة وقد نزل تل محمد ، فلما فرغ من البيعة ارتحل فنزل حران وبها مقاتل العكي وكان أبو جعفر استخلفه لما قدم على أبي العباس فأراد مقاتلاً على البيعة فلم يجبه وتحصن منه ، فأقام عليه وحصره حتى استنزله من حصنه فقتله وسرح أبو جعفر لقتال عبد الله بن علي أبا مسلم الخراساني ، فلما بلغ عبد الله إقبال أبي مسلم أقام بحران ، وقال أبو جعفر لأبي مسلم : إنما هو أنا وأنت فسار أبو مسلم نحو عبد الله وهو بحران وقد جمع إليه الجنود

والسلاح وخندق وجمع إليه الطعام والعلوفة وما يصلحه ، ومضى أبو مسلم سائراً من الأنبار ولم يتخلف عنه من القواد أحد ، وبعث على مقدمته مالك بن الهيثم الخزاعي وكان معه الحسن وحميد ابنا قحطبة ، وكان حميد قد فارق عبد الله بن علي وكان عبد الله أراد قتله ، وخرج معه أبو إسحاق أخوه وأبو حميد وأخوه وجماعة من أهل خراسان ، وكان أبو مسلم استخلف على خراسان حين شخص خالد بن إبراهيم أبا داود .

قال الهيثم : كان حصار عبد الله بن علي مقاتلاً العكي أربعين ليلة ، فلما بلغه مسير أبي مسلم إليه وأنه لم يظفر بمقاتل وخشي أن يهجم عليه أبو مسلم أعطى العكي أماناً فخرج إليه فيمن كان معه وأقام معه أياماً يسيرة ، ثم وجهه إلى عثمان بن عبد الأعلى بن سراقة الأزدي إلى الرقة ومعه ابناه وكتب إليه كتاباً دفعه إلى العكي ، فلما قدموا على عثمان قتل العكي وحبس ابنيه ، فلما بلغته هزيمة عبد الله بن علي وأهل الشام بنصيبين أخرجهما فضرب أعناقهما ، وكان عبد الله بن علي خشي ألا يناصحه أهل خراسان فقتل منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً أمر صاحب شرطته فقتلهم . وكتب لحميد بن قحطبة كتاباً ووجهه إلى حلب وعليها زفر بن عاصم ، وفي الكتاب : إذا قدم عليك حميد بن قحطبة فاضرب عنقه ، فسار حميد حتى إذا كان ببعض الطريق فكر في كتابه وقال : إن ذهابي بكتاب ولا أعلم ما فيه لغرر ، ففك الطومار فقرأ ، فلما رأى ما فيه دعا أناساً من خاصته فأخبرهم الخبر وأفشى إليهم أمره وشاورهم وقال : من أراد منكم أن ينجو ويهرب فليسر معي فإني أريد أن آخذ طريق العراق ، وأخبرهم ما كتب به عبد الله بن علي في أمره وقال لهم : من لم يرد منكم أن يحمل نفسه على السير فلا يفشين سري وليذهب حيث أحب ، قال : فاتبعه على ذلك ناس من أصحابه فأمر حميد بدوابه فأنعلت وأنعل أصحابه دوابهم وتأهبوا للسير معه ، ثم فوز بهم وبهرج الطريق فأخذ على ناحية من الرصافة رصافة هشام بالشام وبالرصافة يومئذ مولى لعبد الله بن علي يقال له سعيد البربري ، فبلغه أن حميد بن قحطبة قد خالف عبد الله بن علي وأخذ في المفازة فسار في طلبه فيمن معه من فرسانه فلحقه ببعض الطريق، فلما بصر به حميد ثنى عنان فرسه نحوه حتى لقيه فقال له : ويحك أما تعرفني والله مالك في قتالي من خير فارجع فلا تقتل أصحابي وأصحابك فهو خير لك ، فلما سمع كلامه عرف ما قال له فرجع إلى الرصافة ، ومضى حميد ومن كان معه فقال له صاحب حرسه موسى

ابن ميمون : إن لي بالرصافة جارية فإن رأيت أن تأذن لي فآتيها وأوصيها ببعض ما أريد ثم ألحقك ، فأذن له فأتاها فأقام عندها ، ثم خرج من الرصافة يريد حميداً فلقيه سعيد البربري مولى عبد الله بن علي فأخذه فقتله ، وأقبل عبد الله بن علي حتى نزل نصيبين وخندق عليه وأقبل أبو مسلم وكتب أبو جعفر إلى الحسن بن قحطبة وكان خليفته بأرمينيا أن يوافي أبا مسلم ، فقدم الحسن بن قحطبة على أبي مسلم وهو بالموصل وأقبل أبو مسلم فنزل ناحية لم يعرض له . وأخذ طريق الشام ، وكتب إلى عبد الله إني لم أومر بقتالك ولم أُوجه له ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام وإنما أريدها ، فقال من كان مع عبد الله من أهل الشام لعبد الله : كيف نقيم معك وهذا يأتي بلادنا وفيها حرمنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبي ذرارينا ، ولكنا نخرج إلى بلادنا فنمنعه حرمنا وذرارينا ونقاتله إن قاتلنا ، فقال لهم عبد الله بن علي : إنه والله ما يريد الشام وما وجه إلا لقتلكم ولئن أقمتم ليأتينكم ، قال : فلم تطب أنفسهم وأبوا إلا المسير إلى الشام . قال : وأقبل أبو مسلم فعسكر

قريباً منهم وارتحل عبد الله بن علي من عسكره متوجهاً نحو الشام وتحول أبو مسلم حتى نزل في معسكر عبد الله بن علي في موضعه وغوّر ما كان حوله من المياه وألقى فيها الجيف ، وبلغ عبد الله بن علي نزول أبي مسلم في معسكره فقال لأصحابه من أهل الشام : ألم أقل لكم ، وأقبل فوجد أبا مسلم قد سبقه إلى معسكره فنزل في موضع عسكر أبي مسلم الذي كان فيه فاقتتلوا أشهراً خمسة أو ستة وأهل الشام أكثر فرساناً وأكمل عدة وعلى ميمنته عبدالله بكار بن مسلم العقيلي وعلى ميسرته حبيب بن سويد الأسدي وعلى الخليل عبد الصمد ابن علي وعلى ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة وعلى الميسرة أبو نصر حازم بن خزيمة فقاتلوا شهراً .

قال علي : قال هشام بن عمرو التغلبي : كنت في عسكر أبي مسلم فتحدث الناس يوماً فقيل أي الناس أشد ؟ فقال : قولوا حتى أسمع ، فقال رجل : أهل خراسان وقال آخر : أهل الشام ، فقال أبو مسلم : كل قوم في دولتهم أشد الناس . قال : ثم التقينا فحمل علينا أصحاب عبد الله بن علي فصدمونا صدمة أزالونا بها عن مواضعنا ثم انصرفوا ، وشد علينا عبد الصمد في خيل مجردة فقتل منا ثمانية عشر رجلاً ثم رجع في أصحابه ، ثم

تجمعوا فرموا بأنفسهم فأزالوا صفنا وجُلنا جولة فقلت لأبي مسلم : لو حركت دابتي حتى أشرف هذا التل فأصيح بالناس فقد انهزموا ، فقال : افعل قال قلت : وأنت أيضاً فتحرك دابتك فقال : إن أهل الحجى لا يعطفون دوابهم على هذه الحال ناد يا أهل خراسان ارجعوا فإن العاقبة لمن اتقى ، قال : ففعلت فتراجع الناس وارتجز أبو مسلم يومئذ فقال :

من كان ينوي أهله فلا رجعْ فر من الموت وفي الموت وقعْ

قال : وكان قد عمل لأبي مسلم عريش فكان يجلس عليه إذا التقى الناس فينظر إلى القتال فإن رأى خللاً في الميمنة أو في الميسرة أرسل إلى صاحبها إن في ناحيتك انتشاراً فاتق ألا تؤتى من قبلك فافعل كذا قدم خيلك كذا أو تأخر كذا إلى موضع كذا فإنما رسله تختلف إليهم برأيه حتى ينصرف بعضهم عن بعض .

قال فلما كان يوم الثلاثاء أو الأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٦ أو ١٣٧ التقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فلما رأى ذلك أبو مسلم مكر بهم فأرسل الحسن بن قحطبة وكان على ميمنته أن أعز الميمنة وضم أكثرها إلى الميسرة وليكن في الميمنة حماة أصحابك وأشداؤهم ، فلما رأى ذلك أهل الشام أعزوا ميسرتهم وانضموا إلى ميمنتهم بإزاء ميسرة أبي مسلم ، ثم أرسل أبو مسلم إلى الحسن أن مر أهل القلب فليحملوا مع من بقي في الميمنة على ميسرة أهل الشام فحملوا فحطموهم وجال أهل القلب والميمنة ، قال : وركبهم أهل خراسان فكانت الهزيمة . فقال عبد الله بن علي لابن سراقة الأزدي : ما ترى قال : أرى والله أن تصبر وتقاتل حتى تموت فإن الفرار قبيح بمثلك ، وقيل عتبه على مروان فقلت : قبح الله مروان جزع من الموت ففر قال : إني آتي العراق ، قال : فأنا معك ، فانهزموا وتركوا عسكرهم فاحتواه أبو مسلم وكتب بذلك إلى أبي جعفر فأرسل أبو جعفر أبا الخصيب مولاه يحصي ما أصابوا في عسكر عبد الله بن علي فغضب من ذلك أبو مسلم .

قال ابن الأثير : لما انهزم عبد الله وجمع أبو مسلم ما غنم من عسكره بعث أبو جعفر أبا الخطيب إلى أبي مسلم ليكتب ما أصاب من الأموال فأراد أبو مسلم قتله فتكلم فيه فخلى سبيله وقال أنا أمين على الدماء خائن في الأموال وشتم المنصور ، فرجع أبو الخطيب إلى المنصور فأخبره فخاف أن يمضي أبو مسلم إلى خراسان فكتب إليه إني قد

وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيته من قريب ، فلما أتاه الكتاب غضب وقال : يوليني الشام ومصر وخراسان لي ، فكتب الرسول إلى المنصور بذلك وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعاً على الخلاف وخرج عن وجهه يريد خراسان . ثم ساق ابن الأثير بقية ما جرى بين أبي مسلم والمنصور إلى أن قتله المنصور في هذه السنة وهذا خارج عن موضوع كتابنا إذ لا علاقة له بهذه البلاد .

ترجمة عبد الله بن علي :

قال في عيون التواريخ لابن شاكر في حوادث سنة ١٤٧ : فيها توفي عبد الله بن علي ابن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب عم السفاح والمنصور ، ولاه السفاح حروب مروان ابن محمد وبني أمية وضمن له إن جرى قتل مروان على يده أن يجعله الخليفة من بعده ، فسار عبد الله إلى مروان حتى قتله واستولى على الشام ولم يزل أميراً عليها مدة خلافة السفاح ، ثم تغيرت نية السفاح له فعهد إلى المنصور ، فلما ولي المنصور خالف عليه عبدالله ودعا إلى نفسه محتجاً بما كان السفاح وعده فوجه إليه المنصور أبا مسلم صاحب الدعوة فحاربه بنصيبين فانهزم عبد الله واختفى وسار إلى البصرة إلى أخيه سليمان بن علي فأقام عنده إلى أن أخذ له أماناً من المنصور ، ثم إن المنصور حبسه فلم يزل في الحبس حتى وقع عليه البيت ، وقيل إن المنصور قال يوماً لجلسائه : أخبروني عن ملك جبار أول اسمه عين قتل ثلاثة أول أسمائهم عين فقال أحد من حضر : عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن الأشعث ، قال فخليفة آخر أول اسمه عين ، فقال : أنت يا أمير المؤمنين قتلت أبا مسلم واسمه عبد الرحمن وقتلت عبد الجبار ، فقال المنصور : ويلك ومن هو الثالث ؟ قال : سقط البيت على عمك عبد الله بن علي ، فضحك وقال : ويلك إذا كان البيت سقط فما ذنبي أنا ، ثم قال : أتعرفون عين بن عين ابن عين قتل ميم بن ميم بن ميم ، قال له رجل : نعم عمك عبد الله بن علي بن عبد الله قتل مروان بن محمد بن مروان .

وزفر بن عاصم بن عبد الله : لم أقف له على ترجمة .

ترجمة أبي مسلم الخراساني :

قد ذكرنا في الحوادث خبر مجيئه إلى هذه البلاد بالجيوش لمقاتلة عبد الله بن علي عم السفاح وما حصل بينهما إلى أن انهزم عبد الله بن علي ، وأبو مسلم هذا هو القائم بالدعوة العباسية والمشيد لأركان خلافتهم والرافع لمنارها ، وأخبار قيامه ووقائعه كثيرة مبسوطة في ابن الأثير وغيره من مبسوطات التواريخ ، وبالجملة فهو من دهاة الرجال ونابغي ذلك العصر وله في ابن خلكان ترجمة حافلة نقتصر منها على ما يأتي : هو أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم وقيل عثمان الخراساني ، كان أبوه من رستاق فريدين من قرية تسمى سنجرد ، وقيل إنه من قرية يقال لها ماخوان على ثلاثة فراسخ من مرو ، وكانت هذه القرية له مع عدة قرى وكان بعض الأحيان يجلب إلى الكوفة المواشي ، ثم إنه قاطع على رستاق فريدين فلحقه فيه عجز وأنفذ عامل البلد إليه من يشخصه إلى الديوان ، وكان له عند أذين بنداد ابن وسيحان جارية اسمها وشيكة جلبها من الكوفة فأخذ الجارية معه وهي حامل وتنحى عن مودي خراجه آخذاً إلى أذربيجان فاجتازوا على رستاق فايق بعيسى بن معقل بن عمير أخي إدريس بن معقل جد أبي دلف العجلي فأقام عنده أياماً فرأى في منامه كأنه جلس للبول فخرج من إحليله نار فارتفعت في السماء وسدت الآفاق وأضاءت الأرض ووقعت بناحية المشرق ، فقص رؤياه على عيسى بن معقل فقال له : ما أشك أن في بطنها غلاماً ، ثم فارقه ومضى إلى أذربيجان ومات بها ووضعت الجارية أبا مسلم ونشأ عند عيسى ، فلما ترعرع اختلف مع والده إلى المكتب فخرج أديباً لبيباً يشار إليه في صغره ، ثم ساق بقية ما كان من أمره إلى أن أهدي إلى الإمام إبراهيم بن محمد العباسي ، ثم ولاه الإمام خراسان وكان من أمره ما كان إلى أن قال : ووصف المدائني أبا مسلم فقال : كان قصيراً أسمر جميلاً حلواً نقي البشرة أحور العين عريض الجبهة حسن اللحية وافرها طويل الشعر طويل الظهر قصير الساق والفخذ خافض الصوت فصيحاً بالعربية والفارسية حلو المنطق راوية للشعر عالماً بالأمور لم ير ضاحكاً ولا مازحاً إلا في وقته ولا يكاد يقطب في شيء من أحواله ، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور وتنزل به الحوادث الفادحة فلا يرى مكتئباً ، وإذا غضب لم يستفزه الغضب ، ولا يأتي النساء في السنة إلا مرة واحدة ويقول : الجماع جنون ويكفي

الإنسان أن يجن في السنة مرة ، وكان من أشد الناس غيرة لا يدخل قصره غيره ، وكان في القصر كوى يطرح لنسائه منها ما يحتجن إليه ، قالوا : وليلة زفت إليه امرأته أمر بالبرذون الذي ركبته فذبح وأحرق سرجه لئلا يركبه ذكر بعدها . وقال ابن شبرمة : أصلح الله الأمير من أشجع الناس ؟ قال : كل قوم في إقبال دولتهم ، وكان أقل الناس طمعاً وأكثرهم طعاماً ، ولما حج نادى في الناس : برئت الذمة ممن أوقد ناراً ، فكفى العسكر ومن معه أمر طعامهم وشرابهم في ذهابهم وإيابهم ومنصرفهم ، وهربت الأعراب فلم يبق في المناهل منهم أحد لما كانوا يسمعونه من سفكه الدماء ، قتل في دولته ستماية ألف صبراً فقيل لعبد الله بن المبارك : أبو مسلم خير أم الحجاج ؟ قال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد ولكن الحجاج كان شراً منه . وكانت ولادته في سنة مائة للهجرة ، وكان أول ظهوره بمرو سنة تسع وعشرين ومماية ، وكان السفاح كثير التعظيم لأبي مسلم لما صنعه ودبره ، وكان أبو مسلم عند ذلك ينشد في كل وقت :

أدركتُ بالحزم والكتمانِ ما عجزت عنه ملوكُ بني مروانَ إذ حشدوا
ما زلتُ أسعى بجهدي في دمارهمُ والقومُ في غفلةٍ بالشام قد رقدوا
حتى طرقتهمُ بالسيف فانتبهوا من نومةٍ لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنماً في أرض مَسبعةٍ ونام عنها تولّى رعيها الأسد

ولما مات السفاح في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة وتولى الخلافة أخوه أبو جعفر وهو بمكة صدرت من أبي مسلم أسباب وقضايا غيرت قلب المنصور عليه فعزم على قتله ، وبسط المؤرخون الأسباب التي اتخذها إلى أن ظفر به وقتله ، قال ابن خلكان : وكان قتله في شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة برومية المدائن .

قال ابن الأثير : وكان أبو مسلم نازكاً شجاعاً ذا رأي وعقل وتدبير وحزم ومروءة ، وقيل له : بم نلت ما أنت فيه من القهر للأعداء ؟ فقال : ارتديت الصبر وآثرت الكتمان وحالفت الأحزان والأشجان وسامحت المقادير والأحكام حتى بلغت غاية همتي وأدركت نهاية بغيتي ، ثم أنشد الأبيات المتقدمة .

وقال أيضاً : إن أبا مسلم ورد نيسابور على حمار بإكاف وليس معه آدمي فقصد في بعض الليالي دار الفاذوسيان فدق عليه الباب ففزع أصحابه وخرجوا إليه فقال لهم : قولوا

للدهقان إن أبا مسلم بالباب ويطلب منك ألف درهم ودابة ، فقالوا للدهقان ذلك فقال الدهقان : في أي زي هو وأي عدة ؟ فأخبروه أنه وحده في أدون زي ، فسكت ساعة ثم دعا بألف درهم ودابة من خواص دوابه وأذن له وقال : يا أبا مسلم قد أسعفناك بما طلبت وإن عرضت حاجة أخرى فمن بين يديك ، فقال : ما نضيع لك ما فعلته ، فلما ملك قال له بعض أقاربه : إن فتحت نيسابور أخذت كل ما تريده من مال الفاذوسيان دهقانها المجوسي ، فقال أبو مسلم : له عندنا يد ، فلما ملك نيسابور أتته هدايا الفاذوسيان فقيل له لا تقبلها واطلب منه الأموال ، فقال : له عندي يد ، ولم يتعرض له ولا لأحد من أصحابه وأمواله ، وهذا يدل على علو همة وكمال مروءة . اهـ .

ولاية صالح بن علي بن عبد الله بن العباس
من سنة ١٣٧ إلى سنة ١٥٢

قال في زبدة الحلب : ولما عاد أبو مسلم من الشام ولى المنصور حلب وقنسرين وحمص صالح بن علي بن عبد الله بن العباس سنة سبع وثلاثين ومائة ، فنزل حلب فابتنى بها خارج المدينة قصراً يقال له بطياس بالقرب من النيرب وآثاره باقية إلى الآن ، ومعظم أولاده ولدوا ببطياس ، وقد ذكرها البحتري وغيره في أشعارهم ، وأغزى الصائفة مع ابنه الفضل في سنة تسع وثلاثين ومائة بأهل الشام وهي أول صائفة غزيت في خلافة بني العباس ، وكانت انقطعت الصوائف في أيام بني أمية قبل ذلك بسنين ، ودام صالح في ولاية حلب إلى أن مات في سنة اثنين وخمسين ومائة ، ورأيت فلوساً عتيقة فتتبعت ما عليها مكتوب فإذا أحد الجانبين مكتوب عليه [ضرب هذا الفلس بمدينة حلب سنة ست وأربعين ومائة] وعلى الجانب الآخر [مما أمر به الأمير صالح بن علي أكرمه الله] اهـ .

قال في الكواكب المضية : قال الشيخ علاء الدين بن خطيب الناصرية الطائي الشافعي رحمه الله تعالى : وقد نزل حلب المحروسة جماعة من بني هاشم واختاروها دون بقية البلاد منهم صالح بن علي بن عبد الله بن العباس وابتنى قصره ببطياس وكان على الرابية المشرفة على النيرب من جهة الغرب والشمال وموضع إسطبله عن يمين المتوجه والطريق

بينهما وسكنه هو وبنوه ، وقال ابن خلكان وهو بين النيرب والصالحية وهما قريتان شرقي حلب ، وتوفي صالح بن علي المذكور سنة اثنتين وخمسين ومائة وهو على قنسرين وحمص وعمره ثمان وخمسون سنة .

قال ابن الأثير في حوادث سنة تسع وثلاثين ومائة : وفي هذه السنة فرغ صالح بن علي والعباس بن محمد من عمارة ما أخربه الروم من ملطية ثم غزوا الصائفة من درب الحدث فوغلا في أرض الروم ، وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة بنتا علي وكانتا نذرتا إن زال ملك بني أمية أن تجاهدا في سبيل الله اهـ .

ولاية الفضل بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس
من سنة ١٥٢ إلى سنة ١٥٤

قال في زبدة الحلب : ولما مات صالح تولى حلب وقنسرين بعده ولده الفضل بن صالح واختار له العقبة بحلب فسكنها وأقام بحلب والياً مدة . اهـ .

وقال في الكواكب المضية : قال الصاحب : سكن الفضل بن صالح حلب واختار محلة العقبة فبنى دوره فيها ، وهي أشرف نواحي حلب وأفضلها اهـ .

وقال فيه : كان الفضل عالماً فاضلاً ناله نقرس فدخل إليه أبوه يعوده فقال له : كيف أنت ؟ فقال :

أشكو إلى الله ما أصبتُ به ... من علةٍ في أسافلِ القدمِ
كأنني لم أطأ بها كبداً ... من حاسدٍ سر قلبَه ألمي
فالحمد لله لا شريك له ... لحميَ للأرض بعدها ودمي
ما من صحيح إلا ستنقله ... الأيام من صحة إلى سقم

ومن شعره :

وسدته المدامُ إحدى يديه ... وتمشت بالنوم في مقلتيهِ

صاحب ما منحته الودّ إلا بعد علم من ... لديه[1]
يا كريماً عليّ تفديك نفسي من أخ لم أزل كريماً عليهِ

وأنشد له حمزة الأصبهاني في كتاب الأوصاف في البهار :

كم في الربيع بساتينا ومنتزهاً فالنور مختلف والروض مشتبهُ
ترى البهارَ صفوفاً في جوانبه كأنها أعينٌ تغفي وتنتبهُ

قال ابن شاكر في عيون التواريخ في حوادث سنة ١٧٢ : وفيها توفي الفضل بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس أمير دمشق وولي الديار المصرية أيضاً ، وهو الذي عمل أبواب جامع دمشق وبنى القبة التي في الصحن وتعرف بقبة المال ، وهو ابن عم المنصور والسفاح رحمهم الله تعالى .

وقال في الكواكب المضية : قال الطبري : ولد الفضل بن صالح سنة اثنتين وعشرين وماية ومات بعانات من أرض الجزيرة عند منصرفه من العراق وقبره بها اهـ .

ولاية موسى بن سلمان الخراساني من سنة ١٥٤ إلى سنة ١٥٨

قال في زبدة الحلب : ثم ولى المنصور بعده (أي بعد الفضل بن صالح) موسى بن سليمان الخراساني ، ومات المنصور سنة ثمان وخمسين وموسى على قنسرين وحلب . ورأيت فلوساً عتيقة فقرأت عليها (ضرب هذا الفلس بقنسرين سنة سبع وخمسين ومائة) وعلى الجانب الآخر (مما أمر به الأمير موسى مولى أمير المؤمنين) .

قال ابن جرير الطبري في حوادث سنة ١٥٤ : وفي هذه السنة عزم المنصور فيما ذكر على بناء مدينة الرافقة ، فذكر عن محمد بن جابر عن أبيه أن أبا جعفر لما أراد بناءها امتنع أهل الرقة وأرادوا محاربته وقالوا : تعطل علينا أسواقنا وتذهب بمعائشنا وتضيق منازلنا ، فهم بمحاربتهم وبعث إلى راهب في الصومعة هنالك فقال له : هل لك علم بأن إنساناً يبني ههنا مدينة ؟ فقال : بلغني أن رجلاً يقال له مقلاص يبنيها ، فقال : أنا والله مقلاص اهـ .

(١) هكذا في الأصل ولعله مما يكون لديه .

وقال في حوادث سنة ١٥٥ : وفيها وجه المنصور ابنه المهدي لبناء الرافقة فشخص إليها فبناها على بناء مدينة بغداد في أبوابها وفصولها ورحابها وشوارعها وسوّر سورها وخندقها ثم انصرف إلى مدينته .

وقال في حوادث سنة ١٥٨ : وفيها انصرف المهدي إلى مدينة السلام من الرقة فدخلها في شهر رمضان اهـ .

قال في معجم البلدان : (الرافقة) الفاء قبل القاف ، قال أحمد بن الطيب : الرافقة بلد متصل البناء بالرقة وهما على ضفة الفرات وبينهما مقدار ثلاثمائة ذراع ، قال : وعلى الرافقة سوران بينهما فصيل ، وهي على هيئة مدينة السلام ولها ربض بينها وبين الرقة وبه أسواقها وقد خرب بعض أسوار الرقة ، قلت : هكذا كانت أولاً فأما الآن فإن الرقة قد خربت وغلب اسمها على الرافقة وصار اسم المدينة الرقة ، وهي من أعمال الجزيرة مدينة كبيرة كثيرة الخير . قال أحمد بن يحيى : لم يكن للرافقة أثر قديم إنما بناها المنصور في سنة ١٥٥ على بناء مدينة بغداد ورتب بها جنداً من أهل خراسان وجرى ذلك على يد المهدي وهو ولي عهده ، ثم إن الرشيد بنى قصورها ، وكان فيما بين الرقة والرافقة فضاء وأرض ومزارع فلما قام علي بن سليمان بن علي والياً على الجزيرة نقل أسواق الرقة إلى تلك الأرض .

وكان سوق الرقة الأعظم فيما مضى يعرف بسوق هشام العتيق ، فلما قدم الرشيد الرقة استزاد في تلك الأسواق وكان يأتيها ويقيم بها فعمرت مدة طويلة . اهـ .

ولاية الهيثم بن علي من سنة ١٥٨ إلى سنة ١٥٩

لم أجد نقل تعيينه وإنما وجدت نقل عزله في هذه السنة ، قال ابن جرير الطبري في حوادث سنة ١٥٨ : فيها عزل الهيثم بن علي عن الجزيرة واستعمل عليها الفضل بن صالح .

ولاية الفضل بن صالح من سنة ١٦٠ إلى سنة ١٦٢

قال ابن جرير في حوادث سنة ١٦٠ : وفيها كان على الجزيرة الفضل بن صالح .

وقال ابن الأثير في حوادث سنة ١٦١ : وفيها غزا الصائفة ثمامة بن الوليد فنزل

بدابق وجاشت الروم مع مخائيل في ثمانين ألفاً ، فأتى عمق ومرعش فقتل وسبى وغنم ، وأتى مرعش فحاصرها فقاتلهم فقتل من المسلمين عدة كثيرة ، وكان عيسى بن علي مرابطاً بحصن مرعش فانصرف الروم إلى جيحان وبلغ الخبر المهدي فعظم عليه وتجهز لغزو الروم على ما سنذكره سنة اثنتين وستين ومابة فلم يكن للمسلمين صائفة من أجل ذلك . اهـ .

ولاية عبد الصمد بن علي من سنة ١٦٢ إلى سنة ١٦٣

قال ابن جرير في حوادث سنة ١٦٢ : إن الجزيرة كانت في هذه السنة إلى عبد الصمد بن علي ، وقال في حوادث هذه السنة : ذكر أن عبد السلام بن هاشم اليشكري خرج بالجزيرة وكثر بها أتباعه واشتدت شوكته فلقيه قواد المهدي عدة ، منهم عيسى بن موسى القائد فقتله في عدة ممن معه وهزم جماعة من القواد ، فوجه إليه المهدي الجنود فكتب غير واحد من القواد منهم شبيب بن واج المرورزي ، ثم ندب إلى شبيب ألف فارس وأعطى كل رجل منهم ألف درهم معونة وألحقهم بشبيب فوافاه فخرج شبيب في إثر عبد السلام فهرب منهم حتى أتى قنسرين فلحقه بها فقتله اهـ .

قال أبو الفدا في حوادث سنة ١٥٨ : فيها مات عم المنصور عبد الصمد بن علي ابن عبد الله بن عباس وكان في القرب إلى عبد مناف بمنزلة يزيد بن معاوية وبين موتهما ما يزيد على مائة وعشرين سنة .

وقال ابن جرير في حوادث هذه السنة : فيها مات عبد الصمد بن علي ببغداد ولم يكن ثغر قط فأدخل القبر بأسنان الصبي وما نقص له سن . اهـ .

ولاية زفر بن عاصم الهلالي سنة ١٦٣ ثم عزله فيها وولاية عبد الله بن صالح بن علي

قال ابن الأثير في حوادث سنة ١٦٣ : في هذه السنة تجهز المهدي لغزو الروم ، فخرج وعسكر بالبردان وجمع الأجناد من خراسان وغيرها وسار عنها ، وكان قد توفي عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس في جمادى الآخرة ، وسار المهدي من الغد واستخلف

على بغداد ابنه موسى الهادي واستصحب معه ابنه هارون الرشيد ، وسار على الموصل والجزيرة وعزل عنها عبد الصمد بن علي في مسيره ذلك .

وقال ابن جرير في حوادث سنة ١٦٣ : وفي هذه السنة سنة مسير المهدي مع ابنه هارون عزل المهدي عبد الصمد بن علي عن الجزيرة وولى مكانه زفر بن عاصم الهلالي ، والسبب في عزله أن المهدي سلك في سفرته هذه طريق الموصل وعلى الجزيرة عبد الصمد ابن علي ، فلما شخص المهدي من الموصل وصار بأرض الجزيرة لم يتلقه عبد الصمد ولا هيأ له نزلاً ولا أصلح له قناطر فاضطغن ذلك عليه المهدي ، فلما لقيه تجهمه وأظهر له جفاء ، فبعث إليه عبد الصمد بألطاف لم يرضها فردها عليه وازداد عليه سخطاً وأمر بإقامة النزل له فتعبث في ذلك وتقنع ولم يزل يربي ما يكرهه إلى أن نزل حصن مسلمة فدعا به وجرى بينهما كلام أغلظ له فيه القول المهدي ، فرد عليه عبد الصمد ولم يحتمله فأمر بحبسه وعزل عن الجزيرة ولم يزل في حبسه في سفره ذلك ، وبعد أن رجع رضي عنه وأقام له العباس بن محمد النزل . قال ابن الأثير : ولما حاز المهدي قصر مسلمة بن عبد الملك قال العباس بن محمد بن علي (هو عم المهدي كما في ابن خلدون) للمهدي : إن لمسلمة في أعناقنا منة ، كان محمد بن علي مر به فأعطاه أربعة آلاف دينار وقال له : إذا نفذت فلا تحتشمنا ، فأحضر المهدي ولد مسلمة ومواليه وأمر لهم بعشرين ألف دينار وأجرى عليهم الأرزاق وعبر الفرات إلى حلب وأرسل وهو بحلب فجمع من بتلك الناحية من الزنادقة فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم بالسكاكين (وفي ابن جرير بعث وهو بحلب عبد الجبار المحتسب لحلب من بتلك الناحية من الزنادقة ففعل وأتاه بهم وهو بدابق فقتل جماعة منهم وصلبهم ، وأتى بكتب من كتبهم فقطعت بالسكاكين ثم عرض بها جنده وأمر بالرحلة) وسار عنها (عن حلب أو دابق) مشيعاً لابنه هارون الرشيد حتى جاز الدرب وبلغ جيحان ، فسار هارون ومعه عيسى بن موسى وعبد الملك بن صالح والربيع والحسن بن قحطبة والحسن وسليمان بن برمك ويحيى بن خالد بن برمك ، وكان إليه أمر العسكر والنفقات والكتابة وغير ذلك ، فساروا فنزلوا على حصن سمالوا فحصره هارون ثمانية وثلاثين يوماً ونصب عليه المجانيق ففتحه الله عليهم بالأمان ووفى لهم وفتحوا فتوحاً كثيرة ، ولما عاد المهدي من الغزاة زار بيت المقدس ومعه يزيد بن منصور والعباس بن محمد بن علي والفضل

ابن صالح بن علي وعلي بن سليمان بن علي وقفل المسلمون سالمين إلا من قتل منهم وعزل المهدي إبراهيم بن صالح عن فلسطين ثم رده .

ثم قال : وفي هذه السنة ولى المهدي ابنه هارون المغرب كله وأذربيجان وأرمينية وجعل كاتبه على الخراج ثابت بن موسى وعلى رسائله يحيى بن خالد برمك . وفيها عزل زفر ابن عاصم عن الجزيرة واستعمل عليها عبد الله بن صالح بن علي . اهـ .

قال ابن جرير : وكان المهدي نزل عليه في مسيره إلى بيت المقدس فأعجب بما رأى من منزله بسلمية .

سنة ١٦٥

غزو الرشيد بلاد الروم وبلوغه القسطنطينية

قال ابن جرير : فيها غزا هارون بن محمد المهدي الصائفة ، وجهه أبوه فيما ذكر يوم السبت لأحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة غازياً إلى بلاد الروم في خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً ، وضم إليه الربيع مولاه فوغل هارون في بلاد الروم فافتتح ماجده ولقيته خيول نقيطاقومس القوامسة فبارزه يزيد بن مزيد فأرجل يزيد ثم سقط نقيطا فضربه يزيد حتى أثخنه وانهزمت الروم وغلب يزيد على عسكرهم وساروا إلى الدمستق بنقموديه ، وهو صاحب المسالح فحمل لهم من العين مائة ألف دينار وأربعة وتسعين ألفاً وأربعماية وخمسين ديناراً ومن الورق أحداً وعشرين ألف ألف وأربعماية ألف وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم ، وسار هارون حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية وصاحب الروم يومئذ أغسطه امرأة إليون ، وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها فجرت بينها وبين هارون بن المهدي الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية ، فقبل ذلك منها هارون وشرط عليها الوفاء بما أعطت له وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في طريقه ، وذلك أنه دخل مدخلاً صعباً مخوفاً على المسلمين ، فأجابته إلى ما سأل ، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون ألف دينار تؤديها في نيسان الأول في كل سنة وفي حزيران ، فقبل ذلك منها فأقامت له الأسواق في منصرفه ووجهت معه رسولاً إلى المهدي بما بذلت على أن تؤدي ما تيسر من الذهب والفضة والعرض ،

وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين وسلمت الأسارى وكان الذي أفاء الله على هارون إلى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأساً ، وقتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسون وقتل من الأسارى صبراً ألفان وتسعون أسيراً ، ومما أفاء الله عليه من الدواب الذلل بأدواتها عشرون ألف دابة وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس ، وكانت المرتزقة سوى المطوعة وأهل الأسواق مائة ألف وبيع البرذون بدرهم والبغل بأقل من عشرة دراهم والدرع بأقل من درهم وعشرين سيفاً بدرهم ، فقال مروان بن أبي حفصة في ذلك :

أطفت بقسطنطينة الروم مسنداً إليها القنا حتى اكتسى الذلَّ سورُها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها بجزيتها والحرب تغلي قدورُها

وقال في حوادث سنة ١٦٦ : وقفل هارون ومن كان معه من خليج القسطنطينية في المحرم لثلاث عشرة ليلة بقيت منه .

ولاية علي بن سليمان سنة ١٦٨

لم أقف على تاريخ تعيينه لكنه في هذه السنة كان والياً على هذه البلاد من قبل الرشيد قبل أن يلي الخلافة .

قال ابن جرير في حوادث السنة المذكورة : فيها نقض الروم الصلح الذي كان جرى بينهم وبين هارون بن المهدي وغدروا ، وذلك في شهر رمضان من هذه السنة ، فكان بين أول الصلح وغدر الروم ونكثهم اثنان وثلاثون شهراً فوجه علي بن سليمان وهو يومئذ على الجزيرة وقنسرين يزيد بن بدر البطال في سرية إلى الروم فغنموا وظفروا . اهـ .

سنة ١٧٠

في هذه السنة ولي هارون الرشيد الخلافة ، قال ابن جرير : وفيها عزل الرشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم اهـ .

قال ياقوت : العواصم : هو جمع عاصم وهو المانع ومنه قوله تعالى ﴿ لا عاصمَ اليومَ من أمرِ الله إلا مَنْ رَحِم ﴾ وهو صفة فلذلك دخله الألف واللام ، والعواصم حصون

موانع وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية وقصبتها أنطاكية كان قد بناها قوم واعتصموا بها من الأعداء وأكثرها في الجبال ، فسميت بذلك ، وربما دخل في هذا ثغور المصيصة وطرسوس وتلك النواحي ، وزعم بعضهم أن حلب ليست منها وبعضهم يزعم أنها منها ، ودليل من قال إنها ليست منها أنهم اتفقوا على أنها من أعمال قنسرين وهم يقولون قنسرين والعواصم والشيء لا يعطف على نفسه وهو دليل حسن والله أعلم .

وقال أحمد بن محمد بن جابر : لم تزل قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان زمان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج وذواتها جنداً ، فلما استخلف الرشيد أفرد قنسرين بكورها فصيره جنداً ، وأفرد منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون فسماها العواصم ، لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر ، وجعل مدينة العواصم منبج وأسكنها عبد الملك بن صالح بن عبد الله بن عباس في سنة ١٧٣ فبني فيها أبنية مشهورة ، وذكرها المتنبي في مدح سيف الدولة :

لقد أوحشتَ أرضَ الشام طراً سلبت ربوعَها ثوبَ البهاءِ
تنفّسُ والعواصم منك عشر فتعرف طيبَ ذلك في الهواء

ولم أقف على من ولي أمر هذه البلاد سنة ١٦٩ وسنة ١٧٠ من طرف الرشيد حينما كان والياً عاماً على هذه البلاد قبل أن يلي الخلافة ومن وليها سنة ١٧١ بعد أن وليها ، ويغلب على الظن أنها ظلت على علي بن سليمان .

سنة ١٧٢

قال ابن جرير : غزا الصائفة فيها إسحق بن سليمان بن علي .

ولاية عبد الملك بن صالح بن علي من سنة ١٧٣ إلى ١٧٥

تقدم النقل عن ياقوت في معجم البلدان أنه ولي العواصم من قبل الرشيد عبد

الملك بن صالح سنة ١٧٣ . وقال ابن جرير في حوادث سنة ١٧٤ و١٧٥ : فيهما غزا الصائفة عبد الملك بن صالح . قال في زبدة الحلب : لما أفضى الأمر إلى الرشيد ولى حلب وقنسرين عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله فأقام بمنبج وابتنى بها قصراً لنفسه وبستاناً إلى جانبه ، ويعرف البستان إلى يومنا هذا ببستان القصر ، وكانت ولايته سنة خمس وسبعين ومائة ثم صرفه لأمر عتب عليه فيه .

ولاية موسى بن عيسى سنة ١٧٦
ثم ولاية موسى بن يحيى بن خالد بن برمك في هذه السنة

قال ابن جرير في حوادث هذه السنة : فيها هاجت العصبية بالشام بين النزارية واليمانية ، ورأس اليمانية يومئذ أبو الهيذام وعامل السلطان بالشام موسى بن عيسى ، فقتل بين النزارية واليمانية على العصبية من بعضهم لبعض بشر كثير ، فولى الرشيد موسى بن يحيى ابن خالد الشام وضم إليه من القواد والأجناد ومشايخ الكتاب جماعة .

وغزا الصائفة في هذه السنة عبد الرحمن بن عبد الملك فافتتح حصناً .

ترجمة موسى بن يحيى بن خالد :

قال في مختصر الذهبي : موسى بن يحيى بن خالد بن برمك من كبار أمراء الدولة ، ولاه الرشيد إمرة الشام في أيام فتنة أبي الهيذام فقدم وأصلح بين النزارية واليمانية ، وكان شاباً شجاعاً كافياً ذا دهاء ورأي ، عزم المأمون أن يوليه ثغر السند لشجاعته ، حكى عنه ابن هارون والأصمعي وعلي بن المديني . قال الذهبي لا أعلم متى توفي . اهـ .

سنة ١٧٧

غزا الصائفة فيها عبد الرزاق بن عبد الحميد الثعلبي .

سنة ١٧٨

غزا الصائفة فيها معاوية بن زفر بن عاصم .

ولاية جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك سنة ١٨٠ وعيسى بن العكي في هذه السنة

قال ابن جرير في حوادث هذه السنة : ومما كان فيها من ذلك العصبية التي هاجت بالشام بين أهلها ، ولما حدثت وتفاقم أمرها اغتم بذلك من أمرهم الرشيد فعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له : إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا ، فقال له جعفر : بل أقيك بنفسي ، فشخص في جملة القواد والكراع والسلاح وجعل على شرطه العباس بن محمد بن المسيب بن زهير وعلى حرسه شبيب بن حميد بن قحطبة فأتاهم وأصلح بينهم وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحاً ولا فرساً ، فعادوا إلى الأمن والطمأنينة وإطفاء تلك الثائرة ، واستخلف على الشام عيسى بن العكي وانصرف فأزداد الرشيد له إكراماً .

وفيها شخص الرشيد من مدينة السلام مريداً الرقة على طريق الموصل ، ولما وصل الموصل هدم سورها بسبب الخوارج الذين خرجوا منها ثم مضى إلى الرقة فنزلها واتخذها وطناً . اهـ .

قال في القاموس في مادة (السلم) : وقصر السلام للرشيد بالرقة .

ترجمة جعفر بن يحيى البرمكي :

للبرامكة أخبار كثيرة في كتب التاريخ والأدب ، وجعفر هذا نابغة آلهم وواسطة عقدهم ، وله في تاريخ ابن خلكان ترجمة حافلة واسعة نقتطف اليسير منها هنا ونذكر بعضها في ترجمة عبد الملك بن صالح بن علي الآتية قريباً ، ومن أحب الوقوف عليها بتمامها فليرجع إليها في هذا التاريخ ، قال :

هو أبو الفضل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك بن جاماان بن يستاشف البرمكي وزير هارون الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشارك فيها ، وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر . أما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر ، وكان من ذوي

الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة ، ويقال إنه وقع ليلة بحضرة هارون الرشيد زيادة على ألف توقيع ولم يخرج في شيء منها عن موجب الفقه ، وكان أبوه ضمه إلى القاضي أبي يوسف الحنفي حتى علمه وفقهه ذكره ابن القادسي في كتاب أخبار الوزراء . واعتذر رجل إليه فقال له جعفر قد أغناك الله بالعذر منا عن الاعتذار إلينا وأغنانا بالمودة لك عن سوء الظن بك . ووقع إلى بعض عماله وقد شكا منه : قد كثر شاكوك وقل شاكروك فإما اعتدلت وإما اعتزلت . ومما ينسب إليه من الفطنة أنه بلغه أن الرشيد مغموم ، لأن منجماً يهودياً زعم أنه يموت في تلك السنة يعني الرشيد وأن اليهودي في يده فركب جعفر إلى الرشيد فرآه شديد الغم فقال لليهودي : أنت تزعم أن أمير المؤمنين يموت إلى كذا وكذا يوماً قال : نعم قال : وأنت كم عمرك ؟ قال : كذا وكذا أمداً طويلاً فقال للرشيد : اقتله حتى تعلم أنه كذب في أمدك كما كذب في أمده ، فقتله وذهب ما كان بالرشيد من الغم وشكره على ذلك وأمر بصلب اليهودي فقال أشجع السلمي في ذلك :

سل الراكبَ الموفي على الجذع هل رأى ... لراكبه نجماً بدا غير أعورِ
ولو كان نجمٌ مخبراً عن منيةٍ ... لأخبرَه عن رأسه المتحيرِ
يعرّفنا موتَ الإمام كأنه ... يعرفنا أنباء كسرى وقيصرِ
أتخبر عن نحسٍ لغيرك شؤمُه ... ونجمُك بادي الشر يا شر مخبرِ

ومضى دم المنجم هدراً بحمقه . وكان جعفر من الكرم وسعة العطايا كما هو مشهور ، ويقال إنه لما حج اجتاز في طريقه بالعقيق وكانت سنة مجدبة فاعترضته امرأة من بني كلاب وأنشدته :

إني مررت على العقيق وأهله ... يشكون من مطر الربيع نذورا
ما ضرهم إذ جعفرٌ جارٌ لهم ... أن لا يكونَ ربيعهم ممطورا

ثم ساق ابن خلكان الأسباب التي دعت الرشيد أن يتغير عليه وعلى آل برمك كافة ، وقد اختلف فيها المؤرخون ولعلها كلها أسباب قوى بعضها بعضاً ، إلى أن طفح الكيل مع الرشيد فأوقع بهم ونكبهم وقتل جعفر هذا سنة ١٨٧ ، ثم قال ابن خلكان : ومن أعجب ما يؤرخ من تقلبات الدنيا بأهلها ما حكاه محمد بن غسان بن عبد الرحمن

الهاشمي صاحب صلاة الكوفة قال دخلت على والدتي في يوم نحر فوجدت عندها امرأة برزة [بارزة المحاسن] في ثياب رثة فقالت لي والدتي : أتعرف هذه ؟ قلت : لا قالت : يا أمه ما أعجب ما رأيت ، فقالت : لقد أتى علي يا بني عيد مثل هذا وعلى رأسي أربعماية وصيفة وإني لأعد ابني عاقاً لي ، ولقد أتى علي يا بني هذا العيد وما مناي إلا جلد شاتين أفترش أحدهما وألتحف الآخر ، قال : فدفعت إليها خمسمائة درهم فكادت تموت فرحاً بها ولم تزل تختلف إلينا حتى فرق الموت بيننا . اهـ .

وقال ابن خلكان في ترجمة يحيى بن خالد : ولما قتل هارون الرشيد جعفر بن يحيى حبس يحيى وابنه الفضل وكان حبسهما في الرافقة وهي الرقة القديمة مجاورة الرقة الجديدة وهي البلدة المشهورة الآن على شاطىء الفرات ويقال لهما الرقتان تغليباً لأحد الاسمين على الآخر ، ولم يزل يحيى في حبس الرافقة إلى أن مات في الثالث من المحرم سنة تسعين ومائة فجأة من غير علة وهو ابن سبعين سنة وصلى عليه ابنه الفضل ودفن في شاطىء الفرات في ربض هرثمة ووجد في جيبه رقعة فيها مكتوب بخطه : قد تقدم الخصم والمدعى عليه في الأثر والقاضي هو الحكم العدل الذي لا يجور ولا يحتاج إلى بينة ، فحملت الرقعة إلى الرشيد ولم يزل يبكي يومه كله وبقي أياماً يتبين الأسى في وجهه رحمهما الله تعالى .

وقال في ترجمة الفضل بن يحيى : إن ولادته كانت سنة سبع وأربعين ومائة وتوفي سنة ثلاث وتسعين ومائة في المحرم في السجن غداة جمعة بالرقة ، ولما بلغ الرشيد موته قال : أمري قريب من أمره ، وكذا كان فإنه توفي في هذه السنة في جمادى الآخرة .

وقال ابن الأثير في حوادث هذه السنة : إن الفضل كان يقول : ما أحب أن يموت الرشيد لأن أمري قريب من أمره ، ولما مات صلى عليه أخوانه في القصر الذي كانوا فيه ثم أخرج فصلى عليه الناس ، وجزع الناس عليه وكان من محاسن الدنيا لم ير في العالم مثله ، ولاشتهار أخبار أهله وحسن سيرتهم لم نذكرها .

سنة ١٨١

قال ابن جرير : فيها غزا الروم عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة وافتتح مطمورة . وفيها أحدث الرشيد عند نزوله الرقة في صدور كتبه الصلاة على محمد ﷺ .

ولاية إسماعيل بن صالح بن علي سنة ١٨٢

قال في زبدة الحلب : ثم إن الرشيد ولى حلب وقنسرين إسماعيل بن صالح بن علي لما عزله عن مصر سنة اثنتين وثمانين وماية وأقطعه ما كان له بحلب في سوقها وهي الحوانيت التي بين باب أنطاكية إلى رأس الدلبة ، ثم عزله وولاه دمشق .

قال ابن جرير : وغزا فيها الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فبلغ أفسوس مدينة أصحاب الكهف .

ولاية عبد الملك بن صالح مرة ثانية من سنة ١٨٢ إلى سنة ١٨٧

قال في زبدة الحلب : ثم ولى الرشيد بعده عبد الملك بن صالح بن علي ثانية ، فسعى به ابنه عبد الرحمن إلى الرشيد وأوهمه أنه يطمع في الخلافة ، فاستشعر منه وقبض عليه في سنة سبع وثمانين وماية . اهـ .

سنة ١٨٣

ذكر بناء الهارونية

قال في المعجم ناقلاً عن البلاذري في فتوح البلدان : لما كانت سنة ١٨٣ أمر الرشيد ببناء الهارونية بالثغر ، فبنيت وشحنت بالمقاتلة ومن نزع إليها من المطوعة ونسبت إليه ، ويقال إنه بناها في خلافة أبيه المهدي ، وتمت في أيام ابنه ، ثم استولى عليها العدو لسبع بقين من شوال سنة ٣٤٨ وسبى من أهلها ألفاً وخمسمائة مسلم ما بين امرأة ورجل وصبي ، ثم خربها الروم فأرسل سيف الدولة غلامه قرعويه فأعاد عمارتها ، وهي اليوم من بلاد بني ليون الأرمني . اهـ .

قال ابن جرير في حوادث سنة ١٨٤ : فيها قدم هارون مدينة السلام منصرفاً إليها من الرقة في الفرات في السفن .

وقال في حوادث سنة ١٨٥ وشخص الرشيد فيها إلى الرقة على طريق الموصل .

وقال في حوادث سنة ١٨٦ : وحج بالناس فيها هارون الرشيد ، وكان شخوصه من الرقة للحج في شهر رمضان ، ثم قال : وحج معه محمد وعبد الله وقواده ووزراؤه وقضاته ، وخلف بالرقة إبراهيم بن عثمان بن نهيك العكي على الحرم والخزائن والأموال والعسكر وأشخص القاسم ابنه إلى منبج ، فأنزله إياها بمن ضم إليه من القواد والجند .

ولاية القاسم بن الرشيد سنة ١٨٧ و١٨٨ و١٨٩

قال ابن جرير في حوادث سنة ١٨٧ : فيها غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح وحبسه ، وفيها أغزى الرشيد ابنه القاسم الصائفة فوهبه الله تعالى وجعله قرباناً له ووسيلة وولاه العواصم ، وفيها دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم في شعبان فأناخ على قرّة وحاصرها ، ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث فأناخ على حصن سنان حتى جهدوا فبعثت إليه الروم تبذل له ثلثمائة وعشرين رجلاً من أسارى المسلمين على أن يرحل عنهم ، فأجابهم إلى ذلك ورحل عن قرة وحصن سنان صلحاً . ومات علي بن عيسى بن موسى في هذه الغزاة بأرض الروم وهو مع القاسم . اهـ .

وقال في حوادث سنة ١٨٨ و١٨٩ : فيها رابط القاسم بن الرشيد بدابق .

وقال في حوادث سنة ١٨٩ : فيها توجه الرشيد إلى بلاد الري وعاد منها إلى بغداد ، فلما مر بالجسر أمر بإحراق جثة جعفر بن يحيى وطوى بغداد ولم ينزلها ، ومضى من فوره متوجهاً إلى الرقة فنزل السيلحين . وذكر عن بعض قواد الرشيد أن الرشيد قال لما ورد بغداد : والله إني لأطوي مدينة ما وضعت بشرق ولا غرب مدينة أيمن ولا أيسر منها ، وإنها لوطني ووطن آبائي ودار مملكة بني العباس ما بقوا وحافظوا عليها ، وما رأى أحد من آبائي

سوءاً ولا نكبة منها ولا سيء بها أحد منهم قط ، ولنعم الدار هي ، ولكني أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى والحب لشجر اللعنة بني أمية ، مع ما فيها من المارقة والمتلصصة ومخيفي السبيل ، ولولا ذلك ما فارقت بغداد ما حييت ولا خرجت عنها أبداً .

أقول : وبه تتضح الأسباب التي دعت الرشيد إلى اتخاذ الرقة وطناً .

ولاية عبد الله المأمون بن الرشيد سنة ١٩٠

قال ابن جرير : وفي هذه السنة غزا الرشيد الصائفة واستخلف ابنه عبد الله المأمون بالرقة وفوض إليه الأمور وكتب إلى الآفاق بالسمع له والطاعة ودفع إليه خاتم المنصور يتيمن به وهو خاتم الخاصة نقشه (الله ثقتي آمنت به) .

وفيها فتح الرشيد هرقلة وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم وكان دخلها فيما قيل في مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له ، وأناخ عبد الله بن مالك على ذي الكلاع ووجه داود بن عيسى بن موسى سائحاً في أرض الروم في سبعين ألفاً . وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودمسة وافتتح يزيد ابن مخلد الصفصاف ومقلوبية ، وكان فتح الرشيد هرقلة في شوال وأخربها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يوماً عليها ، وكان شخوصه إلى بلاد الروم لعشر بقين من رجب ، واتخذ قلنسوة مكتوباً عليها [غاز حاج] ثم صار الرشيد إلى الطوانة فعسكر بها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر وأمره بناء منزل هنالك ، وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار ، منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استبراق دينارين ، وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقلة كتاباً نسخته : لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم ، سلام عليك ، أما بعد أيها الملك ، إن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك هينة يسيرة ، أن تهب لابني جارية من بنات هرقلة كنت قد خطبتها على ابني ، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، واستهداه أيضاً طيباً وسرداقاً من سرادقاته ،

فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت وزينت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور وبعث إليه بما سأل من العطر وبعث إليه من التمور والأخبصة والزبيب والترياق ، فسلم ذلك كله إليه رسول الرشيد فأعطاه نقفور وقر دراهم إسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بزبون واثني عشر بازياً وأربعة كلاب من كلاب الصيد وثلاثة براذين ، وكان نقفور اشترط ألا يخرب ذا الكلاع ولا صله ولا حصن سنان ، واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقلة وعلى أن يحمل نقفور ثلثماية ألف دينار . اهـ .

سنة ١٩١

قال ابن الأثير : فيها استعمل الرشيد على الصائفة هرثمة بن أعين قبل أن يوليه خراسان وضم إليه ثلاثين ألفاً من أهل خراسان، ورتب الرشيد بدرب الحدث عبد الله بن مالك وبمرعش سعيد بن مسلم بن قتيبة ، فأغارت الروم عليها فأصابوا من المسلمين وانصرفوا ولم يتحرك سعيد من موضعه ، وبعث محمد بن يزيد بن مزيد إلى طرسوس ، وأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من رمضان وعاد إلى الرقة ، وأمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور وأخذ أهل الذمة بمخالفة المسلمين في لباسهم وركوبهم ، وأمر هرثمة ببناء طرسوس وتمصيرها ، ففعل ، وتولى ذلك فرخ الخادم بأمر الرشيد وسير إليها جنداً من أهل خراسان ثلاثة آلاف ، ثم أشخص إليهم ألفاً من أهل المصيصة وألفاً من أهل أنطاكية ، وتم بناؤها سنة اثنتين وتسعين ومائة وبنى مسجدها . اهـ .

ولاية القاسم بن الرشيد وخزيمة بن خازم سنة ١٢٩

قال ابن الأثير : فيها سار الرشيد من الرقة إلى بغداد يريد خراسان لحرب رافع بن الليث ، وكان مريضاً ، واستخلف على الرقة ابنه القاسم وضم إليه خزيمة بن خازم .

سنة ١٩٣

قال ابن جرير : في هذه السنة مات هارون الرشيد في مدينة طوس ودفن في بستان

من بساتينها . وفيها بويع محمد الأمين بن هارون بالخلافة . وفيها كان بدء اختلاف احال بين الأمين وأخيه المأمون عبد الله وعزم كل واحد منهما بالخلاف على صاحبه ، وأقر محمد بن هارون أخاه القاسم بن هارون في هذه السنة على ما كان أبوه هارون ولاه من عمل الجزيرة واستعمل عليها خزيمة بن خازم ، وأقر القاسم على قنسرين والعواصم .

سنة ١٩٤

قال ابن جرير : فيها عزل محمد أخاه القاسم عن جميع ما كان أبوه هارون ولاه من عمل الجزيرة وقنسرين والعواصم والثغور وولى مكانه خزيمة بن خازم وأمره بالمقام بمدينة السلام . اهـ .

ترجمة القاسم بن الرشيد :

قال في مختصر الذهبي : القاسم بن هارون بن عبد الله بن محمد بن علي العباسي المؤتمن بن الرشيد ، كان أبوه قد جعله ولي العهد بعد الأمين والمأمون وشرط للمأمون إن شاءأن يقره أقره وإن شاء أن يخلعه خلعه ، فخلعه سنة ثمان وتسعين ومائة وتوفي سنة ثمان ومائتين وله خمس وثلاثون سنة . اهـ .

ترجمة خزيمة بن خازم :

قال في مختصر الذهبي : خزيمة بن خازم بن خزيمة الخرساني الأمير من كبار قواد المأمون ومن أبناء الدولة العباسية ، له ذكر في الحروب ، روى عن ابن أبي ذئب وعن يعقوب ابن يوسف ، توفي سنة ثلاث ومائتين بعدما عمي . اهـ . والعبارات المتقدمة تفيد أنه من قواد الرشيد والأمين ، وهو كذلك إلا أنه بعد الرشيد ترك ولده الأمين ولحق بالمأمون بطلب من طاهر بن الحسين كما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ١٩٨ ، وطاهر بن الحسين من قواد المأمون وهو المشيد لأركان الخلافة للمأمون وهو القاتل للخليفة محمد الأمين .

ولاية عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله ابن عباس للمرة الثالثة ١٩٦

قال ابن جرير : وفي هذه السنة ولى محمد بن هارون عبد الملك بن صالح بن علي على الشام وأمره بالخروج إليها وفرض له من رجالها جنوداً يقاتل بها طاهراً وهرثمة .

قال ابن جرير : إن طاهراً لما قوي واستعلى أمره وهزم من هزم من قواد محمد وجيوشه دخل عبد الملك بن صالح على محمد وكان عبد الملك محبوساً في حبس الرشيد (كما تقدم) فلما توفي الرشيد وأفضى الأمر إلى محمد أمر بتخلية سبيله ، وذلك في ذي القعدة سنة ١٩٣ فكان عبد الملك يشكر ذلك لمحمد ويوجب به على نفسه طاعته ونصيحته ، فقال : يا أمير المؤمنين إني أرى الناس قد طمعوا فيك وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك وقد بذلت سماحتك ، فإن أتممت على أمرك أفسدتهم وأبطرتهم وإن كففت أمرك عن العطاء والبذل أسخطتهم وأغضبتهم ، وليس تملك الجنود بالإمساك ولا يبقى ثبوت الأموال على الإنفاق والسرف ، ومع هذا فإن جندك قد رعبتهم الهزائم ونهكتهم وأضعفتهم الحرب والوقائع وامتلأت قلوبهم هيبة لعدوهم ونكولاً عن لقائهم ومناهضتهم ، فإن سيرتهم إلى طاهر غلب بقليل من معه كثيرهم وهزم بقوة نيته ضعف نصائحهم ونياتهم ، وأهل الشام قوم قد ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد وجلهم منقاد إليَّ مسارع إلى طاعتي ، فإن وجهني أمير المؤمنين اتخذت له منهم جنداً يعظم نكايتهم في عدوه ويؤيد الله بهم أولياءه وأهل طاعته ، فقال محمد : فإني موليك أمرهم ومقويك بما سألت من مال وعدة فعجل الشخوص إلى ما هنالك فاعمل عملاً يظهر أثره ويحمد بركته برأيك ونظرك فيه إن شاء الله ، فولاه الشام والجزيرة واستحثه بالخروج استحثاثاً شديداً ووجهه معه كنفاً من الجند والأتباع . قال : فسار عبد الملك بن صالح إلى الشام ، فلما بلغ الرقة أقام بها وأنفذ رسله وكتب إلى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة ، فلم يبق أحد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناه إلا وعده وبسط له في أمله وأمنيته ، فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس وجماعة بعد جماعة ، فكان لا يدخل عليه أحد إلا أجازه وخلع عليه ، فأتاه أهل الشام الزواقيل والأعراب من كل فج واجتمعوا عنده حتى كثروا .

ثم إن عبد الملك مرض واشتد مرضه وتوفي في هذه السنة ودفن في دار من دور الإمارة بالرقة .

ترجمة عبد الملك بن صالح العباسي :

قدمنا في حوادث ١٧٠ أن الرشيد عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وسميت العواصم وجعل مدينة العواصم منبج وأسكنها عبد الملك بن صالح بن علي .

قال ياقوت في معجم البلدان في الكلام على منبج : إن عبد الملك ولد بها وكان رجل قريش ولسان بني العباس ومن يضرب به المثل في البلاغة ، وكان لما دخل الرشيد إلى منبج قال له : هذا البلد منزلك ، قال : يا أمير المؤمنين هو لك ولي بك ، قال : كيف بناؤه ؟ فقال : دون بناء أهلي وفوق منازل غيرهم ، قال : كيف صفتها ؟ قال : طيبة الهواء قليلة الأدواء ، قال : كيف ليلها ؟ قال : سحر كله ، قال : صدقت إنها لطيبة ، قال : بل طابت بأمير المؤمنين ، وأين يذهب بها عن الطيب وهي برة حمراء وسنبلة صفراء وشجرة خضراء في فياف فيح بين قيصوم وشيح ، فقال الرشيد : هذا الكلام والله أحسن من الدر النظيم . اهـ .

وقال الملا في مختصره لتاريخ الذهبي في ترجمته : ولي المدينة والصوائف للرشيد ، ثم ولي الشام والجزيرة للأمين ، وحدث عن أبيه ومالك بن أنس ، روى عنه ابنه علي والأصمعي وفليح بن إسماعيل حكايات وعن عبد الرحمن مؤدب أولاد عبد الملك ، قال : قال عبد الملك : لا تطرني في وجهي فأنا أعلم بنفسي منك ولا تعني على ما يقبح ودع كيف أصبح الأمير وكيف أمسى واجعل مكان التعرض لي صواب الاستماع مني . وعن إبراهيم النديم قال : كنت بين يدي الرشيد والناس يعزونه في طفل ويهنونه في مولود ولد تلك الليلة فقال عبد الملك : يا أمير المؤمنين آجرك الله فيما ساءك ولا ساءكم في سرك وجعل هذه بهذه جزاء للشاكر وثواباً للصابر . قال وأراد يحيى بن خالد أن يضع من عبد الملك إرضاء للرشيد فقال له : يا عبد الملك بلغني أنك حقود ، فقال : أيها الوزير إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر إنهما لباقيان في قلبي ، فقال الرشيد : ما رأيت أحداً احتج للحقد بأحسن من هذا .

وقال ابن خلكان في ترجمة جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي : حكى ابن الصابي في كتاب الأماثل والأعيان عن إسحق النديم الموصلي عن إبراهيم بن المهدي قال : خلا جعفر بن يحيى يوماً في داره وحضر ندماؤه وكنت فيهم ، فلبس الحرير وتضمخ بالخلوق وفعل بنا مثله وأمر بأن يحجب عنه كل أحد إلا عبد الملك بن بحران قهرمانه ، فسمع الحاجب عبد الملك دون ابن بحران ، وعرف عبد الملك بن صالح الهاشمي مقام جعفر بن يحيى في داره فركب إليه فأرسل الحاجب أن قد حضر عبد الملك ، فقال : أدخله ، وعنده أنه ابن بحران ، فما راعنا إلا دخول عبد الملك بن صالح في سواده ورصافيته فاربد وجه جعفر ، وكان ابن صالح لا يشرب النبيذ وكان الرشيد دعاه إليه فامتنع ، فلما رأى عبد الملك حالة جعفر دعا غلامه فناوله سواده وقلنسوته ووافى باب المجلس الذي كنا فيه وسلم وقال : أشركونا في أمركم وافعلوا بنا فعلكم بأنفسكم ، فجاءه خادم فألبسه حريرة واستدعى بطعام فأكل وبنبيذ فأتي برطل منه فشربه ثم قال لجعفر : والله ما شربته قبل اليوم فليخفف عني ، فأمر أن يجعل بين يديه باطية يشرب منها ما يشاء وتضمخ بالخلوق ونادمنا أحسن منادمة ، وكان كلما فعل شيئاً من هذا سري عن جعفر ، فلما أراد الانصراف قال له جعفر : اذكر حوايجك فإني ما أستطيع مقابلة ما كان منك ، قال : إن في قلب أمير المؤمنين موجدة علي فتخرجها من قلبه إلى جميل رأيه فيّ ، قال : قد رضي عنك أمير المؤمنين وزال ما عنده منك ، فقال : وعلي أربعة آلاف ألف درهم دينار ، قال : تقضى عنك وإنها لحاضرة ، ولكن كونها من أمير المؤمنين أشرف بك وأدل على حسن ما عنده لك ، قال : وإبراهيم ابني أحب إن أحبَّ أن أرفع قدره بصهر من ولد الخلافة ، قال : قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته ، قال : وأوثر التنبيه على موضعه برفع لواء على رأسه ، قال : قد ولاه أمير المؤمنين مصر ، وخرج عبد الملك ونحن متعجبون من قبول جعفر وإقدامه على مثله من غير استئذان فيه . وركبنا من الغد إلى باب الرشيد ودخل جعفر ووقفنا فما كان بأسرع من أن دعي بأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وإبراهيم بن عبد الملك ، ولم يكن بأسرع من خروج إبراهيم والخلع عليه واللواء بين يديه وقد عقد له على العالية بنت الرشيد ، وحملت إليه ومعها المال إلى منزل عبد الملك بن صالح ، وخرج جعفر فتقدم إلينا باتباعه إلى منزله وصرنا معه فقال : أظن قلوبكم تعلقت بأول أمر عبد الملك فأحببتم علم آخره ، قلنا : هو كذلك ، قال : وقفت بين يدي أمير المؤمنين وعرفته ما كان من أمر عبد الملك من ابتدائه

إلى انتهائه وهو يقول أحسن أحسن ، ثم قال : فما صنعت معه فعرفت ما كان قولي له فاستصوبه وأمضاه وكان ما رأيتم . قال إبراهيم بن المهدي : فوالله ما أدري أيهم أعجب فعلاً عبد الملك في شربه النبيذ ولباسه ما ليس من لبسه وكان رجلاً ذا جد وتعفف ووقار وناموس أو إقدام جعفر على الرشيد بما أقدم أو إمضاء الرشيد ما حكم به جعفر عليه .

وقدمنا في حوادث سنة ١٨٧ أن الرشيد غضب على عبد الملك وحبسه . قال ابن جرير ثمة :

ذكر الخبر عن سبب غضبه عليه وما أوجب حبسه

ذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل أن عبد الملك بن صالح كان له ابن يقال له عبد الرحمن كان من رجال الناس ، وكان عبد الملك يكنى به ولابنه عبد الرحمن لسان على فأفأة فيه فنصب لأبيه عبد الملك وقمامة فسعيا به إلى الرشيد وقال له : إنه يطلب الخلافة ويطمع فيها ، فأخذه وحبسه عند الفضل بن الربيع ، فذكر أن عبد الملك بن صالح أدخل على الرشيد حين سخط عليه فقال له الرشيد : أكفراً بالنعمة وجحوداً لجليل المنة والتكرمة ، فقال : يا أمير المؤمنين لقد بؤت إذاً بالندم وتعرضت لاستحلال النقم ، وما ذاك إلا بغي حاسد نافسني فيك مودة القرابة وتقديم الولاية ، إنك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله ﷺ في أمته وأمينه على عترته ، لك عليها فرض الطاعة وأداء النصيحة ولها عليك العدل في حكمها والتشبث في حادثها والغفران لذنوبها ، فقال له الرشيد : أتضع لي من لسانك وترفع لي من جنابك ، هذا كاتبك قمامة يخبر بغلك وفساد نيتك فاسمع كلامه ، فقال عبد الملك : أعطاكَ ما ليس في عقده ولعله لا يقدر أن يعضهني ولا يبهتني بما لم يعرفه مني ، وأحضر قمامة فقال له الرشيد : تكلم غير هائب ولا خائف ، قال : أقول إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك ، فقال عبد الملك : أهو كذلك يا قمامة ؟ قال قمامة : نعم لقد أردت ختل أمير المؤمنين ، فقال عبد الملك : كيف لا يكذب علي من خلفي وهو يبهتني في وجهي ، فقال له الرشيد : وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بعتوك وفساد نيتك ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك فبم تدفعهما عنك ، فقال عبد الملك بن صالح : هو مأمور أو عاق مجبور ، فإن كان مأموراً

فمعذور وإن كان عاقاً ففاجر كفور أخبر الله عزّ وجل بعدوانه وحذر منه بقوله : ﴿ إنّ من أزواجِكم وأولادِكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ قال : فنهض الرشيد وهو يقول : أما أمرك فقد وضح ولكني لا أعجل حتى أعلم الذي يرضي الله فيك فإنه الحكم بيني وبينك ، فقال عبد الملك : رضيت بالله حكماً وبأمير المؤمنين حاكماً فإني أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه وأمر الله على رضاه . فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر فسلم لما دخل فلم يرد عليه فقال عبد الملك : ليس هذا يوماً أحتج فيه ولا أجاذب منازعاً وخصماً قال : ولم قال لأن أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره ، قال : وما ذاك ؟ قال : لم ترد عليَّ السلام أنصف نصفة العوام قال : السلام عليكم اقتداءً بالسنة وإيثاراً للعدل واستعمالاً للتحية ، ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك :

أريـــد حِبائـــه ويريـــد قتلي عَذِيرَك من خليـلك من مُراد[1]

ثم قال : أما والله لكأني أنظر إلى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع وكأني بالوعيد قد أوري ناراً تسطع فأقلع عن براجم بلا معاصم ورؤوس بلا غلاصم ، فمهلاً مهلاً فيّ والله سُهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت إليكم الأمور أثناء أزمتها ، فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل . فقال عبد الملك : اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفي رعيته التي استرعاك ولا تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب ، فقد نخلت لك النصيحة ومحضت لك الطاعة وشددت ملكك بأثقل من ركني يلملم وتركت عدوك مشتغلاً ، فالله الله في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن بللته بظن أفصح الكتاب لي بعضه أو ببغي باغ ينهش اللحم ويلغ الدم ، فقد والله سهلت لك الوعور وذللت لك الأمور وجمعت على طاعتك القلوب في الصدور ، فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق لك قمته كنت فيه كما قال أخو بني جعفر بن كلاب :

ومقـــام ضيـــــق فرجتـــــه ببنـــــاني ولســـــاني وجــــدلْ
لـو يقـوم الفيــل أو فيــالــه زل عــن مثـل مقـامـي وزحـل

(١) الحباء بالكسر العطاء بلا جزاء ولا من . وعذيرك بالنصب أي : هات من يعذرك منه ويأتي لك بالعذر فيه ، يقول : إني أريد به الخير وهو يريد لي الشر فمن لي بمن يعذرني منه إن كافأته على سوء صنيعه فلا يلومني . اهـ من شرح كامل المبرد .

قال : فقال له الرشيد : أما والله لولا الإبقاء على بني هاشم لضربت عنقك .

وذكر زيد بن علي بن الحسين العلوي قال : لما حبس الرشيد عبد الملك بن صالح دخل عليه عبد الله بن مالك وهو يومئذ على شُرطه فقال : أفي إذن أنا فأتكلم ؟ قال : تكلم ، قال : لا والله العظيم يا أمير المؤمنين ما علمت عبد الملك إلا ناصحاً فعلام حبسته ؟ قال : ويحك بلغني عنه ما أوحشني ولم آمنه أن يضرب بين ابني هذين يعني الأمين والمأمون ، فإن كنت ترى أن نطلقه من الحبس أطلقناه ، قال : أما إذا حبسته يا أمير المؤمنين فلست أرى في قرب المدة أن تطلقه ، ولكن أرى أن تحبسه محبساً كريماً يشبه محبس مثلك مثله ، قال : فإني أفعَل ، قال : فدعا الرشيد الفضل بن الربيع فقال : امض إلى عبد الملك بن صالح إلى محبسه فقل له انظر ما تحتاج إليه في محبسك فأمر به حتى يقام لك ، فذكر قصته وما سأل .

قال : وقال الرشيد يوماً لعبد الملك بن صالح في بعض ما كلمه : ما أنت لصالح ، قال : فلمن أنا ؟ قال : لمروان الجعدي ، قال : ما أبالي أي الفحلين غلب عليّ ، فحبسه الرشيد عند الفضل بن الربيع فلم يزل محبوساً حتى توفي الرشيد فأطلقه محمد وعقد له على الشام ، فكان مقيماً بالرقة ، وجعل لمحمد عهد الله وميثاقه لئن قتل وهو حي لا يعطي المأمون طاعة أبداً ، فمات قبل محمد فدفن في دار من دور الإمارة ، فلما خرج المأمون يريد الروم أرسل إلى ابن له : حول أباك من داري ، فنبشت عظامه وحولت ، وكان قال لمحمد : إن خفت فالجأ إلي فو الله لأصوننك .

وذكر أن الرشيد بعث في بعض أيامه إلى يحيى بن خالد أن عبد الملك بن صالح أراد الخروج ومنازعتي في الملك وقد علمت ذلك فأعلمني ما عندك فيه فإنك إن صدقتني أعدتك إلى حالك ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما اطلعت من عبد الملك على شيء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك لأن ملكك كان ملكي وسلطانك كان سلطاني والخير والشر كان فيه علي ولي ، فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع في ذلك ، قال : هل كنت إذا فعلت ذلك به يفعل بي أكثر من فعلك ، أعيذك بالله أن تظن بي هذا الظن ولكنه كان رجلاً محتملاً يسرني أن يكون في أهلك مثله فوليته لما أحمدت من مذهبه وملت إليه لأدبه واحتماله . قال : فلما أتاه الرسول بهذا أعاد إليه فقال : إن أنت لم تقر عليه قتلت

الفضل ابنك ، فقال له : أنت مسلط علينا فافعل ما أردت على أنه إن كان من هذا الأمر شيء فالذنب فيه لي فبم يدخل الفضل في ذلك ، فقال الرسول للفضل : قم فإنه لا بد من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيك ، فلم يشك أنه قاتله فودع أباه وقال له : ألست راضياً عني ؟ قال : بلى ، فرضي الله عنك ، ففرق بينهما ثلاثة أيام ، فلما لم يجد عنده من ذلك شيئاً جمعهما كما كان . وكان يأتيهم منه أغلظ رسائل لما كان أعداؤهم يقرفونهم به عنده ، فلما أخذ مسرور بيد الفضل لما أعلمه به بلغ من يحيى فأخرج ما في نفسه فقال : قل له يقتل ابنك مثله ، قال مسرور : فلما سكن غضب الرشيد قال : كيف ؟ قال : فأعدت عليه القول قال : قد خفت والله قوله لأنه قل ما قال لي شيئاً إلا رأيت تأويله .

قيل : وبينما الرشيد يسير وفي موكبه عبد الملك بن صالح إذ هتف به هاتف وهو يساير عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين طأطيء من إشرافه وقصر من عنانه واشدد من شكائمه وإلا أفسد عليك ناحيته، فالتفت إلى عبد الملك فقال : ما يقول هذا يا عبد الملك؟ فقال عبد الملك : مقال باغ ودسيس حاسد ، فقال له : صدقت نقص القوم ففضلتهم وتخلفوا وتقدمتهم حتى برز شأوك فقصر عنه غيرك ففي صدرهم جمرات التخلف وحزازات النقص ، فقال عبد الملك : لا أطفأها الله وأضرمها عليهم حتى تورثهم كمداً دائماً أبداً .

وقال ابن شاكر في عيون التواريخ : كان عبد الملك بن صالح أفصح الناس وأخطبهم ولم يكن في عصره مثله في فصاحته وصيانته وجلادته ، قيل ليحيى بن خالد البرمكي وقد ولى الرشيد عبد الملك المدينة : كيف ولاه المدينة من بين أعماله ؟ قال : أحب أن يباهي به قريشاً ويعلمهم أن في بني العباس مثله . ووجه عبد الملك إلى الرشيد فاكهة في أطباق خيزران وكتب إليه : أسعد الله أمير المؤمنين دخلت بستاناً لي أفادنيه كرمك وعمرته لي نعماك وقد ينعت أشجاره وراقت ثماره ، فوجهت إليّ أمير المؤمنين من كل شيء على الثقة والإمكان في أطباق القضبان ليصل إليَّ من بركة دعائه مثل ما وصل إليّ من كثرة عطائه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين لم أسمع بأطباق القضبان ، فقال له الرشيد : يا أبله إنه كنى عن الخيزران إذ كان اسماً لأمنا .

قال : ولما ودعه الرشيد ووجهه إلى الشام قال له الرشيد : ألك حاجة ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين بيني وبينك بيت يزيد بن الدثينة حيث يقول :

فكوني على الواشين لدّى شَعوبةً ... كما أنا للواشي ألدّ شَعوبُ

ثم وشى به بعد ذلك الناس وتتابعت الأخبار عنه بفساد نيته للرشيد ، فدخل عليه في بعض الأيام وقد امتلأ قلب الرشيد عليه فقال له : أكفراً بالنعمة وغدراً بالإمام إلخ ما تقدم نقله عن ابن جرير .

ثم قال : وكتب إلى الرشيد قبل إشخاصه إلى العراق وقد تغير عليه :

أخلاي لي شجوٌ وليس لكم شجوُ ... وكل امرىء من شجوِ صاحبه خلوُ
من اي نواحي الأرض أبغي رضاكمُ ... وأنتم أناسٌ ما لمرضاتكم نحوُ
فلا حسنٌ نأتي به تقبلونه ... ولا إن أسأنا كان عندكمُ عفوُ

فلما وقف عليها الرشيد قال : والله إن كان قد قالها لقد أحسن وإن كان رواها لقد أحسن .

وكتب إلى الرشيد من السجن :

قل لأمير المؤمنين الذي ... يشكره الصادرُ والواردُ
يا واحدَ الأملاكِ في فضله ... مالك مثلي في الورى واحدُ
إن كان لي ذنبٌ ولا ذنبَ لي ... حقاً كما قد زعم الحاسدُ
فلا تضق عفوك عني فقد ... فاز به المسلمُ والجاحدُ

ومن شعره وهو في الحبس :

لئن ساءني حبسي لفقد أحبتي ... وأنيَ فيهم لا أُمرّ ولا أُحلي
لقد سرني عزي بترك لقائهم ... بما أتشكى من حجابٍ ومن ذلّ

ولما أخرجه الأمين من السجن دفع إليه كاتبه قمامة وابنه عبد الرحمن فقتل قمامة في حمام وهشم وجه ابنه بعمود . اهـ .

وقال الملا في مختصر الذهبي : يقال إن الرشيد إنما حبسه لما رآه نظيراً له في أشياء من النبل والفصاحة .

ولاية خزيمة بن خازم سنة ١٩٧ مرة ثانية

قال في زبدة الحلب : ثم ولي بعد عبد الملك خزيمة بن حازم حلب وقنسرين في سنة سبع وتسعين وماية . وقيل إن الوليد بن طريف ولي حلب وقنسرين بعد عبد الملك بن صالح وبعده ورقا عبد الملك ثم بعده يزيد بن مزيد .

أقول : أما تولية خزيمة بن حازم فممكنة لأنه كان حياً في هذه السنة ١٨٥ كما ذكره ابن خلكان في ترجمتهما . أما ورقا عبد الملك فلم أقف له على ذكر في غير زبدة الحلب . وترجمة خزيمة قد تقدمت .

ولاية طاهر بن الحسين سنة ١٩٨

قال ابن الأثير في حوادثها : في هذه السنة أظهر نصر بن سيار بن شبث العقيلي الخلاف على المأمون ، وكان نصر من بني عقيل يسكن كيسوم ناحية شمالي حلب وكان في عنقه بيعة للأمين وله فيه هوى ، فلما قتل الأمين أظهر نصر الغضب لذلك وتغلب على ما جاوره من البلاد وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب وأهل الطمع وقويت نفسه وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي وحدثته نفسه بالتغلب عليه ، فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت عما كانت . وقال ابن جرير في حوادثها : وكتب المأمون إلى طاهر بن الحسين وهو مقيم ببغداد بتسليم جميع ما بيده من الأعمال في البلدان كلها إلى خلفاء الحسن بن سهل وأن يشخص عن ذلك كلها إلى الرقة ، وجعل إليه حرب نصر بن شبث وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب . قال ابن الأثير : فسار طاهر إلى قتال نصر وأرسل إليه يدعوه إلى الطاعة وترك الخلاف فلم يجبه إلى ذلك ، فتقدم إليه طاهر والتقوا بنواحي كيسوم واقتتلوا قتالاً شديداً أبلى فيه نصر بلاء عظيماً وكان الظفر له ، وعاد طاهر شبه المهزوم إلى الرقة ، وكان قصارى أمر طاهر حفظ تلك النواحي اهـ .

وقال في حوادث سنة ١٩٩ : وفيها قوي أمر نصر بن شبث العقيلي بالجزيرة وكثر جمعه وحصر حران ، وأتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له : قد وترت بني العباس وقتلت رجالهم وأعلقت عنهم العرب ، فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك ، فقال : من أي الناس ؟ فقالوا نتبايع لبعض آل علي بن أبي طالب ، فقال : أبايع بعض أولاد السوداوات فيقول إنه هو خلقني ورزقني ، قالوا : فتبايع لبعض بني أمية ، فقال : أولئك قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبداً ، ولو سلّم علي رجل مدبر لأعداني إدباره وإنما هو أي في بني العباس وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم .

وقال في حوادث سنة ٢٠٤ : في هذه السنة قدم المأمون بغداد وكان قد كتب إلى طاهر وهو بالرقة ليوافيه بالنهروان فـأتاه بها ودخل بغداد منتصف صفر .

ترجمة طاهر بن الحسين :

قال ابن خلكان : أبو الطيب طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان ، كان جده رزيق مولى طلحة الطلحات الخزاعي المشهور بالكرم والجود المفرط ، وكان طاهر من أكبر أعوان المأمون وسيره من مرو كرسي خراسان لما كان المأمون بها إلى محاربة أخيه الأمين ببغداد لما خلع المأمون بيعته ، والواقععة مشهورة ، وسير الأمين أبا يحيى علي بن موسى بن ماهان لدفع طاهر عنه فتواقعا وقتل على المعركة وتقدم طاهر إلى بغداد وأخذ ما في طريقه من البلاد وحاصر بغداد والأمين بها وقتله سنة ثمان وتسعين وماية وحمل رأسه إلى خراسان ووضع بين يد المأمون وعقد للمأمون على الخلافة ، فكان المأمون يرعاه لمناصحته وخدمته . وكان شجاعاً أديباً ، وركب يوماً ببغداد في حرّاقة فاعترضه مقدس بن صيفي الخلوقي الشاعر وقد أدنيت من الشط ليخرج فقال : أيها الأمير إن رأيت تسمع مني أبياتاً ، فقال : قل ، فأنشأ يقول :

عجبتُ لحرّاقة ابن الحسيـ ـن لا غرقتْ كيف لا تغرقُ
وبحران من فوقها واحـدٌ وآخـرُ من تحتها مطبـقُ
وأعجبُ من ذاك أعوادُهـا وقد مسها كيف لا تورقُ

فقال طاهر : أعطوه ثلاثة آلاف دينار وقال له : زدنا حتى نزيدك ، فقال : حسبي ، ثم قال : وأخبار طاهر كثيرة وتوفي سنة سبع ومائتين بمدينة مرو سمه خادم للمأمون ، وساق ابن خلكان الأسباب التي دعته إلى ذلك فارجع إليه إن شئت .

ولاية عبد الله بن طاهر بن الحسين سنة ٢٠٤
وولاية يحيى بن معاذ سنة ٢٠٥

قال ابن جرير في حوادث سنة ٢٠٥ : في هذه السنة ورد عبد الله بن طاهر بغداد منصرفاً من الرقة ، وكان أبوه طاهر استخلفه عليها وأمره بقتال نصر بن شبث وقدم يحيى بن معاذ فولاه المأمون الجزيرة . اهـ .

ترجمة يحيى بن معاذ :

قال الملا في مختصر تاريخ الذهبي : يحيى بن معاذ متولي الجزيرة كان من كبار قواد المأمون ، توفي سنة ست ومائتين .

ولاية عبد الله بن طاهر من سنة ٢٠٦ مرة ثانية إلى سنة ٢١٣

قال ابن الأثير : وفي هذه السنة ولى المأمون عبد الله من الرقة إلى مصر وأمره بحرب نصر بن شبث ، وكان سبب ذلك أن يحيى بن معاذ الذي كان المأمون ولاه الجزيرة مات في هذه السنة واستخلف ابنه أحمد ، فاستعمل المأمون عبد الله مكانه ، فلما أراد توليته أحضره وقال له : يا عبد الله أستخير الله تعالى منذ شهر وأكثر وأرجو أن يكون قد خار لي ورأيت الرجل يصف ابنه لرأيه فيه ورأيتك فوق ما قال أبوك فيك ، وقد مات يحيى واستخلف ابنه وليس بشيء ، وقد رأيت توليتك مصر ومحاربة نصر بن شبث ، فقال : السمع والطاعة وأرجو أن يجعل الله لأمير المؤمنين الخيرة وللمسلمين ، فعقد له ، وقيل كانت ولايته سنة خمس ومائتين وقيل سبع ومائتين ، ولما استعمله كتب إليه أبوه طاهر كتاباً جمع فيه كل ما

يحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة وغير ذلك وقد أثبت منه أحسنه لما فيه من الآداب والحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم لأنه لا يستغني عنه أحد من ملك وسوقة .

أقول : عبارته تفيد أنه حذف منه مع أنه قد أورده بتمامه إلا أربعة أسطر في الآخر ، وقد ذكره ابن جرير الطبري وإني أنقله عنه لأنه في ابن الأثير فيه غلط وتحريف من الطبع وفي ابن جرير أصح وأضبط، وبعد أن انتهى منه قال: ذكر أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبدالله هذا العهد تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه وشاع أمره حتى بلغ المأمون، فدعا به وقرىء عليه فقال: ما بقى أبو الطيب شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به . وتقدم وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال ، وتوجه عبد الله بن طاهر إلى عمله فسار بسيرته واتبع أمره وعمل بما عهد إليه ، وهذا نص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه وحفظ رعيتك . والزم ما ألبسك الله من العافة بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسؤول عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله وينجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن إليك وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده وألزمك العدل عليهم والقيام بحقه وحدوده فيهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم وبيضتهم والحقن لدمائهم والأمن لسبيلهم وإدخال الراحة عليهم في معايشهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك وموقفك عليه ومسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت . ففرغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورؤيتك ولا يذهلك عنه ذاهل ، ولا يشغلك عنه شاغل ، فإنه رأس أمرك وملاك شأنك وأول ما يوفقك الله به لرشدك ، وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب إليه فعالك المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها على سنتها في إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله فيها ، وترتل في قراءتك وتمكن في ركوعك وسجودك ولتصدق فيها لربك نيتك ، واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وادأب عليها فإنها كما قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ثم أتبع ذلك بسنن رسول الله ﷺ والمثابرة على خلائقه واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده . وإذا ورد عليك

أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ولزوم ما أنزل الله في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وإتمام ما جاءت به الآثار عن النبي ﷺ ، ثم قم فيه بما يحق لله عليك ، ولا تمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو بعيد . وآثر الفقه وأهله والدين وحملته وكتاب الله والعاملين به ، فإن أفضل ما تزين به المرء الفقه في دين الله والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب فيه منه إلى الله فإنه الدليل على الخير كله والقائد له والآمر به والناهي عن المعاصي والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله عز وجل وإجلالاً له ودركاً للدرجات العلى في المعاد مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك والأنسة بك والثقة بعدلك . وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها ، فليس شيء أبين نفعاً ولا أحضر أمناً ولا أجمع فضلاً من القصد ، والقصد داعية إلى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد إلى السعادة ، وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد فآثره في دنياك كلها ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد ، فلا غاية للاستكثار من البر والسعي له إذا كان يطلب به وجه الله ومرضاته ومرافقة أوليائه في دار كرامته . واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ويحصن من الذنوب ، وإنك لن تحوط نفسك ومن يليك ولا تستصلح أمورك بأفضل منه ، فأته واهتد به تتم أمورك وتزد مقدرتك وتصلح خاصتك وعامتك ، وأحسن الظن بالله عز وجل يستقم لك رعيتك ، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدم به النعمة عليك ، ولا تنهض أحداً من الناس فيما توليته من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثم ، واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وأرفضه عنهم يعنك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم ، ولا يجدن عدو الله الشيطان في أمرك مغمزاً فإنه إنما يكتفي بالقليل من وهنك فيدخل عليك من الغم في سوء الظن ما ينقصك لذاذة عيشك .
واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكفى به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها ، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء والحياطة للرعية والنظر فيما يقيمها ويصلحها ، ولتكن المباشرة لأمور الأولياء والحياطة للرعية والنظر في حوائجهم وحمل مؤناتهم آثر عندك مما سوى ذلك فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة . وأخلص نيتك في

جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤول عما صنع ومجزي بما أحسن ومأخوذ بما أساء ، فإن الله عز وجل جعل الدين حرزاً وعزاً ورفع من اتبعه وعززه ، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقة الهدى . وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ولا تهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ، فإن في تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك ، واعزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب الشبه والبدعات يسلم لك دينك وتقم لك مروءتك ، وإذا عاهدت عهداً فف به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها وأغمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وأبغض أهله ، وأقص أهل النميمة فإن أول فساد أمرك في عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمتها ، لأن النميمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم لمطيعها أمر ، وأحب أهل الصدق والصلاح وأعن الأشراف بالحق ، وواصل الضعفاء وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله وعزة أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة ، واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنها رأيك وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك وأنعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى ، واملك نفسك عند الغضب وآثر الوقار والحلم ، وإياك والحدة والطيرة والغرور فيما أنت بسبيله ، وإياك أن تقول : إني مسلط أفعل ما أشاء فإن ذلك سريع فيك إلى نقص الرأي وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له ، وأخلص لله النية فيه واليقين به ، واعلم أن الملك لله يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة إلى أحد أسرع منه إلى حملة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة إذا كفروا بنعم الله وإحسانه واستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تذخر وتكنز البر والتقوى والمعدلة واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدهمائهم والإغاثة لملهوفهم . واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تثمر وإذا كانت في إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المؤنة عنهم نمت وربت وصلحت به العامة وتزينت به الولاة وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف رعيتك من ذلك

حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قرت النعمة عليك واستوجبت المزيد من الله وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر ، وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك وأطيب نفساً لكل ما أردت ، فأجهد نفسك لما حددت لك في هذا الباب ولتعظيم حسبتك فيه فإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل حقه ، واعرف للشاكرين شكرهم وأثبهم عليه ، وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك فإن التهاون يوجب التفريط والتفريط يورث البوار ، وليكن عملك لله وفيه تبارك وتعالى ، وارج الثواب فإن الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا وأظهر لديك فضله فاعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً وإحساناً ، فإن الله يثيب بقدر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين ، ولا تحقرن ذنباً ولا تمالئن حاسداً ولا ترحمن فاجراً ولا تصلن كفوراً ولا تداهنن عدواً ولا تصدقن نماماً ولا تأمنن غداراً ولا توالين فاسقاً ولا تتبعن غاوياً ولا تحمدن مرائياً ولا تحقرن إنساناً ولا تردن سائلاً فقيراً ولا تجيبن باطلاً ولا تلاحظن مضحكاً ولا تخلفن وعداً ولا ترهبن فاجراً ولا تظهرن غضباً ولا تأتين بذخاً ولا تمشين مرحاً ولا تركبن سفهاً ولا تفرطن في طلب الآخرة ولا تدفع الأيام عتاباً ولا تغمضن عن الظالم رهبة منه أو مخافة ولا تطلبن ثواب الآخرة بالدنيا ، وأكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرأي والحكمة ، ولا تدخلن في مشورتك أهل الذمة والنحل ولا تسمعن لهم قولاً ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت في أمر رعيتك من الشح ، واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلاً ، فإن رعيتك إنما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عنهم ويدوم صفاء أوليائك لك بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم ، فاجتنب الشح واعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه وأن العاصي بمنزلة خزي وتدبر قول الله عزّ وجل ﴿ ومن يوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظاً ونصيباً ، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد فاعدده لنفسك خلقاً وارض به عملاً ومذهباً ، وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم وادرر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معايشهم ليذهب بذلك الله فاقتهم ويقوم لك أمرهم ويزيد به قلوبهم في طاعتك في أمرك

خلوصاً وانشراحاً . وحسب ذي السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله وحيطته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته ، فزايل مكروه إحدى البليتين باستشعار تكملة الباب الآخر ولزوم العمل به تلق إن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً . واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور لأنه ميزان الله الذي يعتدل عليه الأحوال في الأرض ، وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية وتؤمن السبل وينصف المظلوم ويأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدى حق الطاعة ويرزق الله العافية والسلامة ويقوم الدين وتجري السنن والشرائع وعلى مجاريها ينتجز الحق والعدل في القضاء ، واشتد في أمر الله وتورع عن النطف وامض لإقامة الحدود وأقلل العجلة وابعد من الضجر والقلق واقنع بالقسم ، ولتسكن ريحك ويقر جدك وانتفع بتجربتك وانتبه في صمتك وسدد في منطقك وأنصف الخصم وقف عند الشبهة وأبلغ في الحجة ، ولا يأخذك أحد من رعيتك محاباة ولا محاماة ولا لوم لائم ، وتثبت وتأن وراقب وانظر وتدبر وتفكر واعتبر وتواضع لربك وارأف بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن إلى سفك دم فإن الدماء من الله تعالى بمكان عظيم انتهاكاً لها بغير حقها ، وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه الرعية وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة ولأهله سعة ومنعة ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً ولأهل الكفر من معانديهم ذلاً وصغاراً ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه وعن غني لغناه ولا عن كاتب لك ولا أحد من خاصتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ولا تكلفن أمراً فيه شطط ، واحمل الناس كلهم على مر الحق فإن ذلك أجمع لألفتهم وألزم لرضى العامة ، واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحائطاً وراعياً وإنما سمي أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم فاستعمل عليهم في كور عملك ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ، ووسع عليهم في الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك ، ولا يشغلنك عنه شاغل ولا يصرفنك عنه فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحدوثة في عملك واحترزت النصيحة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب في كورك فكثر خراجك وتوفرت

أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإقامة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة مرضي العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعدة ، فنافس في هذا ولا تقدم عليه شيئاً تحمد مغبة أمرك إن شاء الله ، واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأمضه ، وإلا فتوقف عنه وراجع أهل البصيرة والعلم ، ثم خذ فيه عدته ، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره قد واتاه على ما يهوى فقوّاه ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد عون الله بالقوة . وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك ، وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغدٍ أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت . واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين فشغلك ذلك حتى تعرض عنه ، فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك وبدنك وأحكمت أمور سلطانك . وانظر أحرار الناس وذوي الشرف منهم ثم استيقن صفاء طويتهم وتهذيب مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة فاحتمل مؤنتهم وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مساً . وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك . والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه فاسأل عنه أصفى مسألة ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك لتنظر فيها بما يصلح الله أمرهم ، وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله في العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركته وزيادة ، وأجر للأضراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم . وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم وقواماً يرفقونهم وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم مالم يؤد ذلك إلى صرف في بيت المال ، واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيهم لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم طمعاً في نيل الزيادة وفضل الرفق منهم ، وربما برم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه

ويشغل فكره وذهنه منها ما يناله به مؤنة ومشقة ، وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذي يستقبل ما يقربه إلى الله ويلتمس رحمته به . وأكثر الإذن للناس عليك وأبرز لهم وجهك وسكن لهم أحراسك واخفض لهم جناحك وأظهر لهم بشرك ولن لهم في المسألة والمنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس ، والتمس الصنيعة والأجر غير مكدر ولا منان ، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرئاسة في القرون الخالية والأمم البائدة ، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله . واعرف ما تجمع عمالك من الأموال وينفقون منها ولا تجمع حراماً ولا تنفق إسرافاً . وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها وإيثار مكارم الأمور ومعاليها ، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً فيك لم يمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سرك وإعلانك ما فيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك . وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرر النظر إليه والتدبير له ، فما كان موافقاً للحزم والحق فأمضه واستخر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه ، ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك .

وتفهم كتابي إليك وأكثر النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك واستخره فإن الله مع الصلاح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله رضى ولدينه نظاماً ولأهله عزاً وتمكيناً وللذمة والملة عدلاً وصلاحاً ، وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك ، وأن ينزل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً وأوفرهم حظاً وأسناهم ذكراً وأمراً ، وأن يهلك عدوك ومن ناوأك وبغى عليك ويرزقك من رعيتك العافية ويحتجر الشيطان عنك ووساوسه حتى يستعلي أمرك بالعز والقوة والتوفيق إنه قريب مجيب . اهـ .

سنة ٢٠٩

قال ابن الأثير : في هذه السنة حصر عبد الله بن طاهر نصر بن شبث بكيسوم وضيق عليه حتى طلب الأمان فأجابه إليه وتحول من معسكره إلى الرقة إلى عبد الله ، وكان مدة حصاره ومحاربته خمس سنين ، فلما خرج إليه أخرب عبد الله حصن كيسوم وسير نصراً إلى المأمون فوصل إليه في صفر سنة عشر ومائتين .

سنة ٢١٠

مسير عبد الله بن طاهر إلى مصر وافتتاحها

قال ابن الأثير : في هذه السنة سار عبد الله بن طاهر إلى مصر وافتتحها ، وكان سبب مسيره أن عبيد الله قد تغلب على مصر وخلع الطاعة وخرج جمع من الأندلس فتغلبوا على الإسكندرية ، واشتغل عبد الله بن طاهر بمحاربة نصر بن شبث ، فلما فرغ منه سار نحو مصر وافتتحها . وذكر ابن الأثير تفصيل ذلك ثم قال : ذكر أحمد بن حفص بن أبي الشماس قال : خرجنا مع عبد الله بن طاهر إلى مصر حتى إذا كنا بين الرملة ودمشق إذ نحن بأعرابي قد اعترض ، فإذا شيخ على بعير له فسلم علينا فرددنا عليه السلام قال : وكنت أنا وإسحق بن إبراهيم الرافقي وإسحق بن أبي ربعي ونحن نساير الأمير ، وكنا أفره منه دابة وأجود كسوة قال : فجعل الأعرابي ينظر إلى وجوهنا ، قال فقلت : يا شيخ قد ألححت في النظر ، أعف شيئاً أنكرته ؟ قال : لا والله ما عرفتكم قبل يومي هذا ولكني رجل حسن الفراسة في الناس قال : فأشرت إلى إسحق بن أبي ربعي وقلت : ما تقول في هذا ؟ فقال :

أرى كاتباً داهي الكتابة بيّنٌ ... عليه وتأديب العراق منير
له حركات قد يشاهدن أنه ... عليم بتقسيط الخراج بصير

ونظر إلى إسحق بن إبراهيم الرافقي فقال :

ومظهر نسك ما عليه ضميره ... يحب الهدايا بالرجال مكور

إخال به جبناً وبخلاً وشيمةً تخبـر عنـه إنـه لـوزيـر

ثم نظر إلي وقال :

وهـذا نديم للأمير ومؤنـس يكون له بالقرب منه سرور
وأحسبه للشعـر والعلـم راويـاً فبـعض نديم مرة وسميـر

ثم نظر إلى الأمير وقال :

وهذا الأمير المرتجى سيب كفه فما إن له في العالمين نظير
عليـه رداء من جمال وهيبـة ووجـه بإدراك النجـاح يشير
لقد عظم الإسلام منه بذي يد فقد عاش معروف ومات نكير
ألا إنما عبد الإله بن طاهر لنـا والـد بر بنـا وأمير

قال : فوقع ذلك من عبد الله أحسن موقع وأعجبه وأمر للشيخ بخمسمائة دينار وأمره أن يصحبه .

سنة ٢١١

إخلاص عبد الله بن طاهر للمأمون

قال في هذه السنة : قال للمأمون بعض أخوته (وهو المعتصم) : إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد علي بن أبي طالب وكذا كان أبوه قبله ، فأنكر المأمون ذلك ، فعاوده أخوه فوضع المأمون رجلاً قال له : امش في هيئة القراء والنساك إلى مصر فادع جماعة من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا ثم صر إلى عبد الله بن طاهر فادعه إليه واذكر مناقبه ورغبه فيه وابحث عن باطنه وائتني بما تسمع ، ففعل الرجل ذلك فاستجاب له جماعة من أعيانه فقعد بباب عبد الله بن طاهر ، فلما ركب قام إليه فأعطاه رقعة ، فلما عاد إلى منزله أحضره قال : قد فهمت ما في رقعتك فهات ما عندك ، فقال : ولي أمانك ؟ قال : نعم قال : هل يجب شكر الله على العباد ؟ قال : فتجيء إلي وأنا في هذه الحال لي خاتم في المشرق جائز وخاتم في المغرب جائز وفيما بينهما أمري مطاع ثم ما ألتفت عن يميني ولا شمالي وورائي وأمامي إلا رأيت نعمة لرجل أنعمها علي ومنة ختم بها رقبتي ويداً لائحة بيضاء

ابتدأني بها تفضلاً وكرماً ، تدعوني إلى أن أكفر بهذه النعم وهذا الإحسان وتقول اغدر بمن كان أولى لهذا وأجري واسع في إزالة خيط عنقه وسفك دمه ، تراك لو دعوتني إلى الجنة عياناً أكان الله يحب على أن أغدر به وأكفر إحسانه وأنكث بيعته ، فسكت الرجل فقال له عبد الله : ما أخاف عليك إلا نفسك فارحل عن هذا البلد فإن السلطان الأعظم إن بلغه ذلك كنت الجاني على نفسك ونفس غيرك . فلما أيس منه جاء إلى المأمون فأخبره فاستبشر وقال : ذلك غرس يدي وإلف أدبي وقراب يلفحي ، ولم يظهر ذلك ولا علمه ابن طاهر إلا بعد موت المأمون . اهـ . ابن الأثير .

ترجمة عبد الله بن طاهر بن الحسين :

قال في مختصر الذهبي : عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بتقديم الزاي بن أسعد مولى طلحة بن عبد الله الخزاعي ، وهو طلحة الطلحات ، الأمير العادل أبو العباس الخزاعي أمير إقليم خراسان وما يليه ، ولد سنة اثنتين وثمانين ومائة ، وتأدب في صغره وقرأ العلم والفقه وسمع من وكيع ويحيى بن الضريس وعبد الله المأمون وعنه إسحق بن راهويه وهو أكبر منه ونصر بن زياد القاضي وأحمد بن سعيد الرباطي والفضل بن محمد الشعراني وابنه محمد بن عبد الله الأمير وابن أخيه منصور بن طلحة . قال المرزباني كان بارع الأدب حسن الشعر تنقل في الأعمال الجليلة شرقاً وغرباً ، قلده المأمون مصر والمغرب ، ثم نقله إلى خراسان . وروى الحاكم في تاريخه أن أسعد جد بني طاهر كان يعرف في العجم بفرح زرين موزه فأسلم على يد عليٍّ على أن لا يغير اسمه ، فسأل عن اسمه فقيل اسم مشتق من السعادة فقال : هو إذن أسعد ، وكان والده يسمى فيروز . وقال إبراهيم نفطويه : لما غلب عبد الله بن طاهر على الشام وهب له المأمون ما وصل إليه من الأموال هناك ففرقها على القواد ، ولما دخل مصر وقف على بابها وقال : أخزى الله فرعون ما كان أخبثه وأدنى همته ، ملك هذه القرية فقال أنا ربكم الأعلى ، والله لأدخلنها ، وكان ابن طاهر جواداً ممدحاً وفد عليه دعبل فلما أكثر عطاياه توارى عنه وكتب إليه :

هجرتك لم أهجرك من كفر نعمة ... وهل ترتجي فيك الزيادة بالكفر
ولكنني لما أتيتك زائراً ... فأفرطتَ في بري عجزت عن الشكر

فمن لان(1)لا آتيك إلا معذراً أزورك في الشهرين يوماً وفي الشهر
فإن زدتَ في بري تزيدتُ جفوةً ولا نلتقي حتى القيامةِ والحشر

فوصل إليه من ثلثمائة ألف درهم .

وعن العباس بن مجاشع قال : لما قدم ابن طاهر اعترضه دعبل فقال :

جئتك مستشفعاً بلا سبب إليك إلا بحرمة الأدبِ
فاقض زمامي فإنني رجلٌ غيرُ ملحٍّ عليك في الطلبِ

فبعث إليه بعشرة آلاف درهم وبهذين البيتين :

أعجلتنا فأتاك عاجلُ برنا قُلاً ولو أمهلتنا لم نقللِ
فخذ القليل وكن كأنك لم تسل ونكون نحن كأننا نُسألِ

ثم قال : وعن سهل بن ميسرة أن جيران دار عبد الله بن طاهر أمر بإحصائهم فبلغوا أربعة آلاف نفس فكان يقوم بمؤنتهم وكسوتهم ، فلما خرج إلى خراسان انقطعت الرواتب من المؤنة وبقيت الكسوة مدة حياته . وكان ابن طاهر عادلاً في الرعية عظيم الهيبة حسن المذهب ، قال أحمد بن سعيد الرباطي : سمعته يقول : والله لا أستطيع أن أقول إيماني كإيمان يحيى بن يحيى وأحمد بن حنبل وهو لا يقولون [هكذا والظاهر أن الصواب وهما لا يقولان] إيماننا كإيمان جبريل وميكائيل . ولما مات خلف في بيت ماله أربعين ألف ألف درهم دون مافي بيت العامة . قال أحمد بن كامل القاضي : مات عبد الله بن طاهر وقد أظهر التوبة وكسر الملاهي وعمر الرباطات بخراسان ووقف لها الوقوف وافتدى الأسرى من الترك بنحو ألفي ألف درهم . وقال أبو حسن الزيادي : مات بمرو في ربيع الأول سنة ثلاثين ومائتين بعلة الخوانيق وله ثمان وأربعون سنة . اهـ .

وقال ابن خلكان : كان عبد الله المذكور سيداً نبيلاً عالي الهمة شهماً ، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه حسن الالتفات إليه لذاته ورعاية لحق والده ولما سلفه من الطاعة في خدمته ، وكان والياً على الدينور ، فلما خرج بابك الخرمي على خراسان وأوقع الخوارج بأهل قرية الحمراء من أعمال نيسابور وأكثروا فيها الفساد واتصل الخبر بالمأمون بعث إلى عبد الله وهو بالدينور يأمره بالخروج إلى خراسان ، فخرج إليها سنة ثلاث عشرة ومائتين

(1) أصله من الآن

وحارب الخوارج وقدم نيسابور سنة خمس عشرة ومائتين وكان المطر قد انقطع عنها تلك السنة ، فلما دخلها مطرت مطراً كثيراً فقام إليه رجل بزاز من حانوته وأنشد :

قد قحط الناس في زمانهم حتى إذا جئت جئت بالدرر
غيثان في ساعة لنا قدما فمرحباً بالأمير والمطر

ونقل عن الطبري أن المأمون لما مات طاهر بن الحسين كان ولده عبد الله بالرقة على محاربة نصر بن شبث ولاه عمل أبيه كله وجمع له مع ذلك الشام ، فوجه عبد الله أخاه طلحة إلى خراسان ، ثم قال : وكان عبد الله المذكور أديباً ظريفاً جيد الغناء نسب إليه صاحب الأغاني أصواتاً كثيرة وأحسن فيها ونقلها أهل الصنعة منه ، وله شعر مليح ورسائل ظريفة ، فمن شعره قوله :

نحن قوم تليننا الحدقُ النجـ ـلُ على أننا نلين الحديدا
طوع أيدي الظباء تقتادنا الـ ـعِينُ ونقتاد بالطعان الأسودا
نملك الصيد ثم تملكنا البيـ ـضُ المصونات أعيناً وخدودا
تتقي سخطَنا الأُسودُ ونخشى سَخَطَ الخشِفِ حين يبدي الصدودا
فترانا يوم الكريهة أحـرا راً وفي السلم للغواني عبيدا

ومن مشهور شعره قوله :

اغتفر زلتي لتحرز فضل الشكـ ـر مني ولا يفوتك أجري
لا تكلني إلى التوسل بالعذ ر لعلي أن لا أقوم بعذري

ومن كلامه : سمن الكيس ونبل الذكر لا يجتمعان في موضع واحد ، ثم قال : وكان دخول عبد الله إلى مصر سنة إحدى عشرة ومايتين وخرج منها في أواخر هذه السنة فدخل بغداد في ذي القعدة منها ، واستمر نوابه بمصر وعزل عنها في سنة ثلاث عشرة ومايتين .

ولاية العباس بن المأمون سنة ٢١٣

قال ابن الأثير في حوادثها : فيها ولى المأمون ابنه العباس الجزيرة والثغور والعواصم وولى أخاه أبا إسحاق المعتصم الشام ومصر ، وأمر لكل واحد منهما ولعبد الله بن طاهر

[لأنه ولاه خراسان كما تقدم في ترجمته] بخمسمائة ألف درهم ، قيل لم يفرق في يوم من المال مثل ذلك .

ولاية إسحاق بن إبراهيم زريق سنة ٢١٤
وولاية العباس بن المأمون في السنة المذكورة مرة ثانية

قال في زبدة الحلب : ثم ولى المأمون إسحق بن إبراهيم بن مصعب وعزل ابنه العباس في سنة أربع عشرة ومائتين ، ثم إن المأمون عزل إسحق بن إبراهيم في السنة وولاه مصر وأعاد ابنه العباس إليها ثانية ، ثم ولى المأمون حلب وقنسرين ورقة الطريفي وأظنه مع العباس .

ترجمة العباس بن المأمون :

قال في مختصر الذهبي : العباس بن المأمون عبد الله بن الرشيد الهاشمي الأمير أحد من ذكر للخلافة عند وفاة أبيه ، وقد تلكأ عند مبايعة المعتصم وهم بالخروج عليه في سنة ثلاث وعشرين ، فقبض عليه المعتصم ومات شاباً في سنة أربع وعشرين ومايتين اهـ .

وقد بسط ابن الأثير في حوادث سنة ٢٢٣ الكلام على محاولة خروجه على المعتصم والقبض عليه وعلى من هم بالخروج معه فراجعه إن أحببت .

وقال ابن شاكر في عيون التواريخ في حوادث سنة ٢٢٣ : فيها توفي العباس بن المأمون بن هارون الرشيد ، توفي بمنبج ، وكان سبب موته أن عمه المعتصم كان قد غضب عليه كما ذكرنا واعتقله ، فلما بلغ إلى منبج نزل بها وكان العباس جائعاً فسأل الطعام فقدم إليه طعاماً كثيراً فأكل ، فلما طلب الماء منع منه وأدرج في مسح فمات بمنبج وصلى عليه بعض أخوته ومن كان معه ، والعباس هذا الذي رأى في يد إبراهيم بن المهدي بين يدي المعتصم خاتماً استحسن فصه فقال : ما رأيت مثله ، فقال إبراهيم بن المهدي هذا الخاتم رهنته في أيام أبيك وافتككته في أيام أمير المؤمنين ، فقال : إن لم تشكر لأبي حقن دمك لم تشكر لأمير المؤمنين افتكاك خاتمك . وقيل إنه لما مات العباس جزع عليه المعتصم جزعاً

شديداً وندم على ما كان منه وأمر أن لا يحجب عنه الناس لتعزية ، فدخل فيمن دخل أعرابي فقال :

اصبر نكن لك تابعين فإنما صبر الجميع بحسن صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده والله خير منك للعبـــــــاس

ترجمة إسحاق بن إبراهيم بن مصعب :

قال في مختصر الذهبي : إسحق بن إبراهيم بن مصعب الخزاعي الأمير ابن عم طاهر ابن الحسين الأمير ، وكان يعرف بصاحب الجسر ، ولي إمرة بغداد مدة طويلة أكثر من ثلاثين سنة وعلى يده امتحن العلماء بأمر المأمون وأكرهوا على القول بخلق القرآن ، وكان خبيراً صارماً سائساً حازماً وافر العقل جواداً ممدحاً له مشاركة في العلم ، حكى المسعودي قال : حدث عنه موسى بن صالح بن شيخ بن عميرة أنه رأى النبي ﷺ يقول له في النوم : أطلق القاتل ، فارتاع وأمر بإحضار السندي وعباس ، فسألهما : هل عندكما من قتل ؟ فقال عباس : نعم ، وأحضر رجلاً فقال : إن صدقتني أطلقتك ، فابتدأ يحدثه بخبره فذكر أنه هو وجماعة كانوا يفعلون فلما كان أمس جاءتهم عجوز تختلف إليهم للفساد فجاءتهم بصبية بارعة بالجمال ، فلما توسطت الدار صرخت صرخة وغشي عليها فبادرت إليها وأدخلتها بيتاً وسكنت روعها فقالت : الله الله فيَّ يا فتيان خدعتني هذه وأخذتني بزعمها إلى عرس وهجمت بي عليكم وجدي رسول الله ﷺ وأمي فاطمة فاحفظوهما فيَّ ، فخرجت إلى أصحابي فعرفتهم فقالوا : بل قضيت أربك ، فبادروا إليها فحلت بينهم وبينها إلى أن تفاقم الأمر ونالتني جراح ، فعمدت إلى أشدهم في أمرها فقتلته وأخرجتها فقالت : سترك الله كما سترتني ، فدخل الجيران وأخذت فأطلقه إسحق، توفي سنة خمس وثلاثين ومائتين . اهـ .

سنة ٢١٥

قال ابن الأثير : في هذه السنة سار المأمون إلى الروم في المحرم ، وكان سيره عن طريق الموصل حتى صار إلى منبج ثم إلى دابق ثم إلى أنطاكية ثم إلى المصيصة وطرسوس

ودخل منها إلى بلاد الروم في جمادى الأولى ، ودخل ابنه العباس من ملطية فأقام المأمون على حصن قرة افتتحه عنوة وهدمه وفتح قبله حصن ماجدة بالأمان ووجه أشناس إلى حصن سندس فأتاه برئيسه ، ووجه عجيفاً وجعفر الخياط إلى صاحب حصن ستاذ فسمع وأطاع .

ولاية عيسى بن علي بن صالح الهاشمي سنة ٢١٥

قال في زبدة الحلب : لما قدم المأمون حلب للغزاة ونزل بدابق في سنة خمس عشرة ومايتين لقيه عيسى بن صالح الهاشمي فقال له : يا أمير المؤمنين أبلينا في أعدائنا في الفتنة وفي أيامك ، فقال : لا ولا كرامة ، فصرف ورقة وولى عيسى بن صالح نيابة عن ولده العباس فيما أرى فوجد عنده من الكفاية والضبط وحسن السيرة ما أراد فقدمه وكبر عنده وأحبه ، وكان المأمون كلما غزا الصائفة لقيه عيسى بن علي بالرقة ولايزال معه حتى يدخل الثغور ، ثم يرد عيسى إلى عمله ، وولى المأمون في سنة خمس عشرة ومايتين قضاء حلب عبيد بن جناد بن أعين مولى بني كلاب فامتنع من ذلك فهددوه على الامتناع فأبى .

ولاية عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح سنة ٢١٨

قال ابن جرير : في هذه السنة شخص المأمون من سلفوس إلى الرقة وقتل بها ابن أخت الداري وأمر بتفريغ الرافقة لينزلها حشمه ، فضج من ذلك أهلها فأعفاهم .

قال في زبدة الحلب : في هذه السنة ولى المأمون عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل ابن صالح لما غزا الصائفة .

وفي هذه السنة توفي المأمون وولي أبو إسحق المعتصم واسمه محمد سنة ٢٢٣ .

قال في زبدة الحلب : في هذه السنة ولى المعتصم حلب وقنسرين حربها وخراجها وضياعها عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن علي الهاشمي .

ولاية أشناس التركي من سنة ٢٢٥ إلى سنة ٢٣٠

قال في زبدة الحلب : ثم إن المعتصم ولى أشناس التركي الشام جميعه والجزيرة ومصر .

سنة ٢٢٧

فيها توفي المعتصم وولي الخلافة هارون الواثق أبو جعفر .

قال ابن جرير : توج الواثق أشناس وألبسه وشاحين بالجوهر . قال في زبدة الحلب وأظن أن أشناس بقي في ولايته إلى أن مات سنة ثلاثين ومايتين في أيام الواثق .

ولاية عبيد الله بن عبد العزيز مرة ثانية سنة ٢٣٠

قال في زبدة الحلب : وولى الواثق بعد موت أشناس عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح الهاشمي حلب وقنسرين جربها وخراجها وضياعها ، وأظنه كان متولياً في أيام المعتصم من جهة أشناس فأقره الواثق على ولايته .

ولاية محمد بن صالح بن عبد الله بن صالح سنة ٢٣٠

قال في زبدة الحلب : وولى الواثق قنسرين وحلب والعواصم بعد عبد الله محمد بن صالح بن عبد الله بن صالح ، فكانت سيرته غير محمودة ، وكان أحمر أشقر فلقب سماقة لشدة حمرته ، ويقال إنه أول من أظهر البرطيل بالشام وأوقع عليه هذا الاسم وكان لا يعرف قبل ذلك إلا الرشوة على غير إكراه ، وكان أكثر الناس سكوتاً وأطولهم صمتاً لا يكاد يسمع له كلام في أمر يأمر به أو قول يجيب عنه ، وكان قاضي حلب في أيامه أبا سعيد عبيد بن جناد الحلبي ، توفى سنة إحدى وثلاثين ومايتين ، وكان المأمون ولاه قضاء حلب وله يقول بن هوبر الكلبي من قصيدة يغض منه ، أولها :

لا درَّ در زمانك المتنكسِ ... الجاعِل الأذناب فوق الأُرؤسِ
ما أنت إلا نعمةٌ في نقمة ... أو أصلُ شوك في حديقة نرجسِ
يا قبلة ذهبت ضياعاً في يد ... ضرب الإلّه بنانها بالنقرسِ
من سر أبطح مكة آباؤه ... وجدوده وكأنه من قبرس

وهذا عمر كان من معراتا البريدية من ضياع معرة النعمان وولي في أيام المتوكل معرة مصرين وقتل بها .

الزلازل بأنطاكية في هذه السنين

قال الجلال السيوطي في كتاب الصلصلة في الزلزلة : في سنة ٢٢٠ زلزلت الأرض ودامت أربعين يوماً وتهدمت أنطاكية ، وفي سنة ٢٣٠ حصلت زلزلة بدمشق وامتدت إلى أنطاكية فهدمتها واتصلت بالجزيرة والموصل وكان أشدها بأنطاكية والعواصم .

ولاية أحمد بن سعد بن مسلم بن قتيبة
وولاية نصر بن حمزة الخزاعي سنة ٢٣١

قال ابن الأثير : فيها كان الفداء بين المسلمين والروم ، واجتمع المسلمون فيها على نهر اللامس على مسيرة يوم من طرسوس ، واشترى الواثق من بغداد وغيرها من الروم ، وعقد الواثق لأحمد بن سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي على الثغور والعواصم وأمره بحضور الفداء هو وخاقان الخادم وأمرهما أن يمتحنا أسرى المسلمين ، فمن قال القرآن مخلوق وأن الله لا يرى في الآخرة نودي به وأعطي ديناراً ، ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم ، فلما كان في عاشوراء سنة إحدى وثلاثين اجتمع المسلمون ومن معهم من الأسرى على النهر وأتت الروم ومن معهم من الأسرى ، وكان النهر بين الطائفتين فكان المسلمون يطلقون الأسير فيطلق الروم الأسير من المسلمين فيلتقيان في وسط النهر ويأتي كل أصحابه ، فإذا وصل الأسير إلى المسلمين كبروا وإذا وصل الأسير إلى الروم صاحوا حتى فرغوا ، وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربعمائة وستين نفساً والنساء والصبيان ثمانمائة وأهل ذمة المسلمين مائة نفس ، وكان النهر مخاضة تعبره الأسرى ، وقيل بل كان عليه جسر ، ولما فرغوا من الفداء غزا أحمد بن سعيد بن مسلم الباهلي شاتياً فأصاب الناس ثلج ومطر فمات منهم مائتا نفس وأسر نحوهم وغرق بالبدندون خلق كثير ، فوجد الواثق على أحمد وكان قد جاء إلى أحمد بطريق من الروم ينذره فقال وجوه الناس لأحمد : إن عسكراً فيه سبعة آلاف لا تتخوف عليه فإن كنت كذلك فواجه القوم واطرق بلادهم ، ففعل وغنم نحواً من ألف بقرة وعشرة آلاف شاة وخرج فعزله الواثق واستعمل مكانه نصر بن حمزة الخزاعي في جمادى الأولى ، وفي سنة ٢٣٢ توفي الواثق وولي الخلافة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم .

ولاية علي بن إسماعيل بن صالح بن علي سنة ٢٣٢

قال في زبدة الحلب : وولى الشارباميان في أول أيام المتوكل على حلب وقنسرين والعواصم والبين أنا ذاكرهما ، وكان الشار باميان أحد قواد المتوكل وكان خصيصاً عنده ، فإما أن يكون المتوكل ولاه جند قنسرين والعواصم أو أنه كان السلطان في أيام المتوكل فكان أمر الولاية إليه ، فإنني قرأت في كتاب نسب بني صالح بن علي قال : وولى الشار باميان جند قنسرين والعواصم علي بن إسماعيل بن صالح بن علي أبا طالب ، وإنما أراد أن يتزين به عند المتوكل فامتنع من قبول ولايته فأعلمه إن لم يفعل كتب فيه إلى الخليفة ، فقبلها وأقام على ولاية جند قنسرين والعواصم حتى مات ، فكانت أيامه أحسن أيام وسيرته أجمل سيرة ، وكان علي بن إسماعيل إذا خرج إلى العواصم استخلف ابنه محمد بن علي على قنسرين وحلب فلا يفقد من أبيه شيئاً . قال وولي الشار باميان إلخ ما يأتي .

ولاية عيسى بن عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل ابن صالح بن علي الهاشمي سنة ٢٣٢

قال في زبدة الحلب : وولى الشار باميان جند قنسرين والعواصم عيسى بن عبيد الله ابن عبد العزيز بن الفضل بن صالح بن علي الهاشمي .

ولاية طاهر بن محمد بن إسماعيل

قال في زبدة الحلب ناقلاً عن كتاب نسب بني صالح : وولى المتوكل طاهر بن محمد ابن إسماعيل بن صالح على المظالم بجند قنسرين والعواصم والنظر في أمور العمال ، وجاءته الولاية منه فألفاه الرسول في مرضه الذي مات فيه . ولم يظهر لي في أي سنة كانت ولايته .

ولاية المنتصر بن المتوكل سنة ٢٣٥

قال ابن الأثير : في هذه السنة عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد وهم محمد

ولقبه المنتصر بالله وعبد الله ولقبه المعتز بالله وإبراهيم ولقبه المؤيد بالله ، ثم قال : فأما المنتصر فأقطعه إفريقية والمغرب كله والعواصم وقنسرين والثغور جميعها الشامية الجزرية وديار مضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانة والأنبار والخابور وكور باجرمي وكور دجلة وطساسيج السواد جميعها والحرمين واليمن وحضرموت واليمامة والبحرين والسند ومكران وقندابيل وفرج بيت الذهب وكور الأهواز والمستغلات بسامرا وماه الكوفة وماه البصرة وماه سبذان ومهرجانقذق وشهر زور والصامغان وإصبهان وقم وقاشان والجبل جميعه وصدقات العرب بالبصرة .

قال في زبدة الحلب : فاستمر في الولاية إلى أن قتل أباه وكانت الولاة من قبله . اهـ .

ولاية بغا الكبير سنة ٢٣٥

قال في زبدة الحلب : وأظن أن نائب المنتصر في جند قنسرين في حياة المتوكل كان بغا الكبير ، فلما قتل المتوكل وفد بغا عليه . وكان قتل المتوكل سنة ٢٤٧ .

سنة ٢٤٢

قال في زبدة الحلب : وفي أيام ولاية المنتصر حلب في سنة اثنتين وأربعين ومائتين وقع طائر دون الرخمة وفوق الغراب على دلبة بحلب لسبع مضين من رمضان فصاح : يا معشر الناس الله الله ، حتى صاح أربعين صوتاً ، ثم طار وجاء من الغد فصاح أربعين صوتاً ، وكتب صاحب البريد بذلك وأشهد خمسماية إنسان سمعوه ، ولا يبعد عندي أن تكون الدلبة التي ينسب إليها رأس الدلبة .

أقول : تقدم في الكلام على ولاية إسماعيل بن صالح سنة ١٨٢ أن الرشيد أقطعه ما كان له بحلب في سوقها وهي الحوانيت التي بين باب أنطاكية إلى رأس الدلبة .

سنة ٢٤٤

[ذكر نقل مركز الخلافة من بغداد إلى الشام مدة شهرين]

قال أبو الفدا في تاريخه : في هذه السنة وصل المتوكل إلى دمشق ودخلها في صفر وعزم على المقام بها ونقل دواوين الملك إليها ، فقال يزيد بن محمد المهلبي :

أظن الشامَ يشمت بالعراقِ إذا عزم الإمام على انطلاق
فإن تدع العراق وساكنيه فقد تبكي المليحة بالطلاق

ثم استوبأ المتوكل دمشق واستثقل ماءها فرجع سامرا ، وكان مقامه بدمشقْ شهرين وأياماً . اهـ .

وقال الجاحظ في كتابه المحاسن والأضداد (صحيفة ١٠٢) : حدثنا ثعلب عن الفتح بن خاقان قال : لما خرج المتوكل إلى دمشق كنت عديله ، فلما صرنا بقنسرين قطعت بنو سليم على التجار فأُنهي ذلك إليه فوجه قائداً من وجوه قواده إليهم فحاصرهم ، فلما قربنا من القوم إذا نحن بجارية ذات جمال وهيئة وهي تقول :

أميرُ المؤمنين سما إلينا سمو البدر مال به الغريف
فإن نسلم فعفوَ الله نرجو وإن نقتل فقاتلنا شريف

فقال لها المتوكل : أحسنت ، ما جزاؤها يا فتح ، قلت : العفو والصلة ، فأمر لها بعشرة آلاف درهم وقال لها : مري إلى قومك وقولي لهم : لا تردوا المال على التجار فإني أعوضهم عنه . اهـ .

أقول : كان على المتوكل أن يجازي هؤلاء المسيئين على إساءتهم وتلك المحسنة على إحسانها ويرد على التجار عين أموالهم .

سنة ٢٤٥

قال ابن جرير : وفيها زلزلت بالس (مسكنة). والرقة وحران ورأس عين وحمص ودمشق والرها وطرسوس والمصيصة وأدنة وسواحل الشام ورجفت اللاذقية فما بقي منها منزل ولا أفلت من أهلها إلا اليسير ، وذهبت جبلة بأهلها .

قال الجلال السيوطي في كتاب الصلصلة في الزلزلة : وفي سنة ٢٤٥ عمت الزلازل الدنيا وسقط من أنطاكية جبل في البحر وسقط منها ١٥٠٠ دار ومن سورها نيف وسبعون برجاً . اهـ .

سنة ٢٤٧

فيها قتل المتوكل وولي الخلافة المنتصر بالله واسمه محمد .

ولاية وصيف التركي سنة ٢٤٥

قال ابن الأثير : في هذه السنة أغزى المنتصر وصيفاً التركي إلى بلاد الروم ، ثم ساق السبب في ذلك إلى أن قال : ولما سار وصيف كتب إليه المنتصر يأمره بالمقام بالثغر أربع سنين يغزو في أوقات ومنها إلى أن يأتيه أمره .

وفيها توفي المنتصر بالله وولي الخلافة المستعين بالله واسمه أحمد بن محمد بن المعتصم .

ترجمة وصيف التركي :

قال الذهبي : وصيف القائد من كبار الأمراء، استولى على المعتز واحتجر عليه واصطفى لنفسه الأموال والذخائر ، فسعت الفراعنة والاسترو شنية وطالبوا بالأرزاق فخرج إليهم وصيف وبغا وسيما الشرابي وجماعة من الخواص فقال لهم وصيف : مالكم عندنا إلا التراب وما عندنا مال ، وقال بغا : نسأل أمير المؤمنين لكم ، ثم خرج هو وسيما إلى سامرا يستأذن المعتز فبقي وصيف في طائفة يسيرة فوثبوا عليه فقتلوه بالدبابيس وقطعوا رأسه ونصبوا الرأس على رمح . ولوصيف حكاية معروفة ، فإنه لما دخل إلى قم سأل عن رجل خامل فلما أحضر ذكر أنه كان اشتراه ورباه وأحسن إليه فقال : ما أعرف الأمير أيده الله إلا أميراً ، فأعجبه ذلك وبالغ في صلته وصيره من رؤساء البلد .

قتل في سنة ثلاث وخمسين ومائتين قبل بغا بيسير وكان الفاتقة والراتقة زمن المتوكل والمستعين والمعتز . اهـ .

ولاية موسى بن بغا سنة ٢٥٠

قال في زبدة الحلب : وولى المستعين في سنة خمسين ومايتين قنسرين وحلب وحمص موسى بن بغا وتوجه إليها حين عاث أهل حمص على الفضل بن قارن .

قال ابن جرير : وفيها وثب أهل حمص وقوم من كلب رجل يقال عطيف بن نعمة الكلبي بالفضل بن قارن أخي مازيار بن قارن وهو يومئذ عامل السلطان على حمص فقتلوه

في رجب ، فوجه المستعين إليهم موسى بن بغا الكبير فشخص موسى من سامرا يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، فلما قرب موسى تلقاه أهلها فيما بينها وبين الرستن فحاربهم فهزمهم وافتتح حمص وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وأحرقها وأسر جماعة من رؤساء أهلها وكان عطيف قد لحق بالبدو . اهـ .

ترجمته :

قال الذهبي : موسى بن بغا الكبير أحد قواد المتوكل ، ندب سنة خمسين ومائتين لحرب أهل حمص حين قاتلوا واليهم فأوقع بهم وقتل منهم خلقاً وولي الثوار في حمص وبالغ في العسف ، ثم ولي حرب الزنج بالبصرة فنصر عليهم وولي حرب الحسن بن أحمد الكوكبي الحسني الذي استولى على قزوين وزنجان فهزمه موسى وقتل من عسكر الكوكبي نحو العشرة آلاف ، توفي سنة أربع وستين . اهـ .

ولاية أبي تمام ميمون بن سليمان بن عبد الملك ابن صالح سنة ٢٥١

قال في زبدة الحلب : ثم ولي حلب والعواصم أبو تمام ميمون بن سليمان بن عبد الملك بن صالح في أيام المستعين ، وكانت له حركة وبأس في فتنة المستعين ، وعصى أهل حلب وأقاموا على الوفاء للمستعين ببيعتهم .

ولاية أحمد المولد ثم الحسين بن محمد بن صالح الهاشمي سنة ٢٥٢

قال ابن جرير : في هذه السنة خلع المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم نفسه من الخلافة وبويع للمعتز محمد بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم .

قال في زبدة الحلب : لما عصى أهل حلب وأقاموا على الوفاء للمستعين ببيعتهم قدم عليهم أحمد المولد محاصراً لهم فلم يجيبوه إلى ما أراد من البيعة للمعتز ، وكان السفير بينه

وبينهم الحسين بن محمد بن صالح بن عبد الله بن صالح بن أبي عبد الله الهاشمي ، فلما بايعوا بعد ذلك للمعتز وانقضى أمر المستعين ولاه أحمد المولد جند قنسرين وحلب في سنة اثنتين وخمسين ومائتين فأقام بها مدة يسيرة ثم انصرف إلى سلمية أعني الحسين بن محمد ، وقيل ولي حلب وقنسرين والعواصم صالح بن عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح في فتنة المستعين وكان له سعي وتقدم ورياسة .

ولاية أبي تمام ميمون بن سليمان بن عبد الملك بن صالح سنة ٢٥٣

قال في زبدة الحلب : ثم ولي بعد أبي تمام صالح بن عبيد الله أبو تمام ميمون بن سليمان بن عبد الملك بن صالح ، وهذه ولاية ثانية له ، ومات بالرقة .

ولاية صالح بن عبد الله مرة ثانية سنة ٢٥٣

قال في زبدة الحلب : ثم ولي بعد أبي تمام صالح بن عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح الهاشمي وانقضت ولاية بني صالح الهاشميين . اهـ .

ولاية ديوداد سنة ٢٥٤

قال ابن جرير : فيها عقد صالح بن وصيف (من كبار قواد بغداد) لديوداد على ديار مصر وقنسرين والعواصم في ربيع الأول منها . اهـ .

قال في زبدة الحلب : وبقي والياً إلى أن تغلب أحمد بن عيسى بن شيخ على الشام في أيام المهتدي .

ذكر مبدأ حال أحمد بن طولون

قال ابن الأثير : في حوادث هذه السنة ، كانت ديار مصر قد أقطعها بابكيال وهو من أكابر قواد الأتراك ، وكان مقيماً بالحضرة واستخلف بها من ينوب عنه بها ، وكان طولون والد أحمد بن طولون أيضاً من الأتراك ، وقد نشأ هو بعد والده على طريقة مستقيمة وسيرة

حسنة فالتمس بابكيال من يستخلفه بمصر فأشير عليه بأحمد بن طولون لما ظهر عنه من حسن السيرة ، فولاه وسيره إليها وكان بها ابن المدبر على الخراج ، وقد تحكم في البلد ، فلما قدمها أحمد كف يد ابن المدبر واستولى على البلد ، وكان بابكيال قد استعمل أحمد بن طولون على مصر لياركوج التركي كان بينه وبين أحمد بن طولون مودة متأكدة استعمله على ديار مصر جميعها فقوي أمره وعلا شأنه ودامت أيامه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . اهـ .

سنة ٢٥٥

فيها خلع المعتز بالله وبويع محمد بن الواثق ولقب المهتدي بالله .

ولاية أحمد بن موسى بن شيخ

قال في زبدة الحلب : بقي ديوداد والياً إلى أن تغلب أحمد بن عيسى بن شيخ على الشام في أيام المهتدي .

سنة ٢٥٦

قال ابن الأثير : فيها خلع المهتدي بالله ومات وولي الخلافة أحمد بن المتوكل ولقب المعتمد .

قال في زبدة الحلب : لما مات المهتدي وولي المعتمد سير إلى ابن شيخ بولاية أرمينية على أن ينصرف عن الشام آمناً ، فأجاب إلى ذلك ورحل عنها في سنة ست وخمسين ومائتين ..

الدولـة الطولونيـة
ولاية أحمد بن طولون سنة ٢٥٦

قال في زبدة الحلب : بعد أن رحل عن هذه البلاد أحمد بن عيسى بن شيخ وليها

أحمد بن طولون مع أنطاكية وطرسوس وغيرها من البلاد ، وكان أحمد بن طولون شجاعاً عاقلاً وعلى مربطه أربعة آلاف حصان ، وكانت نفقته في كل يوم ألف دينار .

ولاية أبي أحمد أخي المعتمد ٢٥٨ الملقب بالموفق

قال ابن الأثير : فيها في ربيع الأول عقد المعتمد لأخيه أبي أحمد على ديار مصر وقنسرين والعواصم وخلع عليه وعلى مفلح في ربيع الآخر وسيرهما إلى حرب الزنج بالبصرة .

ولاية سيما الطويل سنة ٢٥٨

قال في زبدة الحلب : ولي أبو أحمد الموفق سيما الطويل أحد قواد بني العباس ومواليهم حلب والعواصم ، فابتنى بظاهر مدينة حلب داراً حسنة وعمل لها بستاناً وهو الذي يعرف الآن ببستان الدار ظاهر باب أنطاكية ، وبهذه الدار سميت المحلة التي بباب أنطاكية الدارين هذه ، والدار الأخرى بناها قبله محمد بن عبد الملك بن صالح فعرفت المحلة بالدارين لذلك واحد الدارين تعرف بالسليمانية على حافة نهر قويق وحاضر السليمانية بها يعرف وهو حاضر حلب .

قال : وجدد سيما الطويل الجسر الذي على نهر قويق قريباً من داره وركب عليه باباً أخذه من بعض قصور الهاشميين بحلب يقال له قصر البنات ، وأظن أن درب البنات بحلب يعرف به ، وأظن القصر يعرف بأم ولد كانت لعبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح اسمها بنات وهي أم ولده داود ، وسمى سيما الباب باب السلامة وهو الباب الذي ذكره الواساني في قصيدته الميمية التي أولها :

يا ساكني حلب العوا　　صم جادها صوب الغمامه

وفي سيما يقول البحتري :

فردت إلى سيما الطويل أمورنا　　وسيما الرضا في كل أمر نحاوله

قال الرضي الحنبلي في الزبد والضرب : قلت : والواساني المذكور هو الذي ينسب

إليه حمام الواساني بحلب واسمه الحسن ، وكان شاعراً هجاءً على ما ذكره الصاحب كمال الدين في تاريخه الكبير وإن كان العوام يعتقدونه اليوم من الأولياء وأرباب المزارات والله سبحانه وتعالى أعلم . اهـ .

قال ابن الأثير : فيها مات ياركوج التركي في رمضان وكان صاحب مصر ومقطعها ، ويدعى له فيها قبل أحمد بن طولون ، فلما توفي استقل أحمد بمصر اهـ . أعني أنه صار أميراً عاماً على جميع القطر المصري نيابة عن أبي أحمد الموفق المولى على ديار مصر وقنسرين والعواصم كما تقدم .

سنة ٢٦٢

قال ابن الأثير : فيها تنافر أبو أحمد الموفق وأحمد بن طولون أمير ديار مصر وصار بينهما وحشة مستحكمة ، وتطلب الموفق من يتولى الديار المصرية فلم يجد أحداً لأن ابن طولون كانت خدمه وهداياه متصلة إلى القواد بالعراق وأرباب المناصب ، فلهذا لم يجد من يتولاها فكتب إلى ابن طولون يهدده بالعزل فأجابه جواباً فيه بعض الغلظة ، فسير إليه الموفق موسى بن بغا في جيش كثيف فسار إلى الرقة وبلغ الخبر ابن طولون فحصن الديار المصرية وأقام ابن بغا عشرة أشهر بالرقة لم يمكنه المسير لقلة الأموال معه ، وطالبه الأجناد بالعطاء فلم يكن معه ما يعطيهم فاختلفوا عليه وثاروا بوزيره عبد الله بن سليمان فاستتروا واضطر ابن بغا إلى العود إلى العراق وكفى الله أحمد بن طولون شره فتصدق بأموال كثيرة .

سنة ٢٦٤

قال ابن الأثير : في هذه السنة توفي أماجور مقطع دمشق (أي واليها) وولي ابنه مكانه ، فتجهز ابن طولون ليسير إلى الشام فيملكه فكتب إلى ابن أماجور يذكر له أن الخليفة قد أقطعه الشام والثغور ، فأجابه بالسمع والطاعة ، وسار أحمد واستخلف بمصر ابنه العباس فلقيه ابن أماجور بالرملة فأقره عليها وسار إلى دمشق فملكها وأقر قواد أماجور على أقطاعهم ، وسار إلى حمص فملكها وكذلك حماة وحلب وراسل سيما الطويل بأنطاكية يدعوه إلى طاعته ليقره على ولايته فامتنع فعاوده فلم يطعه ، فسار إليه أحمد بن

طولون فحصره بأنطاكية وكان سيىء السيرة مع أهل البلد فكاتبوا أحمد بن طولون ودلوه على عورة البلد فنصب عليه المجانيق وقاتله فملك البلد عنوة والحصن الذي له وركب سيما وقاتل قتالاً شديداً حتى قتل ولم يعلم به أحد ، فاجتاز به بعض قواده فرآه قتيلاً فحمل رأسه إلى أحمد فساءه قتله . اهـ .

قال في المختار من الكواكب المضية : ومن أعجب ما نقلته من تاريخ الصاحب في ترجمة محمد بن عمار الإمام بمسجد أنطاكية في أيام سيما الطويل قال محمد المذكور : كنت إمام المسجد بأنطاكية أيام سيما الطويل وكان عليها والياً ، فلما جاء أحمد بن طولون وفتحها وقتل سيما تقدم إليَّ أن أخطب لأحمد بن طولون يوم الجمعة فصعدت المنبر وخطبت لسيما الطويل على الرسم وأنسيت ما تقدم إليَّ فلم أذكر إلا وأنا في الصلاة ، فلما قضيت الصلاة بادرت فصعدت المنبر وقلت : يا معاشر الناس قال الله تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبلُ فنسي ولم نجد له عزماً ﴾ اللهم وأصلح الأمير أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين حتى أتيت على الدعاء له ، ثم نزلت عن المنبر فلحقني غلام بكيس فيه ألف دينار فدفعه إليَّ . اهـ .

قال في المختار من الكواكب المضية : قال صاحب الأعلاق النفيسة : نزل الفضل ابن صالح أنطاكية ، وهو سهو لأن الفضل بن صالح توفي سنة ١٧٢ كما تقدم في الكلام على ولايته سنة ١٥٢ والنازل أحد بنيه (بدلالة ما يأتي نقله عن زبدة الحلب) فلما ولي سيما الطويل أنطاكية قبض عليه وعلى ولده ودفنهما حيين في صندوقين ، فبصر رجل بالصندوق الذي كان فيه الفضل فظنه مالاً فحفر عليه واستخرجه وبه رمق وعاش بعد ذلك عشرين سنة ، ولم يزل ينتقل إلى أن صار إلى مصر فلقي أحمد بن طولون ، ثم خرج أحمد ابن طولون من مصر ومعه الفضل بن صالح حتى قتل سيما الطويل واستقامت أحوال الفضل المذكور . انتهى .

وقال في زبدة الحلب : لما استولى أحمد بن طولون على حلب كان قاضيها في أيامه عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الله أبا بكر القاضي العمري ودام على قضائها إلى أن مات أحمد ، وكان سيما حين صارت له حلب قد قصد جماعة من الأشراف من بني صالح بن علي بالأذى واستولى على أملاكهم واستودع بعضهم في السجن ، فلما ولي أحمد

ابن طولون قال صالح بن محمد بن إسماعيل بن صالح بن علي الهاشمي الحلبي يمدحه ويشكره ويذكره ظفره بسيما بقصيدة يقول فيها :

وقد لبستنا من قذا الجور ذلةٌ ... ودارَ بنا كيدُ الأعادي فأحدقا
وكم لاذ فينا عائذ فجرت له ... أفاعيل عز تترك اللب أخلقا
إلى أن أتيحت بابن طولون رحمة ... أشار إلى معصوصبٍ فتفرقا
فدتك بنو العباس من ناصر لها ... أنار به قصد السبيل فأشرقا
بنيت لهم مجداً تليداً بناؤه ... فلم نر بنياناً أعز وأوثقا
منحتهم صفوَ الوداد ولم يكن ... سواك ليعطي الود صفواً مروّقا
يحوز منك العبد لما قصدته ... واسكن أشراف الأقوام مطبقا(١)
للأثرة أسدوا إليه وإنما★ ... يجازي الفتى يوماً على ما تحققا(١)
وهيهات ما ينجيه لو أن دونه ... ثمانين سوراً في ثمانين خندقا

ولاية لؤلؤ غلام أحمد بن طولون نيابة عنه سنة ٢٦٤

قال ابن الأثيز في حوادث هذه السنة : ثم رحل أحمد بن طولون إلى طرسوس فدخلها وعزم على المقام بها وملازمة الغزاة ، فغلا السعر بها وضاقت عنه وعن عساكره ، فركب أهلها إليه بالمخيم وقالوا له : قد ضيقت بلدنا وأغليت أسعارنا فإما أقمت في عدد يسير وإما ارتحلت عنا ، واغلظوا في القول وشغبوا عليه ، فقال أحمد لأصحابه : لتنهزموا من الطرسوسيين وترحلوا عن البلد ليظهر للناس وخاصةً العدو أن ابن طولون على بعد صيته وكثرة عساكره لم يقدر على أهل طرسوس وانهزم عنهم ليكون أهيب لهم في قلب العدو(٢) .

(١) هكذا في الأصل .

(٢) يعني بذلك إعلان قوة أهل طرطوس وعدم قدرة ابن طولون عليهم لينكف عنهم ملوك الروم المجاورون لهم .

★ البيتان وردا في زبدة الحلب تحقيق الدكتور سامي الدهان كما يلي :

تجوّز منك العبد لما قصدته ... وأسكن أشراف الأقوام مطبقا
بلا ترة أسدوا إليه وإنما ... يجازي الفتى يوماً على ما تحققا

وعاد إلى الشام فأتاه خبر ولده العباس وهو الذي استخلفه بمصر أنه قد عصى عليه وأخذ الأموال وسار إلى برقة مشاققاً لأبيه فلم يكترث بذلك ولم ينزعج له وثبت وقضى أشغاله وحفظ أطراف بلاده وترك بحران عسكراً وبالرقة عسكراً مع غلامه لؤلؤ ، وكانت حران لمحمد بن أتامش ، وكان شجاعاً فأخرجه عنها وهزمه هزيمة قبيحة واتصل خبره بأخيه موسى بن أتامش وكان شجاعاً بطلاً فجمع عسكراً كثيراً وسار نحو حران وبها عسكر ابن طولون ومقدمهم أحمد بن جيعويه ، فلما اتصل به خبر مسير موسى أقلقه وأزعجه ، ففطن له رجل من الأعراب يقال له أبو الأغر فقال له : أيها الأمير أراك مفكراً منذ أتاك خبر ابن أتامش وما هذا محله ، فإنه طياش قلق ولو شاء الأمير أن آتيه به أسيراً لفعلت ، فغاظه قوله وقال : قد شئت أن تأتي به أسيراً ، قال : فاضمم إليَّ عشرين رجلاً أختارهم ، قال : افعل ، فاختار عشرين رجلاً وسار بهم إلى عسكر موسى ، فلما قاربهم كمن بعضهم وجعل بينه وبينهم علامة إذا سمعوها ظهروا ثم دخل العسكر في الباقين في زي الأعراب وقارب مضارب موسى وقصد خيلاً مربوطة فأطلقها وصاح هو وأصحابه فيها فنفرت ، وصاح هو ومن معه من الأعراب وأصحاب موسى غارون وقد تفرق بعضهم في حوائجهم ، وانزعج العسكر وركبوا وركب موسى فانهزم أبو الأغر من بين يديه فتبعه حتى أخرجه من العسكر وجاز به الكمين فنادى أبو الأغر بالعلامة التي بينهم فثاروا من النواحي وعطف أبو الأغر على موسى فأسروه فأخذوه وساروا حتى وصلوا إلى ابن جيعويه فعجب الناس من ذلك وحاروا ، فسيره ابن جيعويه إلى ابن طولون فاعتقله وعاد إلى مصر وكان ذلك في سنة خمس وستين ومائتين . اهـ .

سنة ٢٦٨

قال ابن الأثير : فيها في ذي القعدة خرج بالشام رجل من ولد عبد الملك بن صالح الهاشمي يقال له بكار بين سلمية وحلب وحمص فدعا لأبي أحمد الموفق ، فحاربه ابن عباس الكلابي فانهزم الكلابي ، فوجه إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون قائداً يقال له يوذر في عسكر ، فرجع وليس معه كبير أمر . وفيها خالف لؤلؤ صاحب ابن طولون صاحب مصر على مولاه وفي يده حمص وقنسرين وحلب وديار مضر من الجزيرة وسار إلى بالس فنهبها ،

وكاتب الموفق في المسير إليه واشترط شروطاً ، فأجابه أبو أحمد الموفق إليها وكان بالرقة فسار إلى الموفق فنزل قرقيسيا وبها ابن صفوان العقيلي فحاربه وأخذها منه وسلمها إلى أحمد بن مالك بن طوق ، وسار إلى الموفق فوصل إليه وهو يقاتل الخبيث العلوي [عميد الزنج الخارج في بلاد العراق على الموفق] .

قال في زبدة الحلب : وقتل لؤلؤ العلوي بالبصرة في سنة تسع وستين ومائتين فوجد له أربعمائة ألف دينار ، فذكر لؤلؤ الطولوني أنه لا يعرف لنفسه ذنباً إلا كثرة ماله وأثاثه ، ولما انحدر لؤلؤ من الرقة كان معه من السفن والخزائن زهاء ثلاثمائة خزانة .

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٢٧٣ : ولم تزل أمور لؤلؤ في إدبار إلى أن افتقر ولم يبق له شيء ، ثم عاد إلى مصر في آخر أيام هارون بن خمارويه فريداً وحيداً بغلام واحد فكان هذا ثمرة العقل السخيف وكفر الإحسان اهـ . هذا ما كان من أمر لؤلؤ مع أبي الموفق .

وأما ما كان من أمر أحمد بن طولون مع المعتمد فإن المعتمد سار نحو مصر ، وكان سبب ذلك أنه لم يكن له من الخلافة غير اسمها ولا ينفذ له توقيع لا في قليل ولا كثير ، وكان الحكم كله للموفق والأموال تجبى إليه ، فضجر المعتمد من ذلك وأنف منه ، فكتب إلى أحمد بن طولون يشكو إليه حاله سراً من أخيه الموفق فأشار عليه أحمد باللحاق به بمصر ووعده النصرة وسير عسكراً إلى الرقة ينتظر وصول المعتمد إليه ، فاغتنم المعتمد غيبة الموفق عنه فسار في جمادى الأولى ومعه جماعة من القواد فأقام بالتكميل يتصيد ، فلما سار إلى عمل إسحاق بن كنداجيق وكان عامل الموصل وعامة الجزيرة وثب بن كنداجيق بمن مع المعتمد من القواد فقبضهم وهم ينزك وأحمد بن خاقان وخطارمش فقيدهم وأخذ أموالهم ودوابهم ، وكان قد كتب إليه صاعد بن مخلد وزير الموفق عن الموفق وكان سبب وصوله إلى قبضهم أنه أظهر أنه معهم في طاعة المعتمد إذ هو الخليفة ، ولقيهم لما صاروا إلى عمله وسار معهم عدة مراحل ، فلما قارب عمل ابن طولون ارتحل الأتباع والغلمان الذين مع المعتمد وقواده ولم يترك ابن كنداجيق أصحابه يرحلون ، ثم خلا بالقواد عند المعتمد وقال لهم : إنكم قاربتم عمل ابن طولون والأمر أمره وتصيرون من جنده وتحت يده ، أفترضون بذلك وقد علمتم أنه كواحد منكم ، وجرت بينهم في ذلك مناظرة حتى تعالى النهار ولم

يرحل المعتمد ومن معه فقال ابن كنداجيق : قوموا بنا نتناظر في غير حضرة أمير المؤمنين ، وأخذ بأيديهم إلى خيمته لأن مضاربهم كانت قد سارت ، فلما دخلوا خيمته قبض عليهم وقيدهم وأخذ سائر من مع المعتمد من القواد فقيدهم ، فلما فرغ من أمورهم مضى إلى المعتمد فعزله في مسيره من دار ملكه وملك آبائه وفراق أخيه الموفق على الحال التي هو بها من حرب من يريد قتله وقتل بيته وزوال ملكهم [يعني به العلوي عميد الزنج الخارج على الموفق بأرض العراق كما قدمنا] ثم حمله والذين كانوا معه حتى أدخلهم سامرا . وأما أحمد ابن طولون فإنه كما في زبدة الحلب خرج من مصر في مائة ألف فقبض على حرم لؤلؤ وباع ولده وأخذ ما قدر عليه مما كان له وهرب لؤلؤ منه ولحق بأبي أحمد طلحة بن المتوكل الملقب بالموفق كما تقدم .

ولاية عبد الله بن الفتح سنة ٢٦٩

قال في زبدة الحلب : ثم إن أحمد بن طولون وصل إلى الثغور فأغلقوها في وجهه فعاد إلى أنطاكية فمرض فولى على حلب عبد الله بن الفتح وصعد إلى مصر مريضاً فمات سنة سبعين ومائتين .

ترجمة أحمد بن طولون :

قال ابن خلكان : هو الأمير أبو العباس أحمد بن طولون صاحب الديار المصرية والشامية والثغور ، كان المعتز بالله قد ولاه مصر ، ثم استولى على دمشق والشام أجمع وأنطاكية والثغور في مدة اشتغال الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل وكان نائباً عن أخيه المعتمد على الله الخليفة ، وهو والد المعتضد بالله بحرب صاحب الزنج [متعلق باشتغال] وكان أحمد عادلاً جواداً شجاعاً متواضعاً حسن السيرة صادق الفراسة يباشر الأمور بنفسه ويعمر البلاد ويتفقد أحوال رعاياه ويحب أهل العلم ، وكانت له مائدة يحضرها كل يوم الخاص والعام ، وكان له ألف دينار في كل شهر للصدقة فأتاه وكيله يوماً فقال : إنني تأتيني المرأة وعليها الإزار وفي يدها خاتم الذهب فتطلب مني أفأعطيها ؟ فقال له : من مد

يده إليك فأعطه ، وكان مع ذلك طائش السيف ، قال القضاعي : يقال إنه أحصى من قتله ابن طولون صبراً ومن مات في حبسه فكان عددهم ثمانية عشر ألفاً ، وكان يحفظ القرآن الكريم ، ورزق حسن الصوت ، وكان من أدرس الناس للقرآن ، وبنى الجامع المنسوب إليه الذي بين القاهرة ومصر ، شرع فيه سنة أربع وخمسين ومائتين ، وتوفي في ذي القعدة سنة سبعين ومائتين وزرت قبره في تربة عتيقة بالقرب من الباب المجاور للقلعة على طريق المتوجه إلى القرافة الصغرى بسفح المقطم . اهـ .

أقول : وقد ألف أحمد بن يوسف كتاباً مخصوصاً في سيرته وأحواله ، ورأيت في الخطط للمقريزي كثيراً من أخباره وآثاره في الديار المصرية ، وهي تدل على تقدم مصر على عهد ولايته وتوسعها في الثروة والحضارة والعمران رحمه الله تعالى ، وبعد وفاته تولى مصر ابنه [أبو الجيش خمارويه] .

ولاية محمد بن العباس بن سعيد الكلابي سنة ٢٧١ من طرف خمارويه

قال في زبدة الحلب : لما ولي أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون مصر بعد وفاة أبيه ولى حلب أبا موسى محمد بن العباس بن سعيد الكلابي في سنة إحدى وسبعين ومائتين ، ونزل أبو الجيش من مصر إلى حلب وكاتب أبا أحمد الموفق بن المتوكل بأن يولى حلب ومصر وسائر البلاد التي في يده ويدعى له على منابرها ، فلم يجبه لذلك فاستوحش من الموفق وولى في حلب القائد أحمد بن دعباش وصعد إلى مصر .

ولاية أحمد بن دعباش سنة ٢٧١ من طرف خمارويه

قال ابن الأثير : فيها كانت وقعة بين إسحق بن كنداجيق وبين ابن دعباش ، وكان ابن دعباش بالرقة عاملاً عليها وعلى الثغور والعواصم لابن طولون وابن كنداجيق على الموصل للخليفة .

قال ابن الأثير : لما توفي أحمد بن طولون كان إسحق بن كنداجيق على الموصل والجزيرة ، فطمع هو وابن أبي الساج في الشام واستصغر أولاد أحمد وكاتبا الموفق بالله في ذلك واستمداه فأمرهما بقصد البلاد ووعدهما إنفاذ الجيوش ، فجمعا وقصدا ما يجاورهما من البلاد فاستوليا عليه وأعانهما النائب بدمشق لأحمد بن طولون فوعدهما الانحياز إليهما ، فتراجع من بالشام من نواب أحمد بأنطاكية وحلب وحمص وعصى متولي دمشق واستولى إسحق على ذلك .

ولاية إسحق بن كنداجيق ثم محمد بن ديوداد ابن أبي الساج سنة ٢٧١ من طرف الموفق

قال في زبدة الحلب : لما استولى إسحق على هذه الديار ولاه الموفق حلب وأعمالها ، ثم وليها محمد بن ديوداد بن أبي الساج سنة إحدى وسبعين ومائتين .

قال ابن الأثير : ولما بلغ الخبر إلى أبي الجيش خمارويه بن أحمد سير الجيوش إلى الشام فملكوا دمشق وهرب النائب الذي كان بها وسار عسكر خمارويه من دمشق إلى شيزر لقتال إسحق بن كنداجيق وابن أبي الساج فطاولهم إسحق ينتظر المدد من العراق ، وهجم الشتاء على الطائفتين وأضر بأصحاب ابن طولون فتفرقوا في المنازل بشيزر ، ووصل العسكر العراقي إلى كنداجيق وعليهم أبو العباس أحمد بن الموفق وهو المعتضد بالله ، فلما وصل سار مجداً إلى عسكر خمارويه بشيزر فلم يشعروا حتى كبسهم في المنازل ووضع السيف فيهم فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وسار من سلم إلى دمشق على أقبح صورة ، فسار أبو العباس أحمد بن الموفق إليهم فجلوا عن دمشق إلى الرملة وملك هو دمشق ودخلها في شعبان سنة إحدى وسبعين ومائتين وأقام عسكر ابن طولون بالرملة فأرسلوا إلى خمارويه يعرفونه الحال فخرج من مصر في عساكره قاصداً الشام .

ذكر وقعة الطواحين بين أبي العباس المعتضد وبين خمارويه

قال ابن الأثير : وفي هذه السنة كانت وقعة الطواحين بين أبي العباس المعتضد وبين خمارويه بن أحمد بن طولون ، وسبب ذلك أن المعتضد سار من دمشق بعد أن ملكها نحو

الرملة إلى خمارويه فأتاه الخبر بوصول خمارويه إلى عساكره وكثرة من معه من الجموع ، فهم بالعود فلم يمكنه من معه من أصحاب خمارويه الذين صاروا معه ، وكان المعتضد قد أوحش ابن كنداجيق وابن أبي الساج ونسبهما إلى الجبن حيث انتظراه ليصل إليهما ففسدت نياتهما معه ، ولما وصل خمارويه إلى الرملة نزل على الماء الذي عليه الطواحين فملكه فنسبت الوقعة إليه ، ووصل المعتضد وقد عبّى أصحابه وكذلك أيضاً فعل خمارويه وجعل لهم كميناً عليهم سعيد الأيسر ، وحملت ميسرة المعتضد على ميمنة خمارويه فانهزمت ، فلما رأى ذلك خمارويه ولم يكن رأى مصافاً قبله ولى منهزماً في نفر من الأحداث الذي لا علم لهم بالحرب ولم يقف دون مصر ، ونزل المعتضد إلى خيام خمارويه وهو لا يشك في تمام النصر ، فخرج الذين عليهم سعيد الأيسر وانضاف إليه من بقي من جيش خمارويه ونادوا بشعارهم وحملوا على عسكر المعتضد وهم مشغولون بنهب السواد ووضع المصريون السيف فيهم ، وظن المعتضد أن خمارويه قد عاد فركب وانهزم ولم يلو على شيء ، فوصل إلى دمشق ولم يفتح له أهلها بابها ، فمضى منهزماً حتى بلغ طرسوس ، وبقي العسكران يضطربان بالسيوف وليس لواحد منهما أمير ، وطلب سعيد الأيسر خمارويه فلم يجده فأقام أخاه أبا العشائر ، وتمت الهزيمة على العراقيين وقتل منهم خلق كثير وأسر كثير ، وقال سعيد للعساكر : إن هذا أخو صاحبكم وهذه الأموال تنفق فيكم ، ووضع العطاء فاشتغل الجند عن الشغب بالأموال وسيرت البشارة إلى مصر ففرح خمارويه بالظفر وخجل للهزيمة ، غير أنه أكثر الصدقة ، وفعل مع الأسرى فعلة لم يسبق إلى مثلها فقال لأصحابه : إن هؤلاء أضيافكم فأكرموهم ، ثم أحضرهم بعد ذلك وقال لهم : من اختار المقام عندنا فله الإكرام والمواساة ومن أراد الرجوع جهزناه وسيرناه ، فمنهم من أقام ومنهم من سار مكرماً ، وعادت عساكر خمارويه إلى الشام ففتحه أجمع فاستقر ملك خمارويه له .

ولاية محمد بن ديوداد بن أبي الساج المعروف بالأفشين سنة ٢٧٣ من طرف خمارويه صاحب مصر

قال في زبدة الحلب : لما انهزم أبو العباس المعتضد انتهى إلى أنطاكية ، وكان محمد ابن ديوداد المعروف بالأفشين بن أبي الساج قد فارق أبا العباس المعتضد لكلام أغلظ له

فيه ، فجاء قبل وقعة الطواحين واستولى على حلب ومعه إسحق بن كنداج ، وسار أبو العباس من أنطاكية إلى طرسوس فأغلقها أهلها دونه ومنعوه من دخولها ، فسار إلى مرعش ثم إلى كيسوم ثم إلى سميساط وعبر الفرات ونكب عن حلب لاستيلاء الأفشين عليها وكان قد جرت بينهما وحشة ، ونزل خمارويه إلى حلب فصالحه الأفشين وصار في جملته ودعا له على منابر أعماله وحمل إليه خمارويه مائتي ألف دينار ونيفاً وعشرين ألف دينار لوجوه أصحابه وعشرين ألف دينار لكاتبه ، وذلك في سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، وأعطاه الأفشين ولده رهينة على الوفاء بعهده . اهـ .

وعبارة ابن الأثير تفيد أن خمارويه لم ينزل إلى حلب لمصالحته بل إن الأفشين راسله لمنافرة حصلت بينه وبين إسحق بن كنداج ونص عبارته في حوادث سنة ٢٧٣ .

في هذه السنة فسد الحال بين محمد بن أبي الساج وإسحق بن كنداج وكانا متفقين في الجزيرة ، وسبب ذلك أن ابن أبي الساج نافر إسحق في الأعمال وأراد التقدم وامتنع عليه إسحق ، فأرسل ابن أبي الساج إلى خمارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر وأطاعه وصار معه وخطب له بأعماله وهي قنسرين وسير ولده ديوداد إلى خمارويه رهينة ، فأرسل إليه خمارويه مالاً جزيلاً له ولقواده ، وسار خمارويه إلى الشام فاجتمع هو وابن أبي الساج ببالس وعبر ابن أبي الساج الفرات إلى الرقة فلقيه ابن كنداج وجرى بينهما حرب انهزم فيها ابن كنداج واستولى ابن أبي الساج على ما كان لابن كنداج ، وعبر خمارويه الفرات ونزل الرافقة ومضى إسحق منهزماً إلى قلعة ماردين فحصره ابن أبي الساج وسار عنها إلى سنجار فأوقع بها بقوم من الأعراب ، وسار ابن كنداج من ماردين نحو الموصل فلقيه ابن أبي الساج ببرقعيد فكمن كميناً فخرجوا على ابن كنداج وقت القتال فانهزم عنها وعاد إلى ماردين فكان فيها وقوي أمر ابن أبي الساج وظهر أمره واستولى على الجزيرة والموصل وخطب لخمارويه ثم لنفسه بعده . اهـ .

قال المقريزي في خطط مصر في الكلام على ولاية أبي الجيش خمارويه بعد أن ذكر بعضاً من هذه الوقائع : وكاتب خمارويه أبا أحمد الموفق في الصلح فأجابه إلى ذلك وكتب له بذلك كتاباً ، فورد عليه به فائق الخادم إلى مصر في رجب ذكر فيه أن المعتمد والموفق وابنه كتبوه بأيديهم وبولاية خمارويه وولده ثلاثين سنة على مصر والشامات ، ثم قدم خمارويه سلخ رجب فأمر بالدعاء لأبي أحمد الموفق وترك الدعاء عليه .

سنة ٢٧٤

قال ابن الأثير : وفيها جمع إسحق بن كنداج جمعاً كثيراً وسار نحو الشام فبلغ الخبر خمارويه فسار إليه وقد عبر الفرات ، فالتقيا وجرى بين الطائفتين قتال شديد انهزم فيه إسحق هزيمة عظيمة لم يرده شيء حتى عبر الفرات وتحصن بها ، وسار خمارويه إلى الفرات فعمل جسراً ، فلما علم إسحق بذلك سار من هناك إلى قلاع له قد أعدها وحصنها وأرسل إلى خمارويه يخضع له ويبذل له الطاعة في جميع ولايته وهي الجزيرة وما والاها فأجابه إلى ذلك وصالحه ابن أبي الساج أي صالح لابن كنداج .

قال في زبدة الحلب : لما أعطى ابن أبي الساج ولده رهينة لخمارويه دفع خمارويه له ثلاثين ألف دينار فقال ابن أبي الساج (صوابه ابن كنداج) : خدعكم إذ أعطاكم بولة يبول مثلها في كل ليلة مرات وأخذ منكم ثلاثين ألفاً ، ثم إن ابن أبي الساج نكث عهده مع أبي الجيش خمارويه والتقيا بالثنية من أعمال دمشق فانهزم ابن أبي الساج فاستبيح عسكره أسراً وقتلاً ، وفي ذلك يقول البحتري :

وقد تدلت جيوش النصر منزلة على جيوش أبي الجيش بن طولونا
يوم الثنيـة إذ ثنـى بكـرتـه خمسين ألفاً رجالاً أو يزيدونـا

قال ابن الأثير : لما انهزم ابن أبي الساج أحضر خمارويه ولده وكان رهينة عنده فخلع عليه وأطلقه وسيره إلى أبيه وعاد إلى مصر .

قال في زبدة الحلب : وكتب إلى ابن أبي الساج يوبخه ويقول له : كان يجب يا قليل المروءة والأمانة أن نصنع برهنك ما أوجبه غدرك ، معاذ الله أن تزر وازرة وزر أخرى . ورجع أبو الجيش خمارويه إلى مصر في سنة خمس وسبعين ومائتين ، ولهذه الوقائع زيادة تفصيل في ابن الأثير في حوادث سنة ٢٧٥ قال : قد ذكرنا اتفاق ابن أبي الساج على خمارويه ، فسمع خمارويه الخبر فسار من مصر في عساكره نحو الشام فقدم إليه آخر سنة أربع وسبعين ، فسار ابن أبي الساج إليه فالتقوا عند ثنية العقاب بقرب دمشق واقتتلوا في المحرم من هذه السنة وكان القتال بينهما ، فانهزمت ميمنة خمارويه وأحاط باقي عسكره بابن أبي

الساج ومن معه فمضى منهزماً واستبيح معسكره وأخذت الأثقال والدواب وجميع ما فيه ، وكان قد خلف بحمص شيئاً كثيراً ، فسير إليه خمارويه قائداً في طائفة من العسكر جريدة فسبقوا ابن أبي الساج إليها ومنعوه من ثم منها إلى الرقة فتبعه خمارويه ففارق الرقة فعبر خمارويه الفرات وسار في أثر ابن أبي الساج فوصل خمارويه إلى مدينة بلد ، وكان قد سبقه ابن أبي الساج إلى الموصل ، فلما سمع ابن أبي الساج بوصوله إلى بلد سار عن الموصل إلى الحديثة ، وأقام خمارويه ببلد وعمل له سريراً طويل الأرجل فكان يجلس عليه في دجلة .

ذكر الحرب بين ابن كنداج وبين ابن أبي الساج

قال ابن الأثير : لما انهزم ابن كنداج من ابن أبي الساج كما ذكرناه (أي في أول سنة ٢٧٤) أقام إلى أن انهزم ابن أبي الساج من خمارويه ، فلما وافى خمارويه بلداً أقام بها مع إسحق بن كنداج جيشاً كثيراً وجماعة من القواد ورحل يطلب ابن أبي الساج ، فمضى بين يديه وابن كنداج يتبعه إلى تكريت ، فعبر ابن أبي الساج دجلة وأقام ابن كنداج وجمع السفن ليعمل جسراً يعبر عليه ، وكان يجري بين الطائفتين مراماة ، وكان ابن أبي الساج في نحو ألفي فارس وابن كنداج في عشرين ألفاً ، فلما رأى ابن أبي الساج اجتماع السفن سار عن تكريت إلى الموصل ليلاً فوصل إليها في اليوم الرابع فنزل بظاهرها عند الدير الأعلى ، وسار ابن كنداج يتبعه فوصل إلى الفريق ، فلما سمع ابن أبي الساج خبره سار إليه فالتقوا واقتتلوا عند قصر حرب فاشتد القتال بينهم وصبر ابن أبي الساج صبراً عظيماً لأنه كان في قلة فنصره الله وانهزم ابن كنداج وجميع عسكره ومضى منهزماً ، وكان أعظم الأسباب في هزيمته بغيه ، فإنه لما قيل له إن ابن أبي الساج قد أقبل نحوك من الموصل ليقاتلك قال : أستقبل الكلب ، فعد الناس هذا بغياً وخافوا منه ، فلما انهزم وسار إلى الرقة وتبعه محمد إليها وكتب إلى أبي أحمد الموفق يعرفه ما كان منه ويستأذنه في عبور الفرات إلى الشام بلاد خمارويه فكتب إليه الموفق يشكره ويأمره بالتوقف إلى أن يصله الأمداد من عنده ، وأما ابن كنداج فإنه سار إلى خمارويه فسير معه جيشاً فوصلوا إلى الفرات ، فكان إسحق ابن كنداج على الشام وابن أبي الساج بالرقة ، ووكل بالفرات من يمنع من عبورها فبقوا كذلك مدة ، ثم إن ابن كنداج سير طائفة من عسكره فعبروا الفرات في غير ذلك الموضع وساروا

فلم تشعر طائفة من عسكر ابن أبي الساج كانوا طليعة إلا وقد أوقعوا بهم ، فانهزموا من عسكر إسحق إلى الرقة ، فلما رأى ابن أبي الساج ذلك سار عن الرقة إلى الموصل ، فلما وصل إليها طلب من أهلها المساعدة بالمال وقال لهم : ليس بالمضطر مروءة ، فأقام بها نحو شهر وانحدر إلى بغداد فاتصل بأبي أحمد الموفق في ربيع الأول ست وسبعين ومائتين فاستصحبه معه إلى الجبل وخلع عليه ووصله بمال ، وأقام ابن كنداج بديار ربيعة وديار مضر من أرض الجزيرة . اهـ .

ولاية طغج بن جف من طرف خمارويه سنة ٢٧٦

قال في زبدة الحلب : بعد أن انهزم ابن أبي الساج ولحق بأبي أحمد الموفق وذلك في سنة ست وسبعين ومائتين ولى خمارويه على حلب غلام أبيه طغج بن جف والد الأخشيد أبي بكر محمد بن طغج .

سنة ٢٧٨

في هذه السنة توفي أبو أحمد الموفق بالله بن المتوكل وبويع ابنه أبو العباس بولاية العهد بعد المفوض ابن المعتمد ولقب المعتضد بالله .

سنة ٢٧٩

فيها في المحرم خرج المعتمد على الله وجلس للقواد والقضاة ووجوه الناس وأعلمهم أنه خلع ابنه المفوض إلى الله جعفر من ولاية العهد ، وجعل ولاية العهد للمعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق ، وتوفي المعتمد في رجب من هذه السنة وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر ، وكان في خلافته محكوماً عليه قد تحكم عليه أخوه أبو أحمد الموفق وضيق عليه حتى إنه احتاج في بعض الأوقات إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها ذلك الوقت فقال :

أليس من العجايب أن مثلي ... يرى ما قل ممتنعاً عليهِ
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديهِ

إليـــه تحمـــل الأمـــوال طراً ويمنـع بعض ما يجبى إليـهِ

قال المقريزي في الخطط : لما بويع المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق بعث إليه خمارويه بالهدايا وقدم من الشام لست خلون من ربيع الأول سنة ثمانين ، فورد كتاب المعتضد بولاية خمارويه على مصر هو وولده ثلاثين سنة من الفرات إلى برقة وجعل له الصلات والخراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يحمل في كل عام مائتي ألف دينار عما مضى وثلثمائة ألف للمستقبل ، ثم قدم رسول المعتضد بالخلع وهي اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح مع خادم في رمضان ، وعقد المعتضد نكاح قطر الندى بنت خمارويه في سنة إحدى وثمانين .

قال في زبدة الحلب : لما بويع بالخلافة أبو العباس أحمد بن طلحة المعتضد بالله بايعه أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وخطب له في عمله وسير إليه هدية سنية مع الحسين بن عبد الله الجصاص وطلب منه أن يزوج ابنته من علي ابن المعتضد ، فقال المعتضد : بل أنا أتزوجها ، فتزوجها وهي قطر الندى ، وقيل إنه دخل معها مائة هاون ذهب في جهازها وإن المعتضد دخل خزانتها وفيها من المناير والأباريق والطاسات وغير ذلك من الآنية الذهبية فقال : يا أهل مصر ما أكثر صفركم ، فقال له بعض القوم : يا أمير المؤمنين إنما هو ذهب ، وزفت إلى المعتضد مع صاحب أبيها الحسين بن عبد الله بن الجصاص فقال المعتضد لأصحابه : أكرمها بشمع العنبر . فوجد في خزانة الخليفة أربع شمعات من عنبر في أربعة أنوار فضة ، فلما كان وقت العشاء جاءت إليه وقدامها أربعمائة وصيفة في يد كل واحدة منهن نور ذهب وفضة وفيه شمعة عنبر ، فقال المعتضد لأصحابه : أطفئوا شمعنا واسترونا ، وكانت إذا جاءت إليه أكرمها بأن يطرح لها مخدة ، فجاءت إليه يوماً فلم يفعل ما كان يفعله بها فقالت : أعظم الله أجر أمير المؤمنين ، قال : فيمن ؟ قالت : في عبده خمارويه تعني أباها ، فقال : أو قد سمعت بموته ؟ قالت : لا ولكني لما رأيتك قد تركت إكرامي علمت أن أبي قد مات ، وكان خبره قد وصل إلى المعتضد فكتمه عنها فعاد إلى إكرامه لها بطرحه لها المخدة في كل الأوقات .

قال المقريزي في الخطط : وكان قتل خمارويه بدمشق سنة اثنتين وثمانين ومايتين على فراشه ذبحه جواريه وخدمه وحمل في صندوق إلى مصر وكان لدخول تابوته يوم عظيم .

سنة ٢٨١

قال ابن الأثير : فيها دخل طغج بن جف طرسوس لغزو الصائفة من قبل خمارويه فبلغ طرابزون وفتح بلودية في جمادى الآخرة .

سنة ٢٨٢

قال في زبدة الحلب : فيها قتل خمارويه بدمشق وحلب في ولاية طغج بن جف من قبله ، وأظن أن قاضي حلب بعد أيام ابن طولون حفص بن عمر قاضي حلب ، وولي مكان خمارويه جيش بن خمارويه وطغج في حلب على حاله وعزل القواد جيش ابن خمارويه وولوا أخاه هارون بن خمارويه ، وبقيت حلب في ولاية طغج بن جف ، وسير إلى المعتضد رسولاً يطلب منه إجراءه على عادة أبيه في البلاد التي كانت في ولايته فلم يفعل ، وسير رسولاً إلى هارون فاستنزله عن حلب وقنسرين والعواصم ، وتسلم هارون مصر وبقية الشام واتفق الصلح مع المعتضد وهارون على ذلك في جمادى الأولى في سنة ست وثمانين ، وكان هارون قد ولى قضاء حلب وقنسرين أبا زرعة محمد بن عثمان الدمشقي فعزله المعتضد .

ترجمة طغج بن جف الفرغاني الأصل :

قال ابن خلكان في ترجمة محمد بن طغج : كان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جلبوا إليه من فرغانة جماعة كثيرة ، فوصفوا له جف وغيره بالشجاعة والتقدم في الحروب ، فوجه المعتصم من أحضرهم ، فلما وصلوا إليه بالغ في إكرامهم وأقطعهم قطائع بسر من رأى ، قطائع جف إلى الآن معروفة هناك ، ولم يزل مقيماً بها وجاءته الأولاد ، وتوفي جف ببغداد سنة سبع وأربعين ، فخرج أولاده إلى البلاد يتصرفون ويطلبون لهم معايش ، فاتصل طغج بن جف بلؤلؤ غلام ابن طولون وهو إذا ذاك مقيم بديار مصر فاستخدمه على ديار مصر ، ثم انحاز طغج إلى جملة أصحاب إسحق بن كنداج فلم يزل معه إلى أن مات أحمد ابن طولون وجرى الصلح بين ولده أبي الجيش خمارويه المقدم ذكره وبين إسحق بن كنداج ، ونظر أبو الجيش إلى طغج بن جف في جملة أصحاب إسحق فأعجب به وأخذه من إسحق وقدمه على جميع من معه وقلده دمشق وطبرية ، ولم يزل معه إلى أن قتل أبو الجيش في تاريخه

المقدم ذكره فرجع طغج إلى الخليفة المكتفي بالله فخلع عليه وعرف له ذلك . وكان وزير الخليفة يومئذ العباس بن الحسن فسام طغج أن يجري في التذلل له مجرى غيره ، فكبرت نفس طغج عن ذلك فأغرى به الملك المكتفي فقبض عليه وحبسه وابنه أبا بكر محمد بن طغج ، فتوفي طغج في السجن وبقي ولده أبو بكر بعده محبوساً مدة ثم أطلق وخلع عليه . ثم ساق ابن خلكان بقية ترجمة أبي بكر محمد بن طغج الذي لقب بالأخشيد وتملك مصر .

ولاية المكتفي بالله أبي محمد علي بن أحمد سنة ٢٨٦

قال ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٨٥ : فيها وجه هارون بن خمارويه إلى المعتمد ليسأله أن يقاطعه على ما في يده ويدنو به من مصر والشام ويسلم أعمال قنسرين إلى المعتضد ويحمل كل سنة أربعماية ألف وخمسين ألف دينار ، فأجابه إلى ذلك وسار من آمد واستخلف فيها ابنه المكتفي ووصل إلى قنسرين والعواصم فتسلمها من أصحاب هارون ، وكان ذلك سنة ست وثمانين ومائتين .

وقال في حوادث سنة ٢٨٦ : فيها سار المعتضد من آمد بعد أن ملكها إلى الرقة فولى ابنه علياً المكتفي قنسرين والعواصم والجزيرة .

ولاية إسحق بن علي الخراساني سنة ٢٨٦

قال في زبدة الحلب : لما ولي المكتفي بالله حلب وقنسرين في هذه السنة من قبل أبيه المعتضد ولى بحلب الحسن بن علي المعروف بكورة الخراساني وإليه ينسب دار كورة التي داخل باب الجنان بحلب والحمام المجاورة لها وقد خربت الآن ولم يبق لها أثر ، وكان كاتب علي بن المعتضد يومئذ الحسين بن عمرو النصراني فقلده النظر في هذه النواحي . قال ابن الأثير تقلد الحسين بن عمرو الكاتب النصراني النظر في الأموال فقال الخليع في ذلك :

حسين بن عمرو عـدو القرا ن يصنع في العرب ما يصنع

يقـــوم لهيبتـــه المسلمـــــون صفوفـــاً لفـــرد إذا يطلـــع
فإن قيل قد أقبل الجاثليق تخفّـى له ومشـــى يظلـــع

قال في زبدة الحلب : وسار المعتضد في سنة ٢٨٧ خلف وصيف خادم ابن أبي الساج إلى الثغور إلى أن لحقه فضم الثغور أيضاً إلى كورة وعاد إلى أنطاكية ووصيف معه ، ثم رحل إلى حلب فأقام بها يومين ، ووجد لوصيف بعد أسره في بستان بحلب مال كان دفنه وهو بها مع مولاه مبلغه ستة وخمسون ألف دينار فحمل إلى المعتضد .

ولاية أحمد بن سهل التوشجاني سنة ٢٨٩

ثم رحل المعتضد إلى بغداد فمات في شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وتولى الخلافة ولده أبو محمد ولقب بالمكتفي ، فصرف الحسن بن علي كورة عن ولايته وولى أحمد بن سهل التوشجاني في جمادى الآخرة سنة تسع وثمانين ومايتين ثم صرف عنها .

ولاية أبي الأغر خليفة بن المبارك السلمي سنة ٢٩٠ ومحاربته للقرامطة

وولى حلب في هذه السنة أبا الأغر خليفة بن المبارك السلمي ووجهه إليها لمحاربة القرمطي صاحب الخال لعنه الله ، فإنه كان قد عاث في البلاد وغلب على حمص وحماة ومعرة النعمان وسلمية وقتل أهلها وسبى النساء والأطفال ، وقدم أبو الأغر في عشرة آلاف فارس فأنفذ القرمطي سرية فخرج أبو الأغر إلى وادي بطنان ، فلما استقر وافاه جيش القرمطي يقدمه المطوق غلامه وكبسهم وقتل عامة أصحابه وخادماً جليلاً يقال له بدرٌ القدامي وسلم أبو الأغر في ألف رجل ، فصار إلى قرية من قرى حلب وخرج إليه ابنه في جماعة من الرجال والأولياء فدخل إلى حلب وأقام القرامطة على مدينة حلب على سبيل المحاصرة ، فلما كان يوم الجمعة سلخ شهر رمضان من سنة تسعين ومائتين تسرع أهل مدينة حلب إلى الخروج للقاء القرامطة فوقعت الحرب بين الفئتين ورزق الله الحلبيين النصر عليهم ، وخرج أبو الأغر فأعانهم فقتل من القرامطة خلق كثير ، وخرج أبو الأغر يوم عيد

الفطر إلى المصلى وعيد بأهل حلب وخطب الخطيب وعادت الرعية على حال سلامة ، وأشرف أبو الأغر على القرامطة فلم يخرج منهم أحد إليه ، ثم إنهم رحلوا إلى صاحبهم في سنة ثلاثمائة .

ولاية عيسى غلام النوشري سنة ٢٩٠

ثم إن المكتفي عزل من حلب أبا الأغر وولى عيسى غلام النوشري ، وكان المكتفي قد صار إلى الرقة في سنة إحدى وتسعين ومائتين ، وكان وجه بمحمد بن سليمان صاحب الجيش إلى حلب والشام في عشرين ألف فارس وراجل لمحاربة الطولونية والقرامطة واستنقاذ مصر من الطولونية ، فقدم محمد بن سليمان حلب في أواخر شوال سنة تسعين والوالي بها على الحرب عيسى غلام النوشري فدخلها محمد في أحسن تعبئة وزين وأقام بها أياماً وطالب عمال الخراج بحمل المال ، فقصده رؤساء بني تميم وبني كلاب ، فأمر عيسى والي حلب أن يستخلف على عمله ويشخص معه إلى مصر ، فامتثل أمره واستخلف على حلب ولده وأنفق في جنده ورحل في آخر شوال معه ، فلما وافى معرة النعمان خلع عليه وحمله وولاه بلدة هي من مدن ساحل بحر الشام بالقرب من جبلة إلى حدود حماة ، ولقيهم القرامطة بين تل بنش وكفر طاب في عشرة آلاف فارس ، فنصره الله عليهم وانهزموا وقتل الرجالة وأسر أكثر الخيالة ، وصار محمد بن سليمان إلى مصر وافتتحها من يد الطولونية عند قتل هارون ابن خمارويه واستولى على أموالها ، ثم ضم إلى طغج بن جف الطولوني أربعة آلاف رجل وولاه حلب وأخرجه عن مصر ، فلما صار إلى حلب وجد بها ابن الواثقي وقد أنفذه السلطان إلى حلب لعرض جيوش الواردين من مصر وذلك في سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، فعرض ابن الواثقي جيشه لما وصل إلى حلب وأمره بالنفوذ إلى بغداد ، فرحل حتى وافى مدينة السلام ، وكذلك ورد جماعة من القواد الطولونية فعرضهم وتوجهوا إلى بغداد ، ووافى وصيف البكتمري وابن عيسى النوشري صاحب حلب بغداد يوم الاثنين لثلاثة عشر بقيت من شعبان سنة اثنتين وتسعين ومائتين ومعهما طغج وأخوه وابن لطغج فخلع عليهم وطوق منهم البكتمري وابن عيسى النوشري ، ثم شخص عيسى النوشري عن مصر إلى حلب لأنه واليها ، فلما كان بعد شخوصه إليها بأيام ورد كتاب العباس بن الحسن الوزير بتولية عيسى

النوشري مدينة مصر ويؤمر محمد بن سليمان بالشخوص إلى طرسوس للغزو فوجه محمد بن سليمان من لحق بالرملة فرده وورد إلى عيسى كتاب من السلطان فعاد والياً على مصر . وكانت وفاة عيسى سنة ٢٩٧ .

ولاية أبي الحسن ذكا بن عبد الله أعور من سنة ٢٩٢ إلى سنة ٣٠٢

قال في زبدة الحلب : وولى المكتفي في هذه السنة أبا الحسن ذكا بن عبد الله الأعور حلب ودام بها إلى سنة اثنتين وثلاثمائة ، وكان كريماً يهب ويعطي ، وإليه تنسب دار ذكا التي هي الآن دار الزكاة وإلى جانبها دار حاجبه فيروز فانهدمت وصارت تلاً يعرف بتل فيروز ، فنسفه السلطان الملك الظاهر رحمه الله في أيامه وظهر فيه بقايا من الذخائر مثل الزئبق وغيره وهو موضع سوق الصاغة الآن ، ولأبي بكر الصنوبري الشاعر فيه مدائح كثيرة ، وعاد محمد بن سليمان إلى حلب ووافاه مبارك القمي بكتاب يؤمر فيه بتسليم الأموال ، وركب إليه ذكا الأعور صاحب حلب وأبو الأغر خليفة بن مبارك وغيرهما فاختلط بهم وسار معهم إلى المدينة فأدخلوه إلى الدار المعروفة بكورة بباب الجنان ووكلوا به في الدار ، وشخص ذكا عن حلب لمحاربة ابن الخلنجي مع أبي الأغر إلى مصر ووجه بمحمد ابن سليمان مقبوضاً إلى بغداد .

سنة ٢٩٣

قال ابن الأثير : فيها أغارت الروم على قورس من أعمال حلب فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً ، ثم انهزموا وقتلوا أكثرهم وقتلوا رؤساء بني تميم ودخل الروم قورس فأحرقوا جامعها وساقوا من بقي من أهلها .

سنة ٢٩٥

فيها توفى أمير المؤمنين المكتفي بالله أبو محمد علي بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق المتوكل ، وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وولي الخلافة المقتدر بالله جعفر ابن المعتضد بالله .

قال في زبدة الحلب : فيها عاثت بنو تميم في بلد حلب وأفسدت فساداً عظيماً وحاصروا ذكا بحلب ، فكتب المقتدر إلى الحسين بن حمدان في إنجاد ذكا بحلب ، فأسرى من الرحبة حتى أناخ عليهم بخناصرة وأسر منهم جماعة وانصرف ولم يجتمع بذكا ، ففي ذلك يقول شاعر من أهل الشام :

أصلح ما بين تميم وذكا　　أبلج يشكي بالرماح من شكا
يدك بالجيش إذا ما سلكا　　كأنه سليكة ابن السلكا

وكان وزير ذكا وكاتبه أبا الحسن محمد بن عمر بن يحيى النفري وإليه ينسب حمام النفري وهي الآن داثرة ، وداره هي المدرسة النفرية ومدحه الصنوبري الشاعر .

قال ابن الأثير : في هذه السنة خلع على الأمير أبي العباس بن المقتدر بالله وقلد أعمال مصر والمغرب وعمره أربع سنين واستخلف له على مصر مؤنس الخادم .

قال عريب بن سعد القرطبي في صلة تاريخ الطبري وهو مطبوع معه في آخره : في هذه السنة قلد أبو بكر محمد بن علي الماذرائي أعمال مصر والإشراف على أعمال الشام وتدبير الجيوش وخلع عليه وذلك في النصف من شهر رمضان . أقول : يظهر أنه قام بأمور مصر نيابة عن مؤنس الخادم بدليل ما يأتيك قريباً .

قال القرطبي : وفيها مات الحسن بن الحسن بن رجاء وكان يتقلد أعمال الخراج والضياع بحلب ، مات فجأة وحمل تابوته إلى مدينة السلام .

سنة ٣٠٢

قال القرطبي : لما استعمل أمر عبيد الله الشيعي القائم بالمغرب وقدم ولد عبيد الله الإسكندرية أنهض المقتدر مؤنساً الخادم وندب معه العساكر وكتب إلى عمال أجناد الشام بالمصير إلى مصر وكتب إلى ابن كيغلغ وذكا الأعور وأبي قابوس الخراساني باللحاق بتكين لمحاربته وخلع على مؤنس في شهر ربيع الأول سنة ٣٠٢ وخرج متوجهاً إلى مصر .

ولاية أحمد بن كيغلغ سنة ٣٠٢

قال في زبدة الحلب : لما قدم مؤنس الخادم إلى حلب عزل ذكا الأعور عن حلب وولاه دمشق ومصر وولى حلب الأمير أبا العباس أحمد بن كيغلغ . وتوفي ذكا الأعور الرومي بمصر سنة ٣٠٧ وكان على قضاء حلب سنة تسعين محمد بن محمد الخدوعي ، ثم ولي القضاء بحلب وقنسرين محمد بن أبي موسى الضرير الفقيه في سنة سبع وتسعين ومائتين وشخص إلى عمله لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر ، ثم صرف محمد بن أبي موسى عن قضاء حلب وقنسرين في سنة ثلاثمائة بأبي حفيص عمر بن الحسن بن نصر الحلبي القاضي ، وكانت داره بسوق السراجين ، وعزل أبو حفيص عن القضاء في حلب سنة اثنتين وثلاثمائة ووليها أبو عبد الله محمد بن عبدة بن حرب ، وتوفي عمر بن الحسن القاضي سنة سبع وثلاثمائة ، وكان محمد بن عبدة بن حرب قاضياً بها سنة خمس وثلاثمائة ، ثم تولى قضاء حلب وحمص إبراهيم بن جعفر بن جابر أبو إسحق الفقيه في سنة ست وثلاثمائة وولي الخراج من قبل المكتفي بحلب الحسن بن الحسن بن رجاء بن أبي الضحاك وتوفي بحلب في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثمائة فجأةً . وولي الخراج بعده علي بن أحمد ابن بسطام والأنقاق عبد الله بن محمد بن سهل ثم توفي سنة اثنتين وثلاثمائة وتولى مكانه محمد بن الحسن بن علي الناظري .

وكان أبو العباس بن كيغلغ أديباً شاعراً جواداً ، وهو الذي مدحه المتنبي بقوله : [كم قتيل كما قتلت شهيد] ومن شعر الأمير أحمد بن كيغلغ قوله :

قلت له والجفون قرحى   قد أقرح الدمع ما يليها

مـــالي في لوعتـــي شبيـــه قال وأبصرت لي شبيهـــــا

وأورد له ابن خلكان في ترجمة محمد بن طغج قوله :

لا يكـــن للكـــاس في كفك يوم الغـــيث لبث أوما تعلـــم أن الغـــيث ساق مستـــحث

وقولـــه :

واعـــطشا إلى فم يمج خمراً من برد
إن قسم النـــــاس فحسـ ـبي بك من كل أحـــد

وقال ثمة : قد ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق في ترجمة مستقلة .

ولاية أبي قابوس محمود بن جلك الخراساني سنة ٣٠٢

قال في زبدة الحلب : ثم ولي مؤنس حلب أبا قابوس محمود بن جلك الخراساني ، وكان جباراً قاسياً منحرفاً عن أهل البيت ، وقيل هو محمود بن حمل فدام والياً بها إلى سنة اثنتي عشرة وثلاثماية .

سنة ٣٠٥

قال ابن جرير : فيها في ربيع الآخر ورد الخبر بموت العباس ابن عمر الغنوي وكان عامل ديار مضر ومقيماً بالرقة ، فحمل ما تخلف من المال والأثاث والكراع إلى المقتدر واضطرب بعد موته أمر ديار مضر فقلدها وصيف البكتمري فلم يظهر منه أثر يرضي فعزل وقلدها جنى الصفواني فضبطها .

ولاية وصيف البكتمري الخادم سنة ٣١٢

قال في زبدة الحلب : وكان مؤنس المظفر بالشام فاستدعي إلى بغداد لقتال القرمطي ، فسار إليها وولي حلب وصيف البكتمري الخادم سنة اثنتي عشرة وثلاثماية ثم عزله عنها سنة ست عشرة وثلاثمائة .

ولاية هلال بن بدر أبي الفتح سنة ٣١٦

قال في زبدة الحلب : لما عزل وصيف البكتمري سنة ٣١٦ ولي حلب هذه السنة

هلال بن بدر أبو الفتح غلام المعتضد وكان أمير دمشق قبل ذلك ، ثم عزل عن حلب وولي قطربل وسامرا سنة سبع عشرة .

ولاية وصيف البكتمري الثانية سنة ٣١٧

قال في زبدة الحلب : ثم وليها في هذه السنة وصيف ثانية ومات بحلب على ولايته يوم الثلاثاء لثمان خلون من ذي الحجة سنة سبع عشرة ، وقيل إن وفاته سنة خمس عشرة وثلاثمائة ، وكان كاتبه عبد الله والد أبي العباس أحمد بن عبد الله الشاعر المعروف بابن كاتب البكتمري .

ولاية أحمد بن كيغلغ سنة ٣١٨

قال في زبدة الحلب : ثم وليها الأمير أحمد بن كيغلغ ثانية إلى سنة ثمان عشرة وثلاثمائة .

ولاية طريف بن عبد الله سنة ٣١٩

قال في زبدة الحلب : ثم ولى مؤنس المظفر غلامه طريف بن عبد الله السبكري الخادم في سنة تسع عشرة وثلاثمائة ، وكان ظريفاً شجاعاً شهماً ، وحاصر بني الفصيص في حصونهم باللاذقية وغيرها فحاربوه حرباً شديداً حتى نفد جميع ما كان عندهم من القوت والماء ، فنزلوا على الأمان فوفى لهم وأكرمهم ودخلوا معه حلب مكرمين معظمين فأضيفت إليه حمص مع حلب .

أقول : وقد كان طريف موجوداً في بغداد بسنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وتولى للقاهر بالله قبض مؤنس الخادم الذي لقب بالمظفر ، وقد بسط ابن الأثير في حوادث هذه السنة أسباب ذلك وكيفيته ، ثم إن القاهر قبض على طريف وحبسه وبقي محبوساً إلى أن خلع القاهر بالله في جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وولي الخلافة الراضي بالله .

ولاية بشرى الخادم سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢١

قال في زبدة الحلب : ثم ولى القاهر بالله بشرى الخادم دمشق وحلب وسار إلى حلب ثم إلى حمص فكسره محمد بن طغج وأسره وخنقه . ولم أقف على تاريخ ولايته أكانت سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢١ إلى رمضان منها أي إلى حين مجيء محمد بن طغج إلى حلب متوجهاً إلى مصر معيناً والياً عاماً عليها وعلى البلاد الشامية .

ولاية محمد بن طغج للمرة الأولى سنة ٣٢١

قال المقريزي في الخطط : ولي محمد بن طغج الفرغاني أبو بكر مصر من قبل القاهر بالله على الصلاة فورد كتابه لسبع خلون من رمضان سنة إحدى وعشرين ودعا له وهو بدمشق مدة اثنين وثلاثين يوماً إلى أن قدم رسول أحمد بن كيغلغ بولايته الثانية على مصر .

ولاية طريف بن عبد الله السبكري سنة ٣٢٢ للمرة الثانية

قال ابن الأثير : لما ولي الخلافة الراضي بالله سنة ٣٢٢ استعمل طريفاً على الفرات والثغور الجزرية والشامية وأجناد الشام وديار مصر يصرف من يرى ويستعمل من يرى في الخراج والمعادن والنفقات والبريد وغير ذلك .

ولاية بدر الخرشني سنة ٣٢٤
وولاية طريف في هذه السنة للمرة الثالثة

قال في زبدة الحلب : كان الراضي قد خاف على بدر الخرشني من الحجرية أن يفتكوا به فقلده حلب وأعمالها وهي بيد طريف سنة أربع وعشرين وأمره بالمسير من يومه ، فسار وبلغ طريفاً فأنفذ صاحباً له إلى ابن مقلة [الوزير في بغداد] وبذل له عشرين ألف دينار ليجدد له العهد وأن لا يصرف عن حلب ، ووصل الخرشني فدافعه طريف رجاء أن

يقضي ابن مقلة وطره فزحف بدر الخرشني والتقى طريف في أرض حلب فانهزم طريف من بين يديه وتسلم بدر حلب وأقام بها مدة يسيرة ، ثم كوتب من الحضرة بالانصراف فرجع إلى الحضرة وقلد طريف حلب مرة ثالثة فقلد طريف من جهة حلب والعواصم فأقام بها إلى سنة أربع وعشرين وثلاثماية ، وكان قاضي حلب عبد الله بن عبد الرحمن بن أخي الإمام .

ولاية محمد بن طغج بن جف الملقب بالأخشيد سنة ٣٢٤ على مصر والشام

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٣٢٤ : في هذه السنة قلد الراضي بالله محمد بن طغج أعمال مصر مضافاً إلى ما بيده من الشام وعزل أحمد بن كيغلغ عن مصر . وهذه ولايته الثانية ، لكن سيأتي في ترجمته المنقولة عن ابن خلكان أن ولايته للمرة الثانية كانت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، ودخل مصر لسبع بقين من شهر رمضان المعظم من هذه السنة ، ومثله في الخطط للمقريزي والله أعلم .

ولاية أحمد بن سعيد بن العباس الكلابي

قال في زبدة الحلب : ثم ولي حلب أبو العباس أحمد بن سعيد بن العباس الكلابي ومدحه أبو بكر الصنوبري وكان بها نائباً عن أبي بكر الأخشيد محمد بن طغج بن جف في غالب ظني ، فإن الأخشيد استولى على الشام إلى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، وفي ولاية أبي العباس الكلابي وردت بنو كلاب إلى الشام من أرض نجد وأغارت على معرة النعمان فخرج إليهم والي المعرة معاذ بن سعيد بجنده وتبعهم إلى البراغيثي فعطفوا عليه وأسروه وأكثر جنده وأقام فيهم مدة يعذبونه ، فخرج إليهم أبو العباس أحمد بن سعيد الكلابي والي حلب فخلصه منهم ، وكان ورودهم في سنة خمس وعشرين وثلاثماية .

ولاية محمد بن رايق سنة ٣٢٧

قال ابن الأثير : فيها قلد الراضي بالله محمد بن رائق طريق الفرات وديار مضر حران والرها وما جاورها وجند قنسرين والعواصم ، فأجاب ابن رائق وسار عن بغداد إلى ولايته .

قال في زبدة الحلب : وكان مسيره من بغداد في شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وثلاثمائة .

ولاية محمد بن يزداذ سنة ٣٢٨ نيابة عن ابن رائق

قال في زبدة الحلب : دخل ابن رائق حلب في سنة ثمان وعشرين وسار عنها إلى قتال محمد بن طغج بن جف الفرغاني وولى حلب نيابة عنه خاصة محمد بن يزداذ .

قال ابن الأثير : لما دخل ابن رائق الشام قصد مدينة حمص فملكها ثم سار منها إلى دمشق وبها بدر بن عبد الله الأخشيدي المعروف ببدير والياً عليها للأخشيد ، فأخرجه ابن رائق منها وملكها وسار منها إلى الرملة فملكها وسار إلى عريش مصر يريد الديار المصرية ، فلقيه الأخشيد محمد بن طغج وحاربه فانهزم الأخشيد ، فاشتغل أصحاب بن رائق بالنهب ونزلوا في خيم أصحاب الأخشيد فخرج عليهم كمين للأخشيد فأوقع بهم وهزمهم وفرقهم ونجا ابن رائق في سبعين رجلاً ووصل إلى دمشق على أقبح صورة ، فسير إليه الأخشيد أخاه أبا نصر بن طغج في جيش كثيف ، فلما سمع بهم ابن رائق سار إليهم من دمشق فالتقوا باللجون رابع ذي الحجة فانهزم عسكر أبي نصر وقتل هو ، فأخذه ابن رائق وكفنه وحمله لأخيه الأخشيد وهو بمصر وأنفذ معه ابنه مزاحم بن محمد بن رائق وكتب إلى الأخشيد كتاباً يعزيه عن أخيه ويعتذر مما جرى ويحلف أنه ما أراد قتله وأنه قد أنفذ ابنه ليفديه به إن أحب ، فتلقى الأخشيد مزاحماً بالجميل وخلع عليه ورده إلى أبيه واصطلحا على أن يكون الرملة وما وراءها إلى مصر للأخشيد وباقي الشام لمحمد بن رائق ويحمل إليه الأخشيد عن الرملة كل سنة مائة ألف وأربعين ألف دينار اهـ . وفي هذه السنة قتل طريف السبكري .

سنة ٣٢٩

فيها توفي الراضي بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر منتصف ربيع الأول ، وكانت خلافته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وكان عمرة اثنتين وثلاثين سنة وشهوراً . وولي الخلافة المتقي لله . وفيها عاد أبو بكر محمد بن رائق من الشام إلى بغداد وصار أمير الأمراء .

ذكر قتل ابن رائق وولاية ناصر الدولة بن حمدان

(إمرة الأمراء وابتداء أمر علي بن عبد الله بن حمدان وتلقيبه بسيف الدولة)

قال ابن الأثير : كان المتقي لله قد أنفذ إلى ناصر بن حمدان [أمير الموصل] يستمده على البريديين [نسبة إلى عبد الله البريدي أحد العمال بالأهواز ثم صار وزيراً للخلفاء ثم خرج عليهم وقوي أمره] فأرسل أخاه سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان نجدة له في جيش كثيف فلقي المتقي وابن رائق بتكريت قد انهزما ، فخدم سيف الدولة للمتقي خدمة عظيمة وسار معه إلى الموصل ففارقها ناصر الدولة إلى الجانب الشرقي وتوجه نحو معلثايا ، وترددت الرسل بينه وبين ابن رايق حتى تعاهدا واتفقا ، فحضر ناصر الدولة ونزل على دجلة بالجانب الشرقي فعبر إليه الأمير أبو منصور بن المتقي وابن رايق يسلمان عليه ، فنثر الدنانير والدراهم على ولد المتقي ، فلما أرادوا الانصراف من عنده ركب ابن المتقي وأراد ابن رايق الركوب فقال له ناصر الدولة : تقيم اليوم عندي لنتحدث فيما نفعله ، فاعتذر ابن رايق بابن المتقي فألح عليه ابن حمدان فاستراب به وجذب كمه من يده فقطعه ، وأراد الركوب فشب به الفرس فصاح ابن حمدان بأصحابه : اقتلوه ، فقتلوه وألقوه في دجلة ، وأرسل ابن حمدان إلى المتقي يقول إنه علم أن ابن رايق أراد أن يغتاله ففعل به ما فعل فرد عليه المتقي رداً جميلاً وأمره بالمسير إليه ، فسار ابن حمدان إلى المتقي لله فخلع عليه ولقبه ناصر الدولة وجعله أمير الأمراء وذلك مستهل شعبان فخلع على أخيه أبي الحسين عليّ ولقبه سيف الدولة ، وكان قتل ابن رايق يوم الاثنين لتسع بقين من رجب .

ولاية مساور بن محمد سنة ٣٢٩
من طرف الأخشيد بمصر

قال ابن الأثير : لما قتل ابن رايق سار الأخشيد من مصر إلى دمشق وكان بها محمد ابن يزداذ خليفة ابن رايق ، فأستأمن إلى الأخشيد وسلم إليه دمشق فأقره عليها ثم نقلها إلى مصر وجعله على شرطتها ، ويقال إن لابن رايق شعراً منه :

يصفر وجهي إذا تأمله طرفي ويحمر وجهه خجلا
حتى كأن الذي بوجنته من دم قلبي إليه قد نقلا

وقيل إنهما للراضي بالله اهـ .

قال في زبدة الحلب : إن أبا بكر محمد بن طغج الأخشيد سير كافور الخادم من مصر معه وفي مقدمته أبو المظفر مساور بن محمد الرومي أحد قواد الأخشيد ، فوصل إلى حلب فالتقى كافور ومحمد بن يزداذ الوالي بحلب من قبل رايق فكسره كافور وأسره وأخذ منه حلب وولى بها مساور بن محمد الرومي وعاد كافور إلى مصر . اهـ .

قال في زبدة الحلب : وهذا أبو المظفر بن محمد الرومي مدحه المتنبي بقوله :

أمساور أم قرن شمس هذا أم ليث غاب يقدم الأستاذا

يريد بالأستاذ كافور الخادم ، وذكر فيها كسرة بن يزداذ فقال :

هبك بن يزداذ حطمت وصحبه أترى الورى أضحوا بني يزداذا

ومساور هو صاحب الدار المعروفة بدار ابن الرومي بالزجاجين بحلب ، وتعرف أيضاً بدار ابن مستفاذ وهي شرقي المدرسة العمادية التي جددها سليمان بن عبد الجبار بن رايق بحلب وهي المنسوبة إلى بني العجمي ، وأظن أن قاضي حلب في هذا التاريخ كان أبا طاهر محمد بن سفيان الدباس أو قبل هذا التاريخ .

ولاية أحمد بن علي بن مقاتل سنة ٣٣٠ على ديار مضر من طرف ابن رايق

ثم ولاية أبي الحسن علي بن طياب من طرف ناصر الدولة بن حمدان وولاية يانس المونسي حلب في هذه السنة

قال ابن الأثير في حوادث هذه السنة : فيها تجهز ناصر الدولة بن حمدان من الموصل وانحدر هو والمتقي واستعمل على أعمال الخراج والضياع بديار مضر وحران والرقة أبا الحسن علي بن طياب وسيره من الموصل ، وكان على ديار مضر أبو الحسين أحمد بن علي

بن مقاتل خليفة لابن رايق ، فاقتتلوا فقتل أبو الحسين بن مقاتل واستولى ابن طياب عليها .
وذكر في زبدة الحلب هذه الوقعة بأبسط من هذا فقال : كان أحمد بن علي مقاتل بحلب (لعله يقصد بديار حلب) من جهة أبي بكر بن رائق ومعه ابنه مزاحم بن محمد بن رائق فقلد ناصر الدولة علي بن خلف (في ابن الأثير طياب) ديار مضر والشام وأنفذ معه عسكراً وكاتب يونس المونسي أن يعاضده ، وكان يلي ديار مضر (في ابن الأثير يلي الرقة) من قبل ناصر الدولة ، فسار إلى جسر منبج وسار أحمد بن مقاتل ومزاحم إلى منبج فالتقوا على شاطىء الفرات ، وسير يانس كاتبه ونذيراً غلامه برسالة إلى ابن مقاتل فاعتقلهما ووقعت الحرب بين الفئتين ، ولحق يانس جراحاً كادت تتلفه فعدل به إلى قلعة نجم ليشدد ويداوى ، ونظر نذير غلامه وهو معتقل في عسكر ابن مقاتل على بغل إلى شاكري ليانس معه جنيبة من خيله فأخذ الشاكري وركب الجنيبة وصار إلى ابن مقاتل فقتله وانهزم عسكره ، وأفاق يانس المونسي فسار وعلي بن خلف متوجهين إلى حلب ، وتلاوم قواد ابن مقاتل على هزيمتهم فعادوا إلى القتال في وادي بطنان وانهزموا ثانية ، وملك علي بن خلف ويانس المونسي حلب في سنة ثلاثين وثلاثمائة ، ثم إن علي بن خلف سار منها إلى الأخشيد محمد بن طغج فاستوزره وعلا أمره معه إلى أن رآه يوماً وقد ركب في أكثر الجيش بالمطارق والزين ومحمد جالس في منتزه له فأمر بالقبض عليه ، فلم يزل محبوساً إلى أن مات محمد بن طغج فأطلق وبقي يانس المونسي والياً على حلب في سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ، وكان يانس هذا مولى مونس المظفر الخادم وتولى الموصل في أيام القاهر وكان يلي ديار مضر من قبل ناصر الدولة إلى أن كان من أمره ما ذكرناه فاستأمن إلى الأخشيد ودعا له على المنابر بعمله . اهـ .

قال ابن الأثير : فيها في ربيع الآخر وصل الروم إلى قريب حلب ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا نحو خمسة عشر ألف إنسان اهـ .

سنة ٣٣١

فداء الأسرى بمنديل المسيح عليه السلام

قال ابن الأثير : فيها أرسل ملك الروم إلى المتقي لله يطلب منديلاً زعم أن المسيح مسح به وجهه فصارت صورة وجهه فيه وأنه في بيعة الرها ، وذكر أنه إن أرسل المنديل

أطلق عدداً كثيراً من أسارى المسلمين ، فاحضر المتقي لله القضاة والفقهاء واستفتاهم فبعض رأى تسليمه إلى الملك وإطلاق الأسرى وبعض قال إن هذا المنديل لم يزل من قديم الدهر في بلاد الإسلام لم يطلبه ملك من ملوك الروم وفي دفعه إليهم غضاضة ، وكان في الجماعة علي بن عيسى الوزير فقال : إن خلاص المسلمين من الأسر ومن الضر والضنك الذي هم فيه أولى من حفظ هذا المنديل ، فأمر الخليفة بتسليمه إليهم وإطلاق الأسرى ففعل ذلك وأرسل إلى الملك من يتسلم الأسرى من بلاد الروم فأطلقوا .

ولاية أبي بكر محمد بن علي بن مقاتل سنة ٣٣٢
وولاية أبي عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان في هذه السنة

قال في زبدة الحلب : في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة اتفق ناصر الدولة بن حمدان وتورون [أحد قواد بغداد] على أن تكون من مدينة الموصل إلى آخر أعمال الشام لناصر الدولة وأعمال السن إلى البصرة لتورون وما يفتحه مما وراء ذلك ، وأن لا يتعرض أحد منهما لعمل الآخر . قال ابن الأثير : تم الصلح وعقد الضمان على ناصر الدولة لما بيده من البلاد ثلاث سنين كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم ، وعاد تورون إلى بغداد وأقام المتقي عند بني حمدان بالموصل ، ثم ساروا إلى الرقة فأقاموا بها . اهـ .

وقال ابن الأثير : فيها في ربيع الأول استعمل ناصر الدولة بن حمدان أبا بكر محمد ابن علي بن مقاتل على طريق الفرات وديار مضر وجند قنسرين والعواصم وحمص وأنفذه إليها من الموصل ومعه جماعة من القواد ، ثم استعمل بعده في رجب من السنة ابن عمه أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان على ذلك ، فلما وصل الرقة منعه أهلها فقاتلهم فظفر بهم وأحرق من البلد قطعة وأخذ رؤساء أهلها وسار إلى حلب . اهـ .

قال في زبدة الحلب : ووافق ناصر الدولة أبا محمد بن حمدان (هكذا والصواب أبا بكر محمد بن مقاتل أو أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان) على أن يؤدي إليه إذا دخل حلب خمسين ألف دينار ، فتوجه أبو بكر من الموصل ومعه جماعة من القواد فوقع بين الأمير سيف الدولة بن حمدان وبين ابن عمه أبي عبد الله الحسين بن حمدان كلام

بالموصل وأراد القبض عليه ، فقلد ناصر الدولة أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان أخا الأمير أبي فراس حلب وأعمالها وديار مضر والعواصم وكل ما يفتحه من بلاد الشام ، فتوجه في أول شهر رجب سنة اثنتين وثلاثين وثلاثماية ودخل الرقة بالسيف لأن أهلها حاربوه مع أميرها محمد بن حبيب البلزمي فأسره وسمله وأحرق قطعة من البلد وقبض على رؤساء أهلها وصادرهم ، وتوجه إلى حلب ومعه أبو بكر محمد بن علي بن مقاتل وبحلب يانس المونسي وأحمد بن العباس الكلابي فهربا من بين يديه من حلب وتبعهما إلى معرة النعمان ثم إلى حمص ، وهرب أمير حمص إسحق بن كيغلغ بين هذه البلاد وملك هذه البلاد ودانت له العرب ، ثم عاد إلى حلب وأقام بها إلى أن وافى الأخشيد أبو بكر محمد بن طغج بن جف الفرغاني ، وقدمها الأخشيد في ذي الحجة من هذه السنة ، ولما دنا الأخشيد من حلب إنصرف الحسين بن حمدان عنها لضعفه عن محاربته إلى الرقة ، وكان ابن مقاتل مع ابن حمدان بحلب ، فلما أحس بقرب الأخشيد منها وتعويل أحمد بن حمدان على الانصراف استتر في منارة المسجد الجامع إلى أن انصرف ابن حمدان ، ودخل الأخشيد فظهر له ابن مقاتل واستأمن إليه وقلده الأخشيد أعمال الخراج والضياع بمصر ، وأما الحسين بن سعيد فإنه لما وصل إلى الرقة وجد المتقي لله بها هارباً من تورون التركي وقد تغلب على بغداد وسيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان مع المتقي بالرقة وقد فارق أخاه ناصر الدولة لكلام جرى بينهما ، فلم يأذن المتقي لأبي عبد الله الحسن في دخوله الرقة وأغلقت أبوابها دونه ووقعت المباينة بينه وبين عمه سيف الدولة وسعى بينهما في الصلح فتم ، ومضى إلى حران ومنها إلى الموصل ، وقدم الأخشيد عند حصوله بحلب مقدمة إلى بالس وسار بعدها بعد أن سير المتقي أبا الحسن أحمد بن عبد الله بن إسحق الخرقي يسأل الأخشيد أن يسير إليه ليجتمع معه بالرقة ويجدد العهد به ويستعين به على نصرته ويقتبس من رأيه ، فلما وصل أبو الحسن إلى حلب تلقاه الأخشيد وأكرمه وأظهر السرور بقرب المتقي ، وأنفذ من وقته مالاً مع أحمد بن سعيد الكلابي إلى المتقي وسار خلفه حتى نزل وبينه وبين المتقي الفرات ، فراسله المتقي بالخرقي وبوزيره أبي الحسين بن مقلة فعبر إليه يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ووقف بين يدي المتقي لله ، ثم ركب المتقي لله فمشى بين يديه وأمره أن يركب فلم يفعل ولم يدع أحداً من

أصحاب المتقي وحواشيه وكتابه إلا بره ووصله واجتهد بالمتقي لله أن يسير معه إلى الشام ومصر فأبى ، فأشار عليه بالمقام مكانه وضمن له أن يمده بالأموال فلم يفعل ، وعاد إلى بغداد لأنه كان قد كاتبه تورون في الصلح وخدعه وقبض عليه وبايع المستكفي .

وكتب المتقي عهداً للأخشيد بالشام ومصر على أن الولاية له ولأبي القاسم أنوجور ابنه إلى ثلاثين سنة ، وكتب الأخشيد في هذه السفرة إلى عبده كافور الخادم إلى مصر وقال له : ومما يجب عليك أن تقف عليه أطال الله بقاءك أني لقيت أمير المؤمنين بشاطىء الفرات فأكرمني وحباني وقال كيف أنت يا أبا بكر أعزك الله فرحاً بأنه كناه ، والخليفة لا يكني أحداً ، وعاد الأخشيد من الرقة إلى حلب .

ولاية أبي الفتح عثمان بن سعيد بن العباس ابن الوليد الكلابي سنة ٣٣٣ من طرف الأخشيد

قال في زبدة الحلب : ولما عاد الأخشيد من الرقة إلى حلب وسار إلى مصر ولى بحلب من قبله أبا الفتح عثمان بن سعيد بن العباس بن الوليد الكلابي وولى أخاه أنطاكية ، فحسد أبا الفتح أخوته الكلابيون وراسلوا سيف الدولة بن حمدان ليسلموا إليه حلب .

ترجمة أبي بكر محمد بن طغج الملقب بالأخشيد المتوفى سنة ٣٣٤ :

كان ينبغي أن نذكر ترجمته عند انتهاء حوادثه في سنة وفاته ، غير أنا وجدنا أن ذلك يقطع سلسلة الكلام على تملك سيف الدولة لحلب فآثرنا ذكرها هنا .

قدمنا في ترجمة أبيه طغج بن جف أصل جف ومبدأ أمره وحبس المكتفي لطغج في بغداد وأنه حبس معه محمد بن طغج ، وتوفي طغج في الحبس وأطلق ولده وخلع عليه .

قال ابن خلكان : لما أطلق من الحبس هرب إلى الشام وأقام متغرباً في البادية سنة ، ثم اتصل بأبي منصور تكين الجرزي [أمير مصر من طرف الخليفة العباسي] على الحجاج

لقطع الطريق عليهم وذلك في سنة ست وثلثمائة وهو يومئذ يتقلد عمان وجبل الشراة من قبل تكين وظفر بهم ونجا الحجاج وقد فرغ من أمرهم بأسر من أسره وقتل من قتله وشرد الباقين ، وكان قد حج في هذه السنة من دار الخليفة المقتدر بالله امرأة تعرف بعجوز ، فحدثت المقتدر بالله بما شاهدت منه فأنفذ إليه خلعاً وزاد في رزقه ، ولم يزل أبو بكر في صحبة تكين إلى سنة ست عشرة وثلثمائة ، ثم فارقه بسبب اقتضى ذلك ، وسار إلى الرملة فوردت كتب المقتدر إليه بولاية الرملة فأقام بها إلى سنة ثمان عشرة ، فوردت كتب المقتدر إليه بولاية دمشق فسار إليها ولم يزل بها إلى أن ولاه القاهر بالله ولاية مصر في شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ودعا له بها مدة اثنين وثلاثين يوماً ولم يدخلها . ثم أعيد إليها من جهة الخليفة الراضي بالله بن المقتدر وضم إليه البلاد الشامية والجزرية والحرمين وغير ذلك ، ودخل مصر يوم الأربعا لسبع بقين من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة .

ثم إن الراضي لقبه بالأخشيد في شهر رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وثلثمائة ، وإنما لقبه بذلك لأنه لقب ملوك فرغانة وهو من أولادهم كما سبق ذكره وتفسيره بالعربي ملك الملوك ، وكل من ملك تلك الناحية لقبوه بهذا اللقب ودعي للأخشيد على المنابر بهذا اللقب واشتهر به وصار كالعلم عليه ، وكان ملكاً حازماً كثير التيقظ في حروبه ومصالح دولته حسن التدبير مكرماً للجند شديد القوى لا يكاد يجر قوسه غيره ، وذكر محمد بن عبد الملك الهمذاني في تاريخه الصغير الذي سماه عيون السير أن جيشه كان يحتوي على أربعة آلاف رجل وأنه كان جباناً[1] وكان له ثمانية آلاف مملوك يحرسه في كل ليلة ألفان منهم ويوكل بجانب خيمته الخدم إذا سافر ثم لا يثق حتى يمضي إلى خيم الفراشين فينام بها ، ولم يزل على مملكة وسعادة إلى أن توفي يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين بدمشق ، وحمل تابوته إلى بيت المقدس فدفن به . وقال أبو الحسن الرازي : توفي في سنة خمس وثلاثين والله أعلم . وكانت ولادته منتصف شهر رجب سنة ثمان وستين ومائتين ببغداد .

قال أبو الفدا في حوادث سنة ٣٣٤ : في هذه السنة مات الأخشيد بدمشق وكان قد سار من مصر إليها ، وهو محمد بن طغج صاحب مصر ودمشق وكان قبل مسيره عن مصر قد وجد بداره رقعة مكتوب عليها : قدرتم فأسأتم وملكتم فبخلتم ووسع عليكم فضقتم

وأدرَّت لكم الأرزاق فقنطتم أرزاق العباد واغتررتم بصفو أيامكم ولم تتفكروا في عواقبكم واشتغلتم بالشهوات واغتنام اللذات وتهاونتم بسهام الأسحار وهن صائبات ولاسيما إن خرجت من قلوب قرحتموها وأكباد أجعتموها وأجساد أعريتموها ، ولو تأملتم في هذا حق التأمل لانتبهتم ، أو ما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل ماوصل إليها الجاهل ولو دامت لمن مضى ما نالها من بقي ، فكفى بصحبة ملك يكون في زوال ملكه فرح للعالم ومن المحال أن يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى منهم أحد ويبقى المنتظر ، افعلوا ما شئتم فإنا صابرون وجوروا فإنا بالله مستجيرون وثقوا بقدرتكم وسلطانكم فإنَّا بالله واثقون وهو حسبنا ونعم الوكيل . فبقي الأخشيد بعد سماع هذه الرقعة في فكر وسافر إلى دمشق ومات وولي الأمر بعده ابنه أبو القاسم أنوجور وتفسيره محمود .

---

(١) مما يجدر ذكره هنا ما ذكره العكبري في شرحه على المتنبي لقوله : (كل يريد رجاله لحياته . يا من يريد حياته لرجاله) . قال يريد أن الملوك سواك يطلبون عسكرهم وجنودهم ليدفعوا عنهم ويجمعونهم على أعدائهم ليسلموا وأنت تريد رجالك أن يبقوا ويسلموا وتدافع عنهم . وهذا غاية الكرم والشجاعة . وقد بنى البيت على حكاية تذكر عن سيف الدولة مع الأخشيد وذلك أنه جمع جيشاً عظيماً وأتى إليه ليتغلب فوجه إليه سيف الدولة يقول له : قد جمعت هذا الجيش وجئت إلى بلادي أبرز إليّ ولا تقتل الناس بيني وبينك فأينا غلب أخذ البلاد وملك أهلها ، فوجه إلى سيف الدولة يقول : ما رأيت أعجب منك إنما جمعت هذا الجيش العظيم لأقي به نفسي أفتريد أن أبارزك إن هذا الجهل اهـ .

دولة بني حمدان

استيلاء سيف الدولة على حلب سنة ٣٣٣

وذكر دولة بني حمدان من هذه السنة إلى سنة ٣٩٤

قال في زبدة الحلب : قد كان سيف الدولة طلب من أخيه ولاية ، فقال له أخوه ناصر الدولة : الشام أمامك وما فيه أحد يمنعك عنه ، وعرف سيف الدولة اختلاف الكلابيين وضعف أبي الفتح عن مقاومته ، فسار إلى حلب ، فلما وصل إلى الفرات خرج أخوة أبي الفتح عثمان بن سعيد بأجمعهم للقاء سيف الدولة ، فرأى أبو الفتح أنه مغلوب إن جلس عنهم وعلم حسدهم له ، فخرج معهم ، فلما قطع سيف الدولة الفرات أكرم أبا الفتح دون أخوته وأركبه معه في العمادية ، وجعل سيف الدولة يسأله عن كل قرية يجتاز بها ما اسمها فيقول أبو الفتح : هذه الفلانية ، حتى عبروا بقرية يقال لها أبرم وهي قرية قريبة من الغابا فقال له سيف الدولة : ما اسم هذه القرية ؟ فقال أبو الفتح : أبرم ، فظن سيف الدولة انه أبرمه بالسؤال فقال له : أبرم من الإبرام ، فسكت سيف الدولة عن سؤاله ، فلما عبروا بقرى كثيرة ولم يسأله عنها علم أبو الفتح بسكوت سيف الدولة فقال له أبو الفتح : يا سيدي يا سيف الدولة وحق رأسك إن القرية التي عبرناها اسمها أبرم ، واسأل عنها غيري ، فتعجب سيف الدولة من ذكائه ، فلما وصل إلى حلب أجلسه معه على السرير ، ودخل سيف الدولة حلب يوم الاثنين لثمان خلون من شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ، وكان القاضي بها أحمد بن محمد بن ماثل ، فعزله وولى أبا حصين

علي بن عبد الملك بن بدر بن الهيثم الرقي ، وكان ظالماً ، فكان إذا مات إنسان أخذ تركته لسيف الدولة ويقول : كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك وعلى أبي حصين الدرك .

ثم إن الأخشيد سير عسكراً إلى حلب مع كافور ويانس المونسي ، وكان الأمير سيف الدولة غازياً بأرض الروم قد هتك بلد الصفصاف وعرنسوس فغنم ورجع ، فسار لحينه إلى الأخشيدية فلقيهم بالرستن ، فحمل سيف الدولة على كافور فانهزم وازدحم أصحابه في جسر الرستن ، فوقع منهم جماعة ، ورفع سيف الدولة السيف فأمر غلمانه أن لا يقتلوا أحداً منهم ، وقال : الدم لي والمال لكم ، فأسر منهم نحو أربعة آلاف من الأمراء من غيرهم واحتوى على جميع سواده ، ومضى كافور هارباً إلى حمص وسار إلى دمشق وكتب إلى الأخشيد يعلمه بهزيمته ، وأطلق سيف الدولة الأسارى جميعهم فمضوا وشكروا فعله ، ورحل سيف الدولة بعد هزيمتهم إلى دمشق ودخلها في شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وأقام بها ، فكاتبه الأخشيد يلتمس منه الموادعة والاقتصاد على ما في يده ، فلم يفعل ، وخرج سيف الدولة إلى الأعراب ، فلما عاد منعه أهل دمشق من دخولها ، فبلغ الأخشيد ذلك فسار من الرملة وتوجه يطلب سيف الدولة ، فلما وصل طبرية عاد سيف الدولة إلى حلب بغير حرب لأن أكثر أصحابه وعسكره استأمنوا إلى الأخشيد ، فاتبعه الأخشيد إلى أن نزل معرة النعمان في جيش عظيم ، فخرج سيف الدولة ولقيه بأرض قنسرين في شوال سنة ثلاث وثلاثين ، وكان الأخشيد قد جعل مطارده وبوقاته في المقدمة ، وانتقى من عسكره نحو عشرة آلاف وسماهم الصابرية ، فوقف بهم في الساقة ، فحمل سيف الدولة على مقدمة الأخشيد فهزمها وقصد قبته وخيمه وهو يظنه في المقدمة ، فحمل الأخشيد ومعه الصابرية فاستخلص سواده ولم يقتل من العسكرين غير معاذ بن سعيد والي معرة النعمان من قبل الأخشيد ، فإنه حمل على سيف الدولة ليأسره فضربه سيف الدولة بمستوفى[1] كان معه فقتله ، وهرب سيف الدولة فلم يتبعه أحد من عسكر الأخشيد ، وسار على حاله إلى الجزيرة فدخل الرقة ، وقيل إنه أراد دخول حلب فمنعه أهلها ، ودخل الأخشيد حلب وأفسد أصحابه في جميع النواحي وقطعت الأشجار التي كانت في ظاهر حلب وكانت عظيمة جداً ، وقيل إنها كانت من أكثر المدن شجراً ، وأشعار الصنوبري تدل على ذلك ، ونزل عسكر الأخشيد على الناس بحلب وبالغوا في أذى الناس لميلهم إلى سيف الدولة ،

(١) المستوفي هو عمود حديد طول ذراعين مربع الشكل له مقبض مدور في وسطه.

وعاد الأخشيد إلى دمشق بعد أن ترددت الرسل بينه وبين سيف الدولة ، واستقر الأمر على أن أفرج الأخشيد له عن حلب وحمص وأنطاكية وقرر مالاً عن دمشق يحمله إليه في كل سنة ، وتزوج سيف الدولة بابنة أخي الأخشيد عبد الله بن طغج ، وانتظم هذا الأمر على يد الحسن بن طاهر العلوي وسفارته في شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، فسار الأخشيد إلى دمشق وعاد سيف الدولة إلى حلب ، وتوفي الأخشيد بدمشق في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين ، وقيل في المحرم من سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة ، وملك بعده ابنه أبو القاسم أنوجور ، واستولى على التدبير أبو المسك كافور الخادم . وكان سيف الدولة فيما ذكر قد عمل على تخلية الشام ، فلما مات الأخشيد سافر كافور بعسكر مولاه إلى مصر من دمشق ، وكان قد استولى على مصر رجل مغربي فحاربه كافور وظفر به وخلت دمشق من العساكر ، فطمع فيها سيف الدولة وسار إليها فملكها واستأمن إليه يانس المونسي في قطعة من الجيش ، وأقام سيف الدولة بدمشق وجبى خراجها ، ثم أتته والدته نعم أم سيف الدولة إلى دمشق ، وسار سيف الدولة إلى طبرية ، وكان سيف الدولة في بعض الأيام يساير الشريف العقيقي بدمشق في الغوطة بظاهر البلد فقال سيف الدولة للعقيقي : ما تصلح هذه الغوطة تكون إلا لرجل واحد ، فقال له الشريف العقيقي : هي لأقوام كثيرة وغالبها وقف [الجملة الآخرة من تاريخ القرماني] فقال سيف الدولة له : لئن أخذتها القوانين السلطانية ليتبرأن أهلها منها ، فأسرها الشريف في نفسه وأعلم أهل دمشق بذلك ، وجعل سيف الدولة يطالب أهل دمشق بودايع الأخشيد وأسبابه ، فكاتبوا كافوراً فخرج في العساكر المصرية ومعه أنوجور بن الأخشيد ، فخرج سيف الدولة إلى اللجون وأقام أياماً قريباً من عسكر الأخشيد بأكسال ، فتفرق عسكر سيف الدولة في الضياع يطلب العلوفة ، فعلم به الأخشيدية فزحفوا إليه ، وركب سيف الدولة يتشرف فرآهم زاحفين في تعبئة ، فعاد إلى عسكره فأخرجهم ، فنشبت الحرب فقتل من أصحابه خلق وأسر كذلك ، وانهزم سيف الدولة إلى دمشق ، فأخذ والدته ومن كان بها من أهله وأسبابه وسار من حيث لم يعرف أهل دمشق بالوقعة ، وكان ذلك في جمادى الآخرة من سنة خمس وثلاثين ، وجاء سيف الدولة إلى حمص وجمع جمعاً لم يجتمع له قط مثله من بني عقيل وبني نمير وبني كلاب ، وخرج من حمص وخرجت عساكر بني طغج من دمشق فالتقوا بمرج عذرا [قريبة بغوطة دمشق] وكانت الوقعة أولاً لسيف الدولة ثم آخرها عليه ، فانهزم وملكوا

سواده وتقطع أصحابه في ذلك البلد فهلكوا وتبعوه إلى حلب ، فعبر إلى الرقة وانحاز يانس المؤنسي من عساكر سيف الدولة إلى أنطاكية ، ووصل ابن الأخشيد حلب في ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة فأقام بها وسيف الدولة بالرقة ، فراسل أنوجور يانس المؤنسي وهو بأنطاكية وضمن هو وكافور ليانس أن يجعلا بحلب في مقابلة سيف الدولة ، وضمن لهما يانس أن يقوم في وجه سيف الدولة بحلب وأن يعطيهم ولده رهينة على ذلك ، فأجابوه ، وانصرف كافور وأنوجور بالعسكر عن حلب إلى القلعة وأتاها يانس فتسلمها . وقيل إن الأخشيدية عادوا وأقام سيف الدولة بحلب ، فخالف عليه يانس والساجية وأرادوا القبض عليه فهرب وكتابه وأصحابه ، وملك يانس حلب ، ولم يقم يانس بحلب إلا شهراً حتى أسرى سيف الدولة إلى حلب في شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين ، فكبسه فانهزم يانس إلى سرمين يريد الأخشيد ، فأنفذ سيف الدولة في طلبه سرية مع إبراهيم بن البارد العقيلي فأدركته عند دادبخ ، فانهزم وخلى عياله وسواده وأولاده وانهزم إلى أخيه بميافارقين ، وكان ابن البارد قد وصل إلى سيف الدولة في سنة خمس وثلاثين ، وكان في خدمة أخيه ناصر الدولة ، ففارقه وقدم على سيف الدولة . ثم إن الرسل ترددت بين سيف الدولة وابن الأخشيد وتجدد الصلح بينهما على القاعدة التي كانت بينه وبين أبيه دون المال المحمول عن دمشق ، وعمر سيف الدولة داره بالحلبة وقلد أبا فراس ابن عمه منبج وما حولها من القلاع ، واستقرت ولاية سيف الدولة لحلب من سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، وهذه هي الولاية الثالثة . اهـ .(١)

قال في الزبد والضرب : لما عاد سيف الدولة إلى حلب ولي قضاءها أحمد بن إسحاق الحلبي الحنفي المعروف بالجرد ، ولما عمر القصر بالحلبة أجرى نهر قويق فيه من تحت الخناقية حتى تدخل فيه من جانب وتخرج من آخر في المكان المعروف بالفيض .

ويقال إن سيف الدولة رأى في المنام أن حية قد تطوقت داره ، فعظم عليه ذلك فقال له بعض المفسرين : الحية في النوم ماء ، فأمر بحفر حفير بين داره وبين قويق حتى

---

(١) إلى هنا انتهت النبذة المطبوعة من زبدة الحلب في باريس مع ترجمتها بالإفرنسية الموجودة في المكتبة السلطانية بمصر وعنها استنسخت .

أدار الماء حول الدار ، وقال له آخر كلاماً معناه أن الروم تحتوي على دارك ، فأمر به فدفع وأخرج بعنف ، وقضى الله سبحانه أنهم فتحوا حلب واستولوا على داره . اهـ .

قال ابن خلدون : لما ملك سيف الدولة مدينتي حلب وحمص سنة ثلاث وثلاثين صار أمر الصوائف إليه ، وكان له فيها آثار وكان للروم في أيامه جولات حسنت فيها مدافعته .

سنة ٣٣٥

قال ابن الأثير : في هذه السنة كان الفداء بالثغور بين المسلمين والروم على يد نصر الشملي أمير الثغور لسيف الدولة بن حمدان ، وكان عدة الأسرى ألفين وأربعمائة أسير وثمانين أسيراً من ذكر وأنثى ، وفضل الروم على المسلمين مائتان وثلاثون أسيراً لكثرة من معهم من الأسرى ، فوفاهم ذلك سيف الدولة .

سنة ٣٣٧

قال ابن الأثير : في هذه السنة سار سيف الدولة بن حمدان إلى بلد الروم ، فلقيه الروم واقتتلوا : فانهزم سيف الدولة وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس .

سنة ٣٣٩

قال ابن الأثير : في هذه السنة دخل سيف الدولة بن حمدان إلى بلاد الروم فغزا وأوغل فيها وفتح حصوناً كثيرة وسبى وغنم ، فلما أراد الخروج من بلد الروم أخذوا عليه المضايق فهلك من كان معه من المسلمين أسراً وقتلاً ، واسترد الروم الغنائم والسبي وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ، ونجا سيف الدولة في عدد يسير .

سنة ٣٤٠

قال العكبري في شرح ديوان المتنبي في الكلام على قوله :

ذي المعالي فليعلون من تعالى هكذا هكذا وإلا فلا لا

إنه قال هذه القصيدة يذكر نهوض سيف الدولة إلى الثغر ، وذلك في جمادى الأولى سنة أربعين وثلثمائة ، قال : وكان سبب عمل هذه القصيدة أن سيف الدولة ورد عليه أن الدمستق وجيوش النصرانية قد نزلوا على حصن الحدث ونصبوا عليه مكايد وقدروا أنها فرصة فيه لما تداخل أهله من الانزعاج والقلق ، وكان ملكهم قد ألزمهم قصده وأنجدهم بأصناف العسكر من البلغر والروس والصقلب وأنفذ معهم العدد الكثير والعدد ، فركب سيف الدولة نافراً وانتقل إلى غير الموضع الذي كان فيه ونظر فيما يجب أن ينظر فيه ، وسار عن حلب في جمادى الأولى ، فنزل رعبان وأخبار الحدث عليه مستعجمة لأنهم ضبطوا الطرق ليخفى عليه خبرهم ، فلما ضجر لبس سلاحه وأمر أصحابه بمثل ذلك وسار زحفاً ، فلما قرب من الحدث عادت الجواسيس تعلمه أن العدو لما أشرفت عليه خيول المسلمين من عقبة يقال لها العبرى رحل ولم تستقر به دار ، وامتنع أهل الحدث من البدار بالخبر خوفاً من كمين يعترض الرسل ، فنزل سيف الدولة بظاهره وأتتهم طلائعهم تخبر سيف الدولة بانصرافهم إلى حصن رعبان، ووقعت الضجة وظهر الاضطراب وولى كل فريق على وجه ، وخرج أهل الحدث فأوقعوا ببعضهم وأخذوا آلة سلاحهم وأعدُّوه في حصنهم . اهـ .

سنة ٣٤١

قال ابن الأثير : في هذه السنة ملك الروم مدينة سروج وسبوا أهلها وغنموا أموالهم وأخربوا المساجد .

وفي هذه السنة بنى سيف الدولة مرعشاً ، وامتدحه عند ذلك أبو الطيب المتنبي بقصيدة قال في مطلعها :

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

ومنها

هنيئاً لأهل الثغر رأيك فيهم وأنك حزب الله صرت لهم حزبا

فيوماً بخيل تطرد الروم عنهم ويوماً بجود تطرد الفقر والجدبا
سراياك تترى والدمستق هارب وأصحابه قتلى وأمواله نهبى
أتى مرعشاً يستقرب البعد مقبلاً وأدبر إذ أقبلت يستبعد القربا

ومنها :

فأضحت كأنّ السور من فوق بدئه إلى الأرض قد شق الكواكب والتربا
تصد الرياح الهوج عنها مخافة وتفزع منها الطير أن تلقط الحبا

ومنها :

كفى عجباً أن يعجب الناس أنه بنى مرعشاً تباً لآرائهم تبا

سنة ٣٤٢

قال ابن شداد في الأعلاق الخطيرة : وفي سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة غزا سيف الدولة ملطية وشاطىء الفرات وقتل من الروم وسبا وأسر قسطنطين بن الدمستق ، ولم يزل عنده إلى أن مات في أسره ، وكان كتب إلى أبيه الدمستق بإكرام سيف الدولة ، وهو الذي كان يخدمه في مرضه ، فرأى منه الشفقة واللطف الذي فعله ، وقيل إن قسطنطين المأسور كان في غاية الحسن ، فبذل أبوه فيه ثمانمائة ألف دينار وثلاثة آلاف أسير ، فاشتط سيف الدولة ، فسير الدمستق إلى عطار نصراني بحلب وأمره أن يسقي ولده سماً ففعل ومات ، وعدت هذه من غلطات سيف الدولة .

وفي ترهب الدمستق يقول أبو الطيب :

فلو كان ينجي من عليٍّ ترهب ترهبت الأملاك مثنى وموحدا

وقال أبو العباس أحمد بن النامي :

لكنه طلب الترهب خيفة ممن له تتقاصر الأعمارُ
فمكان قائم سيفه عكازه ومكان ما يتمنطق الزنارُ

سنة ٣٤٣

قال ابن الأثير : في هذه السنة شهر ربيع الأول غزا سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم ، فقتل وأسر وسبى وغنم ، وكان فيمن قتل قسطنطين بن الدمستق ، فعظم الأمر على الروم وعظم الأمر على الدمستق ، فجمع عساكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم وقصد الثغور ، فسار إليه سيف الدولة فالتقوا عند الحدث في شعبان ، فاشتد القتال بينهم وصبر الفريقان ، ثم إن الله تعالى نصر المسلمين فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق عظيم ، وأسر صهر الدمستق وابن بنته وكثير من بطارقته ، وعاد الدمستق مهزوماً مسلولاً . اهـ .

قال العكبري في شرح ديوان المتنبي في شرح قوله :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم

كان سبب هذه القصيدة أن سيف الدولة سار نحو ثغر الحدث ، وكان أهلها قد سلموها بالأمان إلى الدمستق ، فنزل بها سيف الدولة في جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة ، فبدأ في يومه فحط الأساس وحفر أوله بيده ابتغاء ما عند الله تعالى ، فلما كان يوم الجمعة نازله ابن الفقاس دمستق النصرانية في خمسين ألف فارس وراجل من جموع الروم والأرمن والبلغر والصقلب ، ووقعت الوقعة يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة ، وإن سيف الدولة حمل بنفسه في نحو من خمسمائة من غلمانه فقصد موكبه ، فهزمه وأظفهر الله به وقتل ثلاثة آلاف من مقاتلته وأسر خلقاً كثيراً ، فقتل بعضهم واستبقى البعض ، وأسر تودس الأعور بطريق سمندو وهو صهر الدمستق ، وأقام على الحدث إلى أن بناها ووضع بيده آخر شرافة منها يوم الثلاثا ثالث عشرة ليلة خلت من رجب ، وفي هذا اليوم أنشد أبو الطيب هذه القصيدة لسيف الدولة بالحدث . اهـ .

أقول : عبارة ابن الأثير تفيد أن قسطنطين بن الدمستق كان فيمن قتل ، وما نقلناه عن ابن شداد وعن العكبري يفيد أنه أسر ، ويغلب على الظن أن هذه الرواية هي الأصح ، ولعل للدمستق ولداً آخر قتل في هذه الوقائع وقد اشتبه ذلك على ابن الأثير والله أعلم .

سنة ٣٤٥

قال ابن الأثير : في هذه السنة في رجب سار سيف الدولة بن حمدان في جيوش إلى بلاد الروم وغزاها حتى بلغ خرشنة وصارخة وفتح عدة حصون وسبى وأسر وأحرق وخرب وأكثر القتل فيهم ، ورجع إلى آذنة فأقام بها حتى جاءه رئيس طرسوس فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيراً ، وعاد إلى حلب ، فلما سمع الروم بما فعل جمعوا وساروا إلى ميافارقين وأحرقوا سوادها ونهبوا وخربوا وسبوا أهله ونهبوا أموالهم وعادوا .

سنة ٣٤٨

قال ابن الأثير : في هذه السنة غزت الروم طرسوس والرها فقتلوا وسبوا وغنموا وعادوا سالمين .

سنة ٣٤٩

قال ابن الأثير : في هذه السنة غزا سيف الدولة بلاد الروم في جمع كثير فأثر فيها آثاراً كثيرة وأحرق وفتح عدة حصون ، وأخذ من السبي والغنائم والأسرى شيئاً كثيراً ، وبلغ إلى خرشنة . ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق ، فلما أرادوا الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس : إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العدو منه ، والرأي أن ترجع معنا ، فلم يقبل منهم وكان معجباً برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحداً لئلا يقال إنه أصاب برأي غيره ، وعاد في الدرب الذي دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليه قتلاً وأسراً ، وتخلص هو في ثلثمائة رجل بعد جهد ومشقة ، هذا من سوء رأي كل من يجهل آراء الناس العقلاء .

سنة ٣٥٠

قال ابن الأثير : في هذه السنة سار قفل عظيم من أنطاكية إلى طرسوس ومعهم صاحب أنطاكية ، فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيها من المسلمين وقتل كثيراً منهم ، وأفلت صاحب أنطاكية وبه جراحات .

وفيها في رمضان دخل نجا غلام سيف الدولة بلاد الروم من ناحية ميافارقين غازياً ، وإنه في رمضان غنم ما قيمته قيمة عظيمة وسبى وأسر وخرج سالماً .

سنة ٣٥١

قال ابن الأثير : في هذه السنة في المحرم نزل الروم مع الدمستق على عين زربة ، وهي في سفح جبل عظيم ، وهو مشرف عليها وهم في جمع عظيم ، فأنفذ بعض عسكره فصعدوا إلى الجبل فملكوه ، فلما رأى ذلك أهلها وأن الدمستق قد ضيق عليهم ومعه الدبابات وقد وصل إلى السور وشرع في النقب طلبوا الأمان ، فأمنهم الدمستق ، وفتحوا له باب المدينة فدخلها فرأى أصحابه الذين في الجبل قد نزلوا إلى المدينة ، فندم على إجابتهم إلى الأمان ، ونادى في البلد أول الليل بأن يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع ، ومن تأخر في منزله قتل فخرج من أمكنه الخروج ، فلما أصبح أنفذ رجالته في المدينة وكانوا ستين ألفاً ، وأمرهم بقتل من وجدوه في منزله فقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان ، وأمر بجمع ما في البلد من السلاح فجمع فكان شيئاً كثيراً ، وأمر من في المسجد بأن يخرجوا من البلد حيث شاؤوا من يومهم ذلك ، ومن أمسى قتل ، فخرجوا مزدحمين فمات بالزحمة جماعة ، ومروا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون ، فماتوا في الطرقات ، وقتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار وأخذوا كل ما خلفه الناس من أموالهم وأمتعتهم وهدموا سوري المدينة[1]، وأقام الدمستق في بلد الإسلام أحداً وعشرين يوماً وفتح حول عين رزبة[2] أربعة وخمسين حصناً

---

(١) زاد ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية عند ذكره لهذه الحوادث أنه قطع من حول البلد أربعين ألف نخلة .

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان [عين زربي] بفتح الزاي وسكون الراء : بلد بالثغر من نواحي المصيصة ، قال ابن الفقيه : كان تجديد زربي وعمارتها على يد أبي سليمان التركي الخادم في حدود سنة ١٩٠ ، وكان قد ولي الثغور من قبل الرشيد ثم استولى عليها الروم فخربوها ، فأنفق سيف الدولة ثلاثة آلاف ألف درهم حتى أعاد عمارتها ، ثم استولى عليها في أيام سيف الدولة وهي في أيديهم إلى الآن ، وأهلها اليوم أرمن وهي من أعمال ابن ليون ، وقد نسب إليها قوم من أهل العلم منهم أبو محمد إسماعيل بن علي الشاعر العين زربي القائل :

وحقكم لا زرتكم في دُجنة ... من الليل تخفيني كأني سارق
ولا زرت إلا والسيوف هواتف ... إلي وأطراف الرماح لواحق

قال الواقدي : ولما كانت سنة ١٨٠ أمر الرشيد ببناء مدينة عين زربي وتحصينها وندب إليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم وأقطعهم بها المنازل ، ثم لما كانت أيام المعتصم نقل إليها وإلى نواحيها قوماً من الزط الذين كانوا قد غلبوا على البطائح بين واسط والبصرة فانتقع أهل الثغر بهم . اهـ .

للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالأمان ، وإن حصناً من تلك الحصون التي فتحت بالأمان أمر أهله بالخروج منه ، فخرجوا فتعرض أحد الأرمن ببعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة عظيمة ، فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق لذلك ، فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا أربعمائة رجل وقتل النساء والصبيان ، ولم يترك إلا من يصلح أن يسترق ، فلما أدركه الصوم انصرف على أنه يعود بعد العيد ، وخلف جيشه بقيسارية ، وكان ابن الزيات صاحب طرسوس قد خرج في أربعة آلاف رجل من الطرسوسيين فأوقع بهم الدمستق فقتل أكثرهم وقتل أخاً لابن الزيات ، فعاد إلى طرسوس ، وكان قد قطع الخطبة لسيف الدولة بن حمدان ، فلما أصابهم هذا الوهن أعاد أهل البلد الخطبة لسيف الدولة وراسلوه بذلك ، فلما علم ابن زيات حقيقة الأمر صعد إلى روشن في داره فألقى نفسه منه إلى نهر تحته فغرق ، وراسل أهل بغراس الدمستق وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم .

ذكر استيلاء الروم على مدينة حلب وعودهم عنها بغير سبب

قال ابن الأثير : في هذه السنة استولى الروم على مدينة حلب دون قلعتها ، وكان سبب ذلك أن الدمستق نقفور سار إلى حلب ولم يشعر به المسلمون لأنه كان قد خلف عسكره بقيسارية ، ودخل بلادهم كما ذكرناه ، فلما قضي صوم النصارى خرج إلى عسكره من البلاد جريدة ولم يعلم به أحد وسار بهم ، وعند وصوله سبق خيله وكبس مدينة حلب ولم يعلم به سيف الدولة بن حمدان ولا غيره ، فلما بلغها وعلم سيف الدولة الخبر أعجله الأمر عن الجمع والاحتشاد فخرج إليه فيمن معه فقاتله ، فلم يكن قوة الصبر لقلة من معه ، فقتل أكثرهم ولم يبق من أولاد داود بن حمدان أحد قتلوا جميعهم ، فانهزم سيف الدولة في نفر يسير وظفر الدمستق بداره ، وكانت خارج مدينة حلب تسمى الدارين ، فوجد فيها لسيف الدولة ثلثمائة بدرة من الدراهم ، وأخذ له ألفاً وأربعمائة بغل ومن خزائن

السلاح مالا يحصى ، فأخذ الجميع وخرب الدار وملك الحاضر[1] وحصر المدينة ، فقاتله أهلها وهدم الروم في السور ثلمة فقاتلهم أهل حلب فقتل من الروم كثير ودفعوهم عنها ، فلما جنهم الليل عمروها ، فلما رأى الروم ذلك تأخروا إلى جبل جوشن . ثم إن رجالة الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها ، فلحق الناس أموالهم ليمنعوها فخلا السور منهم ، فلما رأى الروم السور خالياً من الناس قصدوه وقربوا منه فلم يمنعهم أحد ، فصعدوا إلى أعلاه فرأوا الفتنة قائمة في البلد بين أهله ، فنزلوا وفتحوا الأبواب ودخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا ، ولم يرفعوا السيف إلى أن تعبوا وضجروا ، وكان في حلب ألف وأربعمائة من الأسارى فتخلصوا وأخذوا السلاح وقتلوا الناس وسبي من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبية ، وغنموا ما لا يوصف كثرة، فلما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه الغنيمة أمر الدمستق بإحراق الباقي (زاد ابن مسكويه هنا في تاريخه تجارب الأمم ما نصه وعمد إلى الجباب التي يجرز فيها الزيت فصب فيها الماء حتى فاض الزيت على وجه الأرض) وأحرق المساجد ، وكان قد بذل لأهل البلد الأمان على أن يسلموا إليه ثلاثة آلاف صبي وصبية ومالاً ذكره وينصرف عنهم ، فلم يجيبوه إلى ذلك ، فملكهم كما ذكرنا ، وكان عدة عسكره مائتي ألف رجل منهم ثلاثون ألف رجل بالجواشن وثلاثون ألفاً للهدم وإصلاح الطرق من الثلج وأربعة آلاف بغل يحمل الحسك الحديد (زاد ابن مسكويه هنا :

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان : والذي شاهدناه نحن من حاضر حلب أنها محلة كبيرة كالمحلة العظيمة بظاهر حلب بين بنائها وسور المدينة رمية سهم من جهة القبلة والمغرب ويقال لها حاضر السليمانية ، ولا نعرف السليمانية ، وأكثر سكانها تركان مستعربة من أولاد الأجناد ، وبها جامع حسن مفرد تقام فيه الخطبة والجمعة والأسواق الكثيرة من كل ما يطلب ، ولها وال يستقل بها . اهـ . أقول : على مقتضى ما ذكره يكون ابتداء هذه الأبنية من المكان المعروف الآن بالقبة والعمود غربي منعطف نهر قويق المسمى بالفيض آخذاً إلى المكان المعروف بجسر الحج على شكل نصف دائرة ، ويدخل في ذلك المحلة المعروفة بالكلاسة ، ثم تمتد من جسر الحج إلى المحلة المعروفة بالمغاير ، ثم منها إلى المحلة المعروفة بالفردوس والمقامات ، ولم يبق سوى أبنية هذه المحلات الثلاث وبعض آثار من المدارس والرباطات ، والرباط المعروف بالفردوس ، ولسان حالها ناطق بما كانت عليه من عظمة العمران ، وهذه المحلات الثلاث بالنسبة إلى ما كان ثمة من الأبنية يقدر بالعشر ، وقد صار البعض كروماً وبساتين وبعضها لازال خاوياً خالياً .

يطرحه حول عسكره بالليل وخركاهات عليها لبود مغربية) ، ولما دخل الروم البلد قصد الناس القلعة ، فمن دخلها نجا بحشاشة نفسه . وأقام الدمستق تسعة أيام وأراد الانصراف عن البلد بما غنم فقال له ابن أخت الملك وكان معه : هذا البلد قد حصل في أيدينا وليس من يدفعنا عنه فلأي سبب ننصرف عنه ، فقال الدمستق : قد بلغنا مالم يكن الملك يؤمله وغنمنا وقتلنا وخربنا وأحرقنا وخلصنا أسرانا وبلغنا مالم يسمع بمثله ، فتراجعا الكلام إلى أن قال له الدمستق : انزل على القلعة فحاصرها فإنني مقيم بعسكري على باب المدينة ، فتقدم ابن أخت الملك إلى القلعة ومعه سيف وترس وتبعه الروم ، فلما قرب من باب القلعة ألقي عليه حجر فسقط ورمي بخشب فقتل ، فأخذه أصحابه وعادوا إلى الدمستق ، فلما رآه قتيلاً قتل من معه من أسرى المسلمين وكانوا ألفاً ومائتي رجل ، وعاد إلى بلاده ولم يعرض لسواد حلب ، وأمر أهله بالزراعة والعمارة ليعود إليهم بزعمه .

وفي هامش تجارب الأمم نقلاً عن تاريخ علي بن محمد الشميشاطي ما نصه :

قال : في ذي القعدة أقبلت الروم فخرجوا من الدروب ، فخرج سيف الدولة من حلب فتقدم إلى أعزاز في أربعة آلاف فارس وراجل ، ثم تيقن أنه لا طاقة له بلقاء الروم لكثرتهم ، فرد إلى حلب وخيم بظاهرها ليكون المصاف هناك ، ثم جاءه الخبر بأن الروم مالوا نحو العمق فجهز فتاه نجا في ثلاثة آلاف لقصدهم ، ثم لم يصبر سيف الدولة فسار بعد الظهر بنفسه ونادى في الرعية من لحق بالأمير فله دينار ، فلما سار فرسخاً لقيه بعض العرب فأخبره أن الروم لم يبرحوا من جبرين وأنهم على أن يصبحوا حلب ، فرد إلى حلب ونزل على نهر قويق ، ثم تحول من الغد فنزل على باب اليهود وبذل خزائن السلاح للرعية ، وأشرف العدو في ثلاثين ألف فارس فوقع القتال في أماكن شتى ، فلما كان العصر وافى ساقة العدو في أربعين ألف رجل بالرماح وفيهم ابن الشمقيق ، وامتد الجيوش على النهر وأحاطوا بسيف الدولة ، فحمل عليهم ، فلما ساواهم لوى رأس فرسه وقصد ناحية بالس وسار وراءه ابن الشمقيق في عشرين ألفاً ، فأنكى في أصحابه وانهزمت الرعية الذين كانوا على النهر عندما انصرف سلطانهم وأطلهم السيف وازدحموا في الأبواب وتعلق طائفة من السور بالجبال ، فقتل منهم فوق الثلاثمائة ، وقتل من الكبار أبو طالب بن داود بن حمدان

وابنه وداود بن علي ، وأسر كاتب سيف الدولة الفياضي وأبو نصرالي [هكذا] بن حسين ابن حمدان ، وكان عسكر الروم ثمانين ألف فارس والسواد فلا يحصى .

ثم تقدم من الغد منتصر حاجب الدمستق إلى السور فقال : أخرجوا إلينا شيخين تعتمدون عليهما ، فخرج شيخان إلى الدمستق فقربهما وقال : إني أحببت أن أحقن دماءكم فتخيروا إما أن تشتروا البلد أو تخرجوا عنه بأهلكم ، وإنما كان ذلك حيلة منه ، فاستأذناه في مشاورة الناس ، فلما كان من الغد أتى الحاجب فقال : ليخرج إلينا عشرة منكم لنعرف ما عمل عليه أهل البلد ، وكان رأي أهل البلد على الخروج بالأمان ، فخرج العشرة وطلبوا الأمان وتدخل الروم ، فقال الدمستق : صح ما بلغني عنكم ، قالوا : وما هو ؟ قال : بلغني أنكم قد أقمتم مقاتلتكم في الأزقة مختفين ، فإذا خرج الحرم والصبيان ودخل أصحابي للنهب اغتالوهم ، فقالوا : ليس في البلد من يقاتل ، قال : فاحلفوا فحلفوا له ، وإنما أراد أن يعرف صورة البلد ، فحينئذ تقدم بجيوشه إلى قبالة السور ولجأ الناس إلى القلعة ونصبت سلالم على باب أربعين وعند باب اليهود ، وصعدوا فلم يروا مقاتلة ، فنزلوا البلد ووضعوا السيف وفتحوا الأبواب وقضي الأمر وعم القتل والسبي والحريق طول النهار ومن الغد ، وبقي السيف يعمل بها ستة أيام إلى يوم الأحد لثلاث بقين من ذي القعدة ، فزحف ابن الدمستق وابن الشمقيق على القتلة ، ودام القتال إلى الظهر ، فقتل ابن الشمقيق من عظمائهم ونحو مائة وخمسين من الروم ، وانصرف الدمستق إلى مخيمه ، ونودي من كان معه أسير فليقتله ، فقتلوا خلقاً كثيراً ، ثم عاد إلى القلعة فإذا طلائع قد أقبلت نحو قنسرين وكانت نجدة لهم ، فتوهم الدمستق أنها نجدة لسيف الدولة فترحل خائفاً . اهـ .

وفيها أيضاً فتح الروم حصن دلوك وثلاثة حصون مجاورة له بالسيف .

وفيها في جمادى الآخرة أعاد سيف الدولة بناء عين زربة وسير حاجبه في جيش مع أهل طرسوس إلى بلاد الروم ، فغنموا وقتلوا وسبوا وعادوا ، فقصد الروم حصن سيسية فملكوه .

وفيها سار نجا غلام سيف الدولة في جيش إلى حصن زياد ، فلقيه جمع من الروم فهزمهم ، واستأمن إليه من الروم خمسمائة رجل .

وفيها في شوال أسرت الروم أبا فراس بن سعد بن حمدان من منبج ، وكان متقلداً لها ، وله ديوان شعر جيد .

سنة ٣٥٢

قال ابن الأثير : في هذه السنة في صفر امتنع أهل حران على صاحبها هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان وعصوا عليه ، وسبب ذلك أنه كان متقلداً لها ولغيرها من ديار مضر من قبل عمه سيف الدولة ، فعسفهم نوابه وظلموهم وطرحوا الأمتعة على التجار من أهل حران وبالغوا في ظلمهم ، وكان هبة الله عند عمه سيف الدولة بحلب ، فثار أهلها على نوابه وطردوهم ، فسمع هبة الله بالخبر فسار إليهم وحاربهم وحصرهم فقاتلهم وقاتلوه أكثر من شهرين ، فقتل منهم خلق كثير ، فلما رأى سيف الدولة شدة الأمر واتصال الشر قرب منهم وراسلهم وأجابهم إلى ما يريدون ، فاصطلحوا وفتحوا أبواب البلد وهرب منه العيارون خوفاً من هبة الله .

ذكر غزوةٍ إلى الروم وعصيان حران

قال ابن الأثير : في هذه السنة في شوال دخل أهل طرسوس بلاد الروم غازين ، ودخلها أيضاً نجا غلام سيف الدولة بن حمدان من درب آخر ، ولم يكن سيف الدولة معهم لمرضه ، فإنه كان قد لحقه قبل ذلك بسنتين فالج ، فأقام على رأس درب من تلك الدروب ، فأوغل أهل طرسوس في غزوتهم حتى وصلوا إلى قونية وعادوا فرجع سيف الدولة إلى حلب ، فلحقه في الطريق غشية أرجف عليه الناس بالموت ، فوثب هبة الله ابن أخيه ناصر الدولة بن حمدان بابن دنجا فقتله وكان خصيصاً لسيف الدولة(١) .

---

(١) عبارة ابن مسكويه في تجارب الأمم هكذا : وجاء أبو الحسين إبن دنجا إلى هبة الله ابن ناصر الدولة ليسلم عليه ويهنئه بعيد الفطر ، وكان هبة الله راكباً فاستجر أبا الحسين بن دنجا الحديث إلى إزاء صخر ثم رماه بخشب كان في يده فوقع في لبته ومضى يريد الهرب ، فلحقه هبة الله ، وإنما فعل ذلك لغيرة لحقته من تعرض ابن دنجا لغلام من غلمانه اهـ .

وإنما قتله لأنه كان يتعرض لغلام له ، فغار لذلك ، ثم أفاق سيف الدولة فلما علم هبة الله أن عمه لم يمت هرب إلى حران ، فلما دخلها أظهر لأهلها أن عمه مات وطلب منهم اليمين على أن يكونوا سلماً لمن سالمه وحرباً لمن حاربه ، فحلفوا له واستثنوا عمه في اليمين ، فأرسل سيف الدولة غلامه نجا إلى حران في طلب هبة الله ، فلما قاربها هرب هبة الله إلى أبيه بالموصل ، فنزل نجا على حران في السابع والعشرين من شوال ، فخرج أهلها إليه من الغد فقبض عليهم وصادرهم على ألف ألف درهم ووكل بهم حتى أدوها في خمسة أيام بعد الضرب الوجيع بحضرة عيالاتهم وأهليهم ، فأخرجوا أمتعتهم فباعوا كل ما يساوي ديناراً بدرهم لأن أهل البلد كلهم كانوا يبيعون ليس فيهم من يشتري لأنهم مصادرون ، واشترى ذلك أصحاب نجا بما أرادوا ، وافتقر أهل البلد ، وسار نجا إلى ميافارقين وترك حران شاغرة بغير وال ، فتسلط العيارون على أهلها ، وكان من أمر نجا ما نذكره سنة ثلاث وخمسين .

وفيها في ربيع الأول اجتمع من رجالة الأرمن جماعة كثيرة وقصدوا الرها فأغاروا عليها فغنموا وأسروا وعادوا موفورين .

سنة ٣٥٣

ذكر عصيان نجا وقتل سيف الدولة له

قال ابن الأثير : قد ذكرنا سنة اثنتين وخمسين ما فعله نجا غلام سيف الدولة بن حمدان بأهل حران وما أخذه من أموالهم ، فلما اجتمعت عنده تلك الأموال قويَ بها وبطر ولم يشكر ولي نعمته بل كفره ، وسار إلى ميافارقين وقصد بلاد أرمينية ، وكان قد استولى على كثير منها رجل من العرب يعرف بأبي الورد ، فقاتله نجا فقتل أبو الورد وأخذ نجا قلاعه وبلاده خلاط وملازكرد وموش وغيرها ، وحصل له من أموال أبي الورد شيء كثير ، فأظهر العصيان على سيف الدولة ، فاتفق أن معز الدولة بن بويه سار عن بغداد إلى الموصل ونصيبين واستولى عليها وطرد منها ناصر الدولة [أخا سيف الدولة] على ما نذكره آنفاً ، فكاتبه نجا وراسله وهو بنصيبين يعده المعاضدة والمساعدة على مواليه بني حمدان ، فلما عاد

معز الدولة إلى بغداد واصطلح هو وناصر الدولة سار سيف الدولة إلى نجا ليقاتله على عصيانه عليه وخروجه عن طاعته ، فلما وصل إلى ميافارقين هرب نجا من بين يديه فملك سيف الدولة بلاده وقلاعه التي أخذها من أبي الورد ، واستأمن إليه جماعة من أصحاب نجا فقتلهم ، واستأمن إليه أخو نجا فأحسن إليه وأكرمه وأرسل إلى نجا يرغبه ويرهبه إلى أن حضر عنده فأحسن إليه وأعاده إلى مرتبته ، ثم إن غلمان سيف الدولة وثبوا على نجا في دار سيف الدولة بميافارقين في ربيع الأول سنة أربع وخمسين فقتلوه بين يديه ، فغشي على سيف الدولة ، وأخرج نجا فألقي في مجرى الماء والأقذار وبقي إلى الغد ، ثم أخرج ودفن .

قال ابن مسكويه في تجارب الأمم : في هذه السنة فتك غلمان سيف الدولة بحضرته على نجا بالسيوف فقتلوه ، ولحق سيف الدولة في الوقت غشية مكث فيها نحو الساعة ، فأمرت زوجته وهي بنت أبي العلاء سعيد بن حمدان أن يجر برجل نجا ، ففعل ذلك إلى أن أخرج من قصرها ، وفيه كان جرى على نجا ما جرى وطرح في مجرى ماء ينصب إليه المياه والأقذار وبقي فيه إلى الغد وقت العصر ، ثم أخرج وكفن ودفن .

وفي هامشه نقلاً عن صاحب ميافارقين ما نصه: حضر نجا في مجلس سيف الدولة وعنده جماعة على الشراب ، فتكلم سيف الدولة في شيء[و]حاجّه وخرج عليه بكلام قبيح ، فوثب عليه غلام لسيف الدولة يسمى نجاحاً فضربه على رأسه بسيف فقتله ، فحمل إلى ميافارقين ودفن بها وندم سيف الدولة على قتله ، وسار وملك أخلاط وتلك الولاية بأسرها . اهـ .

سنة ٣٥٤

ذكر مخالفة أهل أنطاكية على سيف الدولة

قال ابن الأثير : في هذه السنة عصى أهل أنطاكية على سيف الدولة بن حمدان ، وكان سبب ذلك أن إنساناً من أهل طرسوس كان مقدماً فيها يسمى رشيقاً النسيمي كان في جملة من سلمها إلى الروم وخرج إلى أنطاكية ، فلما وصله أخدمه إنسان يعرف بابن الأهوازي كان يضمن الأرحاء بأنطاكية ، فسلم إليه ما اجتمع عنده من حاصل الأرحاء

وحسن له العصيان وأعلمه أن سيف الدولة بميافارقين قد عجز عن العود إلى الشام ، فعصى واستولى على أنطاكية وسار إلى حلب ، وجرى بينه وبين النائب عن سيف الدولة وهو قرعويه حروب كثيرة ، صعد قرعويه إلى قلعة حلب فتحصن بها ، وأنفذ سيف الدولة عسكراً مع خادمه بشارة نجدة لقرعويه ، فلما علم بهم رشيق انهزم عن حلب فسقط عن فرسه ، فنزل إليه إنسان عربي فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى قرعويه وبشارة ، ووصل ابن الأهوازي إلى أنطاكية فأظهر إنساناً من الديلم اسمه وزير وسماه الأمير ، وتقوّى بإنسان علوي ليقيم له الدعوة وتسمى هو بالأستاذ ، فظلم الناس وجمع الأموال ، وقصد قرعويه إلى أنطاكية وجرت بينهما وقعة عظيمة فكانت على ابن الأهوازي أولاً ثم عادت على قرعويه ، فانهزم وعاد إلى حلب . ثم إن سيف الدولة عاد من ميافارقين عند فراغه من الغزاة إلى حلب ، فأقام بها ليلة وخرج من الغد فواقع وزير وابن الأهوازي فقاتل من بها فانهزموا ، وأسر وزير وابن الأهوازي فقتل وزير وسجن ابن الأهوازي مدة ثم قتله .

سنة ٣٥٥

قال ابن مسكويه في تجارب الأمم في حوادث سنة ٣٥٥ : وفي هذه السنة تم الفداء بين سيف الدولة والروم ، وتسلم سيف الدولة أبا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان وأبا الهيثم ابن القاضي أبي حصين اهـ .

وفي هامشة نقلاً عن تاريخ الإسلام : وفي هذه السنة قدم أبو الفوارس محمد بن ناصر الدولة من الأسر إلى ميافارقين ، أخذته أخت الملك لتفادي به أخاها ، فجاء ستة آلاف فنفذ سيف الدولة أخاها في ثلاثمائة إلى حسن الهتاخ ، فلما شاهد بعضهم ببعض سرح المسلمون أسيرهم في خمسة فوارس وسرح الروم أسيرهم أبا الفوارس في خمسة، فالتقيا في وسط الطريق وتعانقا ، ثم صار كل واحد إلى أصحابه فترجلوا وقبلوا له الأرض ، ثم احتفل سيف الدولة لابن أخيه وحمل له الخيل والمماليك والعدد التامة، فمن ذلك مائة مملوك بمناطقهم وسيوفهم وخيولهم ، وطال مقام سيف الدولة بميافارقين فأنفق في سنة وثلاثة أشهر نيفاً وعشرين ألف ألف درهم ومائتين وستين ألف دينار ، وتم الفداء في رجب فخلص من الأسرى من أمير إلى راجل ثلاثة آلاف ومائتان وسبعون نفساً ، وتقدر أمر أربعة أعوام ،

وأرسل أبا القاسم الحسين بن علي المغربي لتقدير ذلك ومعه هدية بعشرة آلاف دينار منها ثلاثمائة مثقال مسك ، وأنفق سيف الدولة على الفداء ثلاثمائة ألف دينار .

ذكر نزول الروم على أنطاكية وما كان بينهم وبين سيف الدولة

وقال أيضاً : وفيها سار طاغية الروم بجيوشه إلى الشام ، فعاث وأفسد وأقام به نحو خمسين يوماً ، فبعث سيف الدولة يستنجد أخاه ناصر الدولة يقول : إن نقفور قد عسكر بالدرب ومنع رسولنا ابن المغربي أن يكتب بشيء ، فقال لا أجيب سيف الدولة إلا من أنطاكية ليذهب من الشام فإنه لنا ويمضي إلى بلده ويهادن عنه ، وإن أهل أنطاكية راسلوا نقفور وبذلوا له الطاعة وأن يحملوا إليه مالاً ، وإنه التمس منهم يد يحيى بن زكريا عليهما السلام والكرسي وأن يدخل بيعة أنطاكية ليصلي فيها ويسير إلى بيت المقدس ، وكان الذي جر خروجه وأحنقه إحراق بيعة المقدس في هذا العام ، وكان البترك كتب إلى كافور صاحب مصر يشكو قصور يده عن استيفاء حقوق البيعة ، فكاتب متولي القدس بالشد على يده فجاءه من الناس مالم يطق دفعه ، فقتلوا البترك وحرقوا البيعة وأخذوا زينتها ، فراسل كافور طاغية الروم بأن يرد البيعة إلى أفضل ما كانت ، فقال : بل أنا أبنيها بالسيف . وأما ناصر الدولة فكتب إلى أخيه إن أحب سيره إليه سار وإن أحب حفظه ديار بكر سار إليها ، وبث سراياه وأصعد سيف الدولة والناس إلى قلعة حلب وشحنها ، وانجفل الناس وعظم الخطب وأخليت نصيبين ، ثم نزل عظيم الروم بجيوشه على منبج وأحرق الربض ، وخرج إليه أهلها فأقرهم ولم يؤذهم ، ثم سار إلى واذي بطنان وسار سيف الدولة متأخراً إلى قنسرين ، ورجاله والأعراب قد ضيقوا الخناق على الروم فلا يتركون لهم علوفة تخرج إلا أوقعوا بها . وأخذت الروم أربع ضياع بما حوت ، فراسل سيف الدولة ملك الروم وبذل له مالاً يعطيه إياه في ثلاثة أقساط ، فقال : لا أجيبه إلا أن يعطيني نصف الشام ، فإن طريقي إلى ناحية الموصل على الشام ، فقال سيف الدولة : لا أعطيه ولا حجراً واحداً .

ثم جالت الروم بأعمال حلب وتأخر سيف الدولة إلى ناحية شيزر وأنكى العربان في الروم غير مرة وكسبوا مالا يوصف ، ونزل عظيم الروم على أنطاكية فحاصرها ثمانية أيام ليلاً ونهاراً ، وبذل الأمان لأهلها فأبوا فقال : أنتم كاتبتموني ووعدتموني بالطاعة ، فأجابوا : إنما كاتبنا الملك حيث كان سيف الدولة بأرمينية بعيداً عنا وظننا أنه لا حاجة له في البلد وكان السيف بين أظهرنا ، فلما عاد سيف الدولة لم يوبه على ضبط أدياننا وبلدنا شيئاً . فناجزهم الحرب من جوانبها فحاربوه أشد حرب ، وكان عسكره معوزاً من العلوفة ، ثم بعث نائب أنطاكية محمد بن موسى إلى قرعويه متولي نيابة حلب بتفاصيل الأمور وبثبات الناس على القتال . وأنا ليلي ونهاري في الحرب لا أستقر ساعة وإن اللعين قد ترحل عنا ونزل الجسر .

وفيها أوقع تقي السيفي بسرية الروم فاصطلموها ، ثم خرج الطاغية من الدروب وذهب ، ثم جاء الخبر بأن نائب أنطاكية محمد بن موسى الصلحي أخذ الأموال التي في خزائن أنطاكية معدة وخرج بها كأنه متوجه إلى سيف الدولة ، فدخل بلد الروم مرتدًّا فقيل إنه كان عزم على تسليم أنطاكية للملك فلم يمكنه لاجتماع أهل البلد على ضبطه ، فخشي أن ينم خبره إلى سيف الدولة فهرب بالأموال . اهـ .

ذكر خراب قنسرين في هذه السنة

قال ياقوت في معجم البلدان : كانت قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم ، وبعض يدخل قنسرين في العواصم ، وما زالت عامرة آهلة إلى أن كانت سنة ٣٥١ وغلبت الروم على مدينة حلب وقتلت جميع ما كان بربضها ، فخاف أهل قنسرين وتفرقوا في البلاد ، فطائفة عبرت الفرات وطائفة نقلها سيف الدولة بن حمدان إلى حلب كثر بهم من بقي من أهلها ، فليس بها اليوم سنة [٦٢٤] إلا خان ينزله القوافل وعشار السلطان وفريضة صغيرة .

وقال بعضهم : كان خراب قنسرين في سنة ٣٥٥ قبل موت سيف الدولة بأشهر ، كان قد خرج إليها ملك الروم وعجز سيف الدولة عن لقائه ، فأمال عنه فجاء إلى قنسرين وخربها وأحرق مساجدها ، ولم تعمر بعد ذلك .

قال ابن الأثير : وفيها تم الفداء بين سيف الدولة والروم وتسلم سيف الدولة ابن عمه أبا فراس بن حمدان .

سنة ٣٥٦

قال ابن الأثير : فيها في صفر مات سيف الدولة بن حمدان .

ترجمة سيف الدولة بن حمدان :

قال ابن خلكان : سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان . قال أبو منصور الثعالبي في كتابه يتيمة الدهر : كان بنو حمدان ملوكاً أوجههم للصباحة وألسنتهم للفصاحة وأيديهم للسماحة وعقولهم للرجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطة قلادتهم ، مقصد الوفود ومطلع الجود وقبلة الآمال ومحط الرجال وموسم الأدباء وحلبة الشعراء ، ويقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها ، وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز له ، وكان كل من أبي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي قد اختار من مدايح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت .

ومن محاسن شعر سيف الدولة في وصف قوس قزح وقد أبدع فيه كل الإبداع ، وقيل إن هذه الأبيات لأبي صقر القبيصي ، والأول ذكره الثعالبي في يتيمة الدهر :

وساق صبوح للصبوح دعوته فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً على الجوّ دكناً والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأصفر على أحمر في أخضر تحت مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وهذا من التشبيهات الملوكية التي لا يكاد يحضر مثلها للسوقة . وكانت لسيف الدولة جارية من بنات ملوك الروم في غاية الجمال فحسدها بقية الحظايا لقربها منه ومحلها من

قلبه ، وعز من عليٍّ إيقاع مكروه بها من هم أو غيره فبلغه الخبر وخاف عليها ، فنقلها إلى بعض الحصون احتياطاً وقال :

راقبتني العيون فيك فأشفقت ولم أخل قط من إشفاق
ورأيت العدو يحسدني فيك مجدّاً بأنفس الأعلاق
فتمنيت أن تكوني بعيداً والذي بيننا من الود باق
رب هجر يكون من خوف هجر وفراق يكون خوف فراق

ورأيت هذه الأبيات بعينها في ديوان عبد المحسن الصوري ، والله أعلم لمن هي منهما ، ومن شعره أيضاً :

أقبّله على جزع كشرب الطائر الفزع
رأى ماءً فأطمعه وخاف عواقب الطمع
وصادف خلسة فدنا ولم يلتذ بالجرع

ويحكى أن ابن عمه أبا فراس كان يوماً بين يديه في نفر من ندمائه ، فقال لهم سيف الدولة : أيكم يجيز قولي وليس له إلا سيدي يعني أبا فراس :

لك جسمي تعلّهُ فدمي لم تحلّهُ

(في نسخة أخرى لك قلبي تحله ولعله الأحسن)

فارتجل أبو فراس وقال :

قال إن كنت مالكاً فلي الأمر كله

فاستحسنه وأعطاه ضيعة بأعمال منبج المدينة المعروفة تغل ألفي دينار في كل سنة .

ومن شعر سيف الدولة قوله :

تجنى عليَّ الذنب والذنب ذنبه وعاتبني ظلماً وفي شقه العتب
إذا أبرم المولى بخدمة عبده تجنى له ذنباً وإن لم يكن ذنب
وأعرض لما صار قلبي بكفه فهلا جفاني حين كان لي القلب

ويحكى أن سيف الدولة كان يوماً بمجلسه والشعراء ينشدونه ، فتقدم أعرابي رث الهيئة وأنشد وهو حينئذ بمدينة حلب :

أنت عليّ وهذه حلب قد نفد الزاد وانتهى الطلب
بهذه تفخر البلاد وبالأمير تزهى على الورى العرب
وعبدك الدهرُ قد أضر بنا إليك من جور عبدك الهرب

فقال سيف الدولة : أحسنت والله ، وأمر له بمائتي دينار .

وقال أبو القاسم عثمان بن محمد العراقي قاضي عين زربة : حضرتِ مجلس الأمير سيف الدولة بحلب وقد وافاه القاضي أبو النصر محمد بن محمد النيسابوري ، فطرح من كمه كيساً فارغاً ودرجاً فيه شعر استأذنه في إنشاده ، فأذن له فأنشد قصيدة أولها :

حباؤك معناه وأمرك نافذ وعبدك محتاج إلى ألف درهم

فلما فرغ من إنشاده ضحك سيف الدولة ضحكاً شديداً وأمر له بألف دينار فجعلت في الكيس الفارغ الذي كان معه .

وكان أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم المعروفان بالخالديين الشاعرين المشهورين وأبو بكر أكبرهما قد وصلا إلى حضرة سيف الدولة ومدحاه ، فأنزلهما وقام بواجب حقهما ، وبعث لهما مرة وصيفاً ووصيفة ومع كل واحد منهما بدرة وتخت ثياب من عمل مصر ، فقال أحدهما من قصيدة طويلة :

لم يغد شكرك في الخلائق مطلقاً إلا ومالك في النوال حبيس
خولتنا شمساً وبدراً أشرقت بهما لدينا الظلمة الحنديس
رشأ أتانا وهو حسناً يوسف وغزالة هي بهجةً بلقيس
هذا ولم تقنع بذاك وهذه حتى بعثت المال وهو نفيس
أتت الوصيفة وهي تحمل بدرة وأتى على ظهر الوصيف الكيس
وحبوتنا مما أجادت حوكه مصر وزادت حسنه تنيس
فغدا لنا من جودك المأكول والمشروب والمنكوح والملبوس

فقال له سيف الدولة : أحسنت إلا في لفظة المنكوح فليست مما يخاطب الملوك بها .

وأخبار سيف الدول كثيرة مع الشعراء خصوصاً المتنبي والسري الرفاء والنامي والببغاء والوأواء وتلك الطبقة .

وكانت ولادته في ذي الحجة سنة ثلاث وثلثمائة ، وقيل سنة إحدى وثلثمائة ، وتوفي يوم الجمعة لخمس بقين من صفر سنة ست وخمسين وثلثمائة بحلب ، ونقل إلى ميافارقين ودفن في تربة أمه وهي داخل البلد ، وكان مرضه عسر البول ، وكان قد جمع من نفض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً وعمله لبنة بقدر الكف وأوصى أن يوضع خده عليها في لحده ، فنفذت وصيته بذلك .

وملك حلب في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة انتزعها من يد أحمد بن سعيد الكلابي صاحب الأخشيد .

ورأيت في تاريخ حلب أن أول من ولي حلب من بني حمدان الحسين بن سعيد وهو أخو أبي فراس بن حمدان وأنه تسلمها في رجب سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة ، وكان شجاعاً موصوفاً ، وفيه يقول ابن المنجم :

وإذا رأوه مقبلاً قالوا ألا إن المنايا تحت راية ذاكا

وتوفي الحسن بن حمدان بالموصل ودفن بالمسجد الذي بناه بالدير الأعلى .

ثم قال : وكان سيف الدول قبل ذلك مالك واسط وتلك النواحي ، وتقلبت به الأحوال وانتقل إلى الشام وملك دمشق أيضاً وكثيراً من بلاد الشام والجزيرة ، وغزواته مع الروم مشهورة ، وللمتنبىء في أكثر الوقائع قصائد رحمه الله تعالى . اهـ .

وقال الملا في مختصر الذهبي ومن خطه نقلت : ذكر ابن النجار أن سيف الدولة حضره عيد النحر ففرق على أرباب دولته ضحايا ، وكانوا ألوفاً ، فأكثر من ناله منهم مائة رأس وأقلهم شاة ، قال : ولزمه في فك الأسرى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة ستمائة ألف دينار . وكان سيف الدولة شيعياً متظاهراً مفضلاً على الشيعة والعلويين . وقال القرماني في

تاريخه : كان بنوحمدان شيعة ، لكن كان تشيعهم خفيفاً ، ولم يكونوا كبني بويه ، فإن بني بويه كانوا في غاية القباحة سبابين[1] .

قال في المختار من الكواكب المضية : قال المهلبي : إن مذهب أهل حلب كان مذهب أهل السنة والجماعة ، ولم يكن بها رافضي إلى أن هجمها الروم في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة وقتلوا معظم أهلها ، فنقل إليها سيف الدولة بن حمدان جماعة من الشيعة مثل الشريف إبراهيم العلوي وغيره ، وكان سيف الدولة يتشيع فغلب على أهلها التشيع لذلك [الناس على دين ملوكهم] . وعنه قال الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام : كان بجامع حلب خزانة الكتب ، وكان فيها عشرة آلاف مجلدة من وقف سيف الدولة بن حمدان[2] وغيره ، فلما صلب ثابت بن أسلم أبو الحسن الحلبي أحد علماء الشيعة بمصر أحرقت الكتب ، وكان صلبه قريباً من سنة ستين وأربعمائة ، وقد ولي خزانة الكتب ، فقال من بحلب من الإسماعيلية : هذا يفسد الدعوة ، وقد كان صنف كتاباً في كشف عوارهم وابتداء دعوتهم ، فحمل إلى صاحب مصر فأمر بصلبه .

وفي الدر المنتخب المنسوب لابن الشحنة قال يحيى بن أبي طي في تاريخه في حوادث سنة ٣٥١ : في هذه السنة ظهر مشهد الدكة ، وكان سبب ظهوره أن سيف الدولة علي بن حمدان كان في أحد مناظره بداره التي بظاهر المدينة ، فرأى نوراً ينزل على المكان الذي فيه المشهد عدة مرار ، فلما أصبح ركب بنفسه إلى ذلك المكان وحفره فوجد حجراً عليه كتابة [هذا المحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب] رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، فبنى عليه هذا المشهد . قال : وقال بعضهم إن سبي نساء الحسين لما وردوا هذا المكان طرح بعض نسائه هذا الولد ، فإنا نروي عن آبائنا أن هذا المكان يسمى بالجوشن ، لأن شمر بن ذي الجوشن عليه اللعنة نزل عليه بالسبي والروس ، وأنه كان معدناً يعمل منه الصفر وأن أهل المعدن فرحوا بالسبي ، فدعت عليهم زينب بنت الحسين ففسد المعدن من يومئذ . !

---

(١) بنو بويه كانوا ملوكاً في بغداد متغلبين على الخلفاء .

(٢) قال أحمد باشا تيمور المصري في مقالة له منشورة في مجلة الهلال (سنة ٢٨ جزء ٤ صفحة ٣٢) ذكر فيها نوادر المخطوطات : في المكتبة السلطانية بالقاهرة نسخة شمسية من هيئة أشكال الأرض في طولها والعرض بالمصورات مما ألف لسيف الدولة بن حمدان وهي منقولة من خزانة طوب قبو بالأستانة . اهـ .

وقال بعضهم : إن هذه الكتابة التي على الحجر قديمة وأثر هذا المكان قديم وان هذا الطرح الذي زعموا لم يفسد وبقاؤه دليل على أنه ابن الحسين ، فشاع بين الناس هذه المفاوضة التي جرت وخرجوا إلى هذا المكان وأرادوا عمارته ، فقال سيف الدولة : هذا موضع قد أذن الله لي في عمارته على اسم أهل البيت .

قال يحيى بن أبي طي : ولحقت هذا المشهد وهو باب صغير من حجر أسود عليه قنطرة مكتوب عليها بخط أهل الكوفة كتابة عريضة :

[عمر هذا المشهد المبارك ابتغاء لوجه الله وقربته إليه على اسم مولانا المحسن بن الحسين بن علي أبي طالب [رضي الله عنهم] الأمير الأجل سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان] . وذكر التاريخ المتقدم أي سنة ٣٥١ .

وقال المقريزي في الجزء الثالث من الخطط : أول من قال في الأذان بالليل محمد وعلي خير البشر الحسين المعروف بأمير كابن شكنب ويقال اشكنبه ، وهو اسم أعجمي معناه الكرش ، وهو علي بن محمد بن علي بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم ، قاله الشريف محمد بن أسعد الجواني النسابة ، ولم يزل الأذان بحلب يزاد فيه حي على خير العمل ومحمد وعلي خير البشر إلى أيام نور الدين محمود ، فإنه لما فتح المدرسة الكبيرة المعروفة بالحلاوية استدعى أبا الحسن علي بن الحسن بن محمد البلخي-الحنفي إليها ، فجاء ومعه جماعة من الفقهاء وألقى بها الدروس ، فلما سمع الأذان أمر الفقهاء فصعدوا المنارة وقت الأذان لهم وقال لهم : مروهم يؤذنوا الأذان المشروع ومن امتنع كبوه على رأسه ، فصعدوا وفعلوا ما أمرهم به ، واستمر الأمر على ذلك (وسيأتي في الكلام على ولاية الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين الشهيد ما كان من أمر الشيعة في ولايته] .

وفي تاريخ أبي الفدا في حوادث سنة ٣٥٦ قال : فيها توفي أبو الفرج علي بن الحسين الكاتب الأصفهاني الأموي صاحب كتاب الأغاني ، كان على أمويته شيعياً ، قيل إنه جمع كتاب الأغاني في خمسين سنة وحمله إلى سيف الدولة فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه .

وقال الثعالبي في يتيمة الدهر : حكى ابن لبيب غلام أبي الفرج الببغا أن سيف الدولة كان قد أمر بضرب دنانير للصلات في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليها اسمه وصورته ، فأمر يوماً لأبي الفرج منها بعشرة دنانير فقال ارتجالاً :

نحن بجود الأمير في حرمٍ نرتع بين السعود والنعمِ
أبدع من هذا الدنانير لم يجر قديماً في خاطر الكرمِ
فقد غدت باسمه وصورته في دهرنا عوذة من العدمِ

وقال فيها أيضاً : استنشد سيف الدولة يوماً أبا الطيب المتنبي قصيدته التي أولها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وكان معجباً بها كثير الاستعادة لها ، فاندفع أبو الطيب ينشدها ، فلما بلغ قوله فيها :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

قال : قد انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتقد على امرىء القيس بيتاه :

كأنيَ لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخالِ
ولم أسبأ الزقَّ الرويَّ ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجفال

وبيتاك لا يلتئم شطراهما كما ليس يلتئم شطر هذين البيتين ، كان ينبغي لامرىء القيس أن يقول :

كأني لم أركب جواداً ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الرويَّ للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخالِ

ولك أن تقول :

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم

فقال : أيد الله مولانا ، إن صح أن الذي استدرك على امرىء القيس هذا كان أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك ، لأن البزاز لا يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفاريقه ، لأنه هو الذي أخرجه من الغزلية إلى الثوبية ، وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازل الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى وهو الموت ليجانسه ، ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً وعينه من أن تكون باكية قلت : ووجهك وضاح وثغرك باسم لأجمع بين الأضداد في المعنى وإن لم يتسع اللفظ لجميعها ، فأعجب سيف الدولة بقوله ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصلات وفيها خمسمائة دينار .

وقال الثعالبي أيضاً : أنشدت لسيف الدولة في وصف نار الكانون :

كأنما النـارُ والرمـادُ معـاً ... وضوؤها في ظلامه يحجبْ
وجنة عذراء مسها خجلٌ ... فاستترت تحت عنبر أشهبْ

وأنشدني أبو الحسن أحمد بن فارس قال : أنشدني شاعر يعرف بالمتيم لسيف الدولة :

قد جرى في دمعه دمه ... فإلى كم أنت تظلمه
رد عنه الطرف منك فقد ... جرحته منه أسهمه
كيف يسطيع التجلد من ... خطرات الوهم تؤلمه

وأنشدني غير واحد له في أخيه ناصر الدولة أبي محمد :

رضيت لك العليا وقد كنت أهلها ... وقلت لهم بيني وبين أخي فرقُ
ولم يك بي عنها نكولٌ وإنما ... تجافيت عن حقي فتم لك الحقُ
ولا بد لي من أن أكون مصلياً ... إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

وهذا البيت عند ابن الأثير هكذا : أما كنت ترضى أن أكون إلخ .

وقال في المختار من الكواكب المضية : إن ناصر الدولة أكبر سناً من سيف الدولة

وأقدم منزلة عند الخلفاء ، وكان سيف الدولة كثير التأدب معه ، وجرت بينهما يوماً وحشة فكتب إليه سيف الدولة :

لست أجفو وإن جفوت ولا أترك حقاً على كل حالٍ*
إنما أنت والد والأب الجافي يجازي بالصبر والإحتمال

وقال الحسن بن خالويه النحوي : دخلت يوماً على سيف الدولة ، فلما مثلت بين يديه قال لي : اقعد ولم يقل اجلس ، فعلمت بذلك معرفته بعلم الأدب ، وذلك أن المختار أن يقول للقائم اقعد وللنائم أو الساجد اجلس . لأن القعود الانتقال من علو إلى أسفل ، ولذلك يقال لمن أصيب برجله مقعد ، والجلوس الانتقال من سفر إلى علو ولذلك قيل اسجد .

وذكر ابن عشائر قال : كان سيف الدولة إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيباً ، وكان فيهم من يأخذ رزقين لأجل تعاطيه علمين ، ومنهم من يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم .

وقال الذهبي : توفي سيف الدولة وتولى أمره القاضي أبو الهيثم بن أبي حصين وغسله عبد الرحمن بن سهل المالكي قاضي الكوفة ، وغسله بالسدر ثم بالصندل ثم بالدريرة ثم بالصبر والكافور ثم بماء الورد ثم بالماء ، ونشف بثوب دبيقي يساوي نيفاً وخمسين ديناراً أخذه الغاسل وجميع ما عليه وصبره بصبر ومر وكافور ، وجعل على وجهه أبخرة مائة مثقال غالية ، وكفن في سبعة أثواب تساوي ألف دينار ، وجعل في التابوت مضربة ومخدتان اهـ . وقد تقدم أنه حمل إلى ميافارقين ودفن فيها رحمه الله تعالى .

وفي هامش تاريخ ابن مسكويه في حوادث سنة ٣٥٦ نقلاً عن صاحب التكملة ما نصه : حكي أن سيف الدولة لما ورد إلى بغداد وقت تورون اجتاز وهو راكب فرسه وبيده رمحه وبين يديه عبد صغير له ، وقصد الفرجة وأن لا يعرف ، فاجتاز بشارع دار الرقيق على دور بني خاقان وفيها فتيان ، فدخل وسمع وشرب معهم وهم لا يعرفونه وخدموه ، ثم استدعى عند خروجه الدواة فكتب رقعة وتركها فيها ، ثم انصرف ، ففتحوا الدواة فإذا في

* ـــ هكذا في الأصل ، ولعل الصواب :
لست أجفو وإن جفوت ولا أترك حقاً علي في كل حال

الرقعة [ألف دينار] على بعض الصيارف ، فتعجبوا وحملوا الرقعة وهم يظنونها ساذجة ، فأعطاهم الصيرفي الدنانير في الحال والوقت ، فسألوه عن الرجل فقال : ذاك سيف الدولة ابن حمدان اهـ .

وفي كتاب الكنايات للجرجاني [في صحيفة ٥٤] : سمعت الطبري يقول : كنت يوماً بين يدي سيف الدولة بحلب فدخل عليه ابن عم له فاستبطأه الأمير وقال له : أين كنت اليوم وبم اشتغلت ؟ فقال له : أيّد الله مولانا ، حلقت رأسي وأصلحت شعري وقلّمت أظفاري ، فقال له : لو قلت أخذت من أطرافي كان أوجز وأبلغ اهـ .

وفي ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي : أن سيف الدولة بن حمدان انصرف من حرب وقد نصر على عدوه فدخل عليه الشعراء فأنشدوه ، فدخل معهم رجل شامي فأنشده :

وكانوا كفأر وسوسوا خلف حائط وكنت كسنور عليهم تسقفا

فأمر بإخراجه ، فقام على الباب يبكي ، فأخبر سيف الدولة ببكائه فرق له وأمر برده وقال له : مالك تبكي قال : قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه أطلب منه بعض ما يقدر عليه ، فلما خاب أملي بكيت ، فقال له سيف الدولة : ويلك فمن يكون له مثل هذا النثر يكون له ذلك النظم ، وكم كنت أملت ؟ قال : خمسمائة درهم ، فأمر له بألف درهم فأخذها وانصرف . اهـ .

دولة الأدب في حلب

على عهد سيف الدولة بن حمدان

تحت هذا العنوان ألقى في حلب الأديب الفاضل محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق محاضرة في نادي الشهباء ، وذلك في رجب سنة ١٣٤١ الموافق شهر شباط سنة ١٩٢٣ ونشرت في جريدة سورية الشمالية التي تصدر في حلب اقتطفنا منها مالا ذكر له عندنا مما له علاقة في تاريخ الشهباء تتمة للفائدة ، قال في مطلعها :

لكل قرن من قرون العز في العرب نابغة أو نوابغ من الملوك والأمراء ، ومثلهم من العلماء والأدباء ، وقد امتاز القرن الرابع في الشام — وإذا قلنا الشام عنينا هذا القطر المحبوب الممتدّ من العريش إلى الفرات ومن جبال طورس إلى البادية على نحو ما كان يعرفه العرب — بقيام بني حمدان فيه ، ورئيسهم سيف الدولة بن حمدان استولى على القسم الشمالي منه ، والدولة العباسية قد أخذت تتناوشها ملوك الأطراف وأمراؤها في العراق ومصر والشام والجزيرة ، وأخذت دولة الخلافة بالضعف بصنع بعض الخوارج ، ومنهم من كان ينازعها السلطة علناً ، ومنهم من كان يشاركها فيها ويخضع لها في الصورة الظاهرة ، وبنو حمدان كانوا من هذا النوع الأخير .

أصل بني حمدان بطن من بني تغلب بن وائل من العدنانية ، وهم بنو حمدان بن حمدان كانوا ملوك الموصل والجزيرة وحلب في أيام المقتفي بالله* العباسي ، وأول من ملك منهم أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان ثم أخوه إبراهيم بن حمدان ثم أخوه سعيد ونصر أبناء حمدان ، ثم استولى على الشام وحلب معين الدولة علي بن أبي الهيجاء بن حمدان .

رسخت بسيف الدولة أقدام بني حمدان في هذه الديار ، واتخذ حلب عاصمته ، وكانت مملكته عبارة عن جند حمص وجند قنسرين والثغور الشامية والجزرية وديار مضر وديار بكر ، ولما تم له الأمر مثل في بلاده الصورة التي كان يريد أن يمثلها في دمشق وأبى أهلها عليه تمثيلها ، فأخذ يستصفي الأملاك ويصادر الأموال ويبني الدور والقصور ويظهر من الأبهة ما كاد يعجز عنه الخوالف من العباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس والفاطميين في مصر .

لم تكن الجباية في تلك القرون حالة مستقرة ، فما ورد عن التاريخ وأصحابه من قوانينها العادلة السهلة التطبيق كان يجري العمل به في البلاد كلها ، وكانت صورة التنفيذ تختلف باختلاف نزاهة السلطان وعفته عن أموال الناس ، وسيف الدولة كان على الأرجح من القائلين بأن الغاية تبرر الواسطة .

* — الصواب : المتقي لله .

كان رحمه الله على ما أجمع عليه الثقاة مثل ابن حوقل معاصره والأزدي وسبط بن الجوزي يجوّز أخذ ما في أيدي الناس ليستعين به على غزو الروم ، ويسرف بجانب كبير يفضل به على الشعراء والأدباء فيخرجه من أكياس الرعية وجيوبهم لينفقه في وجوه المبرات والعطايا ، ولذلك أسس في هذه المدينة الجميلة دولة في الأدب لم يقم مثلها في الشام منذ نحو عشرين قرناً إلى يومنا هذا .

ليس في العالم شر محض ولا خير محض ، ولكل عاقل في الأرض مزية كما أنه له ما يعدّ عليه من الهنات ، وسيف الدولة من هذا القبيل لم تكن أعماله إلى الخير المحض بمصادراته وإسرافه ، وكانت له مزيتان قل أن يكتبا لغيره ، وهما نهضة الآداب في هذه البلاد ودفع عادية الروم عنها ، ولولاه لعاد إليها سلطانهم بعد أن تقلص بالإسلام نيفاً وثلاثة قرون . وهذا الإجمال كما ترون يحتاج إلى تفصيل .

كان هم سيف الدولة في سياسته الخارجية أن يضعف الروم في آسيا الصغرى ، فكان كثيراً ما يغزوهم ويفتح حصونهم ويسبي من أبنائهم ويخرب في زروعهم وقراهم ويستصفي أموالهم وعروضهم ، وقيل إنه غزاهم أربعين مرة كانت فيها بعض الغزوات له وبعضها عليه ، وكان همه في سياسته الداخلية تنجيد القصور وجمع الأموال والتجوز في أخذ الحلال والحرام منها وإظهار أبهة الملك والإفضال على الشعراء ، وكانت عصبيته من عرب الجزيرة مسقط رأسه ومنبعث دولته ومن عرب الشام مثل بني كلاب الذين أدناهم وأمن سربهم فقهروا العرب وعلت كلمتهم .

قال في مسالك الأبصار : وبنو كلاب هم عرب أطراف حلب والروم ، ولهم غزوات عظيمة معلومة وغارات لا تعد ولا تزال (أي في القرن الثامن) تباع بنات الروم وأبناؤهم من سباياهم ، ويتكلمون بالتركية ويركبون الأكاديش ، وهم عرب غزو ورجال حروب وأبطال جيوش ، وهم من أشد العرب بأساً وأكثرهم ناساً . وكانت له طرق غريبة في الرحمة ، من ذلك أنه سار مرة بالبطارقة الذين في أسره إلى الفداء ، وكان في أسر الروم ابن عمه أبو فراس وجماعة من أكابر الحلبيين والحمصيين ، فأخذ بالفداء ، ولما لم يبق من أسرى الروم أحد اشترى الباقين كل نفس باثنين وسبعين ديناراً حتى نفد ما معه من المال ، فاشترى الباقين

ورهن عليهم بدنته (درعه) الجوهر المعدومة المثل ، ثم لما لم يبق أحد من أسرى المسلمين كاتب نقفور ملك الروم على الصلح ، قال ابن الوردي : وهذه من محاسن سيف الدولة .

ولقد امتازت دولة سيف الدولة بمزيتين : الأولى سياسية إسلامية والثانية علمية أدبية ، فمزيتها السياسية أنه كثيراً ما أغار على الروم وجعل ديدنه التخريب في بلادهم ليردهم عن قصد بلاده ، لأنهم كانوا يطمعون فيها منذ القديم ، ويذكرون من تاريخها أنهم حكموها طويلاً ، فكان بعمله سداً حاجزاً دون انبعاثهم إلى هذه البلاد ، فخدم بذلك الإسلام والعرب ، والمزية الثانية لدولته جعلها كحضرة بني العباس على ضيق رقعتها وذلك في الإفضال على العلم والأدب ، فكان يقصده أهل هذا الشأن فينزلهم في بلاده على الرحب والسعة ويبرهم بصلاته ، قال في دائرة المعارف الإسلامية : (إن الفضل الذي أحرزه سيف الدولة بن حمدان بنشر العلوم والآداب العربية هو عنوان مجد لا يقل عن أعماله الحربية) اهـ .

ومما يؤخذ عليه تغاليه في الإفضال على الشعراء والأدباء ، على أن منهم كأبي الطيب المتنبي مثلاً من فارقه بعد أن منحه الإقطاعات والإنعامات الكثيرة ليستجدي أكف كافور في مصر ، فقد أعطى سيف الدولة شاعره المتنبي ضيعة بالمعرة اسمها [صف] إقطاعاً له ، وأقطع قرية [عين جارة] وهي من الضياع الكبرى ابن علي أحمد بن البازيار نديمه ، عدا ما كان يناله من صلاته ، وذكروا أن الناشىء الأحصّي دخل على سيف الدولة فأنشده قصيدة له فيه ، فاعتذر سيف الدولة بضيق اليد يومئذ وقال له : اعذر فما يتأخر حمل المال ، فإذا بلغك ذلك فأتنا نضاعف جائزتك ونحسن إليك ، فخرج من عنده فوجد على باب سيف الدولة كلاباً تذبح لها السخال وتطعم لحومها ، فعاد إلى سيف الدولة فأنشده هذه الأبيات :

رأيت بباب داركم كلاباً تغذيها وتطعمها السخالا
فما في الأرض أدبر من أديب يكون الكلب أحسن منه حالا

ثم اتفق أن حملت إلى سيف الدولة أموال من بعض الجهات على بغال ، فضاع منها بغل بما عليه وهو عشرة آلاف دينار ، وجاء هذا البغل حتى وقف على باب الناشىء الشاعر

بالأحصّ فأخذ ما عليه من المال وأطلقه ، ثم جاء حلب ودخل على سيف الدولة وأنشده قصيدة يقول له فيها :

ومن ظن أن الرزق يأتي بحيلة فقد كذبته نفسه وهو آثم
يفوت الغنى من لا ينام عن السرى وآخر يأتي رزقه وهو نائم

فقال له سيف الدولة : بحياتي وصل إليك المال الذي كان على البغل ؟ فقال : نعم ، فقال : خذه بجائزتك مباركاً لك فيه . إن ما صدر عن سيف الدولة غاية في الكرم ، ولكنه لا يجوز في الشرع والعقل أن تجبى هذه الأموال من الفقراء والأغنياء لتصرف في مصالح الأمة ثم يأخذها شاعر واحد ، ومعلوم أن العشرة آلاف دينار في القرن الرابع لا تقل قيمتها عن مئة ألف دينار في هذا القرن ، ولذلك قال ابن نباتة في مدح سيف الدولة وقد تبرم بكثرة ما ناله من عطائه :

قد جدت لي باللها حتى ضجرت بها وكدت من ضجر أثني على البخل
إن كنت ترغب في بذل النوال لنا فاخلق لنا رغبةً أو لا فلا تُنل
لم يبق جودك لي شيئاً أؤمله تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

مثال آخر من إسراف سيف الدولة : ذكر أنه ضرب دنانير خاصة للصلات في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته ، قال بعض المؤرخين في حوادث سنة ٣٥٤ : فيها صاهر سيف الدولة أخاه ناصر الدولة فزوج ابنته أبا المكارم وأزوج أبا المعالي بابنة ناصر الدولة وأزوج أبا تغلب بابنته ست الناس ، وضرب دنانير في كل دينار ثلاثون ديناراً وعشرون وعشرة مكتوب عليها محمد رسول الله ، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، فاطمة الزهراء، الحسن، الحسين ، جبريل ، وعلى الجانب الآخر : أمير المؤمنين المطيع لله الأميران الفاضلان ناصر الدولة وسيف الدولة ، الأميران أبو تغلب وأبو المكارم ، وجاد بما لم يجد به أحد ، يقال إن المبلغ الذي جاد به سبعمائة ألف دينار ، فما قولكم بمن يجود بهذا المبلغ في عرس وهو مبلغ جسيم لا تقل قيمته إذا قدرناه بسكة زماننا عن سبعة ملايين دينار ، إن هذا العمل ممقوت شرعاً وعقلاً لأنه التبذير بعينه ، وبهذا رأيتم أن المال لا قيمة له في نظر سيف الدولة ، فقد ذكروا ــ وهو مما يعاب عليه ــ أن الخليفة المتقي العباسي لما استولى البريدي على بغداد استنجد ببني حمدان أمراء الموصل ، فطلب سيف الدولة من الخليفة

مالاً لينفقه في الجيش حتى يقويه ويمنع الأتراك من بغداد ، فأعطاه الخليفة أربعمائة ألف دينار ففرَّقها سيف الدولة في أصحابه ، ثم هرب سيف الدولة ودخل [تورون] بغداد وملكها .

وذكر ابن حوقل في كلامه على بالس [مسكنة] أن سيف الدولة بعد انصرافه عن لقائه صاحب مصر وقد هلك جميع جنده أنفذ المعروف بأبي الحصين القاضي ، فقبض من تجار كانوا بها معتقلين عن السفر ولم يطلق لهم النفوذ ، فأخرجهم عن أحمال وأطواف زيت إلى ما عدا ذلك له من متاجر الشام في دفعتين بينهما شهور قلائل وأيام يسيرة ألف ألف دينار .

قال ابن مسكويه : كان سيف الدولة معجباً بنفسه يحب أن يستبد برأيه ، كريماً شجاعاً محباً للفخر والبذخ ، مفرطاً في السخاء والكرم ، شديد الاحتيال لمناظريه والعجب بآرائه ، سعيداً مظفراً في حروبه ، جائراً على رعيته اشتد بكاء الناس عليه ومنه .

ولقد قيل إنه اجتمع لسيف الدولة بن حمدان ما لم يجتمع لغيره من الملوك ، كان خطيبه ابن نباتة الفارقي ومعلمه ابن خالويه ومطربه الفارابي وطباخه كشاجم وخزان كتبه الخالديين [وهما يشبهان الأخوين الإفرنسيين ليكو نكور] والصنوبري ومداحه المتنبي والسلامي والوأواء الدمشقي والببغاء والنامي وابن نباتة السعدي وغيرهم ، بل إنه اجتمع ببابه ما لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز بما يمدح به ، ولقد أورد صاحب اليتيمة من شعراء سيف الدولة وممن كانوا يقصدونه من الآفاق لينفقوا من أدبهم في سوقه ما هو بهجة النفوس مدى الأيام ، وربما قل في الملوك من مدح بمثل ما مدح به سيف الدولة ، حتى إن كلاً من أبي محمد عبد الله بن محمد القياض الكاتب وأبي الحسن علي بن محمد السميساطي قد اختارا من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت ، وكل هذه الإجادة في الشعر وتخريج الرجال كانت منبعثة من وراء إعطاء سيف الدولة للمال بدون حساب .

تجلت في عهد سيف الدولة في ديار الشام روح غريبة في الأدب العربي وظهر بمظهر لم يسبق له عهد مثله ولا جاء في القرون التالية شبه له ونظير ، اللهم إلا إذا كان على عهد

الأمويين ، ولم تبلغنا أخبار شعرائه . وقد استفاد من هذه الحركة الأدبية القاصي والداني ، كان أبو بكر الخوارزمي في ريعان عمره قد دوّخ بلاد الشام وحصل من حضرة سيف الدولة بحلب في مجمع الرواة والشعراء ومطرح الغرباء والفضلاء ، فأقام ما أقام بها على أبي عبد الله ابن خالويه وأبي الحسن السميساطي وغيرها من أئمة الأدباء وأبي الطيب المتنبي وأبي العباس النامي وغيرهما من فحول الشعراء بين علم يدرسه وأدب يقتبسه ومحاسن ألفاظ يستفيدها وشوارد أشعار يصيدها ، وهو أحد أفراد الدهر وأمراء النظم والنثر ، وكان يقول : ما فتق قلبي وصقل ذهني وأرهف حد لساني وبلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء نفسي .

قام سيف الدولة بهذه النهضة الأدبية وقد كان القرن الثالث في الشام يخلو من الشعراء والأدباء ، لأنهم قصدوا بغداد عاصمة الملك وبقيت الشام بمعزل . ولم ينبغ في هذا العصر غير رجال في الحديث والمغازي والفقه ، وضعف الأدب حتى أخذ ابن حمدان بيده وأيدي المشتغلين به ، فكأن القرنين السالفين كانا كالمقدمة للكتاب الكبير الذي صدر في القرن الرابع وشرحه نوابغ الأدب العربي أحسن شرح ، وفيه قام أساطين الشعر أبو تمام وأبو الطيب وأبو عبادة وإليهم انتهت الزعامة في الإجادة .

بلادنا بلاد الشعر ، والشعر كان مبدأ دخول العرب في الحضارة ، لم يحرصوا على شيء حرصهم على روايته ودرايته ، وأشد ما يكثر الشعراء في أرض صح إقليمها واعتدل نسيمها وطابت تربتها وأديمها وصفت أمواهها وسنح نميرها وكثرت ظلالها بأشجارها وغرَّدت أطيارها في أسحارها ، وهذه الحالة على حصة موفورة في القطر الذي يتاخم جزيرة العرب وشمالها ، فكان شعراء الشام وما يقاربها أشعر من شعراء العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام ، والسبب في تبريزهم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم — كما قالوا — من خطط العرب ، ولا سيما أهل الحجار ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم .

وإذا أضيفت إلى هذه الأسباب الطبيعية أسباب أخرى من تنشيط ملك وإعجاب أمة بعمل العالم أو الشاعر والكاتب تفتحت القرائح وتجلى نبوغ الأفراد في أجمل مظاهره ،

كما جرى في أيام سيف الدولة الذي يشبه من كثير من الوجوه لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، هذا مع اعتبار الفرق بين العصرين ، فإن ابن القرن التاسع لا يتأتى أن يكون مثل ابن القرن التاسع عشر ، وابن غربي آسيا لا يصح بحال من الأحوال أن يشبه ابن غربي أوروبا ، ولكن الرجال قد يتشابهون على كل حال ، ووجه الشبه ظاهر بين الملكين ولا سيما فيما يتعلق بالمعارف والآداب ، ولكن عمل لويس الرابع عشر اتصل بعده وما زال في نمو وعلوٍّ ، وعمل سيف الدولة زال — ويا للأسف — بزواله ، وهذا أهم فرق بين هذا المشرق وذاك الغرب ، هناك يتسلسل الفكر قروناً وهنا ينقطع ويتحول ، هنالك تتناوله الجماعات بعد الأفراد فتحسنه وتزيد فيه وهنا يدفن مع صاحبه ولا يبقى غير تذكاره ، فعاش الشرق بالفرد وعاش الغرب بالجماعة !!!

لو ألهم سيف الدولة أن يقتصد قليلاً من جوائز الشعراء فقط ، خل عنك سائر إسرافاته ، ويعمل فيها عملاً يكل أمره إلى إبقاء الأجيال التي جاءت بعده لأثر وحده في مدنية الشام أكثر من تأثير الرومان واليونان ، ولما نسي اسمه إلا من دواوين الأدب وأسفار المحاضرات ، ومن قام أمره بالاستبداد ولم يحفل بآراء أصحاب الرأي تضمحل سلطته عند أول عارض داخلي أو خارجي يعرض لها .

إن سيف الدولة مثل الاستبداد الممزوج بالعقل وحب الأدب والشعر ، لأنه كان شاعراً مجيداً جيد الطبع كريم النفس ، وكانت فائدته الشخصية أقل من فائدة الآداب عامة على يده ، وجعل الشهباء مركز دائرته فأصبحت في سنين قليلة عاصمة الآداب فأورثنا شعراء سيف الدولة وأورثوه مجداً لا يبلى على وجه الدهر جديده اهـ .

ولاية أبي المعالي شريف بن سيف الدولة للمرة الأولى من سنة ٣٥٦ إلى سنة ٣٥٨

قال في المختار من الكواكب المضية : لما توفي سيف الدولة كان ابنه أبو المعالي سعد الدولة بميافارقين ، فسار غلمان سيف الدولة وأحضروه إلى حلب ، فوصل إليها في ربيع الأول سنة ست وخمسين ، وجلس الحاجب قرعويه بحضرته ورد التدبير إليه .

سنة ٣٥٧

قال ابن الأثير : فيها في ذي القعدة وصلت سرية كثيرة من الروم إلى أنطاكية ، فقتلوا في سوادها وغنموا وسبوا اثني عشر ألفاً من المسلمين .

وفي هامش تجارب الأمم نقلاً عن صاحب تاريخ الإسلام : في هذه السنة في ذي القعدة أقبل عظيم الروم نقفور بجيوش إلى الشام ، فخرج من الدرب ونازل أنطاكية ، فلم يلتفتوا إليه ، فهددهم وقال : أرحل وأضرب الشام وأعود إليكم من الساحل ، ورحل في اليوم الثالث ونازل معرة مصرين فأخذها وغدر بهم وأسر منهم أربعة آلاف ومائتي نسمة ، ثم نزل على معرة النعمان فأحرق جامعها ، وكان الناس قد هربوا في كل وجه إلى الحصون والبراري والجبال المنيعة ، ثم سار إلى كفر طاب وشيزر ثم إلى حماة وحمص فخرج من بقي بها ، فأمنهم ودخلها فصلى في البيعة وأخذ منها رأس يحيى بن زكريا وأحرق الجامع ، ثم سار إلى عرقة فافتتحها ، ثم سار إلى طرابلس فأخذ ربضها ، وأقام في الشام أكثر من شهرين ورجع ، فأرضاه أهل أنطاكية بمال عظيم .

وقال أيضاً : ووصل ملك الروم لعنه الله إلى حمص وملكها بالأمان ، وخافهم صاحب حلب أبو المعالي بن سيف الدولة فتأخر عن حلب إلى بالس وأقام بها الأمير قرعويه ، ثم ذهب أبو المعالي إلى ميافارقين لما تفرق عنه جنده وصاروا إلى ابن عمه صاحب الموصل أبي تغلب ، فبالغ في إكرامهم ، ثم رد أبو المعالي إلى حلب فلم يمكن من دخولها ، واستضعفوه وتشاغل بحب جارية ، فرد إلى سروج فلم يفتحوها له ، ثم إلى حران فلم يفتحوا له أيضاً ، واستنصر بابن عمه أبي تغلب فكتب إليه يعرض عليه المقام بنصيبين ، ثم صار إلى ميافارقين في ثلثمائة فارس فقل ما بيده ، ووافت الروم إلى ناحية ميافارقين وأرزن يعيثون ويقتلون ، وأقاموا ببلد الإسلام خمسة عشر يوماً ورجعوا بما لا يحصى اهـ .

وفي المختار من الكواكب المضية : ثم إن أبا المعالي أخرج قرعويه من حلب لمخالفة أهل حلب عليه ، فتقرب إليهم بعمارة السور والقلعة ، وكانت قد هدمتها الروم حين هجموها سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ، وكان قد اتفق وصول عساكر الروم إلى ناحية

أنطاكية ، فأشار قرعويه على سعد الدولة بالخروج من حلب ، فلما خرج قال له أهل حلب : لا يريدونك فامض إلى والدتك ، فمضى إلى ميافارقين ، واستولى قرعويه على حلب في المحرم سنة ثمان وخمسين هو ومولاه بكجور الحاجبي ، وكتب اسمه مدة على السكة ودعي له على المنابر .

ولاية قرعويه غلام سيف الدولة سنة ٣٥٨

قال له ابن الأثير : في هذه السنة دخل ملك الروم الشام لم يمنعه أحد ولا قاتله ، فسار في البلاد إلى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة ، فملكها ونهبها وسبى من فيها ، إلى أن قال : وأقام في الشام شهرين يقصد أي موضع شاء ، وأراد أن يحصر أنطاكية وحلب فبلغه أن أهلها قد أعدوا الذخائر والسلاح وما يحتاجون إليه ، فامتنع من ذلك وعاد ، وكان بحلب قرعويه غلام سيف الدولة بن حمدان وقد أخرج أبا المعالي بن سيف الدولة منها على ما نذكره ، فصانع الروم عليها فعادوا إلى بلادهم .

قال : ولما أخرج قرعويه غلام سيف الدولة أبا المعالي شريف بن سيف الدولة بن حمدان سار أبو المعالي إلى حران فمنعه أهلها من الدخول إليهم ، فطلب منهم أن يأذنوا لأصحابه أن يدخلوا ويتزودوا منها يومين ، فأذنوا لهم ، ودخل إلى والدته بميافارقين وهي ابنة سعيد بن حمدان وتفرق عنه أكثر أصحابه ، ومضوا إلى أبي تغلب بن حمدان ، فلما وصل إلى والدته بلغها أن غلمانه وكتابه قد عملوا على القبض عليها وحبسها كما فعل أبو تغلب بأبيه ناصر الدولة ، فأغلقت أبواب المدينة ومنعت ابنها من دخولها ثلاثة أيام حتى أبعدت من تحب إبعاده واستوثقت لنفسها ، وأذنت له ولمن بقي معه في دخول البلد ، وأطلقت له الأرزاق ، وبقيت حران لا أمير عليها ، ولكن الخطبة فيها لأبي المعالي بن سيف الدولة ، وفيها جماعة من مقدمي أهلها يحكمون فيها ويصلحون من أمور الناس ، ثم إن أبا المعالي عبر الفرات إلى الشام وقصد حماة فأقام بها .

سنة ٣٥٩

ذكر استيلاء الروم على أنطاكية وحلب وعودهم عنها

قال ابن الأثير : في هذه السنة في المحرم ملك الروم مدينة أنطاكية ، وسبب ذلك أنهم حصروا حصناً بالقرب من أنطاكية يقال له لوقا ، وأنهم وافقوا أهله وهم نصارى على أن يرتحلوا منه إلى أنطاكية ويظهروا أنهم انتقلوا منه خوفاً من الروم ، فإذا صاروا بأنطاكية (أعانوهم على فتحها ، وانصرف الروم عنهم بعد موافقتهم على ذلك ، وانتقل أهل الحصن ونزلوا بأنطاكية) ★ بالقرب من الجبل الذي بها ، فلما كان بعد انتقالهم بشهرين وافى الروم مع أخي نقفور الملك ، وكانوا نحو أربعين ألف رجل فأحاطوا بسور أنطاكية وصعدوا الجبل إلى الناحية التي بها أهل حصن لوقا ، فلما رآهم أهل البلد قد ملكوا تلك الناحية طرحوا أنفسهم من السور وملك الروم البلد ووضعوا في أهله السيف ، ثم أخرجوا المشايخ والعجايز والأطفال من البلد وقالوا لهم : اذهبوا حيث شئتم ، فأخذوا الشباب من الرجال والنساء والصبيان والصبايا فحملوهم إلى بلاد الروم سبياً ، وكانوا يزيدون على عشرين ألف إنسان ، وكان حصرهم له في ذي الحجة .

ولما ملك الروم أنطاكية أنفذوا جيشاً كثيفاً إلى حلب وكان أبو المعالي شريف بن سيف الدولة محاصراً لها وبها قرعويه السلفي متغلباً عليها ، فلما سمع أبو المعالي خبرهم فارق حلب وقصد البرية ليبعد عنهم ، وحصروا البلد وفيه قرعويه وأهل البلد قد تحصنوا بالقلعة ، فملك الروم المدينة وحصروا القلعة ، فخرج إليهم جماعة من أهل حلب وتوسطوا بينهم وبين قرعويه ، وترددت الرسل فاستقر الأمر بينهم على هدنة مؤبدة على مال يحمله قرعويه إليهم وأن يكون الروم إذا أرادوا الغزاة لا يمكن قرعويه أهل القرايا من الجلاء عنها ليبتاع الروم ما يحتاجون إليه منها ، وكان مع حلب حماة وحمص وكفرطاب والمعرة وأفامية وشيزر وما بين تلك الحصون والقرايا ، وسلموا الرهائن إلى الروم وعادوا عن حلب وتسلمها المسلمون .

★ ما بين القوسين سقط سهواً في الطبعة الأولى فأثبتناه نقلاً عن ابن الأثير .

وفيها في ربيع الآخر اصطلح قرعويه مع أبي المعالي بن سيف الدولة وخطب لأبي المعالي بحلب وكان بحمص ، وخطب هو وقرعويه في أعمالهما للمعز لدين الله العلوي صاحب المغرب . وفيها في جمادى الأولى سار أبو تغلب ابن ناصر الدولة بن حمدان إلى حران فرأى أهلها قد أغلقوا أبوابها وامتنعوا منه فنازلهم وحصرهم ، فرعى أصحابه زروع تلك الأعمال ، وكان الغلاء في العسكر كثيراً ، فبقي كذلك إلى ثالث عشر جمادى الآخرة ، فخرج إليهم نفران من أعيان أهلها ليلاً وصالحاه وأخذ الأمان لأهل البلد وعادا ، فلما أصبحا أعلما أهل حران ما فعلاه فاضطربوا وحملوا السلاح وأرادوا قتلهما ، فسكنهم بعض أهلها فسكنوا واتفقوا على إتمام الصلح وخرجوا جميعهم إلى أبي تغلب وفتحوا أبواب البلد ، ودخله أبو تغلب وأخوته وجماعة من أصحابه وصلوا به الجمعة وخرجوا إلى معسكرهم ، واستعمل عليهم سلامة البرقعيدي لأنه طلبه أهله لحسن سيرته ، وكان إليه أيضاً عمل الرقة ، وهو من أكابر أصحاب بني حمدان ، وعاد أبو تغلب إلى الموصل ومعه جماعة من أحداث حران .

ولاية بكجور غلام قرعويه
من سنة ٣٦٠ إلى سنة ٣٦٦

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٣٦٦ : كان قرعويه قد استناب بحلب مولى له اسمه بكجور ، فقوي بكجور واستفحل أمره ، وقبض على مولاه قرعويه وحبسه في قلعة حلب وأقام بها نحو ست سنين .

قال الجلال السيوطي في كتاب الصلصلة في الزلزلة : وفي سنة ٣٦٢ زلزت بلاد الشام وهدمت الحصون ووقع من أبراج أنطاكية عدة ومات تحت الردم خلق كثير .

ولاية أبي المعالي شريف سنة ٣٦٦ للمرة الثانية

لما عاد أبو المعالي شريف من ميافارقين إلى حماة ونزلها ، وكانت الروم قد خربت حمص وأعمالها ، نزل إليه بارقتاش مولى أبيه وهو بحصن برزويه وخدمه وعمر له مدينة حمص فكثر أهلها .

قال ابن الأثير : ولما استبد بكجور بأمر حلب كتب من بها من أصحاب قرعويه إلى أبي المعالي بن سيف الدولة ليقصد حلب ويملكها ، فسار إليها وحصرها أربعة أشهر وملكها وبقيت القلعة بيد بكجور ، فترددت الرسل بينهما ، فأجاب إلى التسليم على أن يؤمنه في نفسه وأهله وماله ويوليه حمص ، وطلب بكجور أن يحضر هذا الأمان والعهد وجوه بني كلاب ، ففعل أبو المعالي ذلك وأحضرهم الأمان والعهد وسلم قلعة حلب إلى أبي المعالي ، وسار بكجور إلى حمص فتولاها لأبي المعالي وصرف همته إلى عمارتها وحفظ الطرق ، فازدادات عمارتها وكثر الخير بها ، ثم انتقل منها إلى ولاية دمشق على ما نذكره سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة .

سنة ٣٦٨ استيلاء أبي المعالي على ديار مضر

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٣٦٨ : كان متولي ديار مضر لأبي تغلب بن حمدان سلامة البرقعيدي ، فأنفذ إليه سعد الدولة بن سيف الدولة من حلب جيشاً ، فجرت بينهم حروب ، وكان سعد الدولة قد كاتب عضد الدولة [ملك بغداد] وعرض نفسه عليه ، فأنفذ عضد الدولة النقيب أبا أحمد والد الشريف الرضي إلى البلاد التي بيد سلامة فتسلمها بعد حرب شديد ، ودخل أهلها في الطاعة ، فأخذ عضد الدولة لنفسه الرقة حسب ، ورد باقيها إلى سعد الدولة فصارت له .

سنة ٣٧٣

قال في الزبد والضرب : في هذه السنة نزل فردوس الدمستق على باب حلب في خمسمائة ألف ما بين فارس وراجل وسعد الدولة بحلب غير محتفل به ، ثم التقى العسكران في الميدان ، فرجع عسكر فردوس أقبح رجوع ، وسير سعد الدولة جيشه خلفه غازياً حتى بلغت عساكره أنطاكية اهـ .

وانظر ترجمة الشيخ عبد الرزاق أبي نمير المتوفي سنة ٤٢٥ ، ويغلب على الظن أن هذا العدد مبالغ فيه جداً .

سنة ٣٧٨

قال ابن الأثير : في هذه السنة عزل بكجور عن دمشق ، وسبب ذلك أنه أساء السيرة في دمشق ، فجهز العزيز بالله إليه العساكر من مصر مع القائد منير الخادم ، فساروا إلى الشام فجمع بكجور العرب وغيرها وخرج فلقي العسكر المصري عند داريا وقاتلهم ، فاشتد القتال بينهم فانهزم بكجور وعسكره وخاف من وصول نزّال والي طرابلس ، وكان قد كوتب من مصر بمعاضدة منير ، فلما انهزم بكجور خاف أن يجيء نزال فيؤخذ فأرسل يطلب الأمان ليسلم البلد إليهم ، فأجابوه إلى ذلك ، فجمع ماله جميعه وسار وأخفى أثره لئلا يغدر المصريون به ، وتوجه إلى الرقة فاستولى عليها .

سنة ٣٨١

ذكر وفاة سعد الدولة أبي المعالي بن سيف الدولة بعد قتله بكجور غلامه

قال الوزير أبو شجاع في ذيل تجارب الأمم في حوادث هذه السنة : فيها ورد الخبر بوفاة سعد الدولة أبي المعالي بن سيف الدولة بعد قتله بكجور غلامه .[1][2]

شرح الحال في عصيان بكجور وما آل إليه أمره من القتل ونبذ من أخبار المصريين تتصل بها

قال في ذيل التجارب : كان لسعد الدولة غلام يعرف ببكجور ، فاصطنعه وقلده الرقة والرحبة واستكتب له أبا الحسن علي بن الحسين المغربي ، فلما طالت مدته في ولايته

(١) وأما ابتداء أمر بكجور هذا فليراجع تاريخ ابن القلانسي ص ٢٧ اهـ . كذا في هامش التجارب .

(٢) قال فانديك في كتابه اكتفاء القنوع بما هو مطبوع في صحيفة ٩٢ ، تاريخ تولي سعد الدولة على حلب طبع مع ترجمة ألمانية سنة ١٨٢٠ م في مدينة ليون باعتناء العلامة فرايتاغ اهـ .

جحد الإحسان وحدث نفسه بالعصيان واستغوى طائفة من رفقائه فصاروا إليه وخرج إلى أبي الحسن المغربي بسره ، فأشار إليه بمكاتبة صاحب مصر الملقب بالعزيز والتحيز إليه ، فقبل منه وكاتبه واستأذنه في قصد بابه ، فأذن له وسار عن الرقة بعد أن خلف عليها سلامة الرشيقي غلامه وأخذ رهائن أهلها على الطاعة ، فلقيته كتب صاحب مصر وخلعه وعهده على دمشق ، فنزل بها وتسلمها ممن كان والياً عليها ووجد أحداثها وشبانها مستولين ففتك بهم وقتل منهم وقامت هيبته بذلك (وهذا في سنة ٣٧٧ كذا في الهامش نقلاً عن ابن القلانسي ص ٣٠) وترددت بينه وبين عيسى بن قسطورس الوزير مكاتبات خاطبه فيها بكجور بخطاب توقع عيسى أوفى منه ، ففسد ما بينهما وأسرّ عيسى العداوة له وأساء غيبه ، وقطع بكجور مكاتبة عيسى وشكاه إلى صاحب مصر ، فأمر عيسى باستئناف الجميل معه فقبل ظاهراً وخالف باطناً . وخاف بكجور عيسى ومكيدته فاستمال طوائف من العرب وصاهرهم فمالوا إليه رغبة ، وعاد إلى الرقة وكتب إليه صاحب مصر يعاتبه على فعله فأجابه جواب المعتذر الملاطف .

ذكر السبب في مسير بكجور إلى حلب لقتال مولاه

قال في ذيل التجارب : كان لبكجور رفقاء بحلب يوادونه ، فكاتبوه وأطمعوه في الأمر وأعلموه تشاغل سعد الدولة باللذة ، فاغتر بأقوالهم وكتب إلى صاحب مصر يبذل له فتح حلب ويطلب منه الأنجاد والمعونة[1] ، فأجابه إلى كل ملتمس وكتب إلى نزّال الغوري والي طرابلس بالمسير إليه متى استدعاه من غير معاودة ، وكان نزّال هذا من قواد المغاربة وصناديدهم ومن صنايع عيسى وخواصه .

ذكر الحيلة التي رتّبها عيسى (وزير مصر) مع نزّال في التقاعد ببكجور حتى ورّطه

كتب عيسى إلى نزّال سراً بأن يظهر لبكجور المسارعة ويبطن له المدافعة ، فإذا

(١) العبارة في ابن الأثير : فأرسل حينئذ بكجور إلى العزيز بالله صاحب مصر يطمعه في حلب ويقول إنها دهليز العراق ومتى أخذت كان ما بعدها أسهل منها .

تورط مع مولاه وصادمه تأخر عنه وأسلمه . فرحل بكجور عن الرقة وكتب بكجور إلى نزّال بأن يسير من طرابلس ليكون وصوله إلى حلب في وقت واحد ، وسار إليها ورحل نزّال وأبطأ في سيره وواصل مكاتبة بكجور بنزوله في منزل بعد منزل وقرب عليه الأمر في وصوله . وقد كان سعد الدولة كتب إلى بسيل عظيم الروم وأعلمه عصيان بكجور عليه وسأله مكاتبة البرجي صاحبه بأنطاكية بالمسير إليه متى استنجده ، فكاتبه بسيل بذلك ، فلما وافى بكجور كتب سعد الدولة إلى البرجي بالمسير إليه ، فسار وبرز سعد الدولة في غلمانه وطوائف عسكره [ولؤلؤ الجراخي الكبير يحجبه] ولم يكن معه من العرب إلا عمرو بن كلاب وعدتهم خمسمائة فارس إلا أنهم أولو بأس ومن سواهم من عدده وعدته(١) ، فنزل إلى الأرض وصلى وعفر خديه وسأل الله تعالى النصر .ثم استدعى كاتبه وأمره بأن يكتب إلى بكجور عنه ويستعطفه ويذكره الله ويبذل له أن يقطعه من الرقة إلى باب حمص ويدعوه إلى الموادعة ورعاية حق الرق والعبودية ، ومضى بالكتاب رسول فأوصله إليه ، فلما وقف عليه قال : الجواب ما يراه عياناً ، فعاد الرسول وأعاد على سعد الدولة قوله وأخبره أنه سائر على إثره ، فتقدم سعد الدولة وتقارب العسكران ورتب المصاف ووقع الطراد .

ذكر جود عاد على سعد الدولة بحفظ دولته وشح آل ببكجور إلى ذهاب مهجته

قال في ذيل التجارب : كان الفارس من أصحاب سعد الدولة إذا عاد إليه وقد طعن أو جرح خلع عليه وأحسن إليه ، وكان بكجور شحيحاً ، فإذا عاد إليه رجل من رجاله على هذه الحالة أمر بأن يكتب اسمه لينظر مستأنفاً في أمره .

وقد كان سعد الدولة كاتب العرب الذين مع بكجور وأمنهم ووعدهم ورغبهم ، فلما حصلت كتبه بالأمان معهم عطفوا على سواده ونهبوا واستأمنوا إلى سعد الدولة ، ورأى بكجور ما تم عليه من تقاعد نزّال به وانصراف العرب عنه وتأخر رفقائه الذين كاتبوه

(١) زاد في الهامش هنا ابن القلانسي ص ٣٤ : ومن سواهم من بطون العرب بني كلاب مع بكجور وأعجبه [يعني سعد الدولة] ما رأى من عدده وعدته إلخ .

ووعدوه بالانحياز إليه إذا شاهدوه ، فاستدعى الحسن المغربي كاتبه وقال له : لقد غررتني فما الرأي الآن ؟ قال له : أيها الأمير لم أكذبك في شيء قلته ولا أردت إلا نصحك ، والصواب مع هذه الأسباب أن ترجع إلى الرقة وتكاتب صاحب مصر بما اعتمده نزّال معك وتعاود استنجاده . وكان في العسكر قائد من القواد يجري مجراه في التقدم فسمع ما جرى بينهما فقال لبكجور : هذا كاتبك إذا جلس في دسته قال [الأقلام تنكس الأعلام] ، فإذا تحققت الحقائق أشار علينا بالهرب ، والله لا هربنا ، وحلف بالطلاق على ذلك ، وسمع أبو الحسن المغربي قوله فخاف . وكان قد واقف بدوياً من بني كلاب على أن يحمله إلى الرقة متى كانت هزيمته وبذل له ألف دينار على ذلك ، فلما استشعر ما استشعر قدم ما كان أخّره وسأل البدوي تسييره إلى الرقة فسيّره .

ذكر ما دبره بكجور بفضل شجاعته فحالت المقادير دون إرادته

قال في ذيل التجارب : لما رأى الأمر معضلاً عمل على أن يعمد إلى الموضع الذي فيه سعد الدولة من المصاف ويحمل عليه بنفسه ومن ينتخبه من صناديد عسكره موقعاً به ، فاختار وجوه غلمانه وقال لهم : قد حصلنا من هذه الحرب على شرف أمرين صعبين من هزيمة وهلاك ، وقد عولت على كيت وكيت ، فإن ساعدتموني رجوت لكم الفتح ، فقالوا : نحن طوعك وما نرغب بنفوسنا عن نفسك ، فغدر واحد من الغلمان واستأمن إلى لؤلؤ الجراحي وأعلمه بما عول عليه .

ذكر ما فعله لؤلؤ من افتداء مولاه بنفسه فنجاهما الله بحسن النية

قال في ذيل التجارب : أسرع لؤلؤ إلى سعد الدولة وأخبره الحال وقال : قد أيس بكجور من نفسه وهو لا شك فاعل ما قد عزم عليه ، فانتقل من مكانك إلى مكاني لأقف أنا في موضعك وأكون وقاية لك ولدولتك ، فقبل سعد الدولة رأيه ، ووقف لؤلؤ

تحت الراية وجال بكجور في أربعمائة غلام شاكين في السلاح ، ثم حمل في عقيب جولته حملة أفرجت له العساكر ، ولم يزل يخبط من تلقاه بالسيف إلى أن وصل إلى لؤلؤ وهو يظنه سعد الدولة فضربه على الخودة ضربة قدها ووصلت إلى رأسه ، ووقع لؤلؤ إلى الأرض وحمل العسكر على بكجور ، وبادر سعد الدولة عائداً إلى مكانه مظهراً نفسه لغلمانه ، فلما رأوه قويت شوكتهم وثبتت أقدامهم واشتدوا في القتال حتى استفرغ بكجور وسعه ، ثم انهزم في سبعة نفر .

ذكر ما جرى عليه أمر بكجور بعد الهزيمة إلى أن قتل

قال الوزير أبو شجاع في ذيل تجارب الأمم : كانت تحت بكجور فرس ثمنه ألف دينار ، فانتهى إلى ساقية تحمل الماء إلى رحا الطريق سعتها قدر ذراعين ، فجهد على أن يعبرها خوضاً أو وثباً فلم يكن فيه قوة ووقف ، ولحقته عشرة فوارس من العرب فرجلته وأصحابه وجردوهم من ثيابهم وآبوا عنهم بأسلابهم ، ونجا بكجور ومن معه إلى الرحا فاستكنوا فيه ، ثم خرجوا من بعد إلى قراع فيه زرع فمر بهم قوم من العرب وكان فيهم رجل من بني قطن كان بكجور يستخدمه كثيراً في مهماته ، فناداه أن ارجع فرجع وهو لايعرفه ، فأخذ زمامه ثم عرفه نفسه وبذل له على إيصاله الرقة حمل بعيره ذهباً ، فأردفه وحمله إلى بيته وكساه ، وكان سعد الدولة قد بث الخيل في طلبه وجعل لمن أحضره حكمه ، فساء ظن البدوي وطمع فيما كان سعد الدولة بذله ، واستشار ابن عمه في أمره فقال له : هو رجل بخيل وربما غدر في عدوه ، وإذا قصدت سعد الدولة به حظيت برفده ، فأسرع البدوي إلى معسكر سعد الدولة وأشعره بحال بكجور واحتكم عليه مائتي فدان زراعةً ومائة ألف درهم ومائة راحلة محملة براً وخمسين قطعة ثياباً ، فبذل له سعد الدولة ذلك جميعه . وعرف لؤلؤ الجراحي الخبر وتقرر أن يمضي البدوي ويحضره ، فتحامل وهو مثخن بالجراحة التي أصابته ومشى يتهادى على أيدي غلمانه حتى حضر عند سعد الدولة .

ذكر حزم أخذ به لؤلؤ دل منه على أصالة رأي

قال الوزير في الذيل : لما حضر سأل عما يقوله البدوي فأخبر به فقبض لؤلؤ على

يده وقال له : أين أهلك ؟ فقال : في المرج على فرسخ ، فاستدعى جماعة من غلمانه وأمرهم أن يسرعوا إلى الحلة ويقبضوا على بكجور ويحملوه ، فتوجهوا وهو قابض على يد البدوي والبدوي يستغيث ، فقدم لؤلؤ إلى سعد الدولة وقال : يا مولانا ، لا تنكر عليَّ فعلي فإنه مني عن استظهار في خدمتك ، فلو عاد هذا البدوي إلى بيته لم نأمن أن يبذل له بكجور مالاً جماً فيقبل منه وتطلب منه بعد ذلك أثراً بعد عين ، والذي طلبه البدوي مبذول وما ضر الاحتياط ، فقال له سعد الدولة : أحسنت يا أبا محمد لله درك ، ولم يمض ساعات حتى أحضر بكجور ، فشاور سعد الدولة لؤلؤاً في أمره فأشار عليه بقتله خوفاً من أن تسأل أخت سعد الدولة فيه فيفرج عنه ، فأمر عند ذلك بضرب عنقه .

فسار سعد الدولة إلى الرقة فنزل عليها وفيها سلامة الرشيقي وأبو الحسن المغربي وأولاد بكجور وحرمه وأمواله ونعمه ، فأرسل إلى سلامة يلتمس منه تسليم البلد ، فأجابه بأني عبدك وعبد عبدك ، إلا أن لبكجور عليّ عهوداً ومواثيق لا مخلص لي عند الله منها إلا بأحد أمرين : إما أنك تذم لأولاده على نفوسهم وحرمهم وتقتصر فيما تأخذه منهم على آلات الحرب وعددها وتحلف لهم على الوفاء به ، وإما بأن أبلي عذراً عند الله تعالى فيما أخذ عليَّ من عهد وعقد معي من عقد ، فأجابه سعد الدولة إلى ما اشترطه من الذمام وحلف له بيمين مستوفاة الأقسام ، ودخل فيها الأمان لأبي الحسن المغربي بعد أن كان قد هدر دمه ، إلا أنه أمنه على أن يقيم في بلاده ، فهرب إلى الكوفة وأقام بمشهد أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام .

ذكر ما جرى عليه أمر سلامة الرشيقي وأولاد بكجور في خروجهم من الرقة وغدر سعد الدولة

لما توثق سلامة لنفسه ولأولاد بكجور سلم حصن الرافقة وخرجوا منها ومعهم من الأموال والزينة ما كثر في عين سعد الدولة ، فإنه كان يشاهدهم من وراء سرادقه وبين يديه ابن أبي الحصين القاضي ، وقال له : ما ظننت أن حال بكجور انتهت إلى ما أراه من هذه الأثقال والأموال ، فقال له ابن أبي الحصين : إن بكجور وأولاده مماليك ، وكل ما ملكه

وملكوه هو لك لا حرج عليك فيما تأخذه منهم ، ولا حنث في الأيمان التي حلفت بها ، ومهما كان فيها من وزر وإثم فعلي دونك ، فلما سمع هذا القول أصغى إليه وغدر بهم وقبض على جميع ما كان معهم ، فما كان أسوأ محضر هذا القاضي الذي حسن لسعد الدولة تسويل الشيطان وأفتاه بنقض الأيمان ، ثم لم يقنع بما زين له من غدره ولبس عليه من أمره حتى تكفل له بحمل وزره ، وهل أحد حامل وزر غيره ، أما سمع قول الله تعالى في أهل الضلالة ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحملْ خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾ .

وكان أولاد بكجور كتبوا إلى العزيز بما جرى على والدهم وسألوه مكاتبة سعد الدولة بالإبقاء عليهم .

ذكر ما جرى بين صاحب مصر وسعد الدولة من المراسلات وما اتفق من وفاة سعد الدولة بعقب ذلك

كتب صاحب مصر إليه كتاباً يتوعده فيه ويأمره بالإبقاء عليهم وتسييرهم إلى مصر موفورين ويقول في آخره : فإن خالفت كنت خصمك ووجهت العساكر نحوك ، وأنفذ الكتاب مع فائق الصقلبي أحد خوله وسيره على نجيب إسراعاً به ، فوصل فائق إلى سعد الدولة وقد وصل من الرقة إلى ظاهر حلب وأوصل إليه الكتاب ، فلما وقف عليه جمع وجوه عسكره وقرأه عليهم ثم قال لهم : ما الرأي عندكم ؟ قالوا له : نحن عبيد طاعتك ومهما أمرتنا به كنا عند طاعتك منه ، فأمر بإحضار فائق فأهانه وقال له : عد إلى صاحبك وقل له : لست ممن يستفزه وعيدك وما بك حاجة إلى تجهيز عسكر إلي ، فإنني سائر إليك وخبري يأتيك من الرملة ، وقدم قطعة من عسكره إلى حمص أمامه ، وعاد فائق إلى صاحبه فعرفه ما سمعه ورآه فأزعجه وأقلقه .

وأقام سعد الدولة بظاهر حلب أياماً ليرتب أموره ويتبع العسكر الذي تقدمه ، فعرض له القولنج ، وعاد إلى البلد متداوياً وأبلّ وهني بالسلامة وعول على العود إلى

المعسكر ، فحضرتْ فراشه في الليلة التي عزم على الركوب في صبيحتها إحدى حظاياه وتبعتها النفس الشهوانية المهلكة فواقعها وسقط عنها وقد جف نصفه ، وعرفت أخته الصورة فدخلت إليه وهو يجود بنفسه ، واستدعي الطبيب فأشار بسجر الند والعنبر حوله ، فأفاق قليلاً فقال له الطبيب : أعطني يدك أيها الأمير لآخذ مجسك ، فأعطاه اليسرى فقال : يا مولانا اليمنى ، فقال : أيها الطبيب : ما تركت لي اليمين يميناً ، فكأنه تذكر ما فرط من خيانته وندم على نقض العهد ونكثه . ومضت عليه ثلاث ليال وقضى نحبه بعد أن قلد عهده لولده أبي الفضائل ووصى إلى لؤلؤ الجراحي به وببقية ولده . اهـ من الذيل للوزير أبي شجاع .

قال ابن خلكان في ترجمة أبيه سيف الدولة : كانت وفاة سعد الدولة لخمس بقين من شهر رمضان سنة إحدى وثمانين وثلثمائة وعمره أربعون سنة وستة أشهر وعشرة أيام ، وتولى بعده ولده أبو الفضائل سعد .

ذكر قيام أبي الفضائل سعد بن سعد الدولة بعد أبيه وما جرى له مع العساكر المصرية

قال الوزير في الذيل : جد لؤلؤ في نصب أبي الفضائل في الأمر وأخذ له البيعة على الجند ، وتراجعت العساكر إلى حلب واستأمن منها إلى صاحب مصر وفاء الصقلي وبشارة الأخشيدي ورباح وقوم آخرون ، فقبلهم وأحسن إليهم وولي كل منهم بلداً ، وقد كان أبو الحسن المغربي بعد حصوله في المشهد بالكوفة كاتب صاحب مصر وصار بعد المكاتبة إلى بابه ، فلما توفي سعد الدولة عظم أمر حلب عنده وكثر له أموالها وهون عليها حصولها ، وأشار باصطناع أحد الغلمان وإنفاذه إليها ، فقبل منه إشارته وقدم غلاماً يسمى منجوتكين فخوَّله وموَّله ورفع قدره ونوه بذكره ، وأمر القواد والأكابر بالترجل له وولاه الشام ، واستكتب له أحمد بن محمد القشوري وسيره إلى حلب ، وضم إليه أبا الحسن المغربي ليقوم بالأمر والتدبير .

لما وصل إلى دمشق تلقاه قوادها وأهلها وعساكر الشام كلها ، فأقام بها مدة ، ثم رحل إلى حلب وقد استعد واحتشد ، ونزلها في ثلاثين ألف رجل ، وتحصن أبو الفضائل بن سعد الدولة ولؤلؤ بالبلد . وقد كان لؤلؤ عند معرفته بورود العساكر المصرية كتب إلى بسيل عظيم الروم وذكره ما كان بينه وبين سعد الدولة من المعاهدة والمعاقدة وبذل له عن أبي الفضائل ولده الجري على تلك العادة ، وحمل إليه ألطافاً كثيرة واستنجده وأنفذ إليه ملكوتا السرياني رسولاً ، فوصل إليه ملكوتا وهو بإزاء عساكر ملك البلغز مقاتلاً ، فقبل ما ورد فيه ، وكتب إلى البرجي صاحبه بأنطاكية بجمع عساكر الروم وقصد حلب ودفع المغاربة عنها ، فسار البرجي في خمسة آلاف رجل ونزل بجسر الحديد بين أنطاكية وحلب ، وعرف منجوتكين وأبو الحسن ذلك فجمعا وجوه العسكر وشاوراهم في تدبير الأمر .

ذكر مشورة أنتجت رأياً سديداً كان في أثنائه الظفر بالروم

قال الوزير : أشار ذو الرأي والحصافة منهم بالانصراف عن حلب وقصد الروم والابتداء بهم ومناجزتهم لئلا يحصلوا بين عدوين ، فأجمعوا على ذلك وساروا حتى صار بينهم وبين الروم النهر المعروف بالمقلوب ، فلما تراءى الجمعان تراموا بالنشاب وبينهم النهر وليس للفريقين طريق إلى العبور . فبرز من الديلم الذين في حملة منجوتكين شيخ في يديه ترس وثلاث زوبينات ورمى بنفسه إلى الماء والمسلمون ينظرون إليه والروم يرمونه بالنبل والحجارة وهو يسبح قدماً والترس في يده والماء إلى صدره ، وشاهد المسلمون ذلك وطرحوا نفوسهم في إثره ، وطرحت العرب خيولهم في النهر وهجم العسكر على المخاض وحصلوا مع الروم على أرض واحدة ومنجوتكين يمنعهم فلا يمتنعون ، وأنزل الله تعالى النصر عليهم وولى الروم أدبارهم بين مقتول ومأسور ومغلول ، وأفلت البرجي في عدد قليل وغنمت منهم الغنيمة الكثيرة ، وجمع من رؤوس قتلاهم نحو عشرة آلاف رأس [تقدم أن البرجي سار في خمسة آلاف رجل ، فلعله انضم إليه بعد ذلك غيرهم أو أن العدد هنا مبالغ فيه] وحملت إلى مصر وتمم منجوتكين إلى أنطاكية ونهب رساتيقها وأحرقها ، وكان وقت إدراك الغلة ،

فأنفذ لؤلؤ وأحرق ما يقارب حلب منها إضراراً بالعسكر المصري وقاطعاً للميرة عليهم ، وكر منجوتكين راجعاً إلى حلب .

ذكر تدبير لطيف دبره لؤلؤ في صرف العساكر المصرية عن حلب

قال الوزير : لما رأى لؤلؤ هزيمة الروم وقوة العساكر المصرية وضعفه عن مقاومتهم كاتب أبا الحسن المغربي والقشوري ورغبهما في المال وبذل لهما ما استمالهما به ، وسألهما المشورة على منجوتكين بالانصراف عن حلب في هذا العام والمعاودة في العام القابل لعلة تعذر الأقوات والعلوفات ، فأجاباه إلى ذلك ، وخاطبا منجوتكين به فصادف قولهما منه شوقاً إلى دمشق وخفض العيش ، وضجراً من الأسفار والحروب ، وكتبت الجماعة إلى صاحب مصر بهذه الصورة واستأذناه في الانكفاء . فقبل أن يصل الكتاب ويعود الجواب رحلوا عائدين ، وعرف صاحب مصر ذلك فاستشاط غضباً ووجد أعداء أبي الحسن المغربي طريقاً إلى الطعن عليه فصرفه بصالح بن علي الروذباري .

ذكر ما دبره المتلقب بالعزيز في إمداد العسكر بالميرة وإعادتهم إلى حلب

قال الوزير : آلى العزيز على نفسه أن يمد العسكر بالميرة من غلات مصر مائة ألف تليس [والتليس قفيزان بالمعدل] في البحر إلى طرابلس ، ومنها على الظهور إلى حصن أفامية ، ورجع منجوتكين في السنة الثانية إلى حلب ونزل عليها وصالح بن علي الروذباري المدبر ، فكان يوقع للغلمان بجراياتهم وقضيم دوابهم إلى أفامية على خمسة وعشرين فرسخاً ، فيمضون ويقبضونها ويعودون بها ، وأقاموا على حلب ثلاثة عشر شهراً ، وبنوا الحمامات والخانات والأسواق وأبو الفضائل ولؤلؤ ومن معهما متحصنون بالبلد ، وتعذرت الأقوات

عندهم ، فكان لؤلؤ يبتاع القفيز من الحنطة بثلاثة دنانير ويبيعها على الناس بدينار رفقاً بهم ويفتح الأبواب في الأيام ويخرج من البلد من تمنعه المضرتان عن المقام(1) .

وأشير على منجوتكين بتتبع من يخرج وقتله ليمتنع الناس من الخروج ليضيق الأقوات عندهم فلم يفعل ، وأنفذ لؤلؤ في أثناء هذه الأحوال ملكوتا إلى بسيل عظيم الروم معاوداً لاستنجاده ، وكان بسيل قد توسط بلاد البلغر فقصده ملكوتا إلى موضعه وأوصل إليه الكتاب وقال له : متى أخذت حلب فتحت أنطاكية بعدها وأتعبك التلاقي ، وإذا سرت بنفسك حفظت البلدين وسائر الأعمال .

ذكر مسير بسيل إلى الشام لقتال العساكر المصرية وما جرى عليه أمره في ذلك

قال الوزير : لما سمع بسيل قول ملكوتا سار نحو حلب وبينه وبينها ثلثمائة فرسخ ، فقطعها في ستة وعشرين يوماً ، وقاد الجنائب بأيدي الفرسان وحمل الرجالة على البغال ، وكان الزمان ربيعاً وقد أنفذ منجوتكين وعسكره كراعهم إلى المروج لترعى فيها ، وقرب هجوم بسيل عليهم من حيث لا يشعرون .

ذكر ما دبره واعتمده لؤلؤ من رعاية حرمة الإسلام وإنذار منجوتكين بخبر هجوم الروم

قال : أرسل إلى منجوتكين يقول له إن عصمة الإسلام الجامعة لنا تدعوني إلى إنذاركم والنصح لكم ، وقد أظلكم بسيل في جيوش الروم فخذوا الحذر لأنفسكم ، وجاءت طلائع منجوتكين بمثل الخبر فأحرق الخزائن والأسواق والأبنية التي كان استحدثها ، ورحل

---

(1) قال في الهامش : كذا في الأصل ، وعند ابن القلانسي ص ٤٣ : ويخرج من الناس من أراد من الفقراء من الجوع وطول المقام ، وقد كان أشير الخ . والمضرتان الجوع والوباء .

في الحال منهزماً ، ووافى بسيل فنزل على باب حلب وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ ولقياه ، ثم عاد ورحل في اليوم الثالث إلى الشام وفتح حمص ونهب وسبى ، ونزل على طرابلس فمنعت جانبها منه فأقام نيفاً وأربعين يوماً ، فلما أيس منها عاد إلى بلاد الروم ، وانتهى الخبر إلى صاحب مصر فعظم ذلك عليه وأمر فنودي بالنفير فنفر الناس .

وخرج من داره مستصحباً جميع عساكره وعدده وأمواله ، وسار منها مسافة عشرة فراسخ حتى نزل بلبيس وأقام بظاهرها ، وعارضته علل كثيرة أيس منها من نفسه ثم قضى نحبه اهـ . ثم ساق الوزير اشتغال المصريين بأنفسهم بسبب موت العزيز وبطلت تلك الحملة .

قال في المختار من الكواكب المضية : ولي أبو الفضائل خامس رمضان [الأظهر لخمس بقين من رمضان] سنة إحدى وثمانين وثلثمائة ، وصار المدبر له لؤلؤ بن عبد الله السيفي الكبير مولى سيف الدولة ، وكان قد تقدم عند ولده سعد الدولة وقدمه على أصحابه وجعله مدبر الملك بعده ، فلما مات وولي بعده ابنه أبو الفضائل كان لؤلؤ هو المدبر لملكه ، وتزوج أبو الفضائل ابنته ، وأقام بحلب إلى أن توفي ليلة السبت النصف من صفر سنة إحدى وتسعين وثلثمائة ، سقته جارية له ، وقيل إن لؤلؤ دس عليه ذلك وعلى ابنته زوجة أبي الفضائل فماتا جميعاً .

ولاية أبي الحسن علي وأبي المعالي شريف بن أبي الفضائل من سنة ٣٩١ إلى سنة ٣٩٤

قال في المختار من الكواكب المضية ، لما مات أبو الفضائل استولى لؤلؤ بعده على تدبير ابنيه أبي الحسن وأبي المعالي شريف ، ولم يزل كذلك حتى أحب التفرد بالإمارة ، فأخرج علياً وشريفاً إلى مصر سنة أربع وتسعين وثلثمائة .

ولاية لؤلؤ غلام سيف الدولة من سنة ٣٩٤ إلى سنة ٣٩٩

قال في المختار من الكواكب المضية : لما أخرج لؤلؤ علياً وشريفاً إلى مصر سنة أربع

وتسعين وثلثمائة استقر بأمر حلب هو وولده مرتضي الدولة أبو منصور ، إلى أن توفي لؤلؤ المذكور بحلب سلخ ذي الحجة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ودفن بمسجده المعروف بمسجد لؤلؤ المذكور بالقرب من حمام أوران فيما بين بابي اليهود [باب النصر الآن] والجنان ، وكان للؤلؤ المذكور سرب من القصر لباب الجنان إلى مسجده هذا المذكور وكان يدخل منه إلى المسجد للصلاة .

ولاية مرتضي الدولة أبو نصر منصور بن لؤلؤ
من سنة ٣٩٩ إلى سنة ٤٠٦

قال في المختار من الكواكب المضية : ولما توفي لؤلؤ ملك بعده حلب ابنه مرتضي الدولة .

قال في الزبد والضرب : كان مرتضي الدولة ظالماً بغضه الحلبيون وهجوه هجواً كثيراً ، ومما قيل فيه :

لم تلقب وإنما قيل فالاً مرتضي الدولة التي أنت فيها

ذكر ابتداء حال صالح بن مرداس الكلابي

قال ابن الأثير في حوادث هذه السنة ما ملخصه : أنه كان بالرحبة رجل من أهلها يعرف بابن محكان ، فملك البلد واحتاج إلى من يجعله ظهره ويستعين به على من يطمع فيه ، فكاتب صالح بن مرداس الكلابي فقدم إليه وأقام عنده مدة ، ثم إن صالحاً تغير عن ذلك فسار إلى ابن محكان وقاتله على البلد وقطع الأشجار ، ثم تصالحها ودخل صالح البلد ، إلا أنه كان أكثر مقامه بالحلة . ثم إن ابن محكان راسل أهل عانة فأطاعوه ونقل أهله وماله إليهم وأخذ رهائنهم ، ثم خرجوا عن طاعته وأخذوا ماله واستعادوا رهائنهم وردوا أولاده ، فاجتمع ابن محكان وصالح على قصد عانة فسار إليها فوضع صالح على ابن محكان

من يقتله ، فقتل غيْلة ، وسار صالح إلى الرحبة فملكها وأخذ أموال ابن محكان وأحسن إلى الرعية واستمر على ذلك إلا أن الدعوة للمصريين ★ .

ذكر مجيء صالح بن مرداس إلى حلب وأسره سنة ٤٠٢

قال ابن الأثير : في هذه السنة كانت وقعة بين أبي نصر بن لؤلؤ صاحب حلب وبين صالح بن مرداس ، وكان ابن لؤلؤ من موالي سعد الدولة فقوي على ولد سعد الدولة وأخذ البلد منه (كما تقدم) وخطب للحاكم صاحب مصر ولقبه الحاكم مرتضي الدولة ، ثم فسد ما بينه وبين الحاكم فطمع فيه ابن مرداس وبنو كلاب وكانوا يطالبونه بالصلات والخلع ، ثم اجتمعوا هذه السنة في خمسمائة فارس ودخلوا مدينة حلب فأمر ابن لؤلؤ بإغلاق الأبواب والقبض عليهم ، فقبض على مائة وعشرين رجلاً منهم صالح بن مرداس وحبسهم وقتل مائتين وأطلق من لم يفكر به ، وكان صالح قد تزوج بابنة عم له تسمى جابرة ، وكانت جميلة ، فوصفت لابن لؤلؤ فخطبها إلى ابن أخوتها وكانوا في حبسه ، فذكروا له أن صالحاً قد تزوجها ، فلم يقيل منهم وتزوجها ثم أطلقهم ، وبقي صالح بن مرداس في الحبس ، فتوصل حتى صعد من السور فألقى نفسه من أعلى القلعة إلى تلها واختفى في مسيل ماء (سيأتي أنه اختفى في مغارة بجبل جوشن) ووقع الخبر بهربه فأرسل ابن لؤلؤ الخيل في طلبه ، فعادوا ولم يظفروا به ، فلما سكن عنه الطلب سار بقيده ولبنة حديد في رجليه حتى وصل قرية تعرف بالياسرية ، فرأى ناساً من العرب فعرفوه وحملوه إلى أهله بمرج دابق ، فجمع ألفي فارس فقصد حلب وحاصرها اثنين وثلاثين يوماً ، فخرج إليه ابن لؤلؤ فهزمهم صالح وأسر ابن لؤلؤ وقيده بقيده الذي كان في رجله ولبنته .

وقال في الزبد والضرب : إن بني كلاب طلبوا من مرتضي الدولة ما شرط لهم من الإقطاع ، فدافعهم عنه فتسلطوا على حلب وعاثوا وأفسدوا وضيقوا عليه ، فاحتال وأظهر الرغبة واستقامة الحال بينه وبينهم ، وطلبهم أن يدخلوا إليه ليحالفهم ويقطعهم ، فلما حصلوا بحلب مد لهم السماط والحلوى وغلقت أبواب المدينة وقيد الأمراء وفيهم صالح بن مرداس وقتل منهم أكثر من ألف رجل ، وسير إلى صالح بن مرداس وهو في الحبس وألزمه

★ هكذا في الطبعة الأولى ، وفي الكامل لابن الأثير كذلك

بطلاق زوجته طرود (هناك سماها جابرة) وكانت أجمل عصرها فطلقها وتزوجها منصور وإليها ينسب مشهد طرود خارج باب الجنان في طرف الحلبة ، فكان مرتضي الدولة إذا شرب يعزم على قتل صالح لحنقه عليه من طول لسانه وشجاعته ، فبلغ ذلك صالحاً فخاف على نفسه وركب الصعب في تخليصها واحتال حتى وصل إليه في طعامه ، فبرد حلقة قيدة الواحدة وفكها وصعبت الأخرى عليه فشد القيد في ساقه وثقب حائط السجن وخرج منه في الليل وتدلى من القلعة إلى التل وألقى نفسه فوقع سالماً ليلة الجمعة مستهل محرم سنة خمس وأربعمائة ، واستتر في مغارة بجبل جوشن وأكثر الطلب له والبحث عنه عند الصباح فلم يوقف له على خبر ، ولحق بالحلة (هناك قال إنه أتى مرج دابق) واجتمعت عليه بنو كلاب وقويت نفوسهم بخلاصه فنزل على تل حاصد ، فجمع مرتضي الدولة جنده وحشد جميع من بحلب من الأوباش والسوقة والنصارى واليهود وألزمهم بالسير معه إلى قتال صالح ، فخرجوا فلما وصل مرتضي الدولة إلى جبرين قال : جبرنا ، ولما وصل لوشلا قال : شللنا ، ولما وصل تل حاصد قال : حصدنا ، وأصبح عليهم يوم شديد الحر فماطلهم صالح باللقاء إلى أن عطشوا وجاءوا ، وسير جاسوساً إلى العسكر فجاء وأخبره أن معظم عساكره من اليهود والنصارى وأنه سمع يهودياً يقول لآخر بلغتهم (والك صعبطه اطعزه أتأخر وإياك أن يكون خلفه آخر يطعزك بمطعازه يحقب بيتك للدواغيث) فقوي طمع صالح فيهم وحمل عليهم فكسرهم وأسر مرتضي الدولة وقيده بالقيد الذي كان في رجله ، ثم استقر الأمر مع صالح على أن يقاسمه باطن حلب وظاهرها شطرين فأجابه صالح إلى ذلك بعد أن طلق زوجته طرود اهـ .

وقال في المختار من الكواكب المضية : أسر صالح بن مرداس ابن لؤلؤ على تل حاصد يوم الخميس الخامس من صفر سنة خمس وأربعمائة وأباعه نفسه بنصف ما يملكه من العين والمتاع وأطلقه فأقام بحلب .

قال ابن الأثير بعد ذكر ما نقلناه عنه آنفاً فيما كان في هذه الوقعة : كان مع ابن لؤلؤ فيها ابن أخ له فنجا وحفظ مدينة حلب ، ثم إن ابن لؤلؤ بذل لابن مرداس مالاً على أن يطلقه ، فلما استقر الحال بينهما أخذ رهائنه وأطلقه فقالت أم صالح لابنها : قد أعطاك الله ما لا كنت تؤمله ، فإن رأيت أن تتم صنيعك بإطلاق الرهائن فهو المصلحة ، فإنه إن

أراد الغدر بك لا يمنعه من عندك ، فأطلقهم ، فلما دخل البلد حمل ابن لؤلؤ إليه أكثر مما استقر ، وكان قد تقرر عليه مائتا ألف دينار ومائة ثوب وإطلاق كل أسيرعنده من بني كلاب ، ورحل صالح .

ذكر عصيان فتح غلام مرتضي الدولة منصور واستيلائه على حلب سنة ٤٠٦

قال ابن الأثير : لما رحل صالح أراد ابن لؤلؤ قبض غلامه فتح ، وكان دزدار القلعة لأنه اتهمه بالممالاة على الهزيمة ، وكان خلاف ظنه ، فأطلع على ذلك غلاماً له اسمه مسرور وأراد أن يجعله مكان فتح ، فأعلم مسرور بعض أصدقائه يعرف بابن غانم ، وسبب إعلامه أنه حضر عنده وكان يخاف ابن لؤلؤ لكثرة ماله ، فشكا إلى مسرور ذلك فقال له : سيكون أمر تأمن معه ، فسأله فكتمه ، فلم يزل يخدعه حتى أعلمه الخبر ، وكان بين ابن غانم وبين فتح مودة فصعد إليه بالقلعة متنكراً فأعلمه الخبر وأشار عليه بمكاتبة الحاكم صاحب مصر ، وأمر ابن لؤلؤ أخاه أبا الجيش بالصعود إلى القلعة بحجة افتقاد الخزائن ، فإذا صار فيها قبض على فتح وأرسل إلى فتح يعلمه أنه يريد افتقاد الخزائن ويأمره بفتح الأبواب ، فقال فتح : إنني قد شربت اليوم دواء وأسأل تأخير الصعود في هذا اليوم ، فإنني لا أثق في فتح الأبواب لغيري ، وقال للرسول : إذا لقيته فاردده ، فلما علم ابن لؤلؤ الحال أرسل والدته إلى فتح ليعلم سبب ذلك ، فلما صعدت إليه أكرمها وأظهر لها الطاعة ، فعادت وأشارت على ابنها بترك محاققته ففعل ، وأرسل إليه يطلب جوهراً كان له بالقلعة ، وأشارت والدة ابن لؤلؤ عليه بأن يتمارض ويظهر شدة المرض ويستدعي فتحاً لينزل إليه ليجعله وصياً ، فإذا حضر قبضه ففعل ذلك ، فلم ينزل فتح واعتذر ، وكاتب الحاكم وأظهر طاعته وخطب له وأظهر العصيان على أستاذه وأخذ من الحاكم صيداوبيروت وكل ما في حلب من الأموال ، وخرج ابن لؤلؤ من حلب إلى أنطاكية وبها الروم فأقام عندهم .

قال في المختار من الكواكب المضية : كان خروج مرتضي الدولة منصور بن لؤلؤ هارباً إلى بلد الروم سادس رجب سنة ست وأربعمائة ، ولما هرب استولى فتح اللؤلؤي على

حلب ولقب بمبارك الدولة وسعيدها وعزها ، ثم وصل إلى حلب سديد الدولة أبو الحسن علي بن أحمد العجمي والي حصن أفامية وفتح القلعة وأعاد أملاك الحلبيين التي كان سيف الدولة اغتصبها وبالغ في البذل والخير .

قال ابن الأثير : وتسلم حلب نواب الحاكم (ذكر منهم في المختارمن الكواكب المضية مختار الدولة والي طرابلس ومرهف الدولة والي صيدا ولم يذكر اسميهما ولا السنة التي وليا فيها) وتنقلت بأيديهم حتى صارت بيد إنسان من الحمدانية يعرف بعزيز الملك ، فقدمه الحاكم واصطنعه وولاه حلب ، فلما قتل الحاكم وولي الظاهر عصى عليه فوضعت ست الملك أخت الحاكم فراشاً له على قتله فقتله .

دولة بني مرداس

ذكر استيلاء صالح بن مرداس الكلابي على حلب سنة ٤١٤

قال ابن الأثير : كان للمصريين بالشام نائب يعرف بأنوشتكين الدزبري وبيده دمشق والرملة وعسقلان وغيرها ، فاجتمع حسان أمير بني طي وصالح بن مرداس أمير بني كلاب وسنان بن عليان وتحالفوا واتفقوا على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح ومن الرملة إلى مصر لحسان ودمشق لسنان ، فسار حسان إلى الرملة فحصرها وبها أنوشتكين ، فسار عنها إلى عسقلان واستولى عليها حسان ونهبها وقتل أهلها ، وذلك سنة أربع عشرة وأربعمائة أيام الظاهر لإعزاز دين الله خليفة مصر ، وقصد صالح حلب وبها إنسان يعرف بابن ثعبان يتولى أمرها للمصريين وبالقلعة خادم يعرف بموصوف ، فأما أهل البلد فسلموه إلى صالح لإحسانه إليهم ولسوء سيرة المصريين معهم ، وصعد ابن ثعبان إلى القلعة فحصره صالح بالقلعة فغار الماء الذي بها فلم يبق لهم ما يشربون ، فسلم الجند القلعة إليه وذلك سنة أربع عشرة ، وملك من بعلبك إلى عانة .

سنة ٤١٦

قال في الزبد والضرب : في سنة ست عشرة وأربعمائة ولي قضاء حلب القاضي أبو يعلى عبد المنعم المعروف بالقاضي الأسود ، وكان وزير صالح تأذرس النصراني وكان هذا النصراني متمكناً عنده وصاحب السيف والقلم .

سنة ٤١٨

وقال في المختار من الكواكب المضية : ذكر صاحب مصباح العيان أن في سنة ثمان

عشرة وأربعمائة خرج الأمير صالح بن مرداس إلى معرة النعمان وأمر باعتقال أكابرها ، وسبب ذلك أن امرأة صاحت في الجامع وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغصبها نفسها ، فنفر كل من في الجامع فهدموا الماخور وأخذوا خشبه ونهبوه ، فحضر أسد الدولة صالح المذكور واعتقلهم وصادرهم ، ثم استدعى أبا العلاء بظاهر المعرة ، ومما خاطبه به : مولانا السيد الأجل أسد الدولة ومقدمها وناصحها كالنهار الماتع اشتد هجيره وطاب إبراده وكالسيف القاطع لان صفحه وخشن حداه ، خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، فقال : قد وهبتهم لك أيها الشيخ ، فقال أبو العلاء بعد ذلك :

بُعثت شفيعاً إلى صالحٍ وذاك من القوم ما قد فسدْ
فيسمع منيَ سجعَ الحمامِ وأسمعُ منه زئيرَ الأسدْ

ذكر قتل صالح بن مرداس سنة ٤٢٠

قال ابن الأثير : أقام صالح بن مرداس بحلب ست سنين ، فلما كان سنة عشرين وأربعمائة جهز الظاهر صاحب مصر جيشاً وسيرهم إلى الشام لقتال صالح وحسان ، وكان مقدم العسكر أنوشتكين الدزبري ، فاجتمع صالح وحسان على قتاله فاقتتلوا بالأقحوانة على الأردن عند طبرية ، فقتل صالح وولده الأصغر ونفذ رأسهما إلى مصر .

وساق ابن خلكان نسبه في ترجمته فقال : هو أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس ابن إدريس بن نصير بن حميد بن مدرك بن شداد بن عبيد بن قيس بن ربيعة بن كعب بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ابن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الكلابي ، كان من عرب البادية وقصد مدينة حلب وبها مرتضي الدولة بن لؤلؤ ، ثم ساق طرفاً مما قدمناه إلا أنه قال إنه تملك حلب سنة سبع عشرة وأربعمائة ، ويظهر أن ما ذكره ابن الأثير من أنه تملكها سنة ٤١٤ هو الأصح .

ولاية أبي كامل نصر بن صالح سنة ٤٢٠

قال ابن الأثير : لما قتل صالح عند طبرية نجا ولده أبو كامل نصر بن صالح ، فجاء إلى حلب وملكها وكان لقبه شبل الدولة ، فلما علمت الروم بأنطاكية الحال تجهزوا إلى حلب في عالم كثير ، فخرج أهلها فحاربوهم فهزموهم ونهبوا أموالهم وعادوا إلى أنطاكية .

وقال في المختار من الكواكب المضية : لما قتل أسد الدولة صالح بن مرداس ملك بعده ابناه وهما معز الدولة ثمال وشبل الدولة نصر ، وجعل الأمر شركة بينهما مذ قتل أبوهما ، إلى أن تفرد بالأمر شبل الدولة نصر وأخرج معز الدولة ثمال في سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ، ولما تفرد شبل الدولة نصر واستقرت له الإمارة لقب بمختص الأمراء شمس الدولة ومجدها ذي العزيمتين .

ذكر خروج ملك الروم من القسطنطينية إلى حلب وانهزامه سنة ٤٢١

قال ابن الأثير : في هذه السنة خرج ملك الروم من القسطنطينية في ثلثمائة ألف مقاتل إلى الشام ، فلم يزل بعساكره حتى بلغوا قريب حلب وصاحبها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس ، فنزلوا على يوم منها فلحقهم عطش شديد ، وكان الزمان صيفاً ، وكان أصحابه مختلفين عليه ، فمنهم من يحسده ومنهم من يكرهه ، وممن كان معه ابن الدوقس وهو من أكابرهم ، وكان يريد هلاك الملك ليملك بعده ، فقال الملك : الرأي أن نقيم حتى تجيء الأمطار وتكثر المياه، فقبح ابن الدوقس هذا الرأي وأشار بالإسراع قصد الشر يتطرق إليه ولتدبير كان قد دبره عليه ، فسار ففارقه ابن الدوقس وابن لؤلؤ في عشرة آلاف فارس وسلكوا طريقاً آخر ، فخلا بالملك بعض أصحابه وأعلمه أن ابن الدوقس وابن لؤلؤ قد حالفا أربعين رجلاً هو أحدهم على الفتك به ، فاستشعر من ذلك وخاف ورحل من يومه راجعاً ، ولحقه ابن الدوقس وسأله عن السبب الذي أوجب عوده فقال له : قد اجتمعت

علينا العرب وقربوا منا ، وقبض في الحال على ابن الدوقس وابن لؤلؤ وجماعة معهما فاضطرب الناس واختلفوا ، ورحل الملك وتبعهم العرب وأهل السواد حتى الأرمن يقتلون وينهبون وأخذوا من الملك أربعمائة بغل محملة مالاً وثياباً ، وهلك كثير من الروم عطشاً ونجا الملك وحده ، ولم يسلم معه من أمواله وخزائنه شيء البتة، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . وقيل في عوده غير ذلك ، وهو أن جمعاً من العرب ليس بالكثير عبر على عسكره وظن الروم أنها كبسة فلم يدروا ما يفعلون ، حتى إن ملكهم لبس خفاً أسود وعادة ملوكهم لبس الخف الأحمر ، فتركه ولبس الأسود ليعمي خبره على من يريده ، وانهزموا وغنم المسلمون جميع ما كان معهم .

سنة ٤٢٢
ذكر ملك الروم قلعة أفامية [في نواحي المعرة]

قال ابن الأثير : في هذه السنة ملك الروم قلعة أفامية بالشام ، وسبب ملكها أن الظاهر خليفة مصر سير إلى الشام الدزبري وزيره فملكه وقصد حسان بن المفرج الطائي فألح في طلبه ، فهرب منه ودخل بلد الروم ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب ومعه عسكر كثير ، فسار إلى أفامية فكبسها وغنم ما فيها وسبى أهلها وأسرهم وسير الدزبري إلى البلاد يستنفر الناس للغزو .

ذكر ملك نصر الدولة بن مروان مدينة الرها سنة ٤١٦
وذكر ملك الروم لها سنة ٤٢٢
وذكر استعادتها من الروم سنة ٤٢٧

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٤١٦ : في هذه السنة ملك نصر الدولة بن مروان صاحب ديار بكر مدينة الرها ، وكان سبب ملكها أن الرها كانت لرجل من بني نمير يسمى

عطيراً وفيه شر وجهل ، واستخلف عليها نائباً له اسمه أحمد بن محمد ، فأحسن السيرة وعدل في الرعية فمالوا إليه ، وكان عطير يقيم بحلته ويدخل البلد في الأوقات المتفرقة ، فرأى أن نائبه يحكم في البلد ويأمر وينهى فحسده فقال له يوماً : قد أكلت مالي واستوليت على بلدي وصرت الأمير وأنا النائب ، فاعتذر إليه فلم يقبل عذره وقتله ، فأنكرت الرعية قتله وغضبوا على عطير وكاتبوا نصر الدولة بن مروان ليسلموا إليه البلد ، فسير إليهم نائباً كان له بآمد يسمى زنك ، فتسلمها وأقام بها ومنه جماعة من الأجناد ، ومضى عطير إلى صالح بن مرداس وسأله الشفاعة له إلى نصر الدولة ، فشفع فيه فأعطاه نصف البلد ، ودخل عطير إلى نصر الدولة بميافارقين فأشار أصحاب نصر الدولة بقبضه فلم يفعل وقال : لا أغدر به وإن كان أفسد وأرجو أن أكف شره بالوفاء ، وتسلم عطير نصف البلد ظاهراً وباطناً وأقام فيه مع نائب نصر الدولة . ثم إن نائب نصر الدولة عمل طعاماً ودعاه فأكل وشرب ، واستدعى ولداً كان لأحمد الذي قتله عطير وقال : تريد أن تأخذ بثأر أبيك ؟ قال : نعم ، قال : هذا عطير عندي في نفر يسير ، فإذا خرج فتعلق به في السوق وقل له : يا ظالم قتلت أبي ، فإنه سيجرد سيفه عليك ، فإذا فعل فاستنفر الناس عليه واقتله وأنا من ورائك ، ففعل ما أمره وقتل عطيراً ومعه ثلاثة نفر من العرب ، فاجتمع بنو نمير وقالوا : هذا فعل زنك ولا ينبغي لنا أن نسكت عن ثأرنا ، ولئن لم نقتله ليخرجنا من بلادنا ، فاجتمعت نمير وكمنوا له بظاهر البلد كميناً، وقصد فريق منهم البلد فأغاروا على ما يقاربه، فسمع زنك الخبر فخرج فيمن عنده من العساكر وطلب القوم ، فلما جاوز الكمناء خرجوا عليه فقاتلهم فأصابه حجر مقلاع فسقط وقتل ، وكان قتله سنة ثمان عشرة وأربعمائة في أولها وخلصت المدينة لنصر الدولة .

ثم إن صالح بن مرداس شفع في ابن عطير وابن شبل النميريين ليرد الرها إليهما ، فشفعه وسلمها إليهما ، وكان فيها برجان أحدهما أكبر من الآخر ، فأخذ ابن عطير البرج الكبير وأخذ ابن شبل البرج الصغير وأقاما في البلد .

وقال في حوادث هذه السنة سنة ٤٢٢ : إن ابن عطير أرسل أرمانوس ملك الروم وباعه حصته من الرها بعشرين ألف دينار وعدة قرى من جملتها قرية تعرف إلى الآن بسن ابن عطير ، وتسلموا البرج الذي له ودخلوا البلد فملكوه وهرب منه أصحاب ابن شبل ،

وقتل الروم المسلمين وخربوا المساجد ، وسمع نصر الدولة الخبر فسير جيشاً إلى الرها فحصروها وفتحوها عنوة ، واعتصم من بها من الروم بالبرجين واحتمى النصارى بالبيعة التي لهم ، وهي من أكبر البيع وأحسنها عمارة ، فحصرهم المسلمون بها وأخرجوهم وقتلوا أكثرهم ونهبوا البلد وبقي الروم في البرجين ، وسير إليهم عسكراً نحو عشرة آلاف مقاتل فانهزم أصحاب ابن مروان من بين أيديهم ودخلوا البلد وما جاورهم من بلاد المسلمين ، وصالحهم ابن وثاب النميري على حران وسروج وحمل إليهم خراجاً .

وقال في حوادث سنة سبع وعشرين وأربعمائة : في رجب من هذه السنة اجتمع ابن وثاب وابن عطير وتصاهرا وجمعا وأمدهما نصر الدولة بن مروان بعسكر كثيف ، فساروا جميعهم إلى السويداء ، وكان الروم قد أحدثوا عمارتها في ذلك الوقت ، واجتمع إليها أهل القرى المجاورة لها فحصرها المسلمون وفتحوها عنوة وقتلوا فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل وغنموا ما فيها وسبوا خلقاً كثيراً ، وقصدوا الرها فحصروها وقطعوا الميرة عنها حتى بلغ المكوك الحنطة ديناراً ، واشتد الأمر فخرج البطريق الذي فيها متخفياً ولحق بملك الروم وعرفه الحال ، فسير معه خمسة آلاف فارس فعاد بهم ، فعرف ابن وثاب ومقدم عساكر نصر الدولة الحال فكمنا لهم ، فلما قاربوهم خرج الكمين عليهم فقتل من الروم خلق كثير وأسر مثلهم وأسر البطريق وحمل إلى باب الرها وقالوا لمن فيها : إما أن تفتحوا البلد لنا وإما قتلنا البطريق والأسرى الذين معه ، ففتحوا البلد للعجز عن حفظه وتحصن أجناد الروم بالقلعة ، ودخل المسلمون المدينة وغنموا ما فيها وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبي وأكثروا القتل ، وأرسل ابن وثاب إلى آمد مائة وستين راحلة عليها رؤوس القتلى ، وأقام محاصراً للقلعة . ثم إن حسان بن الجراح الطائي سار في خمسة آلاف فارس من العرب والروم نجدة لمن بالرها ، فسمع ابن وثاب بقربه فسار إليه مجداً ليلقاه قبل وصوله ، فخرج من في الرها من الروم إلى حران فقاتلهم أهلها ، وسمع ابن وثاب الخبر فعاد مسرعاً فوقع على الروم فقتل منهم كثيراً وعاد المنهزمون إلى الرها .

وقال في حوادث سنة تسع وعشرين وأربعمائة : فيها صالح ابن وثاب النميري صاحب حران الروم الذين بالرها لعجزه عنهم وسلم إليهم ربض الرها ، وكان تسلمه على ما ذكرناه أولاً ، فنزلوا من الحصن الذي للبلد إليه ، وكثر الروم بها وخاف المسلمون على حران ، وعمر الروم الرها العمارة الحسنة وحصنوها .

ذكر قتل شبل الدولة نصر بن صالح سنة ٤٢٩

قال في المختار من الكواكب المضية : أقام شبل الدولة مالكاً لحلب إلى أن قتل في الوقعة بينه وبين عساكر الدزبري على نهر العاصي بين كفرطاب وحماة ، وذلك يوم الاثنين النصف من شعبان سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، وقد مدح نصر بن صالح بن مرداس الكاتب البليغ أبو الفضل إبراهيم المعري بقصيدة أولها :

أصولك في العلى تحكي الفروعا ... وقدرك لم يزل قدراً رفيعا
بلغت مدى العلى فينا فطيماً ... وأحرزت الندى طفلاً رضيعا
ومن يلك للملوك أبوه شمساً ... يكن قمراً يشاكلها طلوعا
ومن يرُ للورى جدواه غيثاً ... فذا يكن الربيع به ربيعا

ومنها :

وما حلب التي افتخرت وعزت ... بهيبته بل الدنيا جميعا
إذا ركب الأمير أبو علي ... ترجلت الملوك له خضوعا

وله من قصيدة يمدح بها نصراً أيضاً :

وأنت من شهدت صيد الملوك له ... بأن رتبته تعلو على الرتب
يعطي من العين دراً هان قدرهما ... هوان غانية تختال في الحبب
ولا يبالي إذا صح الثناء له ... أن يفتدي جسم ما يحويه ذا وصب
كأنما يده من جودها خلقت ... ألا يكف لها كفا على نشب*
أخو الحروب التي ما إن ثنى أبداً ... يعم أعداءه بالويل والحرب

ذكر ولاية أنوشتكين الدزبري سنة ٤٢٩ من طرف العلويين

قال أبو الفداء : بقي شبل الدولة بن صالح مالكاً لحلب إلى سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، وذلك في أيام المستنصر بالله العلوي صاحب مصر ، فجهزت العساكر من

مصر إلى شبل الدولة ومقدمهم رجل يقال له الدزبري بكسر الدال وسكون الزاي المعجمة وباء موحدة وراء مهملة ، وهو أنوشتكين ، وكان يلقب الدزبري ، نقلت ذلك من تاريخ ابن خلكان ، فاقتتلوا مع شبل الدولة عند حماة في شعبان سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، فقتل شبل الدولة وملك الدزبري حلب في رمضان من السنة المذكورة وملك الشام جميعه وعظم شأن الدزبري وكثر ماله .

ذكر الخطبة العباسية بحران والرقة

قال ابن الأثير : في هذه السنة خطب شبيب بن وثاب النميري صاحب حران والرقة للإمام القائم بأمر الله. وقطع خطبة المستنصر بالله العلوي ، وكان سببها أن نصر الدولة بن مروان كان قد بلغه عن الدزبري نائب العلويين بالشام أنه يتهدده ويريد قصد بلاده ، فراسل قرواشاً صاحب الموصل وطلب منه عسكراً ، وأرسل شبيباً النميري يدعوه إلى الموافقة ويحذره من المغاربة ، فأجابه إلى ذلك وقطع الخطبة العلوية وأقام الخطبة العباسية ، فأرسل إليه الدزبري يتهدده ، ثم أعاد الخطبة العلوية بحران في ذي الحجة من السنة .

سنة ٤٣١

قال ابن الأثير : في هذه السنة توفي شبيب بن وثاب النميري صاحب الرقة وسروج وحران .

سنة ٤٣٢

ذكر الحرب بين الدزبري والروم

قال ابن الأثير : في هذه السنة كانت وقعة بين عسكر المصريين وبين الروم سيره الدزبري فظفر المسلمون ، وكان سبب ذلك أن ملك الروم قد هادنه المستنصر بالله العلوي صاحب مصر ، فلما كان الآن شرع يراسل ابن صالح بن مرداس ويستميله وراسل قبله صالح ليتقوى به على الدزبري خوفاً أن يأخذ منه الرقة ، ونكثوا فيهم وأزالوهم عن بلادهم،

وبلغ ذلك الناظر بحلب فأخرج من بها من تجار الإفرنج وأرسل إلى المتولي بأنطاكية يأمره بإخراج من عندهم من تجار المسلمين ، فأغلظ للرسول وأراد قتله ، ثم تركه فأرسل الناظر بحلب إلى الدزبري يعرفه الحال وأن القوم على التجهيز لقصد البلاد ، فجهز الدزبري جيشاً وسيره على مقدمته ، فاتفق أنهم لقوا جيشاً للروم وقد خرجوا لمثل ما خرج إليه هؤلاء ، والتقى الفريقان بين مدينة حماة وأفامية واشتد القتال بينهم ، ثم إن الله نصر المسلمين وكسر الروم فانهزموا وقتل منهم عدة كثيرة وأسر ابن عم للملك بذلوا في فدائه مالاً جزيلاً وعدة وافرة من أسراء المسلمين ، وانكف الروم عن الأذى بعدها .

سنة ٤٣٣
ذكر فساد حال الدزبري بالشام ووفاته

قال ابن الأثير : في هذه السنة فسد أمر أنوشتكين الدزبري نائب المستنصر بالله صاحب مصر بالشام ، وقد كان كبيراً على مخدومه بما يراه من تعظيم الملوك له وهيبة الروم منه ، وكان الوزير أبو القاسم الجرجراي يقصده ويحسده إلا أنه لا يجد طريقاً إلى الوقيعة فيه ، ثم اتفق أنه سعى بكاتب للدزبري اسمه أبو سعد وقيل عنه إنه يستميل صاحبه إلى غير جهة المصريين ، فكوتب الدزبري بإبعاده فلم يفعل واستوحشوا منه ، ووضع الجرجراي منه فعرفهم سوء رأيه فيه وأعادهم إلى دمشق وأمرهم بإفساد الجند عليه ففعلوا ذلك ، وأحس الدزبري بما يجري فأظهروا الشغب عليه وقصدوا قصره وهو بظاهر البلد ، وتبعهم من العامة من يريد النهب فاقتتلوا ، فعلم الدزبري ضعفه وعجزه عنهم ففارق مكانه واستصحب أربعين غلاماً وما أمكنه من الدواب والأثاث والأموال ونهب الباقي ، وسار إلى بعلبك فمنعه مستحفظها وأخذ ما أمكنه أخذه من مال الدزبري ، وتبعه طائفة من الجند يقفون أثره وينهبون ما يقدرون عليه ، وسار إلى مدينة حماة فمنع عنها وقوتل وكاتب المقلد بن منقذ الكناني الكفر طابي واستدعاه فأجابه وحضر عنده في نحو ألفي رجل من كفر طاب وغيرها ، فاحتمى به وسار إلى حلب ودخلها وأقام بها مدة ، وتوفي في منتصف جمادى الأولى من هذه السنة .

ترجمة أنوشتكين الدزبري :

قال الذهبي : أنوشتكين بن عبد الله الأمير المظفر سيف الخلافة عضد الدولة أبو منصور التركي أحد الشجعان المذكورين ، مولده ببلاد الترك ، وحمل إلى بغداد ثم إلى دمشق في سنة أربعماية فاشتراه القائد تربر الديلمي (صوابه دزبر) فرأى منه شهامة مفرطة وصرامة ، وشاع ذكره فأهداه للحاكم المصري ، وقيل بل جاء الأمر بطلبه منه في سنة ثلاث وأربعماية ، فجعل في الحجرة فقهر من بها من المماليك وطال عليهم بالذكاء والنهضة ، فضربه متوليهم ، ثم لزم الخدمة وجعل يقود إلى القواد فارتضاه الحاكم وأعجب به وأمّره وبعثه إلى دمشق في سنة ست وأربعمائة ، فتلقاه مولاه دزبر فتأدب مع مولاه وترجل له ثم أعيد إلى مصر وجرد إلى الريف ، ثم عاد وولي بعلبك وحسنت سيرته وانتشر ذكره ، ثم طلب فلما بلغ العريش رد إلى ولاية قيسارية ، واتفق قتل فاتك متولي حلب سنة اثنتي عشرة قتله مملوك له هندي وولي أمير الجيوش فلسطين في أول سنة أربع عشرة فبلغ حسان بن مفرج ملك العرب خبره فقلق وخاف ولم يزل أمر أمير الجيوش في ارتفاع واشتهار وتمت له وقائع مع العرب فدوخهم وأثخن فيهم ، فعمل إليه حسان وكاتبه فيه وزير مصر حسن بن صالح فقبض عليه بعسقلان بحيلة دبرت له في سنة سبع عشرة ، وسأل فيه سعيد السعداء فأجيب سؤاله إكراماً ، وأطلق ثم حسنت حاله وارتفع شأنه وكثرت غلمانه وخيله وإقطاعاته ، وبعد غيبته عن الشام أفسدت العرب فيها ، ثم صرف الوزير ووزر نجيب الدولة علي بن أحمد الجرجراي فاقتضى رأيه تجريد العساكر إلى الشام ، فقدم أنوشتكين عليهم ولقبه بالأمير المظفر منتخب الدولة وجهز معه سبعة آلاف فارس وراجل ، فسار وقصد صالح بن مرداس وحسان بن مفرج ، فكان الملتقى في الأقحوانة ، فانهزمت العرب وقتل صالح فبعث برأسه إلى الحضرة فنفذت الخلع إلى أنوشتكين وزادوا في ألقابه ، ثم توجه إلى حلب ونازلها ، ثم عاد إلى دمشق ونزل في القصر وأقام مدة ، ثم سار إلى حلب ففتحت له فأحسن إلى أهلها ورد المظالم وعدل ، ثم تغير وشرب الخمر فجاء فيه سجل مصري فيه : أما بعد فقد عرف الحاضر والبادي فعال أنوشتكين الدزبري الخائن ولما تغيرت نيته سلبه الله نعمته ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ فضاق صدره وقلق ، ثم جاءه كتاب فيه توبيخ وتهديد فعظم عليه ورأى من الصواب إعادة الجواب بالتنصل والتلطف ،

فكتب : من عبد الدولة العلوية متبرئاً من ذنوبه الموبقة وإساءاته المرهقة لائذاً بعفو أمير المؤمنين عائذاً بالكرم صابراً للحكم وهو تحت خوف ورجاء وتضرع ودعاء وقد ذلت نفسه بعد عزها وضاقت بعد أمنها ، إلى أن قال : وليس سير العبد إلى حلب ينجيه من سطوات مواليه . ونفد هذا الجواب وطلع إلى قلعة حلب فحم وطلب طبيباً فوصف له مسهلاً فلم يشربه ، ولحقه فالج في يده ورجله ومات بعد أيام من جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وخلف من الذهب ستمائة ألف دينار ونيفاً اهـ .

ولاية معز الدولة ثمال بن مرداس سنة ٤٣٣

قال ابن الأثير في حوادث هذه السنة : لما توفي الدزبري فسد أمر بلاد الشام وانتشرت الأمور بها وزال النظام وطمعت العرب وخرجوا في نواحيه ، فخرج حسان بن مفرج الطائي بفلسطين وخرج معز الدولة بن صالح الكلابي بحلب وقصدها وحصرها وملك المدينة ، وامتنع أصحاب الدزبري بالقلعة وكتبوا إلى مصر يطلبون النجدة فلم يفعلوا ، واشتغل عساكر دمشق ومقدمهم الحسين بن أحمد الذي ولي أمر دمشق بعد الدزبري بحرب حسان ، ووقع الموت في الذين في القلعة فسلموها إلى معز الدولة بالأمان .

وقال قبل ذلك في الكلام على دولة مرداس : لما توفي الدزبري كان أبو علوان ثمال بن صالح بن مرداس الملقب بمعز الدولة بالرحبة ، فجاء إلى حلب فملكها تسليماً من أهلها وحصر امرأة الدزبري وأصحابه بالقلعة أحد عشر شهراً ، وملكها في صفر سنة أربع وثلاثين فبقي بها إلى سنة أربعين ، فأنفذ المصريون إلى محاربته أبا عبد الله حسين بن ناصر الدولة بن حمدان ، فخرج أهل حلب إلى حربه فهزمهم واختنق منهم بالباب جماعة ، ثم إنه رحل عن حلب وعاد إلى مصر وأصابهم سيل ذهب بكثير من دوابهم وأثقالهم ، فأنفذ المصريون إلى قتال معز الدولة خادماً يعرف برفق ، فخرج إليه في أهل حلب فقاتلوه فانهزم المصريون وأسر رفق ومات عندهم ، وكان أسره سنة إحدى وأربعين في ربيع الأول .

إحضار رأس يحيى عليه السلام إلى قلعة حلب سنة ٤٣٥

قال في الدر المنتخب : ذكر ابن العظيمي في تاريخه أن في سنة خمس وثلاثين

وأربعماية ظهر ببعلبك في حجر منقور رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام ، فنقل إلى حمص ثم منها إلى مدينة حلب في هذه السنة ودفن بهذا المقام (مقام سيدنا إبراهيم في القلعة) في جرن من الرخام الأبيض ووضع في خزانة إلى جانب المحراب وأغلقت ووضع عليها ستر يصونها اهـ .

قال ياقوت في معجم البلدان في الكلام على حلب : (وقلعة حلب)★ مقام إبراهيم الخليل وفيه صندوق به قطعة من رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام ظهرت سنة ٤٣٥ اهـ .

قال في كتاب الصلصة : في سنة ٤٣٤ زلزلت تدمر وبعلبك ومات تحت الهدم معظم أهل تدمر اهـ .

أقول يظهر أن هذا هو السبب في ظهور رأس يحيى عليه السلام في بعلبك

سنة ٤٤٠

وصف ابن بطلان المتطبب لحلب في هذه السنة

قال ياقوت في معجم البلدان في الكلام على حلب : وقرأت في رسالة كتبها ابن بطلان المتطبب إلى هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي في نحو سنة ٤٤٠ في دولة بني مرداس فقال : دخلنا من الرصافة إلى حلب في أربع مراحل ، وحلب بلد مسور بحجر أبيض وفيه ستة أبواب وفي جانب السور قلعة في أعلاها مسجد وفي أسفل القلعة مغارة كان يخبأ بها غنمه★★ . وفي البلد جامع وست بيع وبيمارستان صغير . والفقهاء يفتون على مذهب الإمامية . وشرب أهل البلد من صهاريج فيه مملوءة بماء المطر ، وعلى بابه نهر يعرف بقويق يمد في الشتاء وينضب في الصيف ، وهو بلد قليل الفواكه والبقول والنبيذ إلا ما يأتيه من بلاد الروم ، وفيها من الشعراء جماعة منهم شاعر يعرف بأبي الفتح بن أبي حصينة ، ومن جملة شعره قوله :

★ إضافة من معجم البلدان ليست في الأصل ، وبها يستقيم الكلام .

★★ يقصد إبراهيم عليه السلام .

ولما التقينا للوداع ودمعها ودمعي يفيضان الصبابة والوجدا
بكت لؤلؤاً رطباً ففاضت مدامعي عقيقاً فصار الكل في نحرها عقدا

وفيها كاتب نصراني له قطعة في الخمر أظنه صاعد بن شمامة :

خافت صوارم أيدي المازجين لها فألبست جسمها درعاً من الحبب

وفيها حدث يعرف بأبي محمد بن سنان الخفاجي قد ناهز العشرين وعلا في الشعر طبقة المحنكين ، فمن قوله :

إذا هجوتكم لم أخش صولتكم وإن مدحت فكيف الريّ باللهب
فحين لم ألق لا خوفاً ولا طمعاً رغبت في الهجو إشفاقاً من الكذب

وفيها شاعر يعرف بأبي العباس يكنى بأبي المشكور مليح الشعر سريع الجواب حلو الشمائل له في المجون بضاعة قوية وفي الخلاعة يد باسطة ، وله أبيات إلى والده :

يا أبا العباس والفضل أبا الغباس تكنى
أنت مع أمي بلا شك تحاكي الكركدنّا
أنبتت في كل مجرى شعرةٍ في الرأس قرنا

فأجابه أبوه :

أنت أولى بأبي المذمو م بين الناس تكنى
ليت لي بنتاً ولا أنت ولو بنت يُحنا

بنت يوحنا مغنية بأنطاكية تحن إلى القرباء وتضيف الغرباء مشهورة بالعهر .

ومن عجائب حلب أن في قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن ، وما في حلب موضع خراب أصلاً ، وخرجنا من حلب طالبين أنطاكية وبينها وبين حلب يوم وليلة . اهـ ما ذكره ابن بطلان اهـ .

ولاية الحسن بن علي بن ملهم سنة ٤٤٩

قال ابن الأثير : ثم إن معز الدولة بعد أسر رفق وموته أرسل الهدايا إلى المصريين

وأصلح أمره معهم ونزل لهم عن حلب ، فأنفذوا إليها أبا علي الحسن بن علي بن ملهم ولقبوه مكين الدولة ، فتسلمها من ثمال في ذي القعدة سنة تسع وأربعين ، وسار ثمال إلى مصر في ذي الحجة وسار أخوه أبو ذؤابة عطية بن صالح إلى الرحبة وأقام ابن ملهم بحلب .

ذكر ولاية محمود بن صالح المرداسي سنة ٤٥٢

قال ابن الأثير : لما أقام ابن ملهم بحلب جرى بين بعض السودان وأحداث حلب حرب ، وسمع ابن ملهم أن بعض أهل حلب قد كاتب محمود بن شبل الدولة نصر بن صالح يستدعونه ليسلموا البلد إليه ، فقبض على جماعة منهم وكان منهم رجل يعرف بكامل ابن نباتة، فخاف فجلس يبكي ، وكان يقول لكل من سأله عن بكائه : إن أصحابنا الذين أخذوا قد قتلوا وأخاف على الباقين ، فاجتمع أهل البلد واشتدوا وراسلوا محموداً وهو منهم على مسيرة يوم يستدعونه وحصروا ابن ملهم ، وجاء محمود وحصره معهم في جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين ، ووصلت الأخبار إلى مصر فسيروا ناصر الدولة أبا علي بن ناصر الدولة بن حمدان في عسكر بعد اثنين وثلاثين يوماً من دخول محمود حلب ، فلما قارب البلد خرج محمود عن حلب إلى البرية واختفى الأحداث جميعهم، وكان عطية بن صالح نازلاً بقرب البلد وقد كره فعل محمد ابن أخيه ، فقبض ابن ملهم على مائة وخمسين من الأحداث ونهب وسط البلد وأخذا أموال الناس ، وأما ناصر الدولة فلم يمكن أصحابه من دخول البلد ونهبه وسار في طلب محمود ، فالتقيا بالفنيدق في رجب فانهزم أصحاب ابن حمدان وثبت هو ، فجرح وحمل إلى محمود أسيراً ، فأخذه وسار إلى حلب فملكها وملك القلعة في شعبان سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة ، وأطلق ابن حمدان فسار هو وابن ملهم إلى مصر .

ولاية ثمال بن صالح المرداسي سنة ٤٥٣

قال ابن الأثير : لما رجع ابن حمدان وابن ملهم إلى مصر جهز المصريون معز الدولة ثمال بن صالح إلى ابن أخيه ، فحصره في حلب في ذي الحجة في سنة ٤٥٢ ، فاستنجد

محمود خاله منيع بن شبيب بن وثاب النميري صاحب حران ، فجاء إليه ، فلما بلغ ثمالاً مجيئه سار عن حلب إلى البرية في المحرم سنة ثلاث وخمسين وعاد منيع إلى حران فعاد ثمال إلى حلب ، وخرج إليه محمد ابن أخيه فاقتتلوا وقاتل محمود قتالاً شديداً ، ثم انهزم محمود فمضى إلى أخواله بني نمير بحران ، وتسلم ثمال حلب في ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وخرج إلى الروم فغزاهم ، ثم توفي بحلب في ذي القعدة سنة أربع وخمسين .

ترجمة ثمال بن صالح المرداسي

قال في مختصر الذهبي: ثمال بن صالح بن الزوقلية الأمير معز الدولة أبو علي الكلابي رئيس بني كلاب ، تملك حلب وغيرها ، وكان بطلاً شجاعاً حليماً كريماً أغنى أهل حلب بماله وعمهم بنواله وأحسن إلى العرب ، عزله صاحب مصر المستنصر بالله ثم رده ، وكان الفضلاء يقصدونه ويأخذون جوائزه ، توفي في ذي القعدة سنة ٤٥٤ اهـ .

ونقل ابن كثير في تاريخه عن ابن الجوزي في ترجمة ثمال المذكور أن الفراش تقدم إليه ليغسل يده فصدمت بلبلة الإبريق ثنيته فسقطت في الطست فعفا عنه رحمه الله تعالى اهـ .

وقال في الزبد والضرب للرضي الحنبلي : كان معز الدولة كريماً معطاء ، مما يحكى من كرمه أن العرب اقترحوا عليه مضيرة فسأله وكيله : كم ذبحت لأجلها ؟ فقال : سبعمائة وخمسين رأساً ، فقال له : والله لو أتممتها ألفاً لوهبت لك ألف دينار ، حتى إن الأمير أبا الفتح الحسن بن عبد الله بن عبد الجبار الحلبي المعروف بابن أبي حصينة امتدحه بقصيدة شكا فيها كثرة الأولاد ، وكان له أربعة عشر ولداً ، فملكه ضيعتين مضافتين إلى ما كان له من الإقطاع فأثرى وعمر بحلب داراً وكتب على روشنها :

دار بنيناها وعشنا بها ... في نعمة من آل مرداسِ
قوم محوا بؤسي ولم يتركوا ... علي للأيام من باسِ
قل لبني الدنيا ألا هكذا ... فليصنع الناس مع الناسِ

قلت : وإلى مرداس كان ينتسب القاضي تقي الدين أبو بكر بن الجناب الشهابي أحمد بن عمر بن أبي السفاح المرداسي الحلبي الشافعي كاتب الأسرار الشريفة وناظر الجيوش المنصورة بالمملكة الحلبية في أواخر الدولة الجركسية ، ولقد كان له سخاء يقتفي فيه

أثر مثل معز الدولة المرداسي وغيره ، كان يقول لخير بك كافل حلب في آخر الدولة المذكورة : أنا ملك القضاة كما أنك ملك الأمراء . مات مقتولاً سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ودفن بمقبرة جده داخل جامع السفاحية الذي أنشأه جده الأدنى بحلب ، وكانت وفاة معز الدولة سنة أربع وخمسين وأربعمائة ودفن في مقام إبراهيم الفوقاني بالقلعة داخل الباب الغربي وعمل عليه ضريح ، ثم قلع وبلط عليه ، وذلك بعد أن استدعى أخاه عطية ابن صالح بن مرداس وأوصى له بحلب ، وكان وزيره أبا الحسين علي بن يوسف بن أبي الثريا الذي داره الآن مدرسة ابن أبي عصرون بحلب اهـ .

ولاية عطية بن صالح سنة ٤٥٤

قال ابن الأثير : لما توفي ثمال بن صالح ملك حلب أخوه عطية بن صالح ، ونزل به قوم من التركمان مع ابن خان التركماني فقوي بهم ، فأشار أصحابه بقتلهم فأمر أهل البلد بذلك فقتلوا منهم جماعة ونجا الباقون .

ولاية محمود بن نصر بن صالح سنة ٤٥٤

قال ابن الأثير : إن الناجين من التركمان قصدوا محموداً بحران (وقد قدمنا ذكر توجهه إليها) واجتمعوا معه على حصار حلب ، فحصرها وملكها(١) في رمضان سنة أربع وخمسين ، وقصد عمه عطية الرقة فملكها ولم يزل بها حتى أخذها منه شرف الدولة مسلم

(١) قال في معجم البلدان في الكلام على (أسفونا): ذكر أبو غالب بن مهذب المعري في تاريخه أن محمود بن نصر رهن ولده نصراً عند صاحب أنطاكية على أربعة عشر ألف دينار وخراب حصن أسفونا إذا ملك حلب وأخذها من عمه عطية ، فلما ملك حلب خرب حصن أسفونا وأخرج لذلك عزيز الدولة ثابتاً وشبل بن جامع وجمعا الناس من معرة النعمان وكفرطاب وأعمالها حتى خرباه اهـ . وقال قبل ذلك : أسفونا بالفتح ثم السكون اسم حصن كان قرب معرة النعمان افتتحه محمود بن نصر فقال أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين يمدحه ويذكره :

عداتك منك في وجل وخوف ... يريدون المعاقل أن تصونا
فظلوا حول أسفونا كقوم ... أتى فيهم فظلوا آسفينا

ابن قريش سنة ثلاث وستين ، وسار عطية إلى بلد الروم فمات بالقسطنطينية سنة خمس وستين ، وأرسل محمود التركمان مع أميرهم ابن خان إلى ارتاح فحضرها وأخذها من الروم سنة ستين ، وسار محمود إلى طرابلس فحصرها وأخذ من أهلها مالاً وعاد ، وأرسله محمود في رسالة إلى السلطان ألب أرسلان .

سنة ٤٦٢ مجيء ملك الروم إلى منبج

قال ابن الأثير : في هذه السنة أقبل ملك الروم من القسطنطينية في عسكر كثيف إلى الشام ونزل على مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها وهزم محمود بن صالح بن مرداس وبني كلاب وابن حسان الطائي ومن معهما من جموع العرب ، ثم إن ملك الروم ارتحل وعاد إلى بلاده ولم يمكنه المقام لشدة الجوع ..

سنة ٤٦٣

قال ابن الأثير : في هذه السنة خطب محمود بن صالح بن مرداس بحلب لأمير المؤمنين القائم بأمر الله وللسلطان ألب أرسلان ، وسبب ذلك أنه رأى إقبال دولة السلطان وقوتها وانتشار دعوتها ، فجمع أهل حلب وقال : هذه دولة جديدة ومملكة شديدة ، ونحن تحت الخوف منهم وهم يستحلون دماءكم لأجل مذاهبكم ، والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل ، فأجاب المشايخ ذلك ولبس المؤذنون السواد وخطبوا للقائم بأمر الله والسلطان ، فأخذت العامة حصر الجامع وقالوا: هذه حصر علي بن أبي طالب فليأت أبو بكر بحصر يصلي عليها الناس ، وأرسل الخليفة إلى محمود الخلع مع نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي فلبسها ، ومدحه ابن سنان الخفاجي وأبو الفتيان بن حيوس ، وقال أبو عبد الله بن عطية يمدح القائم بأمر الله ويذكر الخطبة بحلب ومكة والمدينة :

كم طائع لك لم تجلب عليه ولم ... تعرف لطاعته غير التقى سببا
هذا البشير بإذعان الحجاز وذا ... داعي دمشق وذا المبعوث من حلبا

ذكر استيلاء السلطان ألب أرسلان على حلب

قال ابن الأثير : في هذه السنة سار السلطان ألب أرسلان إلى حلب وجعل طريقه على ديار بكر ، فخرج إليه صاحبها نصر بن مروان وخدمه بمائة ألف دينار وحمل إليه إقامة عرف السلطان أنه قسطها على البلاد ، فأمر بردها ، ووصل إلى آمد فرآها ثغراً منيعاً فتبرك به وجعل يمر يده على السور ويمسح بها صدره ، وسار إلى الرها فحصرها فلم يظفر منها بطائل ، فسار إلى حلب وقد وصلها نقيب النقباء أبو الفوارس طراد بالرسالة القائمية والخلع ، فقال له محمود صاحب حلب : أسألك الخروج إلى السلطان واستعفاءه لي من الحضور عنده ، فخرج نقيب النقباء وأخبر السلطان بأنه قد لبس الخلع القائمية وخطب فقال : أي شيء تساوي خطبتهم وهم يؤذنون (حي على خير العمل) ولا بد من الحضور ودوس بساطي ، فامتنع محمود من ذلك ، فاشتد الحصار على البلد وغلت الأسعار وعظم القتال ، وزحف السلطان يوماً وقرب من البلد فوقع حجر منجنيق في فرسه ، فلما عظم الأمر على محمود خرج ليلاً ومعه والدته منيعة بنت وثاب النميري فدخلا على السلطان وقالت له : هذا ولدي فافعل به ما تحب ، فتلقاهما بالجميل وخلع على محمود وأعاده إلى بلده ، فأنفذ إلى السلطان مالاً جزيلاً .

وعاد السلطان من حلب إلى أذربيجان اهـ .

سنة ٤٦٥

قال في المختار من الكواكب المضية : وفي سنة خمس وستين وأربعمائة وفد أبو الفتيان بن حيوس الشاعر المشهور وقد جلس الأمير عز الدولة محمود في مجلسه وأمر بإحضار الشراب ، فشرب أقداحاً ثم قال : ارفعوا الشراب فإن ابن حيوس يحضرني ممتدحاً وفي نفسي أن أهب له ، فإن كان الشراب في مجلسي قيل وهب وهو سكران ، فرفع الشراب وحضر ابن حيوس وأنشده قصيدته فيه التي أولها : (قفوا في الفلا حيث انتهيتم تذمما) فوهب له ألف دينار في طبق فضة ، وسنذكر أبياتاً من هذه القصيدة في ترجمة ابن حيوس المذكور .

وكان الأمير محمود في أول ملكه حسن الأخلاق كريم النفس ، ثم تنكر وغلب عليه حب الدنيا وجمع المال ولحقه من البخل ما ضرب به المثل .

ونقل عن صاحب عنوان السير قال : كان عز الدولة محمود شجاعاً كريماً ، ولما أخذ حلب مدحه ابن حيوس بقصيدة أولها :

أبى الله إلا أن يكونَ لك السعدُ	فليس لما تبغيه منعٌ ولا ردُّ
قضت حلبٌ ميعادَها بعد مطلها	وأطنب وصلٌ ما مضى قبله صد
تهز لواءَ النصر حولك عصبةٌ	إذا طلبوا نالوا وإن عقدوا شدوا
وخطية سمر وبيض صوارم	وصافية زغف وصافنة جرد

ذكر وفاة معز الدولة محمود بن نصر المرداسي سنة ٤٦٨

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٤٤٢ عند سرده أخبار بني مرداس : مات محمود في حلب سنة ثمان وستين في ذي الحجة .

وقال في حوادث سنة ٤٦٩ : فيها مات محمود بن مرداس صاحب حلب وملك بعده ابنه نصر .

قال أبو الفدا في حوادث سنة ٤٦٩ : وفي هذه السنة أورد ابن الأثير موت محمود ابن شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب . أقول : لكني وجدت في تاريخ حلب تأليف كمال الدين المعروف بابن العديم أن محموداً المذكور مرض في سنة سبع وستين وأربعمائة وحدث به قروح مات بها ، ولحقه في أواخر عمره من البخل مالا يوصف . وفي المختار من الكواكب المضية قال ابن العديم : مات عز الدولة محمود في الليلة التي مات فيها القائم بأمر الله . أقول : وقد ذكر ابن الأثير أن القائم بأمر الله توفي ثالث عشر شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة . وفي المختار من الكواكب المضية ذكر ابن العديم في تاريخه عن أبي الحسن علي بن مرشد بن علي بن مقلد قال : كان أبو سالم ناجية غلام عز الدولة محمود متولي الشام ، وكان من الظلم على باب ما فتحه الحجاج ، وكان محمود قد

أخرجه ليصادر الناس فحدثني من أثق به أنه صادر أهل المعرة ونواحيها وتيزين ونواحيها على ستة عشر ألف دينار بعد ما هتك منها الأستار ، وكان ذلك لاضطراب عقل محمود من المرض الذي ناله ، وذلك أنه كان يرى من أسفله معاليق بطنه ، وأنفذ ناجية بالذهب إليه فغضب وقال : ما ظننت أنه ينفذ لي أقل من سبعين ألف دينار ويأخذ مثلها ، والله لئن لم ينفذ لي البقية لأوقعن به ، فقال ناجية لطبيبه : والله ما أقدر أجمع من البلاد ديناراً واحداً ، فعرفني إن كان يسلم لأمضي ، فقال : أبشر فما منه قوة تخدمه أكثر من يومك فاحتل بحيلة ، فلما سمع ناجية من الطبيب ذلك أنفذ فاشترى بلعاسية وفصلها أكياساً ، هذا والرسل تترى إليه في طلب المال وهو يقول : نعم قد ابتدأت أحضره وهذه البلعاسية قد فصلتها أكياساً والخياط فيها ، فتردد الرسول مرة أو مرتين ثم جاءه آخر فأعلمه أنه قد مات .

ولاية نصر بن محمود بن نصر بن صالح المرداسي سنة ٤٦٧

قال ابن الأثير : لما مات محمود وصى بحلب بعده لابنه مشيب ، فلم ينفذ أصحابه وصيته لصغره وسلموا البلاد إلى ولده الأكبر واسمه نصر وجده لأمه الملك العزيز ابن الملك جلال الدولة بن بويه وتزوجها عند دخولهم مصر لما ملك طغرلبك العراق .

وفي المختار من الكواكب المضية نقلاً عن ابن العديم : لما مات محمود أوصى بالملك من بعده لولده شبل بن محمود وأسكنه القلعة وجعل الحراس عنده ، وأسكن ولده نصر البلد وكان كارهاً له ، وكانت العساكر تميل إلى نصر ، فبذل العطاء وعدل فملكوه .

أقول : ابن الأثير سمى ولده مشيباً وابن العديم سماه شبلاً وكلاهما تحريف ، والصحيح أن اسمه سابق كما سيأتي .

قال أبو الفدا : لما ولي نصر بن محمود مدحه ابن حيوس بقصيدة منها :

ثمانيةٌ لم تفترق مذ جمعتها ... فلا افترقت ماذبّ عن ناظر شعرُ
ضميرُك والتقوى وجودك والغنى ... ولفظك والمعنى وعزمك والنصر

وكان لمحمود بن نصر سجيةٌ وغالبُ ظني أنْ سيخلفها نصر

وكان عطية ابن حيوس على محمود إذا مدحه ألف دينار فأعطاه نصر ألف دينار مثل ما كان يعطيه أبوه محمود وقال : لو قال : (وغالب ظني أن سيضعفها نصر) لأضعفتها له .

سنة ٤٦٨

قال ابن الأثير : في هذه السنة ملك نصر بن محمود بن مرداس مدينة منبج وأخذها من الروم .

ذكر وفاة نصر

قال أبو الفداء : كان نصر يدمن شرب الخمر ، فحمله السكر على أن خرج إلى التركمان الذين ملكوا أباه حلب وهم بالحاضر وأراد قتالهم ، فضربه واحد منهم بسهم نشاب فقتله . ولم يذكر ابن الأثير تاريخ قتل نصر متى كان ، ثم إني وجدت في تاريخ حلب تأليف كمال الدين المعروف بابن العديم تاريخ قتل نصر المذكور قال : وفي يوم عيد الفطر سنة ثمان وستين وأربعمائة عيد نصر بن محمود وهو في أحسن زي ، وكان الزمان ربيعاً واحتفل الناس في عيدهم وتجملوا بأفخر ملابسهم ، ودخل عليه ابن حيوس فأنشده قصيدة منها :

صفت نعمتان خصتاك وعمتا حديثهما حتى القيامة يؤثر

فجلس نصر فشرب إلى العصر ، وحمله السكر على الخروج إلى الأتراك وسكناهم في الحاضر وأراد أن ينهبهم ، وحمل عليهم فرماه تركي بسهم في حلقه فقتله ، وكان قتله يوم الأحد مستهل شوال سنة ثمان وستين وأربعمائة .

ذكر ولاية سابق بن محمود بن نصر المرداسي سنة ٤٦٨ وهو آخر ملوك بني مرداس

قال ابن الأثير : لما قتل نصر ملك أخوه سابق وهو الذي كان أبوه أوصى له بحلب .

سنة ٤٧١

قال أبو الفداء : في هذه السنة ملك تاج الدولة تتش ابن السلطان ألب أرسلان دمشق ، وسببه أن أخاه السلطان ملكشاه أقطعه الشام وما يفتحه فسار تاج الدولة تتش إلى حلب ، وكان قد أرسل بدر الجمالي أمير الجيوش بمصر عسكراً إلى حصار آتسز بدمشق ، فأرسل آتسز يستنجد تتش وهو نازل على حلب يحاصرها ، فسار تتش إلى دمشق فملكها .

سنة ٤٧٢

قال في المختار من الكواكب المضية : وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة كتب الأمير شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي إلى السلطان ملكشاه يطلب منه أن يسلم إليه حلب على أن يحمل إليه في العام ثلثمائة ألف دينار ، فأجابه إلى ذلك وكتب له توقيعاً بها ، فسار إليها وبها الأمير سابق بن محمود فأعطاه مسلم إقطاعاً بعشرين ألف دينار على أن يخرج من البلد فأجاب ، فوثب عليه أخواه وقتلاه واستوليا على القلعة ، فحاصرها مسلم ثم أخذها صلحاً ، وكان الأمير سابق المذكور آخر ملوك بني مرداس . انتهى .

أقول : ما سننقله عن ابن الأثير في السنة الآتية يفيد ضعف هذه الرواية وأن سابقاً لم يقتله أخواه وأن مسلماً حصر القلعة واستنزل منها سابقاً ووثاباً ابني محمود بن مرداس .

سنة ٤٧٣

استيلاء مسلم بن قريش العقيلي على حلب وولايته عليها

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٤٧٢ : في هذه السنة ملك شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي صاحب الموصل مدينة حلب ، وسبب ذلك أن تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان حصرها مرة بعد أخرى ، فاشتد الحصار بأهلها ، وكان شرف الدولة يواصلهم

بالغلات وغيرها ، ثم إن تتش حصرها هذه السنة وأقام عليها أياماً ورحل عنها وملك بزاعة والبيرة (بره جك) وأحرق ربض عزاز وعاد إلى دمشق ، فلما رحل عنها تاج الدولة استدعى أهلها شرف الدولة ليسلموها إليه ، فلما قاربها امتنعوا من ذلك ، وكان مقدمهم يعرف بابن الحبيبي العباسي فاتفق أن ولده خرج يتصيد بضيعة له فأسره أحد التركمان وهو صاحب حصن بنواحي حلب وأرسله إلى شرف الدولة ، فقرر معه أن يسلم البلد إليه إذا أطلقه ، فأجابه إلى ذلك فأطلقه فعاد إلى حلب اجتمع بأبيه وعرفه ما استقر ، فأذعن إلى تسليم البلد ونادى بشعار شرف الدولة وسلم البلد إليه ، فدخله سنة ثلاث وسبعين وحصر القلعة واستنزل منها سابقاً ووثاباً ابني محمود بن مرداس ، فلما ملك البلد أرسل ولده وهو ابن عمة السلطان إلى السلطان يخبره بملك البلد ، وأنفذ معه شهادة فيها خطوط المعدلين بحلب بضمانها وسأل أن يقرر عليه الضمان ، فأجابه السلطان إلى ما طلب وأقطع ابن عمته بالس اهـ .

قال ابن الأثير : فيها ملك شرف الدولة صاحب الموصل مدينة حران وأخذها من بني وثاب النميريين وصالحه صاحب الرها ونقش السكة باسمه .

سنة ٤٧٥

ذكر حصر شرف الدولة دمشق وعوده منها

قال ابن الأثير : في هذه السنة جمع تاج الدولة تتش جمعاً كثيراً وسار عن بغداد وقصد بلاد الروم أنطاكية وما جاورها ، فسمع شرف الدولة صاحب حلب الخبر فخافه ، فجمع أيضاً العرب من عقيل والأكراد وغيرهم فاجتمع معه كثير ، فراسل الخليفة بمصر يطلب منه إرسال نجدة إليه ليحصر دمشق ، فوعده ذلك ، فسار إليها ، فلما سمع تتش الخبر عاد إلى دمشق فوصلها أول المحرم سنة ست وسبعين ووصل شرف الدولة أواخر المحرم وحصر المدينة وقاتله أهلها ، وفي بعض الأيام خرج إليه عسكر دمشق وقاتلوه وحملوا على عسكره حملة صادقة فانكشفوا وتضعضعوا وانهزمت العرب وثبت شرف الدولة وأشرف على الأسر وتراجع إليه أصحابه ، فلما رأى شرف الدولة ذلك ورأى أيضاً أن مصر لم يصل إليه

منها عسكر وأتاه عن بلاده الخبر أن أهل حران عصوا عليه فرحل عن دمشق إلى بلاده وأظهر أنه يريد البلاد بفلسطين ، فرحل أولاً إلى مرج الصفّر ، فارتاع أهل دمشق وتتش واضطربوا ، ثم إنه رحل من مرج الصفّر مشرقاً في البرية وجد في مسيره فهلك من المواشي الكثير مع عسكره ومن الدواب شيء كثير وانقطع خلق كثير .

سنة ٤٧٦

قال ابن الأثير : في هذه السنة عصى أهل حران على شرف الدولة مسلم بن قريش وأطاعوا قاضيهم ابن حلبة وأرادوا هم وابن عطير النميري تسليم البلد إلى جبق أمير التركمان ، وكان شرف الدولة على دمشق يحاصر تاج الدولة تتش بها ، فبلغه الخبر فعاد إلى حران وصالح ابن ملاعب صاحب حمص وأعطاه سلمية ورفنيّة وبادر بالمسير إلى حران ، فحصرها ورماها بالمنجنيق فخرب من سورها بدنة وفتح البلد في جمادى الأولى وأخذ القاضي ومعه ابنين له فصلبهم على السور .

سنة ٤٧٧

ذكر الحرب بين فخر الدولة بن مروان وشرف الدولة مسلم بن قريش

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٤٨٦ : فيها عقد السلطان ملكشاه لفخر الدولة بن جهير على ديار بكر وخلع عليه وأعطاه الكوسات وسير معه العساكر وأمره أن يقصدها ويأخذها من بني مروان وأن يخطب لنفسه ويذكر اسمه على السكة فسار إليها .

وقال في حوادث سنة ٤٧٧ : ثم سير السلطان إليه جيشاً آخر فيهم الأمير أرتق بن أكسك ، وقيل أكسب والأول أصح ، وأمرهم بمساعدته ، وكان ابن مروان قد مضى إلى شرف الدولة وسأله نصرته على أن يسلم إليه آمد ، وحلف كل واحد لصاحبه وكل منهما يرى أن صاحبه كاذب لما كان بينهما من العداوة المستحكمة ، واجتمعا على حرب فخر

الدولة وسارا إلى آمد وقد نزل فخر الدولة بنواحيها ، فلما رأى فخر الدولة اجتماعهما مال إلى الصلح وقال : لا أوثر أن يحل بالعرب بلاء على يدي ، فعرف التركمان ما عزم عليه فركبوا ليلاً وأتوا إلى العرب وأحاطوا بهم في ربيع الأول ، والتحم القتال واشتد فانهزمت العرب وذوابهم وانهزم شرف الدولة وحمى نفسه حتى وصل إلى فصيل آمد وحصره فخر الدولة ومن معه ، فلما رأى شرف الدولة أنه محصور خاف على نفسه فراسل الأمير أرتق وبذل له مالاً وسأله أن يمن عليه بنفسه ويمكنه من الخروج من آمد ، وكان هو على حفظ الطريق والحصار ، فلما سمع أرتق ما بذل له شرف الدولة أذن له في الخروج ، فخرج منها في الحادي والعشرين من ربيع الأول وقصد الرقة وأرسل إلى أرتق بما كان وعده به ، وسار ابن جهير إلى ميافارقين ومعه من الأمراء الأمير بهاء الدولة منصور بن مزيد وابنه سيف الدولة صدقة ، ففارقوه وعادوا إلى العراق ، وسار فخر الدولة إلى خلاط ، ولما استولى العسكر السلطاني على حلل العرب وغنموا أموالهم وسبوا حريمهم بذل سيف الدولة صدقة ابن منصور بن مزيد الأموال وافتك أسرى بني عقيل ونساءهم وأولادهم وجهزهم جميعهم وردهم إلى بلادهم ، ففعل أمراً عظيماً وأسدى مكرمة شريفة ومدحه الشعراء في ذلك فأكثروا ، فمنهم محمد بن محمد بن خليفة السنبسي يذكر ذلك في قصيدة :

كما أحرزت شكر بني عقيل   بآمد يوم كضهم الحذار
غداة رمتهم الأتراك طراً   بشهب في حوافلها ازورار
فما جبنوا ولكن فاض بحر   عظيم لا تقاومه البحار
فحين تنازلوا تحت المنايا   وفيهن الرزية والدمار
مننت عليهم وفككت عنهم   وفي أثناء حبلهم انتشار
ولولا أنت لم ينفك عنهم   أسير حين أعلقه الإسار

في أبيات كثيرة . ولما بلغ السلطان أن شرف الدولة انهزم وحصر بآمد لم يشك في أسره فخلع على عميد الدولة بن جهير وسيره في جيش كثيف إلى الموصل ، وكاتب أمراء التركمان بطاعته وسير معه الأمراء أقسنقر قسيم الدولة جد ملوكنا أصحاب الموصل ، وهو الذي أقطعه السلطان بعد ذلك حلب ، وكان الأمير أرتق قد قصد السلطان فعاد وصحبته عميد الدولة حتى وصل إلى الموصل ، فأرسل إلى أهلها يشير إليهم بطاعة السلطان وترك

عصيانه ، ففتحوا له البلد وسلموه إليه ، وسار السلطان بنفسه وعساكره إلى بلاد شرف الدولة يملكها فأتاه الخبر بخروج أخيه تكش بخراسان على ما نذكره ، ورأى شرف الدولة قد خلص من الحصر فأرسل مؤيد الملك بن نظام الملك إلى شرف الملك وهو مقابل الرحبة فأعطاه العهود والمواثيق وأحضره عند السلطان وهو بالبوازيج ، فخلع عليه آخر رجب ، وكانت أمواله قد ذهبت فاقترض ما خدم به وحمل للسلطان خيلاً رائعة من جملتها فرسه بشار وهو فرسه المشهور الذي نجا عليه من المعركة ومن آمد أيضاً ، وكان سابقاً لا يجارى ، فأمر السلطان بأن يسابق به الخيل فجاء سابقاً ، فقام السلطان قائماً لما تداخله من العجب ، وأرسل الخليفة طراداً الزينبي في لقي شرف الدولة فلقيه بالموصل فزاد أمر شرف الدولة قوة وصالحه السلطان وأقره على بلاده وعاد إلى خراسان لحرب أخيه .

ذكر فتح سليمان بن قتلمش أنطاكية

قال ابن الأثير: في هذه السنة سار سليمان بن قتلمش صاحب قونية وأقصرا وأعمالها من بلاد الروم إلى بلاد الشام فملك مدينة أنطاكية من أرض الروم ، وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وسبب ملك سليمان المدينة أن صاحبها الفردوس الرومي كان قد سار عنها إلى بلاد الروم ورتب بها شحنة ، وكان الفردوس مسيئاً إلى أهلها وإلى جنده أيضاً ، حتى إنه حبس ابنه ، فاتفق ابنه والشحنة على تسليم البلد إلى سليمان بن قتلمش وكاتبوه يستدعونه ، فركب البحر في ثلاثمائة فارس وكثير من الرجال وخرج منه وسار في جبال وعرة ومضايق شديدة حتى وصل إليها للموعد فنصب السلالم باتفاق من الشحنة ومن معه وصعد السور واجتمع بالشحنة وأخذ البلاد في شعبان ، فقاتله أهل البلد فهزمهم مرة بعد أخرى وقتل كثيراً من أهلها ، ثم عفا عنهم وتسلم القلعة المعروفة بالقسيان وأخذ من الأموال ما يجاوز الإحصاء وأحسن إلى الرعية وعدل فيهم وأمرهم بعمارة ما خرب ومنع أصحابه من النزول في دورهم ومخالطتهم ، ولما ملك سليمان أنطاكية أرسل إلى السلطان ملكشاه البشارة به وهنأه الناس ، فممن قال فيه الأبيوردي من قصيدة مطلعها :

لمعت كناصيةِ الحصان الأشقرِ نارٌ بمعتلج الكثيب الأعفرِ

وفتحت أنطاكية الروم التي نشرت معاقلها على الإسكندر
وطئت مناكبها جيادُك فانثنت تلقي أجنتها بنات الأصفر

سنة ٤٧٨

ذكر الحرب بين سليمان بن قتلمش وبين شرف الدولة وقتل هذا

قال ابن الأثير : لما ملك سليمان بن قتلمش مدينة أنطاكية أرسل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش يطلب منه ما كان يحمله إليه الفردوس من المال ويخوفه معصية السلطان ، فأجابه : أما طاعة السلطان فهو شعاري ودثاري والخطبة له والسكة في بلادي، وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعادته من هذا البلد وأعمال الكفار ، وأما المال الذي كان يحمله صاحب أنطاكية قبلي فهو كان كافراً وكان يحمل جزية رأسه وأصحابه ، وأنا بحمد الله مؤمن ولا أحمل شيئاً ، فنهب شرف الدولة بلد أنطاكية ونهب سليمان أيضاً بلد حلب ، فلقيه أهل السواد يشكون إليه نهب عسكره فقال : أنا كنت أشد كراهية لما يجري ، ولكن صاحبكم أحوجني إلى ما فعلت ، ولم تجر عادتي بنهب مال مسلم ولا أخذ ما حرمته الشريعة ، وأمر أصحابه بإعادة ما أخذوه منهم فأعاده . ثم إن شرف الدولة جمع الجموع من العرب والتركمان ، وكان ممن معه جبق أمير التركمان في أصحابه وسار إلى أنطاكية ليحصرها ، فلما سمع سليمان الخبر جمع عساكره وسار إليه فالتقيا في الرابع والعشرين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة في طرف من أعمال أنطاكية واقتتلوا ، فمال تركمان جبق إلى سليمان فاختل مصاف مسلم بن قريش فانهزمت العرب ، وتبعهم شرف الدولة منهزماً فقتل بعد أن صبر ، وقتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب ، وكان قتله يوم الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة ثمان وسبعين .

قال في الزبد والضرب : في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وصل شرف الدولة إلى أعزاز وأشير عليه بالنزول على حلب ، فنزل على نهر عفرين ،ووصل سليمان بن قطلمش وهو من

السلجوقية من أنطاكية ليلتقي الجيشان ، فجاء شرف الدولة بطيخ فنزل هو وبعض بني عمه وأكلا فقال ابن عمه :

كلوا أكلة من عاش يخبر أهله ومن مات يلقى الله وهو بطين

فقال شرف الدولة : قبلنا فالك يا ابن العم ، ثم التقى الجيشان وطعن شرف الدولة فقتل ، ولما طعن قال يا شام الشؤم . قلت : وقد لمح شرف الدولة أنها مشتقة من الشوم كما هو أحد الوجهين في اشتقاقها ، والوجه الآخر أنها مأخوذة من اليد الشوماء وهي اليسرى على ما نقله ابن شداد في تاريخه عن أبي بكر محمد بن الأنباري ، وكلاهما خلاف مقتضى الحديث (الشام شامة الله في أرضه) والله أعلم اهـ .

وفي المختار من الكواكب المضية : ذكر الصاحب (ابن العديم) أن الوقعة كانت في موضع من بلد العمق ، ثم إن سليمان بن قطلمش أرسل جثة الأمير مسلم بن قريش على بغل ملفوفة في إزار إلى حلب ليسلموها إلى أهله . قال المؤرخ (هو الصاحب) :

وزرت قبره في قبة بناها ونقل إليها من حلب بمشهد الحسن العسكري في الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة خمسين وستمائة فقرأت على حائط القبة هذه الأبيات :

لو أطعنا دفع الردى عنك يا مسلم كنا بالله ندفع عنكا
لأياد طوقت منا رقاباً فحويت الرقاب بالجود ملكا
طالما قد جلست يا شرف الدو لة في سدة الإمارة ملكا
ثم دبرت أمر ماسست بالعدل إلى أن صادفت للحين هلكا
أين ذاك الأمر العظيم مع النهـ ي بنيل نعم ... ومتكا
ذهب الكل وانفردت وحيداً ليس يحوي من كل ما حزت ملكا
بعزيز علي يا مجد دين الله ما أوحش التفرق منكا
فعليك السلام ما بقي الدهر وما أدحض المهيمن شركا

ترجمة الأمير شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي :

هو مسلم بن قريش بن بدران المقلد بن المسيب بن أبي المعالي بن أبي الفضل

العقيلي[1] الملقب بشرف الدولة أمير العرب بنواحي بغداد ، استفحل أمره وقويت شوكته وأطاعته العرب وطمع في الاستيلاء على بغداد بعد وفاة ظفر ، ثم رجع عن ذلك ، وكان أحول، وكان قد ملك من السندية التي على نهر عيسى إلى منبج من الشام وما والاها من البلاد ، وكان في يده ديار ربيعة ومضر من أرض الجزيرة والموصل وحلب وما كان لأبيه وعمه قرواش ، وكان عادلاً حسن السيرة والأمن في بلاده عام والرخص شامل، وكان يسوس بلاده سياسة عظيمة ، يسير الراكب والراكبان فلا يخافان شيئاً ، وكان له في كل بلد وقرية عامل وقاض وصاحب خبر بحيث لا يتعدى أحد على أحد ، وهو الذي عمر سور الموصل ، شرع فيه في ثالث شوال سنة أربع وسبعين وأربعمائة وفرغ منه في ستة أشهر .

وذكر حمدان بن عبد الرحيم التميمي قال : لما حصر شرف الدولة حلب غلت الأسعار فيها وصار الخبز ستة أرطال بدينار ، ورمى القلعة بالمنجنيق ، ثم عول على الرحيل عنها لغيرها حتى قرب الأمير أبو الحسن بن منقذ من سور القلعة فرأى صديقاً له من أهل الأدب على سور القلعة فقال له بن منقذ : كيف أنتم ؟ فقال : طول جب خوفاً من تفسير الكلمة ، فعاد ابن منقذ وهو يتصحف هذا الكلام فصح له أنه قصد بكلامه أنه ضعفوا فأوجس أنها كلمتان وأن قوله طول يريد مداً وجب بير فقال مدابير والله . فأعلم لشرف الدولة بهذه النكتة فقوى نفسه حتى ملكها . وذكر عبد الله بن محمد أنه قال : لما حاصر شرف الدولة قلعة حلب فحار★ ماء الساتورة التي بالقلعة حتى قل عليهم فقال ابن أبي حصينة :

وقد أطاعك فيها كل عاصية طوعاً لأمرك حتى غارت القلب

ولما ملك شرف الدولة مسلم قلعة حلب لم يكن بها ما يؤكل ، فنقل إليها من الموصل وأرض الجزيرة الغلة والدجاج والبيض حتى استكفى الناس ، وعمر هرماً في القلعة وملأه أقفاص سكر ، فلما بقي منه قليل قال : بالله تمموه فوالله لاملأه غيري تبناً .

---

(1) قال ابن خلدون في الكلام على انقراض دولة بني حمدان واستيلاء بني كلاب على حلب : كان بنو عقيل وبنو كلاب وبنو نمير وبنو خفاجة وكلهم من عامر بن صعصعة وبنو طي من كهلان منتشرين ما بين الجزيرة والشام في عدوة الفرات ، وكانوا كالرعايا لبني حمدان يؤدون إليهم الأتاوات وينفرون معهم في الحروب ، ثم استفحل أمرهم عند فشل دولة بني حمدان وساروا إلى ملك البلاد .

★ لعلها فغار .

حدث بهاء الدولة قال : حدثني الشريف عز الدين النقيب بحلب قال : كنت عند لؤلؤ ياسا وقد أمر أن يحط فيه تبن للخيل ، فحدثته حديث مسلم فقال لأصحابه : أريد أن تملئوه تبناً فلقد خربوا حلب وما امتلأ .

وذكر الهلال بن المحسن الصابي في تاريخه أن الأمير شرف الدولة لما صابر حلب وأشرفت على الأخذ خطب إلى صاحبها سابق بن محمود أخته وتم العقد ، وفي يوم تسليم القلعة ودخوله إليها دخل في ذلك اليوم والساعة بالعروس فقيل إنه فتح في ساعة واحدة حصنين ، وفي ذلك يقول منصور بن تميم بن زنكل :

فرعت أمنع حصن وافترعت به نعم الحصان ضحى من قبل يعتدل
وحزت بدر الدجى شمس الضحى فغلى مثليكما شرفاً لم تسدل الكلل

وكان مولده سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ، وكانت إمارته خمساً وعشرين سنة وعمره خمساً وأربعين سنة وشهوراً ، وكان قتله سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وكان رافضياً خبيثاً أظهر ببلاده سب السلف . وكان كريماً فاضلاً حليماً شاعراً ، ذكره العماد الكاتب في الخريدة من جملة الشعراء ، وكان لقبه مجد الدين سلطان الأمراء سيف أمير المؤمنين ملك بلاد الشام صلحاً وعنوة ، وفرغ إذ عصم عواصمها من العز ذروة ، وكان منصور الرأي والراية منتهياً في اكتساب المحامد إلى أقصى الغاية ، مسلم كاسمه زاده الله بسطة في علمه وجسمه جسيم الأيادي رحيب النادي ، ومن شعره :

إذا قرعت رجلي الركاب تزعزعت لها الشم واهتم الصعيد إلى مصر

وله أيضاً :

الدهر يومان ذا أمن وذا خطر والماء صنفان ذا صافٍ وذا كدرُ

وله أيضاً :

غلام أحور العينين أحوى أبى بعد العريكة أن يلينا

وله أيضاً :

يا منزل الحي سقيت السحاب أيام لبسي فيك ثوب الشبابْ
سقياً لأيامك لو أنها دامت لنا مع زينب والربابْ

أيـام لا واش مطـاع ولا صاحَ بوشك البين منا غرابْ

وله أيضاً :

غنـائي ينفـر عني الحَـزَنْ وشربي ما بين كـوب ودَنْ
وإني لأحقـر هـذا الزمـان ولا سيما أهل هـذا الزمـنْ
يريـدون نيـل العلـى بالمنـى ونيـل العلى برغيب الثمـنْ

وله أيضاً :

سقى دارهم أيام نحن جميع ملث لدمعي للفراق دموع
وما كنت بجزاع الفؤاد وإنما فؤادي على بين الحبيب جزوع
وكانت سليمى للمحبين روضـةً ووصل سليمى روضة وربيـع

ويقال إن رجلاً سأل شرف الدولة مسلم حاجة ، وسار في موكبه إلى أن وصل إلى مضربه فقال : أيها الأمير لا تنس حاجتي ، فقال له شرف الدولة : إذا قضيتها نسيتها . ولما أتاه ابن حيوس ليمدحه قيل له إن هذا شاعر وما مدح أحداً من الملوك إلا وهو قاعد ، وإنه تسمى بالأمير ، والرأي أن يكون الجلوس له في مكان ليس فيه بساط ولا ما يجلس عليه الأمير ، ففعل ذلك فأذن له فلم يجد مكاناً يصلح للجلوس فشرع وأنشد قائماً قصيدته التي أولها :

ما أدرك الطلبـات مثل مصـممِ إن أقدمت أعداؤه لم يحجـم

فلما انتهى إلى قوله في القصيدة :

أنت الذي نفق الثنـاءُ بسوقه وجرى الندى بعروقه قبل الـدم

اهتز لذلك وقال : ليجلس الأمير ، وأمر له ببساط فجلس وأتمها قاعداً وأعطاه الموصل . وذكر نصر بن محمد بن أبي هنون النحوي في كتابه «بستان المبقلة» قال : مدح ابن حيوس شرف الدولة في آخر عمره فقيل لمسلم : كان رسم هذا على بني صالح أصحاب حلب ألف دينار على كل قصيدة ، فقال : همتي تسمو أن أزيد على عطاياهم ، فقال له وزيره : هذا شيخ قد بلغ نهاية العمر واستوفى مدته ، والصواب أن نقطعه الموصل كما أقطعها المعتصم لأبي تمام ليبقى لك الذكر كما بقي له ، فأقطعه الموصل ، فبقي ابن

حيوس ستة أشهر ومات وخلف ما يزيد على عشرة آلاف دينار . ومما نقل من مكارم أخلاقه وسماحته ما حكاه عمر بن محمد بن علي بن الشحنة الموصلي قال : لما توفي أبو الفتيان ابن حيوس ترك مالاً كثيراً وعبيداً وغير ذلك فأخبر الأمير مسلم فأشار عليه بعض من حضر برفعه إلى خزانته ، فاعتراه من ذلك غضب عظيم حتى هم أن يقتل المشير عليه بذلك ، قال له : ويلك أعمد إلى مال قد سمحت به أنفس الأجواد وجادت به أكف الكرام وقد أخذ من فضلات عطاياهم فأجعله في خزائني ، اعزب عني فلا حاجة لي في صحبتك ، ثم أمر بالمال فجعل في حرز ، ولم يكن لابن حيوس ورثة فبقي دهراً ، ثم قيل للأمير مسلم إن له بحران بنت أخت وهي مستحقة للميراث ، فقال : ادفعوا جميع الميراث لها .

هذي المآثر لا ما تفتري كذباً وذي المكارم لا قعبان من لبن

هكذا ذكر ابن الشحنة . وقال المؤيد : كان لابن حيوس بنت أخ بحلب وهي فاطمة بنت أبي المكارم محمد بن سلطان بن حيوس، وكانت زوجة أحمد والد أبي غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة ، ولعل تركة ابن حيوس دفعها الأمير لهذه ووهم الحاكي بذكر حران بدل حلب وبنت الأخت بدل بنت الأخ . اهـ (من الوافي بالوفيات للصفدي ومن المختار من الكواكب المضية) .

وقال في الزبد والضرب : كان القاضي بحلب في أيام شرف الدولة القاضي كسرى بن عبد الكريم ابن ابن كسرى ، ومات فولي قضاءها أبو الفضل هبة الله بن أحمد بن أبي جرادة وهو ابن ابن بنت كسرى المذكور ، وكان أبو المكارم شرف الدولة يخاطبه بابن العم لكونه عقيلياً والقاضي عقيلي . اهـ .

ولاية إبراهيم بن قريش العقيلي سنة ٤٧٨

قال ابن الأثير : لما قتل مسلم بن قريش قصد بنو عقيل أخاه إبراهيم بن قريش وهو محبوس فأخرجوه وملكوه أمرهم ، وكان قد مكث في الحبس سنين كثيرة بحيث إنه لم يمكن المشي والحركة ، ولما قتل سار سليمان بن قتلمش إلى حلب فحصرها مستهل ربيع

الأول سنة ثمان وسبعين ، فأقام عليها إلى خامس ربيع الآخر من السنة فلم يبلغ منها غرضاً ، فرحل عنها .

ولاية الشريف أبي علي الحسن بن هبة الله الهاشمي المعروف بالحبيبي

يظهر أنه لم تطل مدة إبراهيم بن قريش في الولاية وتغلب عليه أيضاً الشريف بن الحبيبي ، وتوجه ذاك إلى الموصل ، فقد قال في الزبد والضرب : لما قتل مسلم بن قريش انفرد الشريف أبو علي الحسن بن هبة الله الهاشمي بتدبير حلب وسالم بن مالك بالقلعة ، وسيأتي لإبراهيم بن قريش ذكر في حوادث سنة ٤٨٦ .

الدولة السلجوقية بحلب

ذكر سليمان بن قتلمش واستيلاء السلطان ملكشاه السلجوقي على حلب وتوليته عليها قسيم الدولة آقسنقر سنة ٤٧٩

قال ابن الأثير : لما قتل سليمان بن قتلمش شرف الدولة مسلم بن قريش على ماذكرناه أرسل إلى ابن الحبيبي العباسي مقدم أهل حلب يطلب منه تسليمها إليه ، فانفذ إليه واستمهله على أن يكاتب السلطان ملكشاه ، وأرسل ابن الحبيبي إلى تتش صاحب دمشق يعده أن يسلم إليه حلب ، فسار تتش طالباً لحلب ، فعلم سليمان بذلك فسار نحوه مجداً ، فوصل إلى تتش وقت السحر على غير تعبئة ، فلم يعلم به حتى قرب منه فعبى أصحابه ، وكان الأمير أرتق بن أكسك مع تتش ، وكان منصوراً لم يشهد حرباً إلا وكان الظفر له ، وقد ذكرنا فيما تقدم حضوره مع ابن جهير على آمد وإطلاقه شرف الدولة من آمد ، فلما فعل ذلك خاف أن ينهي جهير ذلك إلى السلطان ففارق خدمته ولحق بتاج الدولة تتش ، فأقطعه البيت المقدس وحضر معه هذه الحرب فأبلى فيها بلاءً حسناً وحرض العرب على القتال ، فانهزم أصحاب سليمان وثبت هو في القلب ، فلما رأى انهزام عساكره أخرج سكيناً معه فقتل نفسه ، وقيل بل قتل في المعركة ، واستولى تتش على عسكره . وكان سليمان بن قتلمش في السنة الماضية في صفر قد أنفذ جثة شرف الدولة إلى حلب على بغل ملفوفة في إزار وطلب من أهلها أن يسلموها إليه ، وفي هذه السنة في صفر أرسل تتش جثة سليمان في إزار ليسلموها إليه فأجابه ابن الحبيبي إنه يكاتب السلطان ومهما أمره فعل ، فحصر تتش البلد وأقام عليه وضيق على أهله ، وكان ابن الحبيبي قد سلم كل برج من أبراجها إلى رجل من أعيان البلد ليحفظه ، وسلم برجاً فيها إلى إنسان

يعرف بابن الرعوي ، ثم إن ابن الحبيبي أوحشه بكلام أغلظه له فيه ، وكان هذا الرجل شديد القوة ورأى ما الناس فيه من الشدة فدعاه ذلك إلى أن أرسل إلى تتش للميعاد الذي ذكره فأصعد الرجال في الجبال والسلاليم وملك تتش المدينة واستجار ابن الحبيبي بالأمير أرتق فشفع فيه ، وأما القلعة فكان بها سالم بن مالك بن بدران وهو ابن عم شرف الدولة مسلم بن قريش ، فأقام تتش يحصر القلعة سبعة عشر يوماً ، فبلغه الخبر بوصول مقدمة أخيه السلطان ملكشاه فرحل عنها .

قال في زبدة الحلب : والشريف أبو علي بن الحبيبي العباسي، هو الذي سلم مدينة حلب لشرف الدولة مسلم بن قريش سنة ثلاث وسبعين واشتركا في حكمها ، وكان الشريف أبو علي شيعياً فصارت المدينة فرقتين فرقة معه وفرقة مع شرف الدولة مسلم ، ووقعت الوحشة بين أهل المدينة وتحاربوا سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وقت مجيء تتش لحلب فملكها تتش بسبب اختلاف أهلها ، والشريف أبو علي هو الذي عمر القلعة التي عند باب قنسرين المسماة بقلعة الشريف . ولما استجار الشريف أبو علي بالأمير أرتق وأجاره أتى الشريف إلى تتش ووقع على أقدامه فعفا عنه ، وكانت قد انتهت عمارة قلعته فأتى إليها وتحصن بها خوفاً من أهل حلب لئلا يقتلوه ، وسيأتي أن السلطان ملكشاه لما استولى على حلب أخذه معه إلى ديار بكر بطلب من أهل حلب ومات في ديار بكر .

ذكر ملك السلطان ملكشاه حلب وغيرها

قال ابن الأثير : كان ابن الحبيبي قد كاتب السلطان ملكشاه يستدعيه ليسلم إليه حلب لما خاف تاج الدولة تتش ، فسار إليه من أصبهان في جمادى الآخرة وجعل على مقدمته الأمير برسق وبوزان وغيرهما من الأمراء، وجعل طريقه على الموصل فوصلها في رجب سار منها ، فلما وصل إلى حران سلمها إليه ابن الشاطر فأقطعها السلطان محمد بن

شرف الدولة وسار إلى الرها وهي بيد الروم فحصرها وملكها ، وكانوا قد اشتروها من ابن عطير ، وتقدم ذكر ذلك ، وسار إلى قلعة جعبر[1] فملكها وقتل من بها من بني قشير .

وفي المختار من الكواكب المضية : كان جعبر شيخاً كبيراً أعمى وله ولدان ، وكان قطاع الطريق يلجأون إليها ويتحصنون بها من السلطان ويقاسمون جعبراً ، فراسل سابق الدين جعبراً في تسليمها فامتنع عليه فنصب عليها المجانيق ففتحها وأمر بقتل صاحبها جعبر القشيري ، فقالت زوجته : لا تقتله حتى تقتلني معه ، فألقاه من رأسها وأمر بتوسيطه ، فألقت المرأة نفسها وراءه فسلمت ، فلامها الناس في ذلك فقالت : كرهت أن تصل إلي الترك فيبقى عاراً عليّ . اهـ .

قال القرماني في تاريخه : لما قدم سليمان شاه مع بنيه الثلاثة وهم سنقور وكون طوغدي وأرطغرل [أرطغرل هو جد ملوك سلاطين آل عثمان] من بلاد الشرق لما ظهر جنكيز خان في سنة إحدى عشرة وستمائة ووصلوا إلى نهر الفرات أمام قلعة جعبر ولم يعلموا المعبر ، فعبروا النهر فغلب عليهم الماء فغرق سليمان شاه ، فأخرجوه ودفنوه عند قلعة جعبر وقبره اليوم هناك يزار ويتبرك به .

ولنرجع إلى تتمة الكلام على حوادث ملكشاه السلجوقي . قال ابن الأثير : ثم عبر الفرات إلى مدينة حلب فملك في طريقه مدينة منبج ، فلما قارب حلب رحل عنها أخوه تتش وكان قد ملك المدينة كما ذكرناه ، وسار عنها يسلك البرية ومعه الأمير أرتق فأشار بكبس عسكر السلطان وقال إنهم قد وصلوا وبهم وبدوابهم من التعب ما ليس عندهم معه امتناع ، ولو فعل لظفر بهم ، فقال تتش : لا أكسر جاه أخي الذي أنا مستظل بظله فإنه يعود بالوهن علي أولاً ، وسار إلى دمشق ، ولما وصل السلطان إلى حلب تسلم المدينة وسلم إليه سالم بن مالك القلعة على أن يعوضه عنها قلعة جعبر ، وكان سالم قد امتنع بها أولاً فأمر السلطان أن يرمي إليه رشقاً واحداً بالسهام ، فرمى الجيش فكادت الشمس تحتجب

(١) قال ياقوت في المعجم : قلعة جعبر على الفرات قرب صفين ، وكانت قديماً تسمى دوسر فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جعبر بن مالك وكان يخيف السبل ويلتجيء إليها . قال ابن خلكان في ترجمة جعبر المذكور : ويقال لهذه القلعة الدوسرية وهي منسوبة إلى دوسر غلام النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وكان قد تركه على أفواه الشام فبنى هذه القلعة فنسبت إليه اهـ . وقال أبو الفدا : قلعة جعبر اسمها الدوسرية ، ثم عرفت بقلعة جعبر لطول مدة ملك جعبر لها وهو شيخ أعمى ، ولما وصلها ملكشاه أمسكه وأمسك ولديه وكانا يقطعان الطريق ويخيفان السبل اهـ .

لكثرة السهام ، فصانع عنها بقلعة جعبر وسلمها وسلم إليه السلطان قلعة جعبر فبقيت بيده وبيد أولاده إلى أن أخذها منهم نور الدين محمود بن زنكي على ما نذكره إن شاء الله تعالى ، وأرسل إليه الأمير نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر فدخل في طاعته وسلم إليه لاذقية وكفر طاب وأفامية ، فأجابه إلى المسالمة وترك قصده وأقر عليه شيزر .

ولما ملك السلطان حلب سلمها إلى قسيم الدولة آقسنقر فعمرها وأحسن السيرة فيها ، وأما ابن الحبيبي فإنه كان واثقاً بإحسان السلطان ونظام الملك إليه فإنه استدعاهما ، فلما ملك السلطان البلد طلب أهله يعفيهم من ابن الحبيبي فأجابهم إلى ذلك واستصحبه معه وأرسل إلى ديار بكر فافتقر وتوفي بها على حال شديدة من الفقر ، وقتل ولده بأنطاكية قتله الفرنج لما ملكوها ، وعاد السلطان إلى بغداد فدخلها في ذي الحجة .

سنة ٤٨١

فيها جمع آقسنقر صاحب حلب عسكره وسار إلى قلعة شيزر فحصرها وصاحبها ابن منقذ وضيق عليها ونهب ربضها ، ثم صالحه صاحبها وعاد إلى (حلب) . اهـ . ابن الأثير .

سنة ٤٨٢
عمارة منارة الجامع الأعظم

في هذه السنة أسست منارة جامع حلب وعمرت على يد القاضي أبي الحسن محمد ابن يحيى بن الخشاب عوض منارة كانت قبلها، وكان لحلب معبد للنار قديم العمارة وقد تحول إلى أن صار أتون حمام ، فاضطر القاضي لأخذ حجارته لعمارة هذه المنارة ، فوشى به بعض حساده لأمير البلد قسيم الدولة وأغضبه عليه ، فاستحضره وقال له : قد هدمت معبداً هو لي وملكي ، فقال : أيها الأمير هذا معبد للنار وقد صار أتوناً وقد أخذت حجارته وعمرت بها معبداً للإسلام يذكر عليه اسم الله وحده لا شريك له وكتبت اسمك عليه وجعلت الثواب لك فإن رسمت لي أن أغرم ثمن الأحجار ويكون الثواب لي فعلت ، فأعجب الأمير

كلامه واستصوب رأيه وقال : بل الثواب لي وافعل أنت ما تريد . قال وكتب ابن العميد في الحاشية : إن الواشي كان أبا نصر بن النحاس ناظر حلب . قال : وقرأت في تاريخ منتخب الدين يحيى بن أبي طي النجار الحلبي قال : أسست العمارة في هذه المنارة في زمن سابق ابن محمود بن صالح على يد القاضي ابن الحسن بن الخشاب ، وكان الذي عمرها رجل من سرمين وإنه بلغ بأساسها إلى الماء وعقد حجارتها بكلاليب الحديد والرصاص وأتمها في أيام قسيم الدولة آقسنقر ، وطول هذه المنارة إلى الدرابزين بذراع اليد سبع وتسعون ذراعاً وعدد مراقيها مائة وأربع وسبعون درجة . وأخبرني زين الدين بن عبد الملك بن عبد الله بن عبد الرحيم العجمي أن والده حكى له أنه لما كان ليلة الاثنين ثامن شهر شوال سنة خمس وسبعين وستمائة زلزلت حلب زلزلة عظيمة هدمت أكثر دورها وأهلك جماعة من أهلها وحركت المنارة فدفعت هلالاً كان على رأسها مقدار ستماية قدم وتشققت اهـ . (من الدر المنتخب المنسوب لابن الشحنة) .

أقول : مكتوب على جدار المنارة في أسفلها بالخط الكوفي المسمى بالمزهر (صنعه حسن بن مقري السرميني سنة ٤٨٣) . وقرأت في بعض المجاميع الحلبية أن طول الجامع من الشرق إلى الغرب مع سمك جدران الجهتين مائة وثلاثون ذراعاً وعرضه من الجنوب إلى الشمال مائة وأحد عشر ذراعاً ، فإذا ضربت ذراع الطول في العرض يبلغ المجموع ١٤٤٣٠ ذراعاً مربعاً. وطول القبليتين مائة وتسعة قراريط . وارتفاع المنارة من أرض الجامع إلى موقف المؤذنين اثنان وخمسون ذراعاً وستة قراريط، ومحيطها مما يلي سطح الرواق إحدى وعشرون ذراعاً وإحدى وعشرون قيراطاً ومن موقف المؤذنين إلى ختم القبة سبعة أذرع .

سنة ٤٨٤
حصول الزلازل في الشام وانهدام أبراج أنطاكية

قال ابن العديم : في هذه السنة تسلم الأمير قسيم الدولة قلعة أفامية من زيد بن ملاعب ثالث رجب وسجن بعض بني منقذ . اهـ .

قال ابن الأثير : وفيها في تاسع شعبان كان بالشام وكثير من البلاد زلازل كثيرة ، وكان أكثرها بالشام ففارق الناس مساكنهم وانهدم بأنطاكية كثير من المساكن وهلك تحتها عالم كثير وخرب من سورها تسعون برجاً فأمر السلطان ملكشاه بعمارتها اهـ .

سنة ٤٨٥

في هذه السنة في النصف من شوال توفي السلطان ملكشاه وهو ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وكان مولده في سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وكان من أحسن الناس صورة ومعنى وخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام ومن أقاصي بلاد الشام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن ، وحملت له ملوك الروم الجزية ولم يفته مطلب ، وكانت أيامه أيام عدل وسكون وأمن فعمرت البلاد ودرت الأرزاق . اهـ باختصار من أبي الفداء ، وله ولوزيره نظام الملك ترجمة حافلة في ابن خلكان وفي ابن الأثير في حوادث هذه السنة .

ذكر التحاق آقسنقر بتتش بن ألب أرسلان ثم ببركياروق بن ملكشاه بن ألب أرسلان سنة ٤٨٦

قال ابن الأثير : كان تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق وما جاورها من بلاد الشام ، فلما كان قبل موت أخيه السلطان ملكشاه سار من دمشق إليه ببغداد ، فلما كان بهيت بلغه موته فأخذ هيت واستولى عليها وعاد إلى دمشق يتجهز لطلب السلطنة ، فجمع العساكر وأخرج الأموال وسار نحو حلب وبها قسيم الدولة آقسنقر ، فرأى قسيم الدولة اختلاف أولاد صاحبه ملكشاه وصغرهم فعلم أنه لا يطيق دفع تتش فصالحه وصار معه ، وأرسل إلى باغي سيان صاحب أنطاكية وإلى بوزان صاحب الرها وحران يشير عليهما بطاعة تاج الدولة تتش حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه ، ففعلوا وصاروا معه وخطبوا له في بلادهم وقصدوا الرحبة فحصروها وملكوها في المحرم في هذه السنة وخطب لنفسه بالسلطنة ، ثم ساروا إلى نصيبين فحصروها فسب أهلها تاج الدولة ففتحها عنوة وقهراً وقتل

منْ أهلها خلقاً كثيراً ونهبت الأموال وفعل فيها الأفعال القبيحة ، ثم سلمها إلى الأمير محمد ابن شرف الدولة العقيلي وسار يريد الموصل وأميرها يومئذ إبراهيم بن قريش بن بدران(١)

قال أبو الفداء : لما قصد تتش الموصل في هذه السنة سنة ٤٨٦ خرج إبراهيم لقتاله والتقوا بالمضيح من أعمال الموصل وجرى بينهم قتال شديد انهزمت فيه المواصلة وأخذ إبراهيم بن قريش أسيراً وجماعة من أمراء العرب فقتلوا صبراً ، وملك تتش الموصل واستناب عليها علي بن مسلم بن قريش وأمه ضيفة عمة تتش ، وأرسل تتش إلى بغداد يطلب الخطبة فتوقفوا فيها ، ثم سار تتش واستولى على ديار بكر وسار إلى أذربيجان وكان قد استولى بركياروق بن ملكشاه على كثير منها فسار بركياروق إلى عمه تتش ليمنعه فقال آقسنقر : نحن إنما أطعنا تتش لعدم قيام أحد من أولاد السلطان ملكشاه ، أما إذا كان بركياروق بن السلطان قد تملك فلا نكون مع غيره ، وخلى آقسنقر تتش ولحق ببركياروق فضعف تتش لذلك وعاد إلى الشام .

ذكر قتل قسيم الدولة آقسنقر وملك تتش حلب والجزيرة وديار بكر وأزربيجان وهمدان والخطبة له ببغداد سنة ٤٨٧ وولاية الحسن بن علي الخوارزمي في هذه السنة أيضاً

قال ابن الأثير : في هذه السنة في جمادى الأولى قتل قسيم الدولة آقسنقر ، وكان سبب قتله أن تاج الدولة تتش لما عاد من أذربيجان منهزماً لم يزل يجمع العساكر فكثرت جموعه وعظم حشده . فسار في هذا التاريخ عن دمشق نحو حلب ليطلب السلطنة ، فاجتمع قسيم الدولة آقسنقر وبوزان وأمدهما ركن الدين بركياروق بالأمير كربوقا الذي صار صاحب الموصل ، فلما اجتمعوا ساروا إلى طريقه فلقوه عند نهر سبعين قريباً من تل

(١) هو أخو مسلم بن قريش وقد قدمنا أنه ولي حلب سنة ٤٧٨ بعد قتل أخيه ولم تطل مدته في الولاية وتغلب عليه الشريف بن الحبيبي .

السلطان بينه وبين حلب ستة فراسخ واقتتلوا واشتد القتال ، فخامر بعض العسكر الذين مع آقسنقر فأخذ أسيراً وأحضر عند تتش فقال له : لو ظفرت بي ما كنت تصنع ؟ قال : كنت أقتلك ، فقال له : أنا أحكم عليك بما كنت تحكم علي ، فقتله صبراً ، وسار نحو حلب وكان قد دخل إليها كربوقا وبوزان فحفظاها منه وحصرها تتش ولج في قتالها حتى ملكها سلمها إليه المقيم بقلعة الشريف ومنها دخل البلد وأخذهما أسيرين وأرسل إلى حران والرها ليسلمها من بهما ، وكانتا لبوزان فامتنعوا من التسليم إليه ، فقتل بوزان وأرسل رأسه إليهم وتسلم البلدين ، وأما كربوقا فإنه أرسله إلى حمص فسجنه بها إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تتش . وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظاً لهم وكانت بلاده بين رخص عام وعدل شامل وأمن واسع ، وكان قد شرط على أهل كل قرية من بلاده متى أخذ عندهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير ، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا وحرسهم أهل القرية إلى أن يرحلوا فأمنت الطريق ، وأما وفاؤه وحسن عهده فيكفيه فخراً أنه قتل في حفظ بيت صاحبه وولي نعمته ، فلما ملك تتش حران والرها سار إلى الديار الجزرية فملكها جميعها ثم ملك ديار بكر وخلاط وسار إلى أذربيجان فملك بلادها كلها ، ثم سار منها إلى همدان فملكها ورأى بها فخر الملك بن نظام الملك وكان بخراسان فسار منها إلى السلطان بركيارق ليخدمه فوقع عليه الأمير قماح وهو من عسكر محمود بن السلطان ملكشاه بأصبهان فنهب فخر الملك فهرب منه ونجا بنفسه ، فجاء إلى همدان فصادفه تتش بها فأراد قتله فشفع فيه باغيسيان وأشار عليه أن يستوزره لميل الناس إلى بيته ، فاستوزره وأرسل إلى بغداد يطلب الخطبة من الخليفة المستظهر بالله وكان شحنته ببغداد إيتكين جب فلازم الخدمة بالديوان وألح في طلبها فأجيب إلى ذلك بعد أن سمعوا أن بركيارق قد انهزم من عسكر عمه تتش ، وساق الخبر في ذلك ، ولما ملك تتش حلب قرر فيها الحسن بن علي الخوارزمي وحكمه في البلد والقلعة .

ترجمة آقسنقر :

قال ابن العديم : آقسنقر بن عبد الله المعروف بقسيم الدولة مملوك السلطان أبي الفتح ملك شاه ، وقيل إنه لصيق له ، وقيل اسم أبيه آل ترغان من قبيلة سابيو ، نقلت

ذلك من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، وأنبأنا به أبو اليمن الكندي وغيره عنه ، وتزوج آقسنقر داية السلطان إدريس بن طغان شاه وحظي عند السلطان ملك شاه وقدم معه حلب في سنة تسع وسبعين وأربعمائة حين قصد تاج الدولة تتش أخاه فانهزم عن حلب وكان قصدها وملكها السلطان ملكشاه في شهر رمضان من سنة تسع وسبعين وخرج عنها إلى أنطاكية وملكها وخيم على ساحل البحر أياماً ، وعاد إلى حلب وعيد بها عيد الفطر ورحل عنها وقرر ولاية حلب لقسيم الدولة آقسنقر في أول سنة ثمانين وأربعمائة فأحسن فيها السياسة والسيرة وأقام الهيبة وقمع الذعار وأفنى قطاع الطريق ومخيفي السبيل وتتبع اللصوص والحرامية في كل موضع فاستأصل شأفتهم ، وكتب إلى الأطراف أن يفعلوا مثل فعله لتأمن الطرق وتسلك السبل ، فشكر بذلك الفعل وأمنت الطرق والمسالك وسار الناس في كل جهة بعد امتناعهم لخوفهم من القطاع والأشرار ، وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك بورود التجار إليها والجلابين من جميع الجهات ، ورغب الناس في المقام بها للعدل الذي أظهره فيهم رحمه الله .

وفي أيامه جدد عمارة منارة حلب بالجامع في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، واسمه منقوش عليها إلى اليوم وهو الذي أمر ببناء مشهد قرنبيا ووقف عليه الوقف ، وأمر بتجديد مشهد الدكة . أخبرني عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير الجزري قال : كان قسيم الدولة آق سنقر أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظاً لهم ، وكانت بلاده بين عدل عام ورخص شامل وأمن واسع ، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير ، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا وقام أهل القرية يحرسونهم إن رحلوا ، فأمنت الطرق وتحدث الركبان بحسن سيرته . سمعت والدي القاضي أبا الحسن رحمه الله يقول لي فيما يأثره عن أسلافه : إن قسيم الدولة آقسنقر كان قد نادى في بلد حلب بأن لا يرفع أحد متاعه ولا يحفظه في طريق لما حصل من الأمن في بلاده ، قال فخرج يوماً يتصيد فمر على قرية من قرى حلب فوجد بعض الفلاحين قد فرغ من عمل الفدان وطرح عن البقر النير ورفعه على دابة ليحمله إلى القرية فقال له : ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع أحد متاعاً ولا شيئاً من موضعه ، فقال له : حفظ الله قسيم الدولة قد أمنا في أيامه

وما نرفع هذه الآلة خوفاً عليها أن تسرق ، ولكن هنا دابة يقال لها ابن آوى تأتي إلى هذا النير فتأكل الجلد الذي عليه فنحن نحفظه منها ونرفعه لذلك ، قال : فعاد قسيم الدولة من الصيد فأمر فتتبعوا لبنات آوى في بلد حلب فصادوها حتى أفنوها من بلد حلب ، قلت : وهي إلى الآن لا يوجد في بلد حلب منها شيء إلا في النادر دون غيرها من البلاد .

قرأت في كتاب عنوان السير تأليف محمد بن عبد الملك الهمداني قال : وأقطع السلطان حلب وقلعتها مملوكه آقسنقر ولقبه قسيم الدولة ، وذلك في سنة تسع وسبعين وأربعمائة فأحسن السيرة وظهر منه عدل لم يعرف بمثله واستغلها في كل يوم ألف وخمسائة دينار ولم يزل بها حتى قتله تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان في سنة سبع وثمانين وأربعمائة . قلت : وكان تاج الدولة تتش قتله صبراً بين يديه بسبعين قرية من قرى حلب من نقرة بني أسد على نهر الذهب ، وقيل بكارس ، وذلك أن تتش كان قد حصل في نفسه شيء من قسيم الدولة استصغر أمر تتش حتى إني قرأت بخط أبي الحسن علي بن مرشد علي بن منقذ في تاريخه سنة أربع وثمانين وأربعمائة : وفيها نزل تاج الدولة إلى السلطان ، يعني نزل تتش إلى ملك شاه ، فلما رآه ترجل له وكان في الصيد خيفة أن يتخيل منه ، وحصر هو وقسيم الدولة في حضرته فقال تاج الدولة تتش : كان من الأمر كذا وكذا فقال له قسيم الدولة : تكذب ، فقال له السلطان : تقول لأخي كذا قال : نعم يطلع الله في عينيه ما يريده لك ويطلع في عيني ما أريده لك ، قلت : وعاد تتش إلى دمشق فلما توفي السلطان ملك شاه برز تاج الدولة تتش في شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وخرج معه خلق من العرب ولقيه عسكر أنطاكية بالقرب من حماة مع باغيسيان ، وسار تاج الدولة وقطع الغاصي في شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة ورعى عسكره الزراعات ونهب المواشي وغيرها ، واتصل الخبر بآق سنقر وهو بحلب وكاتبه السلطان بركياروق وخطب له بحلب ، فجمع وحشد واستنجد بمن يجاوره ، فوصل إليه كربوقا صاحب الموصل وبزان صاحب الرها ويوسف بن آبق صاحب الرحبة في ألفي فارس وخمسمائة فارس منجدين قسيم الدولة على تتش ، وحصل الجميع بحلب ، ووصل تاج الدولة تتش إلى الحانوتة ورحل منها إلى الناعورة وأغارت خيله على المواشي بالنقرة وأحرقوا بعض زرعها ، ورحل من الناعورة قاصداً نحو الوادي وأدى براعة فتهيأ آقسنقر للقائه والخروج إليه واستدعى منجماً ليأخذ له الطالع ، فحضر عنده واختار

له وقتاً وقال : تخرج الساعة ، فركب ومعه النجدة التي وصلته وجماعة كبيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل وكان أطلقهما من الاعتقال ومحمد بن زايدة وجماعة من أحداث حلب والديلم والخراسانية في أحسن زي وأكمل عدة ، وقيل إنه قدر عسكره بعشرين ألف فارس ، وقيل كان يزيد عن ستة آلاف ، وقصد تاج الدولة التاسع من جمادى الأولى من السنة وقطع آقسنقر سواقي نهر سبعين قاصداً عسكر تتش ، فأقاموا على حالهم ، وكان أول من برز للحرب آقسنقر فالتقى الفريقان ، ولم يثق آقسنقر بمن كان معه من العرب فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة في وقت المصاف ثم نقلهم إلى القلب فلم يغنوا شيئاً ، وحمل عسكر تتش على عسكر آقسنقر فلم يثبت ، وانهزمت العرب وعسكر كربوقا وبزان معهم إلى حلب ووقع فيهم القتل وثبت قسيم الدولة فأسر وأسر أكثر أصحابه وحمل إلى تاج الدولة تتش ، فلما مثل بين يديه أمر بضرب عنقه وأعناق بعض خواصه ، ودخل تتش إلى حلب وملكها على ما نذكره في ترجمته إن شاء الله . وبلغني أن تاج الدولة تتش قال لقسيم الدولة آقسنقر لما حضر بين يديه : لو ظفرت بي ما كنت صنعت ؟ فقال : كنت أقتلك ، فقال له تتش : فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علي ، فقتله صبراً .

وقرأت بخط بعض الحلبيين أن السلطان ملك شاه بن العادل وصل يعني إلى حلب في شعبان سنة تسع وسبعين ، فتسلم البلد والقلعة وسلمها إلى قسيم الدولة آقسنقر ، فأقام بحلب ثمان سنين فقتل بكارس من أرض أسد في صفر سنة سبع وأربعمائة ، قتله تاج الدولة تتش بن العادل .

وقرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين الشيباني في تاريخه في جمادى الأولى يعني سنة سبع وثمانين كان المصاف بين تاج الدولة تتش وبين الأمير آقسنقر وبوزان ومن أمدهما به بركياروق قريباً من حلب ، فلما التقى الصفان استأمن ابن أبق إلى تتش وانهزم الباقون وأسر آقسنقر ، فجيء به إلى تتش فقال له تتش : لو ظفرت بي ما كنت صانعاً فيَّ ؟ قال : أقتلك ، قال : فإني أحكم عليك بحكمك فيَّ ، وقتله . قال : وكان آقسنقر من أحسن الناس سياسة وآمنهم رعية وسابلة ، وقرأت بخط أبي منصور هبة الله بن سعد الله الجبراني الحلبي : الصحيح أن قسيم الدولة قتل يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وأربعمائة . (ثم قال) : ولما قتل آقسنقر دفن إلى جانب قرنبيا

بالقبة الصغيرة المبنية بالحجارة من حذاء المسجد ، وكان قسيم الدولة بنى مشهد قرنبيا لمنام رآه بعض أهل زمانه ووقف عليه وقفاً فدفن إلى جنبه وعمر على قبره تلك القبة ، فلما ملك زنكي حلب آثر أن يبني لأبيه مكاناً ينقله إليه وكانت المدرسة بالزجّاجين لم تتم وكان شرف الدين أبو طالب بن العجمي هو الذي يتولى عمارة هذه المدرسة فأشار على زنكي أن ينقل أباه إليها فنقله وتمم عمارة المدرسة ووقف على من يقرأ على قبره القرية المعروفة بشامر وهي جارية إلى الآن[1] . وأخبرني أبو حامد عبد الله بن عبد الرحمن بن العجمي قال : أراد أتابك زنكي أن ينقل أباه إلى موضع يجدده عليه ويليق به فقال له : إني أنا قد عمرت هذه المدرسة بالزجّاجين ، وسأله أن ينقل أباه إليها ففعل واتخذ الجانب الشمالي تربة لأبيه ولمن يموت من ولده وغيرهم . وحكى لي والدي رحمه الله أن أتابك زنكي لما نقل أباه من قرنبيا وأدخله إلى المدرسة بالزجّاجين لم يدخل به من باب من أبواب مدينة حلب وأنهم رفعوه من بعض الأسوار ودلوه إلى المدينة لأنهم يتطيرون بدخول الميت إلى البلدة .

قرأت بخط أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد العظيمي وأنبأنا به عبد المؤيد بن محمد الطوسي وغيره قال سنة ثمانين وأربعمائة دولة قسيم الدولة وزيره أبو المعز بن صدقة (هكذا) : فيها استقرت الرتبة بحلب للأمير قسيم الدولة آقسنقر من قبل السلطان العادل أبي الفتح وتوطدت له الأمور بها وأقام الهيبة العظيمة التي لا يقدر عليها أحد من السلاطين ، وأظهر فيها من العدل والإنصاف مع تلك الهيبة ما يطول شرحه ، ورخصت الأسعار في أيامه الرخص الزائد عن الحد ، وقرب الحلبيين وأحبهم الحب المفرط وأحبوه أضعاف ذلك ، وأقام الحدود وأحيا أحكام الإسلام وعمر الأطراف وآمن السبل وقتل قطاع الطريق وطلبهم في كل فج وشنق منهم خلقاً . وكلما سمع بقاطع طريق في موضع قصده وأخذه وصلبه على أبواب المدينة ، وكثرت في أيامه الأمطار وتفجرت العيون والأنهار وعامل أهل حلب من الجميل ما أحوجهم أن يتوارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر اهـ .

(١) قال ابن خلكان في ترجمته : ورأيت عند قبره خلقاً كثيراً يجتمعون كل يوم جمعة لقراءة القرآن الكريم وقالوا إن لهم على ذلك وقفاً عظيماً ، وابن خلكان تلقى علومه في حلب دخلها سنة ٦٢٦ وخرج منها سنة ٦٣٥ كما ذكره في ترجمة ابن يعيش وابن شداد .

ذكر قتل تتش بن آلب أرسلان سنة ٤٨٨

في هذه السنة في صفر قتل تتش بن آلب أرسلان في وقعة جرت بينه وبين ابن أخيه بركياروق في موضع قريب من الري انهزم عسكر تتش وثبت هو فقتل ، قيل قتله بعض أصحاب آقسنقر صاحب حلب أخذاً بثأر صاحبه . اهـ ابن الأثير باختصار.

ترجمة تاج الدولة تتش :

قال ابن خلكان : هو تاج الدولة أبو سعيد تتش بن آلب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي . كان صاحب البلاد الشرقية ، فلما حاصر أمير الجيوش بدر الجمالي مدينة دمشق من جهة صاحب مصر وكان صاحب دمشق يومئذ آتسز بن أوق الخوارزمي التركي ، سير آتسز المذكور إلى تتش فاستنجده وسار إليه بنفسه ، فلما وصل إلى دمشق خرج إليه آتسز فقبض عليه تتش واستولى على مملكته وذلك في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، وكان قد ملك دمشق في ذي القعدة سنة ثمان وستين وأربعمائة ، ثم ملك حلب في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة (تقدم أنه تملكها سنة ٤٧٩) واستولى على البلاد الشامية ، ثم جرى بينه وبين ابن أخيه بركياروق منافرات ومشاجرات أدت إلى المحاربة فتوجه إليه وتصافا بالقرب من مدينة الري في يوم الأحد سابع عشر صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، فانكسر تتش المذكور وقتل في المعركة ذلك النهار ، ومولده سنة ثمان وخمسين وأربعمائة وخلف ولدين أحدهما فخر الملوك رضوان والآخر شمس الملوك أبو نصر دقاق ، فاستقل رضوان بمملكة حلب ودقاق بمملكة دمشق . اهـ . وسيأتي أنه خلف ولدين صغيرين آخرين .

ولاية رضوان بن تتش السلجوقي سنة ٤٨٨

قال ابن الأثير : كان تاج الدولة تتش قد أوصى أصحابه بطاعة ابنه الملك رضوان وكتب إليه من بلد الجبل قبل المصاف الذي قتل فيه يأمره أن يسير إلى العراق ويقيم بدار

المملكة ، فسار في عدد كثير منهم إيلغازي بن أرتق ، وكان قد سار إلى تتش فتركه عند ابنه رضوان ومنهم الأمير وثاب بن محمود بن صالح بن مرداس وغيرهما ، فلما قارب هيت بلغه قتل أبيه فعاد إلى حلب ومعه والدته فملكها وكان بها أبو القاسم الحسن بن علي الخوارزمي قد سلمها إليه تتش وحكمه في البلد والقلعة ولحق برضوان زوج أمه جناح الدولة الحسين ابن إيتكين ، وكان مع تتش فسلم من المعركة ، وكان مع رضوان أخواه الصغيران أبو طالب وبهرام وكانوا كلهم مع أبي القاسم كالأضياف لتحكمه في البلد ، واستمال جناح الدولة المغاربة وكانوا أكثر جند القلعة ، فلما انتصف الليل نادوا بشعار الملك رضوان واحتاطوا على أبي القاسم وأرسل إليه رضوان يطيب قلبه ، فاعتذر فقبل عذره وخطب لرضوان على منابر حلب وأعمالها ولم يكن يخطب له ، بل كانت الخطبة لأبيه بعد قتله نحو شهرين ،

وسار جناح الدولة في تدبير المملكة سيرة حسنة وخالف عليهم الأمير باغيسيان بن محمد ابن آلب التركماني صاحب أنطاكية ثم صالحهم وأشار على الملك رضوان بقصد ديار بكر لخلوها من وال يحفظها ، فساروا جميعاً وقدم عليهم أمراء الأطراف الذين كان تتش رتبهم فيها وقصدوا سروج فسبقهم إليها الأمير سقمان بن أرتق جد أصحاب الحصن اليوم وأخذها ومنعهم عنها ، وأمر أهل البلد فخرجوا إلى رضوان وتظلموا إليه من عساكره وما يفسدون من غلامهم ويسألونه الرحيل ، فرحل عنهم إلى الرها ، وكان رجل من الروم يقال له الفارقليط وكان يضمن البلد من بوزان فقاتل المسلمين بمن معه واحتمى بالقلعة وشاهدوا من شجاعته ما كانوا لا يظنونه ، ثم ملكها رضوان وطلب باغيسيان القلعة من رضوان فوهبها له فتسلمها وحصنها ورتب رجالها ، وأرسل إليهم أهل حران يطلبونهم ليسلموا إليهم حران فسمع ذلك قراجة أميرها فاتهم ابن المفتي وكان هذا ابن المفتي قد اعتمد عليه تتش في حفظ البلد ، فأخذه وأخذ معه بني أخيه فصلبهم ، ووصل الخبر إلى رضوان ، وقد اختلف جناح الدولة وبغيسيان وأضمر كل واحد منهما الغدر بصاحبه ، فهرب جناح الدولة إلى حلب فدخلها وسار رضوان وباغيسيان فعبر الفرات إلى حلب فسمعوا بدخول جناح الدولة إليها ، ففارق باغيسيان الملك رضوان وسار إلى أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي وسار رضوان إلى حلب .

سنة ٤٨٩
ذكر قتل يوسف بن آبق والمجن الحلبي

قال ابن الأثير : في هذه السنة في المحرم قتل يوسف بن آبق الذي ذكرنا أنه سيره تاج الدولة تتش إلى بغداد ونهب سوادها ، وكان سبب قتله أنه كان بحلب بعد قتل تاج الدولة ، وكان بحلب إنسان يقال له المجن وهو رئيس الأحداث بها وله أتباع كثيرة ، فحضر عند جناح الدولة حسين وقال له : إن يوسف بن آبق يكاتب باغيسيان (صاحب أنطاكية) وهو على عزم الفساد واستأذنه في قتله فأذن له وطلب أن يعينه بجماعة من الأجناد ففعل ذلك ، فقصد المجن الدار التي بها يوسف فكبسها من الباب والسطح وأخذ يوسف فقتله ونهب كل ما في داره وبقي بحلب حاكماً فحدثته نفسه بالتفرد بالحكم عن الملك رضوان فقال لجناح الدولة : إن الملك رضوان أمرني بقتلك فخذ لنفسك ، فهرب جناح الدولة إلى حمص وكانت له ، فلما انفرد المجن بالحكم تغير عليه رضوان وأراد منه أن يفارق البلد فلم يفعل وركب في أصحابه فلو همّ بالمحاربة لفعل ، ثم أمر أصحابه أن ينهبوا ماله وأثاثه ودوابه ففعلوا ذلك ، واختفى فطلب فوجد بعد ثلاثة أيام فأخذ وعوقب وعذب ثم قتل هو وأولاده ، وكان من أهل السواد يشق الخشب ثم بلغ هذه الحالة اهـ .

قال في الزبد والضرب : وفي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة قتل الملك رضوان رئيس حلب بركات بن فارس الفوعي المعروف بالمجن ، وكان هذا المجن أولاً من جملة اللصوص الشطار وقطاع الطريق الذعار فاستتابه قسيم الدولة وولاه رئاسة حلب لشهامته وكفاءته ومعرفته بالمفسدين ، وكان في حال اللصوصية يصلي العشاء الآخرة بالفوعة ويسري إلى حلب ويسرق منها شيئاً ويخرج فيصلي الفجر بالفوعة ، فإذا اتهم بالسرقة أحضر من يشهد له أنه صلى العشاء بالفوعة والصبح فيتركونه ، واستمر على رياسة حلب وحكم على القضاة والوزراء ومن دونهم ، وكان كثير السعاية في قتل النفوس وسفك الدماء وأخذ الأموال وارتكاب الظلم ، فعصى على الملك رضوان ثم ضعف واختفى ، ثم سلط عليه الملك رضوان فسجنه وعذبه عذاباً شديداً بأنواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله ، ومما

عذبه به أن أحمى الطشت حتى صار كالنار ووضعه على رأسه ونفخ في دبره بكير الحداد ونقبت كعابه وضرب فيها الرزز والحلق ، ولما وضع النجار المنقب على كعبه قطع اللحم والجلد ولم يدر المنقب فلطمه المجن وقال : ويلك لا تعرف ، أحضر خشبةً وضعها على الكعب ، فلما فرغ قيل له : كيف تجد طعم الحديد ؟ فقال : قولوا للحديد كيف يجد طعمي ، ولم يقر المجن مع هذا بدرهم واحد ، ثم قتل ، ولما قدم للقتل صاح بصوت عال : يا معشر أهل حلب من كان لي عنده مال فهو في حل منه اهـ .

قال ابن الأثير : وفي هذه السنة توفي القاضي أبو مسلم وادع بن سليمان قاضي معرة النعمان والمستولي على أمورها ، وكان رجل زمانه همة وعلماً .

سنة ٤٩٠

ذكر الحرب بين رضوان ملك حلب وأخيه دُقاق صاحب دمشق

قال ابن الأثير : في هذه السنة سار الملك رضوان إلى دمشق وبها أخوه دقاق عازماً على أخذها منه ، فلما قاربها ورأى حصانتها وامتناعها علم عجزه عنها فرحل إلى نابلس وصار إلى القدس ليأخذه فلم يمكنه وانقطعت العساكر عنه ، فعاد ومعه باغيسيان صاحب أنطاكية وجناح الدولة ، ثم إن باغيسيان فارق رضوان وقصد دقاق وحسن له محاصرة أخيه بحلب جزاء لما فعله ، فجمع عساكر كثيرة وسار ومعه باغيسيان ، فأرسل رضوان رسولاً إلى سقمان بن أرتق وهو بسروج يستنجده فأنجده ، فأتاه في خلق كثير من التركمان فسار نحو أخيه فالتقيا بقنسرين فاقتتلا فانهزم دقاق وعسكره ونهبت خيامهم وجميع مالهم وعاد رضوان إلى حلب ، ثم اتفقا على أن يخطب لرضوان بدمشق قبل دقاق وبأنطاكية ، وقيل كانت هذه الحادثة سنة تسع وثمانين . اهـ ابن الأثير .

قال الكمال ابن العديم[1] ولما سار رضوان وبغيسيان وصلا إلى شيزر متوجهين إلى

(١) ما ننقله عن الكمال ابن العديم من هذه السنة إلى سنة ٥٤١ مأخوذ عن المنتخبات من بغية الطلب للكمال المذكور المطبوعة في باريس . انظر المقدمة صحيفة ٣٣ .

حمص لقصد حمص ، فتواصلت الأخبار بوصول خلق من الفرنج قاصدين أنطاكية ، فقال باغيسيان : عودنا إلى أنطاكية ولقاء الفرنج أولى، وقال سكمان : سيرنا إلى ديار بكر وأخذها من المتغلبين ونتقوى بها وأنزل أهلي بها ونعود إلى حمص أولى ، واختلفوا فسار الملك رضوان نحو حلب حفلاً وكان معه وزيره أبو النجم بن بديع وزير أبيه تتش أبي القسم وكان قد ولاه وزارته حين ملك حلب فاتهماه أنه هو الذي يفسد الحال مع رضوان ، فطلع إلى حصن شيزر وأقام بها عند ابن منقذ خشيةً من باغيسيان وسكمان ، فلما سارا عن شيزر سار إلى حلب ولحق بالملك رضوان ، ولما عاد رضوان مغاضباً لبغيسيان وسكمان عاد الأمراء من شيزر إلى أنطاكية وبلغهم نزول الفرنج البلانة ونهبها ، ولما دخل بغيسيان أنطاكية أخرج ولديه شمس الدولة ومحمداً فسار أحدهما إلى دقاق وطغتكين يستنجد هما وبث كتبه إلى جناح الدولة ووثاب بن محمود وبني كلاب وسار محمد ابنه إلى التركمان وكربغا وأمراء الشرق وملوكه وسارت كتبه إلى جميع أمراء المسلمين .

وفي ثامن شهر رمضان وصل من قبرس إلى مينا اللاذقية اثنان وعشرون قطعة في البحر فهجموه وأخذوا منه جميع ما كان للتجار ونهبوا اللاذقية وعادوا ، ووصلت الفرنج إلى الشام واعتبروا عسكرهم فكانوا ثلاثمائة ألف وعشرين ألف إنسان لأنهم وصلوا من جهة الشمال ، وفي اليوم الثاني من شوال نزلت عساكر الفرنج على بغراس وأغاروا على أعمال أنطاكية ، فعند ذلك عصى من كان في الحصون والمعاقل المجاورة لأنطاكية وقتلوا من كان بها وهرب من هرب منها ، وفعل أهل أرتاح مثل ذلك واستدعوا المدد من الفرنج ، وهذا كله لقبح سيرة باغيسيان وظلمه في بلاده ، ونزل الفرنج على أنطاكية لليلتين بقيتا من شوال من سنة تسعين وأربعمائة اهـ .

أقول : الظاهر أن سيرهما إلى شيزر كان بعد القتال الذي حصل في قنسرين كما تقدم آنفاً .

ذكر الخطبة للعلوي المصري بولاية رضوان

في هذه السنة خطب الملك رضوان في كثير من ولايته للمستعلي بآمر الله العلوي صاحب مصر، وسبب ذلك أنه كان عنده الأمير جناح الدولة وهو زوج أمه فرأى من

رضوان تغيراً فسار إلى حمص وهي له فلما رأى باغيسيان بعده عن رضوان صالحه وقدم إليه بحلب ونزل بظاهرها، وكان لرضوان منجم يقال له الحكيم أسعد وكان يميل إليه فقدمه بعد مسير جناح الدولة فحسن له مذاهب العلويين المصريين وأتته رسل المصريين يدعونه إلى طاعتهم ويبذلون له المال وإنفاذ العساكر إليه ليملك دمشق فخطب لهم بشيزر وجميع الأعمال سوى أنطاكية وحلب والمعرة أربع جمع. ثم حضر عنده سقمان بن أرتق وباغيسيان صاحب أنطاكية فأنكرا ذلك واستعظماه فأعاد الخطبة العباسية في هذه السنة وأرسل إلى بغداد يعتذر مما كان منه وسار باغيسيان إلى أنطاكية فلم يقم بها غير ثلاثة أيام حتى وصل الفرنج إليها وحصروها وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

سنة ٤٩٠

ذكر الحرب بين رضوان ملك حلب وأخيه دُقاق صاحب دمشق

قال ابن الأثير : لما كان سنة تسعين وأربعمائة خرج الفرنج إلى بلاد الشام ، وكان سبب خروجهم أن ملكهم بردويل جمع جمعاً كثيراً من الفرنج وكان نسيب رجار الفرنجي الذي ملك صقلية ، فأرسل إلى رجار يقول له : قد جمعت جمعاً كثيراً وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقية أفتحها وأكون مجاوراً لك ، فجمع رجار أصحابه واستشارهم في ذلك وقالوا : وحق الإنجيل هذا جيد لنا ولهم وتصبح البلاد بلاد النصرانية ، فرفع رجله وحبق حبقة عظيمة وقال : وحق ديني هذه خير من كلامكم ، قالوا : وكيف ذلك ، قال : إذا وصلوا إلي أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقية وعساكر من عندي أيضاً ، فإن فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وينقطع عني ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة ، وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم ويقول تميم غدرت بي ونقضت عهدي وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا ، وبلاد إفريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها . وأحضر رسوله وقال له : إذا عزمتم على جهاد المسلمين وأفضل ذلك فتح بيت المقدس تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر ، وأما إفريقية فبيني وبين أهلها أيمان وعهود ، فتجهزوا وخرجوا إلى الشام .

وقيل إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الأفسيس إلى مصر وحصرها فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين .

فلما عزم الفرنج على قصد الشام ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا المجاز إلى بلاد المسلمين ويسيروا في البر فيكون أسهل عليهم ، فلما وصلوا إليها منعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده وقال : لا أمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا لي أنكم تسلمون إليّ أنطاكية ، وكان قصده يحثهم على الخروج إلى بلاد الإسلام ظناً منهم أن الأتراك لا يبقون منهم أحداً لما رأى من صرامتهم وملكهم البلاد ، فأجابوه إلى ذلك وعبروا الخليج عند القسطنطينية سنة تسعين ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش وهي قونية وغيرها ، فلما وصلوا إليها لقيهم قلج أرسلان في جموعه ومنعهم فقاتلوه فهزموه في رجب سنة تسعين واجتازوا في بلاده إلى بلاد ابن الأرمني فسلكوها وخرجوا إلى أنطاكية فحصروها ، ولما سمع صاحبها باغيسيان بتوجههم إليها خاف من النصارى الذين بها فأخرج المسلمين من أهلها ليس معهم غيرهم وأمرهم بحفر الخندق ، ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضاً ليس معهم مسلم ، فعملوا فيه إلى العصر ، فلما أرادوا الدخول منعهم وقال لهم : أنطاكية لكم تهبوها لي حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنج ، فقالوا له : من يحفظ أبناءنا ونساءنا ؟ فقال : أنا أخلفكم فيها ، فأمسكوا وأقاموا في عسكر الفرنج فحصروها تسعة أشهر ، وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره فهلك أكثر الفرنج موتاً ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام ، وحفظ باغيسيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم وكف الأيدي المتطرقة إليهم ، فلما طال مقام الفرنج على أنطاكية راسلوا أحد المستحفظين للأبراج وهو زراد يعرف بروزبه وبذلوا له مالاً وإقطاعاً وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي وهو مبني على شباك في الوادي ، فلما تقرر بينهم وبين هذا الملعون الزراد جاؤوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه وصعد جماعة كثيرة بالحبال ، فلما زادت عدتهم على خمسمائة ضربوا البوق وذلك عند السحر وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة ، فاستيقظ باغيسيان فسأل عن الحال فقيل إن هذا البوق من القلعة ولا شك أنها قد ملكت ، ولم يكن من القلعة ، وإنما كان من

ذلك البرج ، فدخله الرعب وفتح باب البلد وخرج هارباً في ثلاثين غلاماً على وجهه ، فجاء نائبه في حفظ البلد فسأل عنه فقيل إنه هرب ، فخرج من باب آخر هارباً ، وكان ذلك معونة للفرنج ولو ثبت ساعة لهلكوا ، ثم إن الفرنج دخلوا البلد من الباب ونهبوه وقتلوا من فيه من المسلمين وذلك في جمادى الأولى ، وأما باغيسيان فإنه لما طلع عليه النهار رجع إليه عقله وكان كالوالهان فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ ، فقال لمن معه : أين أنا ؟ فقيل : على أربعة فراسخ من أنطاكية ، فندم كيف خلص سالماً ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل ، وجعل يتلهف ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين ، فلشدة ما لحقه سقط عن فرسه مغشياً عليه ، فلما سقط إلى الأرض أراد أصحابه أن يركبوه فلم يكن فيه مسكة قد قارب الموت ، فتركوه وساروا عنه واجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب وهو بآخر رمق فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى الإفرنج بأنطاكية ، وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم لا نطلب سواها مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية .

زيادة بيان لهذه الحوادث :

قال ابن العديم في بغية الطلب : وفي المحرم من سنة إحدى وتسعين وأربعمائة خرج نحو ثلاثين ألفاً من الفرنج إلى أعمال المسلمين ببلد حلب فأفسدوا ونهبوا وقتلوا من وجدوا ، وكان قد وصل الملك دقاق وأتابك ومعهما جناح الدولة ونزلوا أرض شيزر ومعهم ابن باغسيان وهم سائرون لإنجاد أبيه ، وبلغهم هذه السرية فساروا إليها بقطعة من العساكر فلقيهم في أرض البارة فقتلوا منهم جماعة وعاد الفرنج إلى الروج وعرَّجوا منه إلى معرة مصرين فقتلوا من وجدوا وكسروا منبرها ، وحين عاد العسكر الدمشقي من البارة فارقهم ابن باغيسيان ووصل إلى حلب يستنجد بالملك رضوان ، فأخذ عسكر حلب وسكمان ودخل بهما إلى أنطاكية فلقيهم من الفرنج دون عدتهم فانهزم عسكر المسلمين إلى حارم وذلك في آخر صفر ، وتبعهم عسكر الفرنج إلى حارم فانهزموا إلى حلب وغلب أهل حارم من الأرمن عليها .

وفي شهر ربيع الأول من هذه السنة وصل خلق من الأرمن إلى تل قباسين بناحية الوادي فقتلوا من فيه وخرج المسلمون الذين بالوادي وجماعة من الأتراك تبعوهم قتلوا منهم جماعة والتجأ الباقون إلى بعض الحصون الخربة ، فأدركهم عسكر حلب فقاتلهم يومين

وأخذهم فقتلوا بعضهم وحمل الباقي أسرى إلى حلب فقتلوا وكانوا يزيدون عن ألف وخمسمائة ، ولما نزل الفرنج بأنطاكية جعلوا بينهم وبين البلد خندقاً لأجل غارات عسكر أنطاكية عليهم وكثرة الظفر بهم ، ولا يكاد يخرج عسكر أنطاكية ويعود إلا ظافراً ، وجعل باغيسيان يستصرخ الناس على البعد والقرب ، وكان حسن التدبير في سياسة العسكر ، وجمع كربغا صاحب الموصل عسكراً عظيماً وقطع به الفرات ، ووصل دقاق وطغتكين وجناح الدولة ، ووصل سكمان بن أرتق وفارق رضوان وصار مع دقاق ، ووصل وثاب بن محمود ومعه جماعة من العرب ووصلوا تل منس وقاتلوها لأنه بلغهم أنهم كاتبوا الفرنج وأطمعوهم في الشام ، وقرر عليهم دقاق مالاً أخذ بعضه ورهائن على الباقي وسيرهم إلى دمشق ، وسار دقاق والعساكر إلى مرج دابق واجتمع بكربغا فيه في آخر جمادى الآخرة ورحلوا منه نحو أنطاكية .

فلما كان ليلة الخميس أول ليلة من رجب واطأ رجل يعرف بالزرّاد من أهل أنطاكية وغلمان له على برج كانوا يتولون حفظه ، وذلك أن باغيسيان قد كان صادر هذا الزرّاد وأخذ ماله وغلته ، فحمله الحنق على أن كاتب ميمند (بيمند) وقال : أنا في البرج الفلاني وأنا أسلم إليك أنطاكية إن أمنتني وأعطيتني كذا وكذا ، فبذل له ما طلب وكتم أمره عن باقي الفرنج تسعة قوامص مقدمين عليهم كندافري وأخوه القمص وميمند وابن أخته طنكريد وصنجيل وبغدوين وغيرهم ، فجمعهم ميمند وقال لهم : هذه أنطاكية إن فتحناها لمن تكون ؟ فاختلفوا وكل طلبها لنفسه ، فقال : الصواب أن يحاصرها كل رجل منا جمعة فمن فتحت في جمعته فهي له ، فرضوا بذلك ، فلما كانت نوبته دلى لهم الزرّاد لعنه الله حبلاً فطلعوا من السور وتكاثروا ورفع بعضهم بعضاً وجاؤوا إلى الحراس فقتلوهم ، وتسلمه ميمند بن الأسكرت وطلع الفرنج في سجرة هذه الليلة إلى البلد وصاح الصايح من ناحية الجبل ، فتوهم باغيسيان أن القلعة قد أخذت ، وخرج من البلد جماعة منهزمين فلم يسلم منهم أحد ، ولما حصل بالقرب من أرمناز ومعه خادم من غلمانه وقع عن ظهر فرسه فحمله الخادم الذي كان معه وأركبه فلم يثبت على ظهر الفرس وعاد فسقط وأدركه الأرمن فهرب الخادم عنه ، وقتله الأرمن وحملوا رأسه إلى الفرنج ، واستشهد في ذلك اليوم بأنطاكية ما يفوت الإحصاء ويجاوز العدد ونهبت الأموال والآلات والسلاح وسبي من كان بأنطاكية ، ووصل هذا الخبر إلى عِمّ وإنّب فهرب من كان بهما من المسلمين وتسلمها الأرمن .

ذكر مسير المسلمون إلى الفرنج وما كان منهم

قال ابن الأثير : لما سمع قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل بحال الفرنج وملكهم أنطاكية جمع العساكر وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق واجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب ، فاجتمع معه دقاق بن تتش وطغتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجار وسليمان بن أرتق وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم ، فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم ، وسار المسلمون فنازلوهم على أنطاكية . وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال ، فأغضبهم ذلك وأضمروا بأنفسهم الغدر إذا كان قتال وعزموا على إسلامه عند المصدوقة ، وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها اثني عشر يوماً ليس لهم ما يأكلونه وتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر ، فلما رأوا ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد ، فلم يعطهم ما طلبوا وقال : لا تخرجون إلا بالسيف ، وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل وكندفري والقمص صاحب الرها وبيمند صاحب أنطاكية وهو المقدم عليهم ، وكان معهم راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال فقال لهم : إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية وهو بناء عظيم فإن وجدتموها فإنكم تظفرون وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق ، وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفى أثرها وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر فقال لهم : أبشروا بالظفر ، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة ونحو ذلك فقال المسلمون لكربوقا : ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقالا : لا تفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ، ولم يمكن من معاجلتهم فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين فجاء إليهم هو بنفسه ومنعهم ونهاهم ، فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بأنطاكية أحد منهم ضربوا مصافاً عظيماً فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولاً من الاستهانة لهم والإعراض

عنهم وثانياً من منعهم عن قتل الفرنج ، وتمت الهزيمة عليهم ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمي بسهم ، وآخر من انهزم سقمان بن أرتق وجناح الدولة لأنهما كانا في الكمين ، وانهزم كربوقا معهم ، فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة إذ لم يجر قتال ينهزم من مثله وخافوا أن يتبعوهم وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة ، فقتل الفرنج منهم ألوفاً وغنموا ما في العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم .

سنة ٤٩٢
ذكر ملك الفرنج معرة النعمان

قال ابن الأثير : لما فعل الفرنج بالمسلمين ما فعلوا سار إلى معرة النعمان فنازلوها وحصروها وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً ، ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية ولقوا منهم الجد في حربهم والاجتهاد في قتالهم ، فعملوا عند ذلك برجاً من خشب يوازي سور المدينة ووقع القتال عليه فلم يضر المسلمين ذلك ، فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين وتداخلهم الفشل والهلع وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها ، فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه ، فرآهم طائفة أخرى ففعلوا كفعلهم فخلا مكانهم أيضاً من السور ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تليها في النزول حتى خلا السور ، فصعد الفرنج إليه على السلالم ، فلما علوه تحير المسلمون ودخلوا دورهم ، فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام[1] فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير وملكوه وأقاموا أربعين يوماً ، وساروا إلى عرقة فحصروها أربعة أشهر ونقبوا سورها عدة نقوب فلم يقدروا عليها ، وراسلهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها ، وساروا إلى حمص وحصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة ، وخرجوا على طريق النواقير إلى عكا فلم يقدروا عليها .

---

(١) قال ابن الوردي في تتمة المختصر : وفي ذلك يقول بعض المعريين وما أحسن ما جادت تورية الاثنين والخميس والأحد

معرة الأذكياء قد حردت ... عنا وحق المليحة الحرد
في يوم الاثنين كان موعدهم ... فما نجا من خميسهم أحد

زيادة بيان لهذه الحوادث :

قال ابن العديم : في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة عصى عمر والي أعزاز على الملك رضوان ، فخرج عسكر حلب وحصره فاستنجد بالفرنج ، فوصل صنجيل بعسكر كبير ، فعاد عسكر حلب فنهب صنجيل ما قدر عليه وعاد إلى أنطاكية وأخذ ابن عمر رهينة فمات عنده ، فوقع الملك رضوان على عمر إلى أن أخذه الله من تل هراق فسلم إليه أعزاز وأقام عنده بحلب مدة ثم قتله .

وخرج صنجيل في ذي الحجة وحصر البارة فقل الماء فأخذها بالأمان وغدر بأهلها وعاقب الرجال والنساء واستصفى أموالهم وسبى بعضاً وقتل بعضاً ، ثم خرج بقية الفرنج من أنطاكية والأرمن الذين في طاعتهم والنصارى وانضموا إليه ووصلوا إلى معرة النعمان لليلتين بقيتا من ذي الحجة في مائة ألف وحصروا معرة النعمان في سنة اثنتين وتسعين وقطعوا الأشجار ، واستغاث أهلها بالملك رضوان وجناح الدولة فلم ينجدهم أحد ، وعمل الفرنج برجاً من خشب يحكم على السور وزحفوا إلى البلد وقاتلوه من جميع نواحيه حتى لصق البرج بالسور ، فكشفوه وأسندوا السلالم إلى السور وثبت الناس في الحرب من الفجر إلى صلاة المغرب ، وقتل على السور وتحته خلق كثير ، ودخلوا البلد بعد المغرب ليلة الأحد الرابع والعشرين من محرم سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، ودخل عسكر الفرنج جميعه إلى البلد وانهزم بعض الناس إلى دور حصينة وطلبوا الأمان من الفرنج فأمنوهم وقطعوا على كل دار قطيعة واقتسموا الدور وهجموها وناموا فيها وجعلوا يهدّدون الناس حتى أصبح الصبح ، فاخترطوا سيوفهم ومالوا على الناس وقتلوا منهم خلقاً وسبوا النساء والصبيان ، وقتل فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي [وهذا أصح مما ذكره ابن الأثير من أنهم قتلوا مائة ألف] ولم يسلم إلا القليل ممن كان في شيزر وغيرها من بني سليم وبني أبي حصين وغيرهم ، وقتلوا تحت العقوبة جمعاً كثيراً ، فاستخرجوا ذخائر الناس ومنعوا الناس من الماء وباعوه منهم فهلك أكثر الناس من العطش ، وملكوها ثلاثة وثلاثين يوماً بعد الهجمة ولم يبقوا ذخيرة بها إلا استخرجوها وهدموا سور البلد وأحرقوا مساجده ودوره وكسروا المنابر ، وعاد ميمند إلى أنطاكية وقمص الرها إليها .

وفي هذه السنة أي سنة ٤٩٢ فتحوا بيت المقدس وفعلوا فيها كما فعلوا بالمعرة اهـ .

سنة ٤٩٣

قال ابن العديم : في هذه السنة وصل مبارك بن شبل أمير بني كلاب في جمع كثير من العرب فخالف الملك رضوان ورعوا زرع المعرة وكفر طاب وحماة وشيزر والجسر وغير ذلك ، وخلت البلاد ووقع الغلاء في بلد حلب ولم يزرع شيء في بلدها وسلط الله الوباء على العرب فمات شبل ومبارك ولده واضمحلت دولة العرب ، وتوجه الملك رضوان في سلخ رجب من هذه السنة إلى الأثارب وأقام عليها أياماً ، وتوجه إلى كلافي الخامس والعشرين من شعبان لإخراج الفرنج منها ، واجتمع من كان في الجزر وزردنا وسرمين من الفرنج والتقوا فانهزم رضوان واستبيح عسكره وقتل خلق كثير وأسر قريب من خمسمائة نفس وفيهم بعض الأمراء ، وعاد الفرنج إلى الجزر وأخذوا برج كفر حلب وبرج الحاضر وصار لهم من كفر طاب إلى الحاضر ومن حلب غرباً سوى تل منس ، فإن أصحاب جناح الدولة كانوا بها ، وسار رضوان عقيب هذه النكبة إلى حمص مستنجداً بجناح الدولة فأجابه وعاد إلى حلب ومعه جناح الدولة وقد عاد الفرنج إلى أنطاكية ، فأقام جناح الدولة بظاهر حلب أياماً فلم يلتفت إليه رضوان ، فعاد عنه إلى حمص وتجمع الفرنج بالجزر وسرمين وأعمال حلب وجمعوا العدد والغلال لحصار حلب وعولوا على حصارها في سنة خمس وتسعين وقيل قبلها ، ووصل ميمند وطنكريد إلى قريب حلب فنزلوا بالمشرفة من الجانب القبلي على نهر قويق لما بلغهم من ضعف رضوان وتمزيق عسكره وعزموا أن يبنوا بمشهد قرنبيا حصوناً وأن يقيموا على حلب ويستغلوا بلدها ، فأقاموا في تدبير ذلك يوماً أو يومين ، فبلغهم خروج أنوشتكين الدانشمند وأنه قد نازل بعض معاقل الفرنج وهي ملطية ، فعادوا للدفع عنها فخرج الدانشمند فلقي ميمند وجمعاً من الفرنج بأرض مرعش فأسره وقتل عسكره ولم يفلت منهم أحد ، فخيب الله ظن الفرنج وهربوا من أعمال حلب وتركوا ما كانوا أعدوه .

فخرج رضوان وأخذ الغلال التي جمعوها ونزل سرمين ، وسار جناح الدولة إلى أسفونا وبه جماعة من الفرنج فهجمه وقتل جميع من فيه ، وسار إلى سرمين فكبس عسكر الملك رضوان ونهبه ، وانهزم رضوان وأكثر عسكره وأسر الوزير أبا الفضل بن الموصول وجماعة وحملهم إلى حمص ، وطلب الحكيم المنجم الباطني فلم يظفر به ، وكان هذا الحكيم

قد أفسد ما بينه وبين رضوان واستمال رضوان إلى الباطنية جداً وظهر مذهبهم في حلب ، وشايعهم رضوان وحفظ جانبهم وصار لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة وصارت لهم دار الدعوة بحلب في أيامه ، وكاتبه الملوك في أمرهم فلم يلتفت ولم يرجع عنهم ، فوصل هذا الحكيم سالماً في جملة من سلم في هذه الوقعة ، واستغل جناح الدولة سرمين ومعرة النعمان وكفر طاب وحماة ، وفدى الوزير ابن الموصول نفسه من جناح الدولة بأربعة آلاف دينار وفدى أصحاب الملك نفوسهم أيضاً بمال حملوه إليه ولم يبق في أيدي المسلمين في سنة ست وتسعين إلا حصن بسرفوث من عمل بني عليم .

سنة ٤٩٤

ذكر ملك الفرنج مدينة سروج

قال ابن الأثير : في هذه السنة ملك الفرنج مدينة سروج من بلاد الجزيرة وسبب ذلك أن الفرنج كانوا قد ملكوا مدينة الرها بمكاتبة من أهلها لأن أكثرهم أرمن وليس بها من المسلمين إلا القليل ، فلما كان الآن جمع سقمان بسروج جمعاً كثيراً من التركمان وزحف إليهم فلقوه وقاتلوه فهزموه في ربيع الأول ، فلما تمت الهزيمة على المسلمين سار الإفرنج إلى سروج فحصروها وتسلموها وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم ولم يسلم إلا من مضى منهزماً . اهـ .

سنة ٤٩٥

ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٩٣ أن كمشتكين بن الدانشمند طايلو صاحب ملطية وسيواس لقي بيمند الفرنجي (صاحب أنطاكية) وهو من مقدمي الفرنج قريب ملطية فانهزم بيمند وأسر .

وقال في حوادث هذه السنة سنة ٤٩٥ : إن ابن الدانشمند أطلق بيمند صاحب أنطاكية وأخذ منه مائة ألف دينار وشرط عليه إطلاق ابنة باغيسيان الذي كان صاحب أنطاكية وكانت في أسره ، ولما خلص بيمند من أسره عاد إلى أنطاكية فقويت نفوس أهلها به ، ولم يستقر حتى أرسل إلى أهل العواصم وقنسرين وما جاورها يطالبهم بالإتاوة ، فورد على المسلمين من ذلك ما طمس المعالم التي بناها ابن الدانشمند .

سنة ٤٩٦

قال ابن العديم : في هذه السنة تسلم دُقاق الرحبة ، وكان المقيم بها زوج آمنة بنت قيماز ، وكان قيماز من أصحاب كربغا فمات وكانت الرحبة له ، وكان جناح الدولة قد خرج إليها فوجد الأمر قد فات فعاد ونزل النقرة ، وخرج إليه رضوان إلى النقرة واصطلحا وأخذه معه إلى ظاهر حلب وضرب له خياماً وأقام في ضيافته عشرة أيام ولم يصف قلب أحد منهما لصاحبه ، وسار جناح الدولة إلى حمص فسير الحكيم المنجم الباطني ثلاثة أعجام من الباطنية فاغتالوه وقد نزل يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رجب لصلاة الجمعة ، فقتلوه وقتلوا بعض أصحابه وقتلوا ، وقيل إن ذلك كان بأمر رضوان ورضاه ، وبقي المنجم الباطني بعده أربعة وعشرين يوماً ومات ، وأقام بعده بأمر الدعوة الباطنية بحلب رفيقه أبو طاهر الصايغ العجمي .

ووصل صنجيل الفرنجي ونزل على حمص بعد قتل جناح الدولة بثلاثة أيام فسيرت زوجته خاتون أم الملك رضوان تستدعيه لتسلم إليه حمص ويدفع الفرنج ، فكره المقدمون ذلك وخافوا منه لسوء رأيه فيهم وسيروا إلى نواب دقاق إلى دمشق ، وكان دقاق بالرحبة ، فسار إيستكين الحلبي من دمشق ودخلها وطلع القلعة ووصل رضوان إلى القبة فبلغه الخبر ، وعاد ورحل صنجيل عنها بعد أن قرر عليهم مالاً ، ووصل دقاق فتسلم حمص وأحسن إلى أهلها ونقل أهل جناح الدولة وأولاده إلى دمشق وسلم حمص إلى طغتكين وسار إلى عزاز وأغار على الجومة وهي من عمل أنطاكية ، فخرج عسكر أنطاكية وعسكر الرها فنزلوا المسلمية وقتلوا بعض أهلها وقطعوا على عدة مواضع قطايع أخذوها وأقاموا ببلد حلب أياماً ، وراسلوا الملك رضوان واستقر الحال على سبعة آلاف دينار وعشرة رؤوس من الخيل ويطلقون الأسرى ما خلا من أسروه على المسلمية من الأمراء وذلك في سنة ست وتسعين .

ثم خرج الفرنج من تل باشر وأغاروا على بلد حلب الشمالي والشرقي وأحرقوه وتكرر ذلك منهم ، ونزلوا على حصن بسرفوث وفتحوه بالأمان ووصلوا إلى بفرلاثا فكبسهم بنو عليم فانهزموا إلى بسرفوث ، ووقع بين الفرنج وبين سكمان وجكرمش وقعة عظيمة استظهر فيها المسلمون وهلك الفرنج وأسر القمص وغنم المسلمون غنيمة عظيمة ، وكان الملك رضوان

قد سار إلى الفرات ينتظر ما يكون من خبر الفرنج ، فلما وصله الخبر أنفذ إلى الجزر وغيره من أعمال حلب التي في أيدي الفرنج فأمرهم بالقبض على من عندهم من الفرنج ، فوثب أهل الفوعة وسرمين ومعرة مصرين وغيرها ففعلوا ذلك ، وطلب بعض الفرنج الأمان من رضوان فأمنهم من القتل وحملهم أسرى ولم يبق بأيدي الفرنج غير الجبل وهاب وحصون معرة وكفر طاب وصوران ، فوصل شمس الخواص وفتح صوران فهرب من كان بلطمين وكفر طاب وبلد المعرة والبارة إلى أنطاكية وسلموها إلى رضوان وأصحابه ما خلا هاب ، واسترجع رضوان بالس والفايا ممن كان بهما من أصحاب جناح الدولة ، وجرى بحماة خلف وخافوا من شمس الخواص فكاتبوا رضوان وسلموها إليه وسلمية ، فأمنت أعمال حلب وتراجع أهلها إليها وقوى جأش رضوان ، واتصلت غارات أهل حلب إلى بلد أنطاكية وعرف ميمند ضعفه عن حفظ البلد وأنه لم يفلت من وقعة سكمان إلا في نفر قليل وخاف من المسلمين فسار إلى بلاده في البحر يستنجد بمن يخرج بهم إلى البلاد واستخلف ابن أخته (ابن أخيه) طنكريد يدبر أمر أنطاكية والرها .

سنة ٤٩٦

ذكر غارة الفرنج على الرقة وقلعة جعبر

قال ابن الأثير : في هذه السنة في صفر أغار الفرنج من الرها على مرج الرقة وقلعة جعبر ، وكانوا لما خرجوا من الرها افترقوا فرقتين وأبعدوا يوماً واحداً تكون الغارة على البلدين فيه ، ففعلوا ما استقر بينهم وأغاروا واستاقوا المواشي وأسروا من وقع بأيديهم من المسلمين ، فكانت القلعة والرقة لسالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب سلمها إليه السلطان ملكشاه سنة تسع وسبعين ، وقد ذكرناه فيها .

ذكر غزو سقمان وجكرمش الفرنج

قال ابن الأثير : لما استطال الفرنج بما ملكوه من بلاد الإسلام واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً فتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء وتمزقت الأموال ، وكانت حران لمملوك من مماليك ملكشاه اسمه قراجة فاستخلف

عليها إنساناً يقال له محمد الأصبهاني ، وخرج في العام الماضي فعصى الأصبهاني على قراجة وأعانه أهل البلد لظلم قراجة ، وكان الأصبهاني جلداً شهماً فلم يترك بحران من أصحاب قراجة سوى غلام تركي يعرف بجاولي وجعله اصفهسلار العسكر وأنس به ، فجلس معه يوماً للشرب فاتفق جاولي مع خادم له على قتله فقتلاه وهو سكران ، فعند ذلك سار الفرنج إلى حران وحصروها ، فلما سمع معين الدولة سقمان وشمس الدولة جكرمش ذلك وكان بينهما حرب وسقمان يطالبه بقتل ابن أخيه وكل منهما يستعد للقاء صاحبه ، وأنا أذكر سبب قتل جكرمش له إن شاء الله تعالى .

أرسل كل منهما إلى صاحبه يدعو إلى الاجتماع معه لتلافي أمر حران ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه ، فكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه وسار فاجتمعا على الخابور وتحالفا وسارا إلى لقاء الفرنج ، وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد فالتقوا على نهر البليخ ، وكان المصاف بينهم هناك ، فاقتتلوا فأظهر المسلمون الانهزام فتبعهم الفرنج نحو فرسخين ، فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاؤوا وامتلأت أيدي التركمان من الغنائم ووصلوا إلى الأموال العظيمة لأن سواد الفرنج كان قريباً ، وكان بيمند صاحب أنطاكية وطنكريد صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم إذا اشتدت الحرب ، فلماخرجا رأيا الفرنج منهزمين وسوادهم منهوباً فأقاما إلى الليل وهربا ، فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيراً وأسروا كذلك وأفلتا في ستة فرسان ، وكان القمص بردويل صاحب الرها قد انهزم مع جماعة من قمامصتهم وخاضوا نهر البليخ فوحلت خيولهم فجاء تركماني من أصحاب سقمان فأخذهم وحمل بردويل إلى خيم صاحبه وقد سار فيمن معه لاتباع بيمند ، فرأى أصحاب جكرمش أن أصحاب سقمان قد استولوا على مال الفرنج ويرجعون هم من الغنيمة بغير طائل ، فقالوا لجكرمش : أي منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان إذا انصرفوا بالغنائم دوننا ، وحسنوا له أخذ القمص فأنفذ أخذ القمص من خيم سقمان ، فلما عاد سقمان شق عليه الأمر وركب أصحابه للقتال فردهم وقال لهم : لا يقوم فرح المسلمين في هذه الغزاة بغمهم باختلافنا ولا أوثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء ، ورحل لوقته وأخذ سلاح الفرنج وراياتهم وألبس أصحابه لبسهم وأركبهم خيلهم وجعل يأتي

حصون شيحان وبها الفرنج فيخرجون ظناً منهم أن أصحابهم نصروا فيقتلهم ويأخذ الحصن منهم ، فعل ذلك بعدة حصون ، وأما جكرمش فإنه سار إلى حران فتسلمها واستخلف بها صاحبه وسار إلى الرها فحصرها خمسة عشر يوماً ، وعاد إلى الموصل ومعه القمص الذي أخذه من خيام سقمان ففاداه بخمسة وثلاثين ديناراً ومائة وستين أسيراً من المسلمين ، وكان عدة القتلى من الفرنج يقارب اثني عشر ألف قتيل .

وفاة الملك دقاق واستنابة ولده تتش

قال ابن العديم : في هذه السنة في رمضان توفي الملك دقاق بن تتش بن آلب أرسلان صاحب دمشق وأوصى بالملك لولد له صغير اسمه تتش وجعل التدبير إلى أتابك طغتكين ، فتوجه الملك رضوان نحو دمشق وحاصرها وقرر له الخطبة والسكة فلم تستتب أموره وعاد إلى حلب . اهـ .

سنة ٤٩٨

خروج طنكريد من أنطاكية لاستعادة أرتاح وقصده حلب

قال ابن العديم : في شهر رجب من هذه السنة خرج الملك رضوان وجمع خلقاً كثيراً وعزم على قصد طرابلس معونة لفخر الملك بن عمار على الفرنج النازلين عليه ، وكان الأرمن الذين في حصن أرتاح قد سلموه إلى الملك رضوان لجور الفرنج ، فخرج طنكريد من أنطاكية لاستعادة أرتاح وخرج جميع من في أعماله من الفرنج معه ونزل عليها ، فتوجه نحوه رضوان في عساكره وجموعه وجمع من أمكنه من عمل حلب والأحداث ، فلما تقاربا نشبت الحرب بين الفريقين فثبت راجل المسلمين وانهزم الخيل ووقع القتل في الرجالة فلم يسلم منهم إلا من كتب الله سلامته ، ووصل الفل إلى حلب وقتل من المسلمين مقدار ثلاثة آلاف ما بين فارس وراجل وهرب من بأرتاح من المسلمين ، وقصد الفرنج بلد حلب فأجفل أهله ونهب من نهب وسبي من سبي ، وذلك في الثالث من شعبان ، واضطربت أحوال بلد حلب من ليلون إلى شيزر وتبدل الخوف بعد الأمن والسكون ، وهرب أهل الجزر

وليلون إلى حلب فأدركهم خيل الفرنج فسبوا أكثرهم وقتلوا جماعة ، وكانت هذه النكبة على أعمال حلب أعظم من النكبة الأولى عل كل .

ونزل طنكريد على تل أغدي من عمل ليلون وأخذه وأخذ بقية الحصون التي في عمل حلب ولم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلا حماة ومن الغربية إلا الأثارب والشرقية والشمالية في يده وهي غير آمنة .

وسير أبو طاهر الصايغ الباطني جماعة من الباطنية من أهل سرمين إلى خلف بن ملاعب بتدبير رجل يعرف بأبي الفتح السرميني من دعاة الإسماعيلية فقتلوه ووافقهم جماعة من أهل أفامية ونقبوا سور الحصن ودخلوا منه ، وطلع بعضهم إلى القلعة فأحس بهم فخرج فطعنه أحدهم بخشب فرمى بنفسه فطعن أخرى فمات ، ونادوا بشعار الملك رضوان ، ووصل أبو طاهر الصايغ إلى الحصن عقيب ذلك وأقام به وسار طنكريد إلى أفامية فقطع عليها مالاً أخذه وعاد فوصله مصبح بن خلف بن ملاعب وبعض أصحابه فأطمعوه في أفامية فعاد ونزلها وحاصرها ، فتسلمها في الثالث عشر من محرم من سنة خمسمائة بالأمان ، وقتل أبا الفتح السرميني بالعقوبة ولم يف لأبي طاهر الصايغ بالأمان ، وحمله معه أخيراً فاشترى نفسه بمال ودخل حلب .

وقال ابن الأثير : في هذه النسنة في شعبان كانت وقعة بين طنكريد الفرنجي صاحب أنطاكية وبين الملك رضوان صاحب حلب انهزم فيها رضوان ، وسببها أن طنكريد حصر حصن أرتاح وبها نائب الملك رضوان فضيق الفرنج على المسلمين فأرسل النائب بالحصن إلى رضوان يعرفه ما هو فيه من الحصر الذي أضعف نفسه ويطلب النجدة ، فسار رضوان في عسكر كثير من الخيالة وسبعة آلاف من الرجالة منهم ثلاثة آلاف من المتطوعة ، فساروا حتى وصلوا إلى قنسرين وبينهم وبين الفرنج قليل، فلما رأى طنكريد كثرة المسلمين أرسل إلى رضوان يطلب الصلح فأراد أن يجيب فمنعه أصبهبذ صباوو وكان قد قصده وسار معه بعد قتل إياز ، فامتنع من الصلح واصطفوا للحرب فانهزمت الفرنج من غير قتال ثم قالوا : نعود ونحمل عليهم حملة واحدة ، فإن كانت لنا وإلا انهزمنا ، فحملوا على المسلمين فلم يثبتوا وانهزموا وقتل منهم وأسر كثيراً ، وأما الرجالة فإنهم كانوا قد دخلوا معسكر الفرنج لما انهزموا فاشتغلوا بالنهب فقتلهم الفرنج ولم ينج إلا الشريد فأخذ أسيراً ،

وهرب من في أرتاح إلى حلب وملكه الفرنج وهرب أصبهبذ صباوو إلى طغتكين أتابك بدمشق فصار معه ومن أصحابه .

سنة ٤٩٩
ذكر ملك الفرنج حصن أفامية

في هذه السنة ملك الفرنج حصن أفامية ، وسبب ذلك أن خلف بن ملاعب الكلابي كان متغلباً على حمص وكان الضرر به عظيماً ورجاله يقطعون الطريق ، فكثر الحرامية عنده فأخذها منه تتش بن آلب أرسلان وأبعده عنها فتقلبت به الأحوال إلى أن دخل إلى مصر فلم يلتفت إليه من بها ، فأقام بها واتفق أن المتولي لأفامية من جهة الملك رضوان أرسل إلى صاحب مصر وكان يميل إلى مذهبهم يستدعي منهم من يسلم إليه الحصن وهو من أمنع الحصون ، وطلب ابن ملاعب منهم أن يكون هو المقيم به وقال : إنني أرغب في قتال الفرنج وأوثر الجهاد ، فسلموه وأخذوا رهائنه ، فلما ملكه خلع طاعتهم ولم يرع حقهم فأرسلوا إليه يتهددونه بما يفعلونه بولده الذي عندهم ، فأعاد الجواب إنني لا أنزل من مكاني وابعثوا إليّ ببعض أعضاء ولدي حتى آكله ، فأيسوا من رجوعه إلى الطاعة وأقام بأفامية يخيف السبيل ويقطع الطريق واجتمع عنده كثير من المفسدين ، فكثرت أمواله ، ثم إن الفرنج ملكوا سرمين وهي من أعمال حلب وأهله غلاة في التشيع ، فلما ملكه الفرنج تفرق أهله فتوجه القاضي الذي به إلى ابن ملاعب وأقام عنده فأكرمه وأحبه ووثق به فأعمل القاضي الحيلة عليه وكتب إلى أبي طاهر المعروف بابن الصائغ وهو من أعيان أصحاب الملك رضوان ووجوه الباطنية ودعاتهم ووافقهم على الفتك بابن ملاعب وأن يسلم أفامية إلى الملك رضوان ، فظهر شيء من هذا ، فأتى إلى ابن ملاعب أولاده وكانوا قد تسللوا إليه من مصر وقالوا له : قد بلغنا عن هذا القاضي كذا وكذا والرأي أن تعاجله وتحتاط لنفسك فإن الأمر قد اشتهر وظهر ، فأحضره ابن ملاعب فأتاه في كمه مصحف لأنه رأى أمارات الشر فقال له ابن ملاعب ما بلغه عنه ، فقال له : أيها الأمير قد علم كل أحد أني أتيتك خائفاً جائعاً فأمنتني وأغنيتني وعززتني فصرت ذا مال وجاه ، فإن كان بعض من حسدني على منزلتي منك وما غمرني من نعمتك سعى بي إليك فأسألك أن

تأخذ جميع ما معي وأخرج كما جئت ، وحلف له على الولاء والنصح فقبل عذره وأمنه . وعاود القاضي مكاتبة أبي طاهر بن الصائغ وأشار عليه أن يوافق رضواناً على ثلاثمائة رجل من أهل سرمين وينفذ معهم خيلاً من خيول الفرنج وسلاحاً من أسلحتهم ورؤوساً من رؤوس الفرنج ويأتون إلى ابن ملاعب ويظهرون أنهم غزاة ويشكون من سوء معاملة الملك رضوان وأصحابه لهم وأنهم فارقوه ، فلقيهم طائفة من الفرنج فظفروا بهم ويحملون جميع ما معهم إليه فإذا أذن لهم في المقام اتفقت آراؤهم على إعمال الحيلة عليه ، ففعل ابن الصائغ ذلك ووصل القوم إلى أفامية وقدموا إلى ابن ملاعب بما معهم من الخيل وغيرها فقبل ذلك منهم وأمرهم بالمقام عنده وأنزلهم في ربض أفامية ، فلما كان في بعض الليالي نام الحراس بالقلعة فقام القاضي ومن بالحصن من أهل سرمين ودلوا الحبال وأصعدوا أولئك القادمين جميعهم وقصدوا أولاد ابن ملاعب وبني عمه وأصحابه فقتلوهم ، وأتى القاضي وجماعة معه إلى ابن ملاعب وهو مع امرأته فأحس بهم فقال : من أنت ؟ فقال : ملك الموت جئت لقبض روحك ، فناشده الله فلم يرجع عنه وجرحه وقتله وقتل أصحابه وهرب ابناه فقتل أحدهما والتحق الآخر بأبي الحسن بن منقذ صاحب شيزر فحفظه لعهد كان بينهما ، ولما سمع ابن الصائغ خبر أفامية سار إليها وهو لا يشك أنها له ، فقال له القاضي : إن وافقتني وأقمت معي فبالرحب والسعة ونحن بحكمك وإلا فارجع من حيث جئت ، فأيس ابن الصائغ منه وكان أحد أولاد ابن ملاعب بدمشق عند طغتكين غضبان على أبيه فولاه طغتكين حصناً وضمن على نفنسه حفظ الطريق فلم يفعل وقطع الطريق وأخذ القوافل ، فاستغاثوا إلى طغتكين منه فأرسل إليه من طلبه فهرب إلى الفرنج واستدعاهم إلى حصن أفامية وقال : ليس فيه غير قوت شهر ، فأقاموا عليه يحاصرونه فجاء أهله وملكه الفرنج وقتلوا القاضي المتغلب عليه وأخذوا ابن الصائغ فقتلوه ، وكان هو الذي أظهر مذهب الباطنية بالشام ، هكذا ذكر بعضهم أن أبا طاهر ابن الصائغ قتله الإفرنج بأفامية ، وقد قيل إن ابن بديع رئيس حلب قتله سنة سبع وخمسمائة بعد وفاة رضوان ، وقد ذكرناه هناك والله أعلم .

وفي هذه السنة وصل الملك قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش صاحب بلاد الروم إلى الرها ليحصرها وبها الفرنج فراسله أصحاب جكرمش المقيمون بحران ليسلموها إليه ،

فسار إليهم وتسلم البلد وفرح الناس به لأجل جهاد الفرنج ، فأقام بحران أياماً ومرض مرضاً شديداً أوجب عوده إلى ملطية فعال مريضاً وبقي أصحابه بحران .

سنة ٥٠١

قال ابن العديم : في هذه السنة عصى خطلغ بقلعة عزاز واستقر أن يسلمها إلى طنكريد ويعوضه عنها موضعاً غيرها ، فسار رضوان إليها فتسلمها منه .

سنة ٥٠٢

ذكر إطلاق القمص ومسيره إلى أنطاكية

قال ابن الأثير : في هذه السنة في صفر استولى مودود والعسكر الذي أرسله السلطان محمد على مدينة الموصل وأخذوها من أصحاب جاولي سبقاوو ، وقد كان استولى عليها جاولي سنة خمسماية ، وساق الخبر في ذلك [ثم قال] : وأما جاولي فإنه لما وصل عسكر السلطان إلى الموصل وحصرها سار عنها وأخذ معه القمص صاحب الرها الذي كان قد أسره سقمان وأخذه منه جكرمش ، وقد تقدم ذلك ، وسار إلى نصيبين واجتمع بإيلغازي .

ثم إن إيلغازي هرب من جاولي وسار جاولي إلى الرحبة ، ولما وصل إلى ماكسين أطلق القمص الفرنجي الذي كان أسيراً بالموصل وأخذه معه واسمه بردويل ، وكان صاحب الرها وسروج وغيرهما وبقي في الحبس إلى الآن ، وبذل الأموال الكثيرة فلم يطلق ، فلما كان الآن أطلقه جاولي وخلع عليه ، وكان مقامه في السجن ما يقارب خمس سنين وقرر عليه أن يفدي نفسه بمال وأن يطلق أسرى المسلمين الذين في سجنه وأن ينصره متى أراد ذلك منه بنفسه وعسكره وماله ، فلما اتفقا على ذلك سير القمص إلى قلعة جعبر وسلمه إلى صاحبها سالم بن مالك حتى ورد عليه ابن خالته جوسلين وهو من فرسان الفرنج وشجعانها وهو صاحب تل باشر وغيرها ، وكان أسر مع القمص في تلك الوقعةففدى نفسه بعشرين ألف دينار ، فلما وصل جوسلين إلى قلعة جعبر أقام رهينة عوض القمص وأطلق القمص وسار إلى أنطاكية وأخذ جاولي جوسلين من قلعة جعبر فأطلقه وأخذ

عوضه أخا زوجته وأخا زوجة القمص وسيره إلى القمص ليقوى به وليحثه على إطلاق الأسرى وإنفاذ المال وما ضمنه ، فلما وصل جوسلين إلى منبج أغار عليها ونهبها ، وكان معه جماعة من أصحاب جاولي فأنكروا عليه ذلك ونسبوه إلى الغدر ، فقال : إن هذه المدينة ليست لكم .

ذكر ما جرى بين هذا القمص وبين صاحب أنطاكية

قال ابن الأثير : لما أطلق القمص وسار إلى أنطاكية أعطاه طنكريد صاحبها ثلاثين ألف دينار وخيلاً وسلاحاً وثياباً وغير ذلك ، وكان طنكريد قد أخذ الرها من أصحاب القمص حين أسر ، فخاطبه الآن في ردها عليه فلم يفعل ، فخرج من عنده إلى تل باشر ، فلما قدم عليه جوسلين وقد أطلقه جاولي سره ذلك وفرح به وسار إليهما طنكريد صاحب أنطاكية بعساكره ليحاربها قبل أن يقوى أمرهما ويجمعا عسكراً ويلتحق بهما جاولي وينجدها فكانوا يقتلون ، فإذا فرغوا من القتال اجتمعوا وأكل بعضهم مع بعض وتحادثوا ، وأطلق القمص من الأسرى المسلمين مائة وستين أسيراً كلهم من سواد حلب وكساهم وسيرهم ، وعاد طنكريد إلى أنطاكية من غير فصل حال في معنى الرها ، فسار القمص وجوسلين وأغاروا على حصون طنكريد صاحب أنطاكية والتجأ إلى ولاية كواسيل وهو رجل أرمني ومعه خلق كثير من المرتدين وغيرهم وهو صاحب رعبان وكيسوم وغيرهما من القلاع شمالي حلب ، فأنجد القمص بألف فارس من المرتدين وألفي راجل ، فقصدهم طنكريد فتنازعوا في أمر الرها فتوسط بينهم البطرك الذي لهم وهو عندهم كالإمام الذي للمسلمين لا يخالف أمره ، وشهد جماعة من المطارنة والقسيسين أن بيمند خال طنكريد قال له لما أراد ركوب البحر والعودة إلى بلاده أن يعيد الرها إلى القمص إذا خلص من الأسر ، فأعادها عليه طنكريد تاسع صفر ، وعبر القمص الفرات ليسلم إلى أصحاب جاولي المال والأسرى فأطلق في طريقه خلقاً كثيراً من الأسرى من حران وغيرها ، وكان بسروج ثلثمائة مسلم ضعفى فعمر أصحاب جاولي مساجدهم ، وكان رئيس سروج مسلماً قد ارتد فسمعه أصحاب جاولي يقول في الإسلام قولاً شنيعاً فضربوه وجرى بينهم وبين الفرنج بسببه نزاع ، فذكر ذلك للقمص فقال : هذا لا يصلح لنا ولا للمسلمين ، فقتله .

ذكر حال الجاولي بعد إطلاق القمص واستيلائه على بالس

قال ابن الأثير : لما أطلق جاولي القمص بماكسين سار إلى الرحبة فأتاه أبو النجم بدران وأبو كامل منصور ابنا سيف الدولة صدقة وكانا بعد قتل أبيهما بقلعة جعبر عند سالم ابن مالك ، فتعاهدوا على المساعدة والمعاضدة ووعدهما أن يسير معهما إلى الحلة وعزموا أن يقدموا عليهم بكتامش بن تتش بن آلب أرسلان ، فوصل إليهم وهم على هذا العزم الإصبهبذ صباوو وكان قصد السلطان فأقطعه الرحبة ، فاجتمع بجاولي وأشار عليه أن يقصد الشام فإن بلاده خالية من الأجناد والفرنج قد استولوا على كثير منها ، وعرفه أنه متى قصد العراق والسلطان بها أو قريباً منها لم يأمن شراً يصل إليه ؛ فقبل قوله وأصعد عن الرحبة فوصل إليه رسل سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر يستغيث به من بني نمير ، وكانت الرقة بيد ولده علي بن سالم فوثب جوشن النميري ومعه جماعة من نمير فقتل علياً وملك الرقة ، فبلغ ذلك الملك رضوان فسار من حلب إلى صفين فصادف تسعين رجلاً من الفرنج معهم مال من فدية القمص صاحب الرها قد سيره إلى جاولي فأخذه وأسر عدداً منهم ، وأتى الرقة فصالحه بنو نمير على مال فرحل عنهم إلى حلب فاستنجد سالم بن مالك جاولي وسأله أن يرحل إلى الرقة ويأخذها ووعده بما يحتاج إليه ، فقصد الرقة وحصرها سبعين يوماً فضمن له بنو نمير مالاً وخيلاً ، فأرسل إلى سالم إنني في أمر أهم من هذا وأنا بإزاء عدو يجب التشاغل به دون غيره ، وأنا عازم على الانحدار إلى العراق فإن تم أمري فالرقة وغيرها لك ولا أشتغل عن هذا المهم بحصار خمسة نفر من بني نمير ، ووصل إلى جاولي الأمير حسين بن أتابك قتلغتكين وكان أبوه أتابك السلطان محمد فقتله ، وتقدم ولده هذا عند السلطان واختص به فسيره السلطان مع فجر الملك بن عمار ليصلح الحال مع جاولي ويأمر العساكر بالمسير مع ابن عمار إلى الجهاد فحضر عند جاولي وأمر بتسليم البلاد وطيب قلبه عن السلطان وضمن الجميل إذا سلم البلاد وأظهر الطاعة والعبودية ، فقال جاولي : أنا مملوك السلطان وفي طاعته ، وحمل إليه مالاً وثياباً لها مقدار جليل وقال له : سر إلى الموصل ، ورحل العسكر عنها فإني أرسل معك من يسلم ولدي إليك رهينة وينفذ السلطان إليها من يتولى أمرها وجباية أموالها ، ففعل حسين ذلك وسار ومعه صاحب

جاولي ، فلما وصلا إلى العسكر الذي على الموصل وكانوا لم يفتحوها بعد فأمرهم حسين بالرحيل فكلهم أجاب إلا الأمير مودود فإنه قال : لا أرحل إلا بأمر السلطان ، وقبض على صاحب جاولي وأقام على الموصل حتى فتحها كما ذكرنا ، وعاد حسين بن قتلغتكين إلى السلطان فأحسن النيابة عن جاولي عنده ، وسار جاولي إلى مدينة بالس فوصلها ثالث عشر صفر فاحتمى أهلها منه وهرب من بها من أصحاب الملك رضوان صاحب حلب فحصرها خمسة أيام وملكها بعد أن نقب برجاً من أبراجها فوقع على النقابين فقتل منهم جماعة وملك البلد وصلب جماعة من أعيانه عند النقب ، وأحضر القاضي محمد بن عبد العزيز بن إلياس فقتله وكان فقيهاً صالحاً ، ونهب البلد وأخذ منه مالاً كثيراً .

ذكر الحرب بين جاولي وبين طنكريد الفرنجي صاحب أنطاكية

قال ابن الأثير : وفي هذه السنة في صفر كان المصاف بين جاولي سقاوو وبين طنكريد صاحب أنطاكية ، وسبب ذلك أن الملك رضوان كتب إلى طنكريد صاحب أنطاكية يعرفه ما عليه جاولي من الغدر والمكر والخداع ويحذره منه ويعلمه أنه على قصد حلب وأنه إن ملكها لا يبقى للفرنج معه بالشام مقام ، وطلب منه النصرة والاتفاق على منعه ، فأجابه طنكريد إلى منعه ، وبرز من أنطاكية فأرسل إليه رضوان ستمائة فارس . فلما سمع جاولي الخبر أرسل إلى القمص صاحب الرها يستدعيه إلى مساعدته وأطلق له ما بقي عليه من مال المفاداة ، فسار إلى جاولي فلحق به وهو على منبج فوصل الخبر إليه وهو على هذه الحال بأن الموصل قد استولى عليها عسكر السلطان وملكوا خزائنه وأمواله ، فاشتد ذلك عليه وفارقه كثير من أصحابه منهم أتابك زنكي بن آقسنقر وبكتاش النهاوندي ، وبقي جاولي في ألف فارس وانضم إليه خلق من المطوعة ، فنزل بتل باشر وقاربهم طنكريد وهو في ألف وخمسمائة فارس من الفرنج وستمائة من أصحاب الملك رضوان سوى الرجالة ، فجعل جاولي في ميمنة الأمير أقسيان والأمير ألتونتاش الأبري وغيرهما ، وفي الميسرة الأمير بدران بن صدقة والإصبهبذ صباوو وسنقر دراز ، وفي القلب القمص بغدوين وجوسلين الفرنجيين ، ووقعت الحرب فحمل أصحاب أنطاكية على القمص صاحب الرها واشتد القتال ، فأزاح طنكريد القلب عن موضعه وحملت ميسرة جاولي على رجالة صاحب

أنطاكية فقتلت منهم خلقاً كثيراً ولم يبق غير هزيمة صاحب أنطاكية ، فحينئذ عمد أصحاب جاولي إلى جنائب القمص وجوسلين وغيرهما من الفرنج فركبوها وانهزموا ، فمضى جاولي وراءهم فلم يرجعوا ، وكانت طاعته قد زالت عنهم حين أخذت الموصل منه ، فلما رأى أنهم لا يعودون معه أهمه نفسه وخاف من المقام فانهزم باقي عسكره ، فأما الإصبهبذ صباوو فسار نحو الشام وأما بدران بن صدقة فسار إلى قلعة جعبر ، وأما ابن جكرمش فقصد جزيرة ابن عمر ، وأما جاولي فقصد الرحبة ، وقتل من المسلمين خلق كثير ونهب صاحب أنطاكية أموالهم وأثقالهم وعظم البلاء عليهم من الفرنج ، وهرب القمص وجوسلين إلى تل باشر والتجأ إليهما خلق كثير من المسلمين ففعلا معهم الجميل وداويا الجرحى وكسوا العراة وسيراهم إلى بلادهم .

وفيها في فصح النصارى ثار جماعة من الباطنية في حصن شيزر على حين غفلة من أهله في مائة رجل فملكوه وأخرجوا من كان فيه وأغلقوا بابه وصعدوا إلى القلعة فملكوها ، وكان أصحابها بنو منقذ قد نزلوا منها لمشاهدة عيد النصارى ، وكانوا قد أحسنوا إلى هؤلاء الذين أفسدوا كل الإحسان ، فبادر أهل المدينة الباشورة فأصعدهم النساء في الحبال من الطاقات وصاروا معهم وأدركهم الأمراء بنو منقذ أصحاب الحصن فصعدوا إليهم فكبروا عليهم وقاتلوهم فانخذل الباطنية وأخذهم السيف من كل جانب فلم يفلت منهم أحد وقتل من كان على رأيهم في البلد اهـ .

سنة ٥٠٤

ذكر ملك الفرنج حصن الأثارب

قال ابن الأثير : في هذه السنة جمع صاحب أنطاكية عساكره من الفرنج وحشد الفارس والراجل وسار نحو حصن الأثارب وهو بالقرب من مدينة حلب بينهما ثلاث فراسخ وحصره ومنع عنه الميرة ، فضاق الأمر على من به من المسلمين فنقبوا من القلعة نقباً قصدوا أن يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكية فيقتلوه ، فلما فعلوا ذلك وقربوا من خيمته استأمن إليه صبي أرمني فعرفه الحال فاحتاط الباقين ، ثم سار إلى حصن زردنا فحصره

ففتحه وفعل بأهله مثل الأثارب ، فلما سمع أهل منبج بذلك فارقوها خوفاً من الفرنج. وكذلك أهل بالس ، وقصد الفرنج البلدين فرأوهما وليس بهما أنيس فعادوا عنهما ، وسار عسكر من الفرنج إلى مدينة صيدا فطلب أهلها منهم الأمان فأمنوهم وتسلموا البلد ، فعظم خوف المسلمين منهم وبلغت القلوب الحناجر وأيقنوا باستيلاء الفرنج على سائر الشام لعدم الحامي له والمانع عنه ، فشرع أصحاب البلاد الإسلامية بالشام في الهدنة معهم ، فامتنع الفرنج من الإجابة إلا على قطيعة يأخذونها إلى مدة يسيرة ، فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار وغيرها من الخيول والثياب ، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار ، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار ، وصالحهم علي الكردي صاحب حماة على ألفي دينار ، وكانت مدة الهدنة إلى وقت إدراك الغلة وحصادها . ثم إن مراكب أقلعت من ديار مصر فيها التجار ومعهم الأمتعة الكثيرة فوقع عليها مراكب الفرنج فأخذوها وغنموا ما مع التجار وأسروهم ، فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد مستنفرين على الفرنج ، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم فقصدوا جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر ، فوعدهم السلطان إنفاذ العساكر للجهاد وسير من دار الخلافة منبراً إلى جامع السلطان ، فلما كان الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة ومعهم أهل بغداد فمنعهم صاحب الباب من الدخول فغلبوه على ذلك ودخلوا الجامع وكسروا شباك المقصورة وهجموا إلى المنبر فكسروه وبطلت الجمعة أيضاً ، فأرسل الخليفة إلى السلطان في المعنى يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه ، فتقدم حينئذ إلى من معه من الأمراء بالمسير وسير ولده الملك مسعوداً مع الأمير مودود صاحب الموصل وتقدموا إلى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيرون إلى قتال الفرنج ، وانقضت السنة وساروا في سنة خمس وخمسمائة .

وفيها ورد رسول ملك الروم (السلجوقي) إلى السلطان يستنفره على الفرنج ويحثه على قتالهم ودفعهم عن البلاد ، وكان وصوله قبل وصول أهل حلب يقولون للسلطان : أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام حتى قد أرسل إليك في جهادهم .

سنة ٥٠٥

سير العساكر الإسلامية من بغداد وغيرها لقتال الإفرنج

قال ابن الأثير : في هذه السنة اجتمعت العساكر التي أمرها السلطان بالمسير إلى قتال الفرنج ، فكان الأمير مودود صاحب الموصل والأمير سكمان القطبي صاحب تبريز وبعض ديار بكر والأمير إيلبكي وزنكي ابنا برسق ولهما همدان وما جاورها والأمير أحمديل وله مراغة ، وكوتب الأمير أبو الهيجاء صاحب أربل والأمير إيلغازي صاحب ماردين والأمراء البكجية باللحاق بالملك مسعود ومودود ، فاجتمعوا ما عدا الأمير إيلغازي فإنه سير ولده إياز وأقام هو ، فلما اجتمعوا ساروا إلى بلد سنجار ففتحوا عدة حصون للفرنج وقتل من بها منهم ، وحصروا مدينة الرها مدة ثم رحلوا عنها من غير أن يملكوها . وكان سبب رحيلهم عنها أن الفرنج اجتمعت جميعها فارسها وراجلها وساروا إلى الفرات ليعبروها ليمنعوا الرها من المسلمين ، فلما وصلوا إلى الفرات بلغهم كثرة المسلمين فلم يقدموا عليه وأقاموا على الفرات ، فلما رأى المسلمون ذلك رحلوا عن الرها إلى حران ليطمع الفرنج ويعبروا الفرات إليهم ويقاتلوهم ، فلما رحلوا عنها جاء الفرنج ومعهم الميرة والذخائر إلى الرها فجعلوا فيها كل ما يحتاجون إليه بعد أن كانوا قليلي الميرة وقد أشرفوا على أن يؤخذوا ، وأخذوا كل من فيه عجز وضعف وفقر وعادوا إلى الفرات فعبروه إلى الجانب الشامي وطرقوا أعمال حلب فأفسدوا ما فيها ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وسبوا خلقاً كثيراً، وكان سبب ذلك أن الفرنج لما عبروا إلى الجزيرة خرج الملك رضوان صاحب حلب إلى ما أخذه الفرنج من أعمال فاستعاد بعضه ونهب منهم وقتل، فلما عاد وعبروا الفرات فعلوا بأعماله ما فعلوا ، وأما العسكر السلطاني فإنه لما سمع بعود الفرنج وعبورهم الفرات رحلوا إلى الرها وحصروها فرأوا أمراً محكماً قد قويت نفوس أهلها بالذخائر التي تركت عندهم وبكثرة المقاتلين عنهم ولم يجدوا فيها مطمعاً ، فرحلوا عنها وعبروا الفرات فحصروا قلعة تل باشر خمسة وأربعين يوماً ، ورحلوا عنها ولم يبلغوا غرضاً ، ووصلوا إلى حلب فأغلق الملك رضوان أبواب البلد ولم يجتمع بهم ، ثم مرض هناك الأمير سكمان القطبي فعاد مريضاً فتوفي في بالس ، فجعله أصحابه في تابوت وحملوه عائدين إلى بلاده فقصدهم إيلغازي ليأخذهم ويغنم ما معهم فجعلوا تابوته في القلب وقاتلوا بين يديه ،

فانهزم إيلغازي وغنموا ما معه وساروا إلى بلادهم ، ولما أغلق الملك رضوان أبواب حلب ولم يجتمع بالعساكر السلطانية رحلوا إلى معرة النعمان واجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق ونزل على الأمير مودود فاطلع من الأمراء على نيات فاسدة في حقه ، فخاف أن تؤخذ منه دمشق ، فشرع في مهادنة الفرنج سراً ، وكانوا قد نكلوا عن قتال المسلمين ، فلم يتم ذلك وتفرقت العساكر ، وكان سبب تفرقهم أن الأمير برسق بن برسق الذي هو أكبر الأمراء كان به نقرس فهو يحمل في محفة ، ومات سكمان القطبي كما ذكرنا ، وأراد الأمير أحمديل صاحب مراغة العود ليطلب من السلطان أن يقطعه مما كان لسكمان من البلاد وأتابك طغتكين صاحب دمشق خاف الأمراء على نفسه فلم ينصحهم ، إلا أنه حصل بينه وبين مودود صاحب الموصل مودة وصداقة فتفرقوا لهذه الأسباب ، وبقي مودود وطغتكين بالمعرة فساروا منها ونزلوا على نهر العاصي ، ولما سمع الفرنج بتفرق عساكر الإسلام طمعوا وكانوا قد اجتمعوا كلهم بعد الاختلاف والتباين وساروا إلى أفامية فسمع بهم السلطان بن منقذ صاحب شيزر فسار إلى مودود وطغتكين وهوّن عليهما أمر الفرنج وحرضهما على الجهاد ، فرحلوا إلى شيزر ونزلوا عليها ونزل الفرنج بالقرب منهم ، فضيق عليهم عسكر المسلمين الميرة ولزوهم بالقتال والفرنج يحفظون نفوسهم ولا يعطون مصافاً ، فلما رأوا قوة المسلمين عادوا إلى أفامية وتبعهم المسلمون فتخطفوا من أدركوه في ساقتهم وعادوا إلى شيزر في ربيع الأول .

زيادة بيان لحوادث سنة ٥٠٣ و٥٠٤ و٥٠٥

قال ابن العديم : وفي سنة ٥٠٣ كاتب السلطان الأمير سكمان القطبي صاحب أرمينية ومودود صاحب الموصل يأمرهما بالمسير إلى جهاد الفرنج ، فجمعا وسارا ووصل إليهما نجم الدين إيلغازي بن أرتوق في خلق كثير من التركمان ، فنزلوا على الرها وأحدقوا بها في شوال من هذه السنة ، فاتفق الفرنج كلهم وأزالوا ما كان بينهم من الشحناء ، وكان المسلمون في جمع عظيم فتصافى طنكريد وبغدوين وابن صنجيل بعد النفار وقصدوا إنجاد من بها من الفرنج وأحجموا عن العبور إلى الجانب الجزري لكثرة من به من عساكر المسلمين ، فاندفع المسلمون عن الرها إلى حران ليعبر الفرنج ويتمكنوا منهم ، ووصلهم عسكر دمشق ، فحين عبر الفرنج وبلغهم خبر المسلمين عادوا ناكصين على الأعقاب إلى شاطىء

الفرات ، فنهض المسلمون في إثرهم وأدركتهم خيول الإسلام وقد عبر الأجلاد منهم فغنم المسلمون جل سوادهم وأكثر أثقالهم واستباحوهم قتلاً وأسراً وتغريقاً في الماء ، وأقام المسلمون بإزائهم على الفرات . ولما عرف الملك رضوان هزيمة الفرنج عن الرها خرج ليتسلم أعمال حلب التي كانت في أيدي الفرنج وقاتل ما امتنع عليه منها وأغار على بلد أنطاكية وغنم منها ما يجل قدره ، وكان بينه وبينهم مهادنة نقضها ، وكاتب الفرنج رضوان يوهنون رأيه في نقض الهدنة ، فلما تحقق سلامة طنكريد وعوده رجع إلى حلب وعاد الفرنج من الفرات فقصدوا بلد حلب من شرقها فقتلوا من وجدوا وسبوا أهل النقرة وأخذوا ما قدروا عليه من المواشي وهرب الناس نحو بالس ، وعاد طنكريد فنزل على الأثارب وطيب قلوب الفلاحين من المسلمين وأمنهم ونصب على الأثارب المجانيق وكبشاً عظيماً ينطح به شرفات الأسوار فيقلبها فخرب أسوارها ، وكان يسمع نطحه من مسيرة نصف فرسخ ، وبذل رضوان لطنكريد في الموضع عشرين ألف دينار على أن يرحل فامتنع وقال : قد خسرت ثلاثين ألف دينار فإن دفعتموها إليّ وأطلقتم كل عبد بحلب منذ ملكت أنطاكية فأنا أرحل ، فاستعظم ذلك واتكل على الحوادث ، وكان الذي بقي في القلعة مقدار مائة دينار وأخذها الخازن على وسطه وهرب إلى الفرنج وهرب جماعة أخر من المسلمين إليهم ، فكتبوا إلى الملك رضوان كتاباً على جناح طائر يخبرونه بما تجدد من قوة الحصار وقلة النفقة وقتل الرجال ، وأرسلوا الطائر فسقط في عسكر الفرنج فرماه أحدهم بنشابة فقتله وحمل الكتاب إلى طنكريد ففرح وقويت نفسه وبذل رضوان المال المطلوب له على أن يكون أقساطاً ويضع عليه رهائن ، فلم يفعل ويئس من في الأثارب من نجدة تصل إليهم فسلموها إلى طنكريد في جمادى الآخرة منها وأمن أهلها وخرجوا منها ، ثم صالح رضواناً على عشرين ألف دينار وعشرة رؤوس من الخيل فقبضها وعاد إلى أنطاكية ، ثم عاد وخرج إلى الأثارب وقد أدركت الغلة وضعفت حلب بأخذ الأثارب ضعفاً عظيماً ، وطلب من حلب المقاطعة التي قرر على حلب وأسرى من الأرمن ، وكان رضوان أخذهم وقت إغارته على بلد أنطاكية والفرنج على الفرات فأعادهم إليه ، وطلب بعض خيل الملك رضوان فأعطاه وطلب حرم الفلاحين المسلمين من الأثارب وكانوا وقت نزول طنكريد على الأثارب حصلوا بحرمهم في حلب فأخرجهن إليه ، وضاق الأمر بأهل حلب ومضى بعضهم إلى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع

ومنعوا الخطباء من الخطبة مستصرخين بالعساكر الإسلامية على الفرنج فقلت الغلات في بلد حلب ، فباع الملك رضوان في يوم واحد ستين خربة من بلد حلب لأهلها بالثمن البخس وطلب بذلك استمالاتهم وأن يلتزموا بالمقام بها بسبب أملاكهم وهي ستون خربة معروفة في دواوين حلب إلى يومنا هذا غير ما باعه في غير ذلك اليوم من الأملاك ، ولذلك يقال إن بيع الملك من أصح أملاك الحلبيين لأن المصلحة في بيعها كانت ظاهرة لاحتياج بيت المال إلى ثمنها ولعمارة حلب ببقاء أهلها فيها بسبب أملاكهم .

ولما استصرخ الحلبيون العساكر الإسلامية ببغداد وكسروا المنابر جهز السلطان العساكر للذب عنهم فكان أول من وصل مودود صاحب الموصل بعسكره إلى شبختان ففتح تل قراد وعدة حصون ، ووصل أحمديل الكردي في عسكر ضخم وسكمان القطبي وعبروا إلى الشام ، فنزلوا تل باشر وحصروها حتى أشرفت على الأخذ ، وكان طنكريد قد أخذ حصن بكسرائل وتوجه مغيراً على بلد شيزر ونازلها وشرع في عمارة تل ابن معشر وضرب اللبن وحفر الجباب ليوعي بها الغلة ، فلما بلغه نزول عساكر السلطان محمد علي تل باشر رحل عنها .

وأما العساكر الإسلامية النازلة على تل باشر فإن سكمان مات عليها وقيل بعد الرحيل عنها ، وأشرف المسلمون على أخذها ، فتطارح جوسلين الفرنجي صاحبها على أحمديل الكردي وحمل إليه مالاً وطلب منه رحيل العسكر عنه ، فأجابه إلى ذلك ، وكتب الملك رضوان إلى مودود وأحمديل وغيرهما إنني قد تلفت وأريد الخروج من حلب ، فبادروا إلى الرحيل فحسن لهما أحمديل الرحيل عنها بعد أن أشرفوا على أخذها ورحلوا إلى حلب ، فأغلق رضوان أبواب حلب في وجوههم وأخذ إلى القلعة رهائن عنده من أهلها لئلا يسلموها ورتب قوماً من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور ومنع الحلبيين من الصعود إليه ، وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة ، وأقام الناس ثلاث ليال ما يجدون شيئاً يقتاتون به ، فكثرت اللصوص من الضعفاء وخاف الأعيان على أنفسهم وساء تدبير الملك رضوان فأطلق العوام ألسنتهم بالسب له وتعييبه وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد وترك الركوب بينهم ، وصفر إنسان من السور فأمر به فضربت عنقه ونزع رجل ثوبه ورماه إلى آخر فأمر به فألقي من السور إلى أسفل فعاث

العسكر فيما بقي سالماً ببلد حلب بعد نهب الفرنج له وسبيهم أهله ، وبث رضوان الحرامية تتخطف من ينفرد من العسكر فيأخوذنه ، فرحلوا إلى معرة النعمان في آخر صفر من سنة خمس وخمسمائة وأقاموا عليها أياماً ووجدوا حولها ما ملأ صدورهم مما يحتاجون إليه من الغلات وما عجزوا عن حمله ، وكان أتابك طغتكين قد حصل معهم فراسل رضوان بعضهم حتى أفسد ما بينه وبينهم فظهر لأتابك منهم الوحشة فصار في جملة مودود صاحب الموصل ، وثبت له مودود ووفى له ، وحمل لهم أتابك هدايا وتحفاً من متاع مصر وعرض عليهم المسير إلى طرابلس والمعونة لهم بالأموال فلم يعرجوا ، وسار أحمديل وبرسق بن برسق وعسكر سكمان نحو الفرات وبقي مودود مع أتابك فرحلا من المعرة إلى العاصي فنزلا على الجلالي .

فنزل الفرنج من أفامية مع بغدوين وطنكريد وابن صنجيل وساروا لقصد المسلمين ، فخرج أبو العساكر بن منقذ من شيزر بعسكره وأهله واجتمع بمودود وأتابك وساروا إليهم ونزلوا قبلي شيزر والفرنج شمالي ابن معشر ، ودارت خيول المسلمين حولهم ومنعوهم الماء والأتراك حول الشرائع بالقسي تمنعهم الورد ، فأصبحوا هاربين سائرين يحمي بعضهم بعضاً .

ثم إن رضواناً حين ضعف أمره بحلب رأى أن يستميل طغتكين أتابك إليه ويستصلحه ، فاستدعاه إلى حلب عندما أراد أن ينزل طنكريد على قلعة عزاز وبذل له رضوان مقاطعة حلب عشرين ألف دينار وخيلاً وغير ذلك ، فامتنع طنكريد من ذلك فوصل طغتكين أتابك وتعاهدا على مساعدة كل منهما صاحبه بالمال والرجال ، واستقر الأمر على أن أقام طغتكين الدعوة والسكة لرضوان بدمشق فلم يظهر منه بعد ذلك الوفاء بما تعاهدا عليه .

ومات طنكريد في سنة ست وخمسمائة واستخلف ابن أخته روجار وأدى إليه رضوان ما كان يأخذه منه طنكريد وهو عشرة آلاف دينار .

سنة ٥٠٧

وصول مودود إلى الشام واتفاقه مع طغتكين ووفاة الملك رضوان وولاية ابنه آلب أرسلان وذكر نبذة من معتقدات الباطنية

قال ابن العديم : وفي هذه السنة وصل مودود إلى الشام واتفق مع طغتكين على الجهاد وطلب النجدة من الملك رضوان ، فتأخرت إلى أن اتفق للمسلمين وقعة استظهروا فيها على الفرنج ، ووصل عقيبها نجدة للمسلمين من رضوان دون مائة فارس ، وخالف فيما كان قرره ووعد به ، فأنكر أتابك ذلك وتقدم بإبطال الدعوة والسكة باسم رضوان من دمشق في أول ربيع الأول من سنة سبع وخمسمائة ، وكان رضوان يحب المال ولا تسمح نفسه بإخراجه حتى كان أمراؤه وكتابه ينبزونه بأبي حبة ، وهو الذي أفسد أحواله وأضعف أمره ، ومرض رضوان بحلب مرضاً حاداً وتوفي في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة ودفن بمشهد الملك ، واضطرب أمر حلب لوفاته وتأسف أصحابه لفقده ، وقيل إنه خلف في خزانته من العين والآلات والعروض والأواني ما يبلغ مقداره ستمائة ألف دينار .

وفي المختار من الكواكب المضية : كان رضوان سيء السيرة ظالماً ليس في قلبه رحمة ولا شفقة على المسلمين وقتل أخويه أبا طالب وبهرام . وقال الذهبي : كان رضوان يستعين بالباطنية لقلة دينه وعمل لهم دار دعوة .

وقال ابن خلكان في ترجمة تتش أبي الملك رضوان : وأولاد رضوان المقيمون بظاهر حلب هم أولاد رضوان المذكور .

نبذة من معتقدات الباطنية

قال الشهرستاني في الملل والنحل : الباطنية قوم يخالفون اثنتين وسبعين فرقة. وقال بعد ذلك في الكلام على الإسماعيلية : هم المثبتون لإمامة إسماعيل بن جعفر ، وأشهر ألقابهم الباطنية ، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل

تأويلاً ، ولهم أي [الإسماعيلية] ألقاب كثيرة سوى هذه على لسان قوم ، فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية ، وبخراسان التعليمية والملحدة . قال المقريزي في الخطط[1] في الكلام على عقيدة الإمام الأشعري رضي الله عنه : والحق الذي لا ريب فيه أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه وجوهر لا سر تحته ، وهو كله لازم كل أحد لا مسامحة فيه ، ولم يكتم رسول الله ﷺ من الشريعة ولا كلمة ، ولا اطلع أخص الناس به من زوجة أو ولد عم على شيء كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم ، ولا كان عنده ﷺ سر ولا رمز ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه ، ولو كتم شيئاً لما بلغ كما أمر ، ومن قال هذا فهو كافر بإجماع الأمة ، وأصل كل بدعة في الدين البعد عن كلام السلف والانحراف عن اعتقاد الصدر الأول .

قال ابن الأثير : ولما مات رضوان قام بحلب بعده ابنه آلب أرسلان الأخرس وعمره ست عشرة سنةً ، واستولى على الأمور لؤلؤ الخادم ، ولم يكن للأخرس معه إلا اسم السلطنة ومعناه اللؤلؤ ، ولم يكن آلب أرسلان أخرس وإنما في لسانه حبسة وتمتمة ، وأمه بنت باغيسيان الذي كان صاحب أنطاكية ، وقتل الأخرس أخوين له أحدهما اسمه ملكشاه وهو من أبيه وأمه واسم الآخر مبارك شاه وهو من أبيه ، وكان أبوه فعل مثله ، فلما توفي قُتل ولداه مكافأة لما اعتمده مع أخويه ، وكان الباطنية قد كثروا بحلب في أيامه حتى خافهم ابن بديع رئيسها وأعين أهلها ، فلما توفي قال ابن بديع لآلب أرسلان في قتلهم والإيقاع بهم ، فأمره بذلك فقبض على مقدمهم أبي طاهر الصائغ وعلى جميع أصحابه فقتل أبا طاهر وجماعة من أعيانهم وأخذ أموال الباقين وأطلقهم ، فمنهم من قصد الفرنج وتفرقوا في البلاد اهـ .

وقال ابن العديم : كان آلب أرسلان متهوراً قليل العقل ، ووضع عن أهل حلب ما كان والده جدده عليهم من الرسوم والمكوس وقبض على أخويه ملكشاه ومبارك وكان مبارك من جارية وملكشاه من أمة فقتلهما ، وكذلك فعل أبوه رضوان بأخويه ، فانظر إلى هذه المقابلة العجيبة ، وقبض جماعة من خواص والده فقتل بعضهم وأخذ أموال الآخرين . وكان المتولي لتدبير أموره خادماً لأبيه يقال له لؤلؤاليايا وهو الذي أنشأ خانكاه البلاط بحلب ،

---

(١) في الجزء الرابع في صحيفة ١٩١ .

وكان قبل وصوله إلى رضوان خادماً لتاج الرؤساء ابن الحلال فدبر أسوأ تدبير مع سوء تدبيره في نفسه ، وكان أمر الباطنية قد قوي بحلب في أيام أبيه وبايعهم خلق كثير على مذهبهم طلباً لجاههم وصار كل من أراد أن يحمي نفسه من قتل أو ضيم التجأ إليهم ، وكان حسام الدين بن دملاح وقت وفاة رضوان بحلب فصاروا معه وصار إبراهيم العجمي الداعي من نوابه في حفظ القلعة بظاهر بالس ، فكتب السلطان محمد بن ملكشاه إلى آلب أرسلان وقال له : كان والدك يخالفني في الباطنية وأنت ولدي فأحب أن تقتلهم ، وسرع الرئيس أبو بديع متقدم الأحداث في الحديث مع آلب أرسلان في أمرهم وقرر الأمر معه على الإيقاع بهم والنكاية فيهم ، فساعده على ذلك فقبض على أبي طاهر الصايغ وقتله وقتل إسماعيل الداعي وأخا الحكيم المنجم والأعيان من أهل هذا المذهب بحلب وقبض على زهاء مائتي نفس منهم وحبس بعضهم واستصفى أموالهم وشفع في بعضهم ، فمنهم من أطلق ومنهم من رمي من أعلى القلعة ومنهم من قتل ، وأفلت جماعة منهم فتفرقوا في البلاد وهرب إبراهيم الداعي من القلعة إلى شيزر وخرج حسام الدين بن دملاح عند القبض عليهم فمات في الرقة .

وطلب الفرنج من آلب أرسلان المقاطعة التي لهم بحلب فدفعها إليهم من ماله ولم يكلف أحداً من أهل حلب شيئاً منها . ثم إن آلب أرسلان رأى أن المملكة تحتاج إلى من يدبرها أحسن تدبير وأشار خدمه وأصحابه عليه بأن كاتب أتابك طغتكين أمير دمشق ورغب في استعطافه وسأله الوصول إليه ليدبر حلب والعسكر وينظر في مصالح دولته ، فأجابه ورأى موافقته لكونه صبياً لا يخافه الكفار ولا رأي له ، فدعا له على منبر دمشق بعد الدعوة للسلطان وضربت السكة باسمه وذلك في شهر رمضان ، وأوجبت الصورة بأن خرج آلب أرسلان بنفسه في خواصه وقصد أتابك إلى دمشق ليجتمع معه ويؤكد الأمر بينه وبينه ، فلقيه أتابك على مرحلتين وأكرمه ووصل معه وأنزله بقلعة دمشق وبالغ في إكرامه وخدمته والوقوف على رأسه ، وحمل إليه دست ذهب وطيراً مرصعاً وعدة قطع مثمنة وعدة من الخيل وأكرم من كان في صحبته ، وأقام بدمشق أياماً وسار في أول شوال عائداً إلى حلب ومعه أتابك وعسكره ، فأقام عنده أياماً واستخلص كمشتكين البعلبكي مقدم عسكره ، وكان قد أشار عليه بعض أصحابه بقبضه فقبض جماعة من أعيان عسكره وقبض

الوزير أبا الفضل بن الموصول ففعل ذلك فاستوهب أتابك منه كمشتكين فوهبه إياه ، وقبض على رئيس حلب صاعد بن بديع وكان وجيهاً عند أبيه رضوان فصادره بعد التضييق عليه حتى ضرب نفسه في السجن ليقتل نفسه ، ثم أطلقه بعد أن قرر عليه مالاً وأخرجه وأهله من حلب فتوجه إلى مالك بن سالم إلى قلعة جعبر وسلم رياسة حلب إلى إبراهيم الفراتي فتمكن ولقب ونوه باسمه ، وإليه تنسب عرصة ابن الفراتي بالقرب من باب العراق بحلب .

ثم رأى أتابك من سوء السيرة وفساد التدبير مع التقصير في حقه والإعراض عن مشورته ما أنكره ، فعاد من حلب إلى دمشق وخرجت معه أم الملك رضوان هرباً منه ، وساءت سيرة آلب أرسلان وانهمك في المعاصي واغتصاب الحرم والقتل ، وبلغنا أنه خرج يوماً إلى عين المباركة متنزهاً وأخذ معه أربعين جارية ونصب خيمة ووطئهن كلهن ، واستولى لؤلؤاليايا على الأمر فصادر جماعة من المتفرقين وأعاد الوزارة إلى أبي الفضل بن الموصول ، وجمع آلب أرسلان جماعة من الأمراء وأدخلهم إلى موضع بالقلعة شبيه بالسرداب لينظروه ، فلما دخلوا إليه قال لهم : أيش تقولون في من يضرب رقابكم كلكم هاهنا ، فقالوا : نحن مماليك وبحكمك ، وأخذوا ذلك منه بطريق المزاح وتضرعوا له حتى أخرجهم ، وكان فيهم مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر ، فلما نزل سار عن حلب وتركها خوفاً على نفسه .

سنة ٥٠٨

ذكر قتل آلب أرسلان وولاية أخيه سلطان شاه

قال ابن العديم : لما حصل من الب أرسلان ما حصل خاف منه لؤلؤ اليايا فقتله بفراشه بالمركز بقلعة حلب في شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسمائة ، وساعده على ذلك قراجا التركي وغيره . ولزم لؤلؤ اليايا قلعة حلب وشمس الخواص في العسكر ونصب لؤلؤ أخاً له صغيراً عمره ست سنين واسمه سلطان شاه بن رضوان وتولى لؤلؤ تدبير مملكته وجرى على قاعدته في سوء التدبير ، وكاتب لؤلؤ ومقدمو حلب أتابك طغتكين وغيره يستدعونهم إلى حلب لدفع الفرنج عنها فلم يجب أحد منهم إلى ذلك ، ومن العجائب أن يخطب الملوك لحلب ولا يوجد من يرغب فيها ولا يمكنه ذب الفرنج عنها ، وكان السبب في ذلك أن المتقدمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه .

وقلّ الربيع ببلد حلب لاستيلاء الفرنج على أكثر بلدها والخوف على باقيه ، وقلّت الأموال واحتيج إليها لصرفها إلى الجند ، فباع لؤلؤ قرى كثيرة من بلد حلب ، وكان المتولي بيعها القاضي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة قاضي حلب ولؤلؤ يتولى صرف أثمانها في مصالح القلعة والجند والبلد ، وقبض لؤلؤ على الوزير أبي الفضل بن الموصل واستأصل ماله ، وسار إلى قلعة جعبر فأقام عند مالك بن سالم واستوزر أبا الرجا بن السرطان الرحبي مدة ثم صادره وضربه ، وطلب أبا الفضل بن الموصول فأعاده إلى الوزارة بحلب . وجاءت زلزلة عظيمة ليلة الأحد ثامن وعشرين من جمادى الآخر من سنة ثمان بحلب وحران وأنطاكية ومرعش والثغور الشامية وسقط برج باب أنطاكية الشمالي وبعض دور العقبة وقتلت جماعة وخربت قلعة أعزاز وهرب وإليها إلى حلب ، وكان بينه وبين لؤلؤ مواحشة ، فحين وصل إلى حلب قتله وأنفذ إليها من تداركها بالعمارة والترميم ، وخرب شيء يسير في قلعة حلب وخرب أكثر قلعة الأثارب وزردنا .

وصار شمس الخواص مقدم عسكر حلب ومتولي أقطاع الجند ، وكانت سيرته إذ ذاك صالحة ، وكان لؤلؤ في أول أمره مقيماً بقلعة حلب لا ينزل عنها ويدبر الأمور فكتب إلى السلطان على سبيل المغالطة يبذل له تسليم حلب والخزائن التي خلفها رضوان وولده آلب أرسلان ويطلب إنفاذ العساكر إليه .

وقال ابن الأثير : في هذه السنة سار آقسنقر البرسقي ـ صاحب الموصل إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس فنازلها في ذي الحجة وقاتلها ، فصبر له الفرنج واصابوا من بعض المسلمين غرة فأخذوا منهم تسعة رجال وصلبوهم على سورها ، فاشتد القتال حينئذ وحمي المسلمون وقاتلوا فقتلوا من الفرنج خمسين فارساً من أعيانهم ، وأقام عليهم شهرين وأياماً ، وضاقت الميرة على المسلمين فرحلوا من الرها إلى سميساط بعد أن خربوا بلد الرها وبلد سروج وبلد سميساط وأطاعه صاحب مرعش على ما نذكره .

ذكر طاعة صاحب مرعش وغيرها للبرسقي

قال ابن الأثير : في هذه السنة توفي بعض كنود الفرنج ويعرف بكواسيل وهو صاحب مرعش وكيسوم ورعبان وغيرها ، فاستولت زوجته على المملكة وتحصنت من الفرنج

وأحسنت إلى الأجناد وراسلت آقسنقر البرسقي وهو على الرها واستدعت منه بعض أصحابه لتطيعه ، فسير إليها الأمير سنقر دزدار صاحب الخابور ، فلما وصل إليها أكرمته وحملت إليه مالاً كثيراً ، وبينما هو عندها إذ جاء جمع من الفرنج فواقعوا أصحابه وهم نحو مائة فارس واقتتلوا قتالاً شديداً ظفر فيه المسلمون بالفرنج وقتلوا منهم أكثرهم ، وعاد سنقر دزدار وقد أصحبته الهدايا للملك مسعود والبرسقي وأذعنت بالطاعة ، ولما عرف الفرنج ذلك عاد كثير ممن عندها إلى أنطاكية .

سنة ٥٠٩

إرسال السلطان محمد بن ملكشاه العساكر إلى حلب بقيادة برسق وافتتاح كفرطاب وما جرى بعد ذلك لاختلاف كلمة الأمراء

قدمنا ما كتب به لؤلؤ إلى السلطان محمد وأنه طلب منه إنفاذ العساكر . قال ابن العديم : فإنه أرسل برسق بن برسق مقدم الجيوش وبكربسن وغيرهم من أمراء السلطان في سنة تسع وخمسمائة ، فتغيرت نية لؤلؤ الخادم عما كان يكتب به إلى السلطان وكتب إلى أتابك طغتكين يستصرخه ويستنجده ووعده تسليم حلب إليه وأن يعوضه طغتكين من أعمال دمشق ، فبادر إلى ذلك ووصل حلب والعساكر السلطانية ببالس متوجهين إلى حلب ، فرحلوا منها إلى النقرة ووصلهم الخبر أن ذلك اليوم وصل أتابك إلى حلب فأعرضوا عن حلب وساروا إلى حماة وتسلموا رفنيّة من أولاد علي كرد وسلموها إلى خير خان بن قرجا ، فخاف طغتكين من عساكر السلطان أن يقصد دمشق فأخذ عسكر حلب وشمس الخواص وإيلغازي بن أرتق واستنجد بصاحب أنطاكية روجار وغيره من ملوك الفرنج ونزلوا أجمعون أفامية ونزلت العساكر السلطانية أرض شيزر ، وجعل أتابك يريث الفرنج عن اللقاء خوفاً من الفرنج أن ينكسر العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعه أو ينكسروا فيستولي العساكر السلطانية على ما في يده ، وخاف الفرنج وضاقت صدور أمراء عسكر السلطان من المصابرة فرحلوا ونزلوا حصن الأكراد وأشرف على الأخذ ، فاتفق أتابك والفرنج على عود كل قوم إلى بلادهم ، ففعلوا ذلك وتوجه أتابك إلى دمشق وعاد عسكر

حلب وشمس الخواص إلى حلب فقبض عليه لؤلؤ واعتقله ، فعادت عساكر السلطان حينئذ عن حصن الأكراد وساروا إلى كفر طاب وحصروا حصناً كان الفرنج عمروه بجامعها وأحكموه فأخذوه وقتلوا من فيه إلى معرة النعمان ، وأمن الترك وانتشروا في أعمال المعرة واشتغلوا بالشرب والنهب ووقع التحاسد فيما بينهم ، ووصل رسول من جهة شمس الخواص يستدعيهم لتسليم بزاعة ويقول : إن شمس الخواص مقبوض عليه عند لؤلؤ الخادم ولؤلؤ يكشف أخبار العساكر ويطالع بها الفرنج ، ورحل برسق وجامدار صاحب الرحبة نحو دانيث يطلبون حلب فنزل جامدار في بعض الضياع ووصل برسق بالعسكر إلى دانيث بكرة الثلثاء العشرين من شهر ربيع الآخر والفرنج يعرفون أخبارهم ساعة فساعة ، فوصلهم الفرنج وقصدوا العسكر من ناحية جبل السماق والعسكر على الحال التي ذكرناها من الانتشار والتفرق فلم يكن لهم بالفرنج طاقة ، فانهزموا من دانيث إلى تل السلطان واستتر قوم في الضياع من العسكر ، فنهبهم الفلاحون وأطلقوهم وغنم أهل الضياع مما طرحوه وقت هزيمتهم ما يفوت الإحصاء وأخذ الفرنج من هذا ما يفوت الوصف وغنموا من الكراع والسلاح والخيام والدواب وأصناف الآلات والأمتعة مالا يحصى ، ولم يقتل مقدم ولا مذكور وقتل من المسلمين نحو خمسمائة وأسر نحوها ، واجتمع العسكر على تل السلطان ورحلوا إلى النقرة مخذولين مختلفين ونزلوا النقرة ، وكان أونبا قد طلع بأصحابه إلى حصن بزاعة وكان قد تقدم العساكر إليها ، فلما بلغهم ذلك نزلوا ووصلوا إلى العسكر وتوجهت العساكر إلى السلطان وإلى بلادهم ووصل طغتكين من دمشق فتسلم رفنية ممن كان بها ، وأطلق لؤلؤ شمس الخواص من الاعتقال وسلم إليه ما كان أقطعه من بزاعة وغيرها فوصل إلى طغتكين فرد عليه رفنية وعاد إلى دمشق واستصحبه معه .

زيادة بيان لهذه الحوادث :

ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٥٠٨ أنه حصلت وحشة بين السلطان محمد وبين آميريه آقسنقر البرسقي وطغتكين صاحب دمشق أدت إلى اتفاقهما مع صاحب أنطاكية الفرنجي ، ولما اتصل ذلك بمسامع السلطان محمد جهز في سنة ٥٠٨ عسكراً كثيراً وجعل مقدمهم الأمير برسق بن برسق صاحب همذان ومعه الأمير جيوش بك والأمير كنتغدي وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم بالبداءة بقتل إيلغازي وطغتكين ، فإذا فرغوا منهما قصدوا

بلاد الفرنج وقاتلوهم وحصروا بلادهم ، فساروا في رمضان من سنة ثمان وخمسمائة وكان عسكراً كثير العدة ، وعبروا الفرات آخر السنة عند الرقة ، فلما قاربوا حلب راسلوا المتولي لأمرها لؤلؤ الخادم ومقدم عسكرها المعروف بشمس الخواص يأمرونهما بتسليم حلب وعرضوا عليهما كتب السلطان بذلك ، فغالطا في الجواب وأرسلا إلى إيلغازي وطغتكين يستنجداهما ، فسار إليهم في ألفي فارس ودخلا حلب فامتنع من بها حينئذ عن عسكر السلطان وأظهروا العصيان ؛ فسار الأمير برسق بن برسق إلى مدينة حماة وهي في طاعة طغتكين وبها ثقله فحصرها وفتحها عنوة ونهبها ثلاثة أيام وسلمها إلى الأمير قرجان صاحب حمص ، وكان السلطان قد أمر بأن يسلم إليه كل بلد يفتحونه ، فلما رأت الأمراء ذلك فشلوا وضعفت نياتهم في القتال بحيث تؤخذ البلاد وتسلم إلى قرجان ، فلما سلموا حماة إلى قرجان سلم إليهم إياز بن إيلغازي . وكان قد سار إيلغازي وطغتكين وشمس الخواص إلى أنطاكية واستجاروا بصاحبها روجيل وسألوه أن يساعدهم على حفظ مدينة حماة ، فلما بلغهم فتحها ووصل إليهم بأنطاكية بغدوين صاحب القدس وصاحب طرابلس وغيرهما من شياطين الفرنج اتفق رأيهم على ترك اللقاء لكثرة المسلمين وقالوا إنهم عند هجوم الشتاء يتفرقون ، واجتمعوا بقلعة أفامية وأقاموا نحو شهرين ، فلما انتصف أيلول ورأوا عزم المسلمين على المقام تفرقوا فعاد إيلغازي إلى ماردين وطغتكين إلى دمشق والفرنج إلى بلادها ، وكانت أفامية وكفر طاب للفرنج ، فقصد المسلمون كفر طاب وحصروها ، فلما اشتد الحصر على الفرنج ورأوا الهلاك قتلوا أولادهم ونساءهم وأحرقوا أموالهم ودخل المسلمون البلد عنوة وقهروا وأسروا صاحبه وقتلوا من بقي فيه من الفرنج ، وساروا إلى قلعة أفامية فرأوها حصينة فعادوا عنها إلى المعرة وهي للفرنج أيضاً ، وفارقهم الأمير جيوش بك إلى وادي بزاعة فملكه ، وسارت العساكر عن المعرة إلى حلب وتقدمهم ثقلهم ودوابهم على جاري العادة والعساكر في إثره متلاحقة وهم آمنون لا يظنون أحداً يقوم على القرب منهم . وكان روجيل صاحب أنطاكية لما بلغه حصر كفر طاب سار في خمسمائة فارس وألفي راجل للمنع فوصل إلى المكان الذي ضربت فيه خيام المسلمين على غير علم بها فرآها خالية من الرجال المقاتلة لأنهم لم يصلوا إليها فنهب جميع ما هناك وقتل كثيراً من السوقية وغلمان العسكر ووصلت العساكر متفرقة فكان الفرنج يقتلون كل من وصل إليهم ، ووصل الأمير

برسق في نحو مائة فارس فرأى الحال فصعد تلاً هناك ومعه أخوه زنكي وأحاط بهم السوقية والغلمان واجتمعوا بهم ومنعوا الأمير برسق من النزول ، فأشار عليه أخوه زنكي ومن معه بالنزول والنجاة بنفسه ، فقال : لا أفعل بل أقتل في سبيل الله وأكون فداء المسلمين ، فغلبوه على رأيه فنجا هو ومن معه ، فتبعهم الفرنج نحو فرسخ ثم عادوا وتمموا الغنمية والقتل وأحرقوا كثيراً من الناس ، وتفرق العسكر وأخذ كل واحد جهة ، ولما سمع الموكلون بالأسرى المأخوذين من كفر طاب ذلك قتلوهم .وكذلك فعل الموكل بإياز بن إيلغازي قتله أيضاً ، وخاف أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين التي بالشام فإنهم كانوا يرجون النصر من جهة هذا العسكر فأتاهم مالم يكن في الحساب ، وعادت العساكر عنهم إلى بلادها ، وأما برسق وأخوه زنكي فإنهما توفيا سنة عشر وخمسمائة ، وكان برسق خيراً ديناً وقد ندم على الهزيمة وهو يتجهز للعود إلى الغزاة فأتاه أجله اهـ .

سنة ٥١٠ و ٥١١

ذكر قتل لؤلؤ الخادم واستيلاء إيلغازي بن أرتق على حلب وتولية ابنه حسام الدين تمرتاش

قال ابن العديم : أما لؤلؤ الخادم فإنه صار بعد ملازمة القلعة ينزل منها في الأحيان ويركب ، فاتفق أنه خرج في سنة عشر وخمسمائة بعسكر حلب والكتاب إلى بالس وهو في صورة متصيد ، فلما وصل إلى تحت قلعة نادر قتله الجند ، واختلف في خروجه فقيل إنه كان حمل مالاً إلى قلعة دوسر وأودعه عند ابن مالك فيها وأراد ارتجاعه منه والعود إلى حلب ، وكان السلطان قد أقطع حلب والرحبة آقسنقر البرسقي .فواطأ جماعة من أصحابه على قتل لؤلؤ وأمل أنهم إذا قتلوه يصح له إقطاع حلب ، فقتلوه وسار بعضهم إلى الرحبة فأعلموه فأسرع آقسنقر البرسقي المسير إلى حلب من الرحبة وانضاف بعض عسكره إلى بقية القوم الذين قتلوه وطمعوا في أخذ حلب لأنفسهم وساروا إليها ، فسبقهم ياروقتاش الخادم أحد خدم الملك رضوان ودخل حلب . وقيل إن لؤلؤ كان قد خاف فأخذ أمواله وخرج طالباً بلاد الشرق للنجاة بالأموال ، فلما وصل إلى قلعة نادر قال سنقر الجكرمش : تتركونه يقتل تاج الدولة ويأخذ الأموال ويمضي ، وصاح بالتركية : الأرنب الأرنب فضربوه بالسهام فقتلوه ،

ولما خرج عن حلب أقامت القلعة في يد آمنة خاتون بنت رضوان يومين إلى أن وصل ياروقتاش الخادم مبادراً فدخل حلب ونزل بالقصر وأخرج بعض عسكر حلب وأوقع بالذين قتلوا لؤلؤ وارتجع ما كان أخذوه من عسكر حلب ، وانهزم بعض من كان في النوبة فالتقوا آقسنقر في بالس في أول محرم سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ولم يتسهل للبرسقي ما أمل وراسل أهل حلب ومن بها في التسليم إليه فلم يجيبوه إلى ذلك ، وكاتب ياروقتاش الخادم نجم الدين إيلغازي بن أرتق ليصل من ماردين ويدفع آقسنقر وكاتب روجار صاحب أنطاكية أيضاً ، فوصل إلى بلد حلب وأخذ ما قدر عليه من أعمال الشرقية ، فحينئذ أيس البرسقي من حلب وانصرف من أرض بالس إلى حمص فأكرمه خير خان صاحبها وسار معه إلى طغتكين إلى دمشق فأكرمه ووعده بإنجاده على حلب .

وهادن ياروقتاش صاحب أنطاكية روجار وحمل إليه مالاً وسلم إليه حصن القبة ورتب مسير القوافل من حلب إلى القبلة عليه وأن يؤخذ المكس منهم له . ثم إن ياروقتاش طلع إلى قلعة حلب وعزم على أن يعمل حيلة يوقعها بالمتقدمين ويملكها مثل لؤلؤ ، فقبض عليه مقدمو القلعة بأمر بنات رضوان بعد تمام شهر من ولايته وأخرجوه من حلب وولوا في القلعة خادماً من خدم رضوان ، وردّ أمر سلطان شاه وتقدمة العسكر وتدبير الأمر إلى عارض الجيش العميد أبي المعالي المحسن بن الملحي ، فدبر الأمور وساسها ، وضعفت حلب وقل ارتفاعها وخربت أعمالها ، ووصل إيلغازي بن أرتق إلى حلب فأنزلوه في قلعة الشريف ومنعوه من القلعة الكبيرة ، واستولى على تدبير الأمور وتربية سلطان شاه في سنة إحدى عشرة وخمسمائة وسلموا إليه بالس والقلعة ، وقبض أبا المعالي بن الملحي وقصر ارتفاع حلب عما يحتاج إليه إيلغازي والتركمان الذين معه ولم ينتظم حال واستوحش من أهل حلب وجندها ، فخرج عنها إلى ماردين وبقيت بالس والقلعة في يده ، وخرج ابن الملحى من الاعتقال وأعيد إلى تدبير الأمور وأفسد الجند الذين ببالس في أعمال حلب ، فاستدعوا الفرنج ، وخرج بعض عسكر حلب ومعهم قطعة من الفرنج وحصروها فوصل إيلغازي وجمع من التركمان إليها فعاد عسكر حلب والفرنج عن بالس وباعها لابن مالك وعاد إلى ماردين وبقي تمرتاش ولده رهينة في حلب .

ووصل في هذه السنة أتابك طغتكين وأقسنقر البرسقي إلى حلب وراسلوا أهلها في تسليمها ، فامتنعوا من إجابته وقالوا : ما نريد أحداً من الشرق ، وأنفذوا واستدعوا الفرنج من أنطاكية لدفعه عنهم ، فعاد آقسنقر من الرحبة وأتابك إلى دمشق ، واشتد الغلاء بأنطاكية وحلب لأن الزرع غرق ولحقه هواء عند إدراكه أتلفه ، وهرب الفلاحون للخوف ، واستدعى أهل حلب ابن قراجا من حمص فرتب الأمور بها وحصنها وسار إلى حلب ونزل في القصر خوفاً من إيلغازي لما كان بينهما ، وخرج أتابك إلى حمص ونهب أعمالها وشعثها وأقام عليها مدة وعاد إلى دمشق لحركة الفرنج ، وخرجت قافلة من دمشق إلى حلب فيها تجار غيرها وحملوا ذخائرهم وأموالهم لما قد أشرف عليه أهل حلب ، فلما وصلوا إلى القبة نزل الفرنج إليهم وأخذوا منهم المكس ثم عادوا وقبضوهم وما معهم بأسرهم ورفعوهم إلى القبة وحملوا الرجال والنساء بعد ذلك إلى أفامية ومعرة النعمان وحبسوهم ليقرروا عليهم مالاً ، فراسلهم أبو المعالي بن الملحي ورغبهم في البقاء على الهدنة وأن لا ينقضوا العهد وحمل إلى صاحب أنطاكية مالاً وهدية فرد عليهم الأحمال والأثقال وغير ذلك ولم يعدم منه شيء ، وقوي طمع الفرنج في حلب لعدم النجدة وضعفها وغدروا ونقضوا الهدنة وأغاروا على بلد حلب وأخذوا مالاً لا يحصيه إلا الله ، فراسل أهل حلب أتابك طغتكين فوعدهم بالإنجاد فكسره جوسلين وعساكر الفرنج ، وراسلوا صاحب الموصل وكان أمره مضطرباً بعد عوده من بغداد ، ونزل الفرنج بعد عودهم من كسرة أتابك على عزاز وضايقوها وأشرفت على الأخذ ، وانقطعت قلوب أهل حلب ولم يكن بقي لحلب معونة إلا من عزاز وبلدها وبقية بلد حلب في أيدي الفرنج والشرقي خراب مجدب والقوت في حلب قليل جداً ومكوك الحنطة بدينار وكان إذ ذاك لا يبلغ نصف مكوك بمكوك حلب الآن وما سوى ذلك مناسب له ، ويئس أهل حلب من نجدة تصلهم من أحد الملوك ، فاتفق رأيهم على أن يسيروا الأعيان والمقدمين إلى إيلغازي بن أرتق ويستدعوه ليدفع الفرنج عنهم وظنوا أنه يصل في عسكر يفرج به عنهم وضمنوا له مالاً يقسطونه على حلب يصرفه إلى العساكر ، فوصل في جند يسير والمدبر لحلب جماعة من الخدم والقاضي أبو الفضل بن الخشاب هو المرجوع إليه في حفظ المدينة والنظر في مصالحها ، فامتنع عليه البلد واختلف الآراء في دخوله ، فعاد فلحقه القاضي أبو الفضل بن الخشاب وجماعة من المقدمين وتلطفوا به ، ولم يزالوا به حتى رجع ووصل إلى حلب ودخلها وتسلم القلعة وأخرج منها سائر الجند وأصحاب

رضوان وأنزل سلطان شاه بن رضوان وبنات رضوان في دار من دور حلب وقبض على جماعة ممن كان يتعلق بالخدم ويخدمهم وأخذ منهم ما كان صار إليهم من مال رضوان ومال الخدم الذين استولوا على حلب بعده ، وراسل الفرنج في مال يحمله عن عزاز ليرحلوا عنها فلم يلتفتوا لقوة أطماعهم في أمر الإسلام ، وكان إيلغازي يعجز بحلب عن قوت الدواب وحلب على حد التلف ، فلما عرف من بعزاز ذلك ويئسوا من دفع الفرنج سلموها إلى الفرنج وراسلهم من بحلب في صلح يستأنفونه معهم فأجابوا إلى ذلك لطفاً من الله بهم على أن يسلموا إلى الفرنج هراق ويؤدون القطيعة المستقرة على حلب عن أربعة أشهر وهي ألف دينار ويكون لهم من حلب شمالاً وغرباً ، وزرعوا أعمال عزاز وقوّوا فلاحهم وعادوا إلى أنطاكية وصار يدخل إلى حلب ما يتبلغون به من القوت . وسار إيلغازي إلى الشرق ليجمع العساكر ويعود بها إلى حلب فسار إليه أتابك طغتكين والتقاه بقلعة دوسر ووافقه على ذلك ، وسارت الرسل إلى ملوك الشرق والتركمان يستنجدونهم ، وكان ابن بديع رئيس حلب عند ابن مالك بقلعة دوسر ، فنزل إلى إيلغازي ليطلب منه العود إلى حلب ، فلما صار عند الزورق ليقطع الماء إلى العسكر وثب عليه اثنان من الباطنية فضرباه عدة سكاكين ووقع ولداه عليهما فقتلاهما وقتل ابن بديع وأخذ ولديه وجرح الآخر وحمل إلى القلعة فوثب آخر من الباطنية وقتله وحمل الباطني ليقتل فرمى بنفسه في الماء وغرق .

تتمة هذه الحوادث :

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٥١١ : في هذه السنة قتل لؤلؤ الخادم وكان قد استولى على قلعة حلب وأعمالها بعد وفاة الملك رضوان وولى أتابكيته ولده آلب أرسلان ، فلما مات أقام بعده في الملك سلطانشاه بن رضوان وحكم في دولته أكثر من حكمه في دولة أخيه ، فلما كان هذه السنة سار منها إلى قلعة جعبر ليجتمع بالأمير سالم بن مالك صاحبها ، فلما كان عند قلعة نادر نزل يريق الماء فقصده جماعة من أصحابه الأتراك وصاحوا أرنب أرنب وأوهموا أنهم يتصيدون ، ورموه بالنشاب فقتل ، فلما هلك نهبوا خزائنه فخرج إليهم أهل حلب فاستعادوا ما أخذوه وولى أتابكيته سلطانشاه بن رضوان شمس الخواص ياروقتاش فبقي شهراً وعزلوه وولي بعده أبو المعالي بن المفلحي الدمشقي ، ثم عزلوه

وصادروه . وقيل كان سبب قتل لؤلؤ أنه أراد قتل سلطانشاه كما قتل أخاه آلب أرسلان قبله ففطن به أصحاب سلطانشاه فقتلوه .

ثم إن أهل حلب خافوا من الفرنج فسلموا البلد إلى نجم الدين إيلغازي ، فلما تسلمه لم يجد فيه مالاً ولا ذخيرة لأن الخادم كان قد فرق الجميع ، وكان الملك رضوان قد جمع فأكثر فرزقه الله غير أولاده ، فلما رأى إيلغازي خلو البلد من الأموال صادر جماعة من الخدم بمال صانع به الفرنج وهادنهم مدة يسيرة تكون بمقدار مسيره إلى ماردين ، وجمع العساكر والعود ، فلما تمت الهدنة سار إلى ماردين على هذا العزم واستخلف بحلب ابنه حسام الدين تمرتاش اهـ ، وبه انقرض ملك بني رضوان السلجوقيين من حلب .

وفي المختار من الكواكب المضية أن إيلغازي بن أرتق لما غلب على ملك حلب وتسلم قلعتها أنزل سلطانشاه وإبراهيم وبنات رضوان من القلعة في دار من دور حلب ، ثم إنه أخرجهم جميعاً من حلب وذلك في سنة خمس عشرة وخمسمائة إلى قلعة ابن مالك ثم انتقلوا إلى حران .

وفي هذه السنة توفي السلطان محمد بن ملكشاه بن آلب أرسلان وجلس على تخت السلطنة بعده ابنه السلطان محمود .

سنة ٥١٢

استنجاد إيلغازي بملوك بغداد

قال ابن الأثير : في هذه السنة وصل رسول إيلغازي بن أرتق صاحب حلب وماردين إلى بغداد يستنفر على الفرنج ويذكر ما فعلوا بالمسلمين في الديار الجزيرية وأنهم ملكوا قلعة عند الرها وقتلوا أميرها ابن عطير ، فسيرت الكتب بذلك إلى السلطان محمود .

سنة ٥١٣

ذكر غزاة إيلغازي بن أرتق بلاد الفرنج وتولية ولده سليمان على حلب

قال ابن الأثير : في هذه السنة سار الفرنج من بلادهم إلى نواحي حلب فملكوا زاعة وغيرها وأخربوا بلد حلب ونازلوها ، ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً

واحداً ، وخافهم أهلها خوفاً شديداً ولو مكنوا من القتال لم يبق بها أحد ، لكنهم منعوا من ذلك وصانع الفرنج أهل حلب على أن يقاسموهم على أملاكهم التي بباب حلب ، فأرسل أهل البلد إلى بغداد يستغيثون ويطلبون النجدة فلم يغاثوا ، وكان الأمير إيلغازي صاحب بلد ماردين يجمع العساكر والمتطوعة للغزاة فاجتمع عليه نحو عشرين ألفاً ، وكان معه أسامة بن المبارك بن شبل الكلابي والأمير طغان أرسلان بن المكر صاحب بدليس وأرزن وسار بهم إلى الشام عازماً على قتال الفرنج ، فلما علم الفرنج قوة عزمهم على لقائهم وكانوا ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل ساروا فنزلوا قريباً من الأثارب بموضع يقال له تل عفرين بين جبال ليس لها طريق إلا من ثلاث جهات ، وفي هذه الموضع قتل شرف الدولة مسلم بن قريش ، وظن الفرنج أن أحداً لا يسلك إليهم لضيق الطريق فأخلدوا إلى المطاولة ، وكانت عادة لهم إذا رأوا قوة من المسلمين . وراسلوا إيلغازي يقولون له لا تتعب نفسك بالمسير إلينا فنحن واصلون إليك ، فأعلم أصحابه بما قالوه واستشارهم فيم يفعل فأشاروا بالركوب من وقته وقصدهم ، ففعل ذلك وسار إليهم ودخل الناس من الطرق الثلاثة ولم تعتقد الفرنج أن أحداً يقدم عليهم لصعوبة المسلك ، فلم يشعروا إلا وأوائل المسلمين قد غشيهم ، فحمل الفرنج حملة منكرة فولوا منهزمين فلقوا باقي العسكر متتابعة ، فعادوا معهم وجرى بينهم حرب شديدة وأحاطوا بالفرنج من جميع جهاتهم ، وأخذهم السيف من سائر نواحيهم فلم يفلت منهم غير نفر يسير ، وقتل الجميع وأسروا ، وكان في جملة الأسرى نيف وسبعون فارساً من مقدميهم ، وحملوا إلى حلب فبذلوا في نفوسهم ثلاثمائة ألف دينار فلم يقبل منهم ، وغنم المسلمون منهم الغنائم الكثيرة وأما (سيرجال) صاحب أنطاكية فإنه قتل وحمل رأسه . وكانت الوقعة منتصف شهر ربيع الأول ، فمما مدح به إيلغازي في هذه الوقعة قول العظيمي :

قل ما تشاء فقولك المقبول ... وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن حين نصرته ... وبكى لفقد رجاله الإنجيل

ثم تجمع من سلم من المعركة مع غيرهم فلقيهم إيلغازي أيضاً فهزمهم وفتح منهم

حصن الأثارب وزردنا وعاد إلى حلب وقرر أمرها وأصلح حالها ، ثم عبر الفرات إلى ماردين(١)

تتمة حوادث سنة ٥١٣

زيادة بيان لهذه الحوادث :

قال ابن العديم توجه إيلغازي إلى ماردين ومعه أتابك وراسلا من بعد وقرب من عساكر المسلمين والتركمان فجمعا عسكراً عظيماً وتوجه إيلغازي في عسكر يزيد عن أربعين ألفاً في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة وقطع الفرات من عبر بدايا وسبخة وامتدت عساكره في أرض تل باشر وتل خالد وما يقاربهما يقتل وينهب ويأسر وغنموا كل ما قدروا عليه ، ووصل من رسل حلب من يستحثه على الوصول لتواصل غارات الفرنج من جهة الأثارب على حلب وإياس أهلها من أنفسهم ، فسار إلى مرج دابق ثم إلى المسلمية ثم قنسرين في أواخر صفر من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وسارت سراياهم في أعمال الفرنج والروج يقتلون ويأسرون ، وأخذوا حصن قسطون في الروج ، وجمع سرجال صاحب أنطاكية الفرنج والأرمن وغيرهم وخرج إلى جسر الحديد ، ثم رحلوا ونزلوا بالبلاط بين جبلين مما يلي درب سرمدا شمالي الأثارب ، وذلك في يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الأول ، وضجر الأمراء من طول المقام وإيلغازي ينتظر أتابك طغتكين ليصل إليه ويتفقا على ما يفعلانه ، فاجتمعوا وحثوا إيلغازي على مناجزة العدو ، فجدد إيلغازي الأيمان على الأمراء والمقدمين أن يناصحوا في حربهم ويصابروا في قتال العدو وأنهم لا يتكلون ويبذلون مهجهم في الجهاد ، فحلفوا على ذلك بنفس طيبة ، وسار المسلمون جرايد وخلفوا الخيام بقنسرين وذلك في يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول فباتوا قريباً من الفرنج وقد شرعوا في عمارة حصن مطل على تل عقبرين ، والفرنج يتوهمون أن المسلمين ينازلون الأثارب أو زردنا ، فما شعروا عند الصبح إلا ورايات المسلمين قد أقبلت وأحاطوا بهم من كل جانب ، وأقبل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يحرض الناس على القتال وهو راكب على حجر وبيده رمح ، فرآه

---

(١) أقول : ويغلب على الظن أنه في قدمته هذه إلى حلب ولى عليها ولده سليمان الذي عصى عليه سنة ٥١٥ كما سيأتي .

بعض العساكر فازدراه وقال : إنما جئنا من بلادنا تبعاً لهذا المعمم ، فأقبل على الناس وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم واسترهق هممهم بين الصفين فأبكى الناس وعظم في أعينهم ، ودار طغان أرسلان بن دملاج من ورائهم ونزل في خيامهم وقتل من فيها ونهبها ، وألقى الله النصر على المسلمين ، وصار من انهزم من الفرنج وقصد الخيام قتل ، وحمل الترك بأسرهم حملة واحدة من جميع الجهات صدقوهم فيها وكانت السهام كالجراد ، ولكثرة ما وقع ف ي الخيل والسواد من السهام عادت منهزمة وغلبت فرسانها وطحنت الرجالة والأتباع والغلمان بالسهام وأخذوهم بأسرهم أسرى ، وقتل سرجال في الحرب وفقد من المسلمين عشرون نفراً منهم سليمان بن مبارك بن شبل ، وسلم من الفرنج مقدار عشرين نفراً لا غير وانهزم جماعة من أعيانهم ، وقتل في المعركة ما يقارب خمسة عشر ألفاً من الفرنج ، وكانت الوقعة يوم السبت وقت الظهر ، فوصل البشير إلى حلب بالنصر والمصاف قائم والناس يصلون صلاة الظهر بجامع حلب سمعوا صيحة عظيمة بذلك من نحو الغرب ولم يصل أحد من العسكر إلا نحو صلاة العصر .

وأحرق أهل القرى القتلى من الفرنج فوجد في رماد فارس واحد وأربعون نصل نشاب ، ونزل إيلغازي في خيمة سرجال وحمل إليه المسلمون ما غنموه فلم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديها لملوك الإسلام ، ورد عليهم ما حملوه بأسره ، ولما حضر الأسرى بين يدي إيلغازي كان فيهم رجل عظيم الخلقة مشتهراً بالقوة وأسره رجل ضعيف قليل السلاح ، فلما حضر بين يدي إيلغازي قال له التركمان : أما تستحي يأسرك مثل هذا الضعيف وعليك مثل هذا الحديد ، فقال : والله ما أخذني هذا ولا هو مولاي إنما أخذني رجل عظيم أعظم مني وأقوى وسلمني إلى هذا ، وكان عليه ثوب أخضر وتحته فرس أخضر ، وتفرقت عساكر المسلمين في بلاد أنطاكية والسويدية وغيرهما يقتلون ويأسرون وينهبون ، وكانت البلاد مطمئنة لم يبلغهم خبر هذه الوقعة ، فأخذ المسلمون من السبي والغنائم والدواب ما يفوت الإحصاء ولم يبق أحد من الترك إلا امتلأ صدره ويداه بالغنائم والسبي ، ولقي بعض السرايا بغدوين الروسر وابن صنجيل في خيلهما بالقرب من جبلة وقد توجها لنصر سرجال صاحب أنطاكية فأوقع بهم الترك وقتلوا جماعة وغنموا ما قدروا عليه وانهزم بغدوين ابن صنجيل وتعلقوا بالحبال ، ورحل إيلغازي إلى أرتاح وبادر بغدوين فدخل أنطاكية وسلمت إليه أخته

زوجة سرجال خزائنه وأمواله وقبض على أموال القتلى ودورهم وأخذها وزوج نساء القتلى بمن بقي وأثبت الخيل وجمع وحشد واستولى على أنطاكية ، ولو سبقه إيلغازي إلى أنطاكية لما امتنعت عليه .

ووصل أتابك إلى نجم الدين بأرتاح فعاد ونزل الأثارب وهجم الربض ونهبه وقتل من قدر عليه وخرجت أحداث من حلب ونقبوا حصنها فطلبوا الأمان فأمنهم بعد أن استأخذت وسيرهم إلى مأمنهم ، ورحل منها إلى زردنا وكانوا قد حصنوها وأحكموا عمارتها وقاتلها فطلبوا الأمان فأمنهم وسيرهم إلى أنطاكية ، فلقيهم بعض التركمان فنهبوهم وقتلوا بعضهم ومضوا إلى أهلهم ، وكان صاحب زردنا لما بلغه منازلتها حمل بغدوين والفرنج إلى الخروج لاستنقاذها وقد عرفوا تفرّق التركمان بالغنائم وعودهم إلى أهلهم وأن إيلغازي في عدة قليلة ، فبلغه ذلك فجدّ في قتالها حتى أخذها كما ذكرناه ورتب أصحابه بها وتوجه بمن بقي معه واستصحب معه عسكر أتابك وطغان أرسلان بن دملاج جرايد إلى دانيث بعد أن ردّ الأثقال والخيام إلى قنسرين ، ووصل إلى دانيث في يومه فوجد الفرنج قد نزلوها يوم فتحه زردنا في مائتي خيمة وراجل كثير ، وقيل إنهم كانوا يزيدون على أربعمائة فارس سوى الرجالة ، وذلك في رابع جمادى الأولى ، والتقوا فحمل صاحب زردنا وأكثر خيل الفرنج على عسكر دمشق وحمص وبعض التركمان فكشفوهم وانهزموا بين أيديهم وسار ليتدارك أمر زردنا ويكبس الأثقال والخيام ، فعرف أخذها وتسيير الأثقال إلى قنسرين ، فسار وحمل بقية المسلمين على بغدوين ومن كان معه فقتلوهم وردوهم على أعقابهم ، فحينئذ حمل إيلغازي وطغتكين وطغان أرسلان فيمن بقي من الخواص على الفرنج فكسروهم وقتلوا أكثر الرجالة وبعض الخيالة وتبعوهم إلى أن دخلوا إلى حصن هاب وغنموا أكثر ما كان معهم ، وعاد نجم الدين وطغتكين وطغان أرسلان إلى دانيث فوجدوا صاحب زردنا والفرنج قد عادوا بعد أن هزموا من كان بين أيديهم من المسلمين ومعرفة أخذ المسلمين زردنا ، فلقهوم وقتلوا منهم جماعة كثيرة وانهزم الباقون إلى هاب وعاد الترك بالظفر والغنيمة . وحين بلغ من بقنسرين مع الأثقال هزيمة من كان في مقابلة صاحب زردنا رحلوا إلى حلب وانزعج أهل حلب غاية الانزعاج فوصلهم البشير بعد ساعتين بما بدل غمهم سروراً وهمهم حبوراً ، وكان البشير من الفرنج قد مضى إلى بلادهم وأخبر بكسر صاحب زردنا للمسلمين ، فزينوا بلادهم وأظهروا

الجذل والمسرة ، فوصل ابن صنجيل من الكسرة بعد ذلك فانقلب سرورهم حزناً وراحتهم تعباً وعناءً .

وكان صاحب زردنا وهو القومس الأبرص واسمه روبارد قد سقط عن فرسه ، فأدركه قوم من أهل جبل السماق من أهل مريمين فقبضوه وحملوه إلى إيلغازي بظاهر حلب فأنفذه إلى أتابك طغتكين فقتله صبراً ، ثم دخل إيلغازي إلى حلب وأحضر الأسرى فرد أصحاب القلاع والمقدمين وابن ميمند صاحب أنطاكية ورسول ملك الروم ونفراً يسيراً ممن كان معه مال فأخذه وأطلقهم وبقي من الأسرى نيف وثلاثون رجلاً بذلوا من المال ما رغب عنه فقتلهم بأسرهم ، وتوجه من حلب إلى ماردين في جمادى الأولى من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ليجمع من التركمان من يعود به إلى بلد حلب ، وكانت حلب ضعيفة عن مقامه فيها .

فخرج الفرنج إلى بلد المعرة فسبوا جماعة وأدركهم جماعة من الترك فرجعوا ، ثم خرج بغدوين من أنطاكية في عسكره ونزل على زور غربي البارة وهو حصن كان لابن منقذ وسلمه إليهم ، ولما جرت الوقعة الأولى على البلاد عاد وأخذه فقاتله بغدوين وأخذه في جمادى الأولى وأطلق من كان فيه ورحل إلى كفر دوما فأخذ حصنها بالسيف وقتل جميع من كان فيه ووصل إلى كفرطاب وقد أحرق ابن منقذ حصنها وأخذ رجاله منه خوفاً منهم ، فرمموه ورتبوا رجالهم فيه وساروا إلى سرمين ومعرة مصرين فتسلموها بالأمان ، ثم نزلوا زردنا ورحلوا عنها إلى أنطاكية ومع هذا فغارات عسكر حلب متواصلة على ما يقرب منهم وتعود بالظفر والغنيمة ، ووصل جوسلين إلى بغدوين خاله وقت أخذه سرمين فأقطعه الرها وتل باشر وسيره إليها فأسرى إلى وادي بطنان دفعتين وإلى ما يلي الفرات من جهة الشام وقتل وسبى ما يقارب ألف نفس ، وأغار جوسلين على منبج والنقرة وأعمال حلب الشرقية وأخذ كل ما وجده من دواب وأسر رجالاً ونساء وأسرى إلى الراوندان يتبع طائفة من التركمان كانت قطعت الفرات فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة .

سنة ٥١٤

قال ابن الأثير : في هذه السنة سار إيلغازي إلى الفرنج وكان قد جمع لهم جمعاً ، فالتقوا بموضع اسمه ذات البقل من أعمال حلب ، فاقتتلوا واشتد القتال ، وكان الظفر له ،

ثم اجتمع إيلغازي وأتابك طغتكين صاحب دمشق وحصروا الفرنج في معرة مصرين يوماً وليلة ، ثم أشار أتابك طغتكين بالإفراج عنهم كيلا يحملهم الخوف على أن يستقتلوا ويخرجوا إلى المسلمين ، فربما ظفروا ، وكان أكثر خوفه من دبر خيل التركمان وجودة خيل الفرنج لأنه كان يجمع التركمان للطمع فيحضر أحدهم ومعه جراب فيه دقيق وشاة ويعد الساعات لغنيمة يتعجلها ويعود ، فإذا طال مقامهم تفرقوا ولم يكن له من الأموال ما يفرقها فيهم .

وفيها أغار جوسلين الفرنجي صاحب الرها على جيوش الغرب والتركمان وكانوا نازلين بصفين الفرات وغنم من أموالهم وخيلهم ومواشيهم شيئاً كثيراً ، ولما عاد خرب بزاعة .

زيادة بيان لهذه الحوادث :

قال ابن العديم : وفي صفر من سنة أربع عشرة وخمسمائة وقعت مشاحنة بين والي الأثارب بلاق بن إسحق صاحب نجم الدين إيلغازي وبين الفرنج ، فأسرى ومعه جماعة من عسكر حلب إلى أنطاكية فلقيهم عسكر أنطاكية وعاد فتبعه الفرنج والتقوا ما بين ترمانين وتل أغدي من فرضة ليلون ، ووصل في هذه السنة إيلغازي بجمع كثير من التركمان وقطع الفرات في الخامس والعشرين من صفر وتوجه إلى تل باشر وأقام أياماً ولم يقاتلهم ، ورحل إلى عزاز يريد أخذها ولم يمكن أحداً من التركمان من تشعيث ضياعها ، ورحل إلى أنطاكية وأقام عليها يوماً واحداً وأقام في أعمال الروج أياماً يسيرة ، ثم خرج إلى قنسرين فتشوشت قلوب التركمان لأنهم أملوا من الغنائم مثل السنة الخالية ولم يقاتل بهم حصناً ولا غنموا شيئاً ، وباع الأسرى الذين أسرهم في الوقعة الأولى فعادوا إلى بلادهم وبالغوا في التشفي من المسلمين والقتل والسبي . وجرى من نجم الدين إساءة إلى بعض التركمان على شيء أنكره عليهم فبالغ في هوانهم وحلق لحى بعضهم وقطع أعصابهم فتفرق عسكره وبقي نفر يسير متفرقين في أعمال حلب ، فطمع الفرنج وخرجوا إلى دانيث فوصل طغتكين وعسكر دمشق واجتمعوا مع إيلغازي في عسكر يقاوم الفرنج ، فساروا إلى الفرنج وهم في ألف فارس وراجل كثير ، فدار الترك حولهم فلم يخرج منهم أحد وكرهوا أن يعودوا على أعقابهم فتكون هزيمة ، فساروا نحو معرة مصرين لا ينفرد منهم فارس ولا راجل وأشرف الترك على أخذهم ومن خرج منهم قتل ومن وقعت دابته تركها وأخذت ولا يقدرون على الماء وهم على حالة الهلاك وإيلغازي

وطغتكين يردون الناس عنهم بالعصا ، فنزلوا بقرب معرة مصرين وعاد الترك عنهم إلى حلب وعادوا إلى أنطاكية وصالحهم إيلغازي إلى آخر سنة أربع عشرة على أن لهم المعرة وكفر طاب والجبل والبارة وضياعاً من جبل السماق برسم هاب وضياعاً من ليلون برسم تل أغدي وضياعاً من بلد عزاد برسم عزاز .

وسار نجم الدين إيلغازي إلى ماردين ليجمع العساكر ، وهدم إيلغازي زردنا في شهر ربيع الأول ، وكان أهل حلب قد شكوا إليه تجديد رسوم جددت عليهم في أيام رضوان لم يجر بها عادة في دولة العرب ولا دولة المصريين ولا في أيام آقسنقر ، وأمر بكشف مقدارها فأخبر أنها مبلغ اثني عشر ألف دينار في كل سنة ، فرسم بحذفها ووقّع لهم بذلك وكتب لوحاً وسمره على باب الجامع وذلك في هذه السنة .

وخرج الفرنج فقبضوا على الفلاحين الذين تحت أيديهم في هذه الأعمال من المسلمين وعاقبوهم وصادروهم وأخذوا منهم من الأموال والغلات ما تقووا به ، وكانت الضياع التي في أيدي المسلمين قد عمرت واطمأنوا بالصلح فبدر جوسلين وخرج فأغار على النقرة والأحص واحتج بأنه أسر له أسيراً وإلى منبج وأنه كاتب في ذلك فلم ينصف وذلك في شوال ، وقتل وسبى وأحرق كل ما في النقرة والأحص ونزل الوادي وعاث فيه ، ثم سار إلى تل باشر ، ثم عاد وحشد وخرج وعمل كفعله الأول وأخذ في غارته الأولى المشايخ والعجايز والضعفاء فنزع عنهم ثيابهم وتركهم في البرد عراة فهلكوا بأجمعهم ، فأنفذ والي حلب إلى بغدوين في ذلك وقال : إن نجم الدين لم يترك هذه البلاد خالية من العساكر إلا ثقة بالصلح ، فقال : مالي على جوسلين يد . وتتابعت من جوسلين غارات متعددة ، ثم خرج الفرنج من أنطاكية عقيب ذلك وأغاروا على بلد شيزر وأخذوا ما لا يحصى وأسروا جمعاً وطلبوا المقاطعة التي جرت عادتهم قبل الوقعة بأخذها فبذل لهم ابن منقذ ذلك على أن يردوا ما أخذوه فلم يجيبوا إلى ذلك فحمل إليهم مالاً وصالحهم إلى آخر السنة .

وهرب ملك العرب دبيس بن صدقة الأسدي من المسترشد والسلطان محمود فوصل إلى قلعة جعبر فأكرمه نجم الدولة مالك وأضافه ، ثم سار إلى إيلغازي إلى ماردين وتزوج ابنته فاشتد به وأجاره ووصل معه الأموال العظيمة والنعمة الوافرة وحمل إيلغازي ما يفوت الإحصاء ، فاشتغل بدبيس عن العبور إلى الشام فخرب بلد حلب واستولى الفرنج

على معظمه وأغار جوسلين إلى سفين وسبى العرب والتركمان ونزل بزاعة وقاتلها وأحرق بعض جدارها وصونع على شيء ودخل بلده .

سنة ٥١٥
هجوم الفرنج على الأثارب وإغارتهم على حلب أيام سليمان بن إيلغازي وعصيان سليمان على أبيه واستنابته ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق على حلب

قال ابن العديم : في صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة هجم الفرنج على الأثارب وقتلوا جمعاً وأحرقوها وأسروا من لم يعتصم بالقلعة، ثم إنهم في ربيع الآخر من السنة نزلوا نوار وزحفوا إلى الأثارب ثانيةً وأحرقوا الدور والغلة ، وسار بغدوين وأغار على حلب وأخذ الناس والدواب من حاضر حلب ومن الفنادق وأخذ ما يجل قدره من الماشية وأسر نحواً من خمسين أسيراً ، وصاح الصايح فخرج نفر يسير من العسكر فظفروا بالفرنج وخلصوا المواشي وعاد الفرنج إلى أعمالهم ، وكان النائب بحلب شمس الدولة سليمان بن نجم الدين إيلغازي ، وكان إيلغازي قد ولى رياسة حلب في سنة أربع عشرة في رجب مكي بن قرناص الحموي وجعله بين يديه ، فكتب إلى ولده ونوابه يأمرهم بصلح الفرنج على ما يريدون فصالحهم على سرمين والجزر وليلون وأعمال الشمال على أنها للفرنج وما حول حلب للفرنج منه النصف حتى إنهم ناصفوهم في رحا العربية وعلى أن يهدم تل هراق بحيث لا يبقى للفئتين فيه حكم ، وطلبوا الأثارب فأجاب إيلغازي إلى ذلك فامتنع من كان فيها من التسليم فبقيت في أيدي المسلمين ، وكان الذي تولى الصلح جوسلين وجفري وكان بغدوين في القدس ، فلما وصل رضي بذلك وشرع في عمارة دير خراب قديم القرب من سرمدا وحصنه ثم أطلقه لصاحب الأثارب (سير ألان ذمبسخن) وأمر إيلغازي ولده بإخراب قلعة الشريف المجددة بحلب وإخراج من كان فيها من جند رضوان فأخرجهم شمس الدولة ابن قرناص بحلب بعذر الإغارة على أعمال الفرنج وأغلقت أبواب حلب في وجوههم وتولى الرئيس مكي بن قرناص خرابها في جمادى الآخرة .

واستنجد الملك طغرل إيلغازي بن أرتق على الكرج وملكهم داود ، فسار إليه في عالم عظيم ومعه دبيس بن صدقة (من ملوك سواد العراق) فكسرهم المسلمون ودخلوا وراءهم في الدرب فكر الكرج عليهم في الدرب فانهزم المسلمون وتبعهم الكرج قتلاً وأسراً ، ونهب لدبيس ما مقداره ثلثمائة ألف دينار ووصل مع نجم الدين إيلغازي إلى ماردين سالماً .

وأنفذ إيلغازي إلى ابنه سليمان بحلب يلتمس منه أشياء فقبحّ ذلك عنده وقيل له أشياء أوجبت عصيانه على والده فعصى ، وأخرج الملوك سلطان شاه وإبراهيم وغيرهما من حلب فمضوا إلى قلعة جعبر فمد يده في مصادرة أهل حلب وظلمهم والفساد ، وقيل إن دبيس بن صدقة لما سار مع إيلغازي إلى بلاد الكرج سأل إيلغازي في الطريق أن يهب له حلب وأن يحمل إليه دبيس مائة ألف دينار يجمع بها التركمان ويعاضده حتى يفتح أنطاكية ، فأجابه إيلغازي إلى ذلك وأخذ يده على ذلك ، فلما وقعت كسرة الكرج بدا له من ذلك فأنفذ إلى ولده سليمان وكان خفيفاً وقال له : أظهر أنك قد عضيت عليّ حتى يبطل ما بيني وبين دبيس ، فحمله الجهل على أن عصى ونابذ أباه ، ووافقه مكي بن قرناص والحاجب ناصر وهو شحنة حلب وغيرها ، وقبض سليمان حجاب أبيه فصفعهم وحلق لحاهم ومد يده إلى أموال الناس وظلمهم فطمع الفرنج وقربهم سليمان فنزلوا زردنا وعموها لابن صاحبها كليام بن الأبرص ، ثم سار الفرنج إلى باب حلب فكبسوا في طريقهم حاضر طي وغيرها فخرج إليهم الحاجب ناصر والعسكر فكسروهم وقتلوا منهم جماعة .

وخرج بغدوين في جمادى الآخرة فنازل خناصرة وأخذها وحمل باب حصنها إلى أنطاكية ونزل برج سينا ففعل به كذلك وكذلك فعل بغيرهما من حصون النقرة والأحص وسبى وأحرق ونهب وعاد فنزل صلدع على نهر قويق ، وخرج إليه أترز بن ترك طالباً منه الصلح مع سليمان فقال : على شرط أن يعطيني سليمان الأثارب حتى أحفظه وأنا أذب عنه وأقاتل دونه ، فقال له : ما يجوز نسلم ثغراً من ثغور حلب في بدر مملكته بل التمس غير هذا مما يمكن لنوافقك عليه ، فقال له : الأثارب لا يقدر صاحب حلب على حفظه فإني قد عمرت عليها الحصون بما دارت وأنا أعلمكم أنها اليوم تشبه فرساً لفارس قد أعطيت يداها وللفارس هري شعير يعلفها رجاء أن تبرأ ويكسب عليها فنفد هري الشعير وعطبت

الفرس وفاته الكسب . ثم رحل نحوها فحصرها ثلاثة أيام واتصل به ما أوجب رحيله إلى أنطاكية .

ولما بلغ إيلغازي إصرار ولده على العصيان ضاقت عليه الأرض وأعمل في الوصول إليه وأخذ حلب منه ، فكاتبه أقوام وعرفوه أن ما بحلب ما يدفعه عنها ، فسار حتى وصل إلى قلعة جعبر فضعفت نفس ابنه سليمان عن العصيان على أبيه : فأنفذ إليه من استحلفه على الصفح عنه والإحسان إليه وإلى من حسن له العصيان مثل ابن قرناص وناصر الحاجب وأكد الأيمان على ذلك ، ودخل حلب في أول شهر رمضان فخرج الناس للقائه ودخل إلى القصر وأحسن إلى أهل حلب وسامحهم بشيء من المكوس وصرف الشحنة الذي كان يؤذي الناس في البلد وقبض على الرئيس مكي بن قرناص وعلى أهله وشق لسانه وكحله وأخذ ما وجد له وسلم أخاه إلى من يعذبه واستصفى ماله ، وكحل ناصر الحاجب فعنى به من تولى أمره فسملت إحدى عينيه ، وعوقب طاهر بن الزاير وكان من أعوان الرئيس مكي ، وأعاد الملوك أولاد رضوان من قلعة جعبر إلى حلب ، وخطب بنت الملك رضوان وتزوج بها ودخل بها بحلب وولى رياسة حلب سلمان بن عبد الرزاق العجلاني البالسي وولى ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار نيابته في حلب ، وصالح الفرنج مدة كاملة وأعطاهم من الضياع ما كان بأيديهم أيام مملكتهم الأثارب وزردنا .

زيادة بيان لما تقدم :

قال ابن الأثير : في هذه السنة عصى سليمان بن إيلغازي بن أرتق على أبيه بحلب وقد جاوز عمره عشرين سنة ، حمله على ذلك جماعة ممن عنده ، فسمع والده الخبر فسار مجداً لوقته فلم يشعر به سليمان حتى هجم عليه فخرج إليه معتذراً فأمسك عنه وقبض على من كان أشار إليه بذلك منهم أمير كان قد التقطه أرتق والد إيلغازي ورباه اسمه ناصر ، فقلع عينيه وقطع لسانه ، ومنهم إنسان من أهل حماة من بيت قرناص كان قد قدمه إيلغازي على أهل حلب وجعل إليه الرياسة فجازاه بذلك وقطع يديه ورجليه وسمل عينيه فمات ، وأحضر ولده وهو سكران فأراد قتله فمنعه رقة الوالد فاستبقاه فهرب إلى دمشق ، فأرسل طغتكين يشفع فيه فلم يجبه إلى ذلك ، واستناب بحلب سليمان ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق -ولقبه بدر الدولة وعاد إلى ماردين .

ذكر حصر بلك بن بهرام الرها وأسر صاحبها

قال ابن الأثير : في هذه السنة سار بلك بن بهرام ولد أخي إيلغازي إلى مدينة الرها فحصرها وبها الفرنج ، وبقي على حصرها مدة فلم يظفر بها ، فرحل عنها فجاءه إنسان تركماني وأعلمه أن جوسلين صاحب الرها وسروج قد جمع من عنده من الفرنج وهو عازم على كبسه ، وكان قد تفرق عن بلك أصحابه وبقي في أربعمائة فارس فوقف مستعداً لقتالهم ، وأقبل الفرنج فمن لطف الله تعالى بالمسلمين أن الفرنج وصلوا إلى أرض قد نضب عنها الماء فصارت وحلاً غاصت خيولهم فيه فلم تتمكن مع ثقل السلاح والفرسان من الإسراع والجري فرماهم أصحاب بلك بالنشاب فلم يفلت منهم أحد ، وأسر جوسلين وجعل في جلد جمل وخيط عليه وطلب منه أن يسلم الرها فلم يفعل وبذل في فداء نفسه أموالاً جزيلة وأسرى كثيرة فلم يجبه إلى ذلك ، وحمله إلى قلعة خرتبرت فسجنه بها وأسر معه ابن خالته واسمه كليام وكان من شياطين الناس ، وأسر أيضاً جماعة من فرسانه المشهورين فسجنهم معه اهـ .

سنة ٥١٦

محاصرة إيلغازي لرزدنا ونوار وعودته إلى حلب لمرض نزل به وتوجهه إلى ميافارقين ووفاته بها

قال ابن العديم : وفي المحرم من سنة ست عشرة وخمسمائة سار إيلغازي إلى الشرق ليجمع العساكر فمات وزيره بحلب أبو الفضل بن الموصل في صفر فولي الوزارة أبو الرجاء ابن سرطان . وعبر إيلغازي وبلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر الفرات وكان بلك غازي ابن أخيه بهرام بن أرتق واستدعاه من أعمال الروم وبيده عدة قلاع بالقرب من ملطية وصحبتهما عدة من التركمان دون ما جرت عادته باستصحابه ، فعزل أبا الرجال بن السرطان عن الوزارة وقبض عليه لسعاية سعى بها عليه ، ونزل إيلغازي زردنا ونزل عليها في العشرين من جمادى الأولى وحصرها أياماً وأخذ حوشها ، وكان صاحبها قد سمع حين عبر إيلغازي الفرات أنه ينزلها فجمع أصحابه واستحلفهم على المصابرة من وقت نزولهم عليها مدة خمسة

عشر يوماً وحلف هو لهم على أن ينجدهم ومضى على أن يستجيش فإن جازت هذه المدة ولم يصلهم فإنه يبتاع دماءهم بكل ما يملكه ، وقال لهم : والله لكم علي من الشاهدين لئن لم يخلصكم إلا إسلامي إن قبله أسلمت على يديه لخلاصكم ، وخرج حتى وصل إلى بغدوين صاحب أنطاكية وهو بأكناف طرابلس في حكومة بينه وبين صاحبها فأخبره بعبور إيلغازي وبما بلغه من قصده زردنا ، فقال : مذ حلفنا له وحلف لنا ما نكثنا وحفظنا بلده في غيبته ونحن شيوخ وما أظنه يغدر بل ربما قصد طرابلس أو قصدني في القدس لأنني ما صالحته إلا على أنطاكية وأعمالها ، بل يجب أن تعود إلى أفامية وكفرطاب وتكشف ما يتجدد ، فعاد وكشف الأمر وسير إلى بغدوين فأعلمه بنزوله على زردنا فصالح صاحب طرابلس وشرط عليه الوصول إليه ، ووصل أنطاكية واستدعى جوسلين ، ونصب المسلمون مجانيق أربعة على زردنا وأخذوا الفصيل الأول فوصل الفرنج بعد أربعة عشر يوماً من منازلة المسلمين لها فنزلوا تحت الدير ، وبلغ الخبر إيلغازي فنزل زردنا وتوجه نحوهم فنزل نوار وطلب أن يخرج الفرنج من الضيق إلى السعة فلم يخرجوا فرحل إلى تل السلطان وأتابك طغتكين في صحبته ، فخرج الفرنج فنزلوا على نوار وهجموا ربض الأثارب وأحرقوا البيدر والجدار ، ودخل صاحبها يوسف بن ميرخان قلعتها ونزلوا أبين ورحلوا منها ونزلوا دانيث وأقاموا عليها فلم يصلهم أحد ، فعادوا إلى بلادهم فعاد إيلغازي فنزل زردنا وهجم الحوش الثاني وقتل جماعة من الفرنج ، فعاد الفرنج ونزلوا تحت الدير فرحل إيلغازي إلى نوار وأقام ثلاثة أيام يزاحف الفرنج وهم لا يخرجون إلى الصحراء ، فاتفق أن أكل إيلغازي لحم قديد كثيراً وجوزاً أخضر وبطيخاً وفواكه فانتفخ جوفه وضاق نفسه فاشتد به الأمر فرحل إلى حلب وتزايد به المرض ، فسار طغتكين إلى دمشق وبلك غازي إلى بلاده ، ورحل إيلغازي للتداوي بحلب فنزل القصر ولم يخلص من علته ، وخرج عسكر حلب في ألف فارس إلى نبّل من عمل أعزاز ومعهم أمراء منهم دولب بن قتلمش فنهبوا وعادوا فوقع عليهم عند حربل كليام في أربعين فارساً فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة .

وفي شهر رجب من هذه السنة ظفر بلك غازي بجوسلين وابن خالته قلران بالقرب من سروج فأسرهما وأسر ابن أخت طنكريد ، وقد كان أسره في وقعة ليلون واشترى نفسه بألف دينار وأسر ستين فارساً وطلب من جوسلين وقلران أن يسلما ما بأيديهما من المعاقل

فلم يفعلا وقالا : نحن والبلاد كالجمال والحدج متى عقر بعير حول رحله إلى آخر والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا ، فأخذهما ومضى إلى بلده .

ووصل الفرنج بعد ذلك إلى تل باشر في شعبان وكبسوا تل قباسين فخرج النائب ببزاعة مع أهلها فالتقوا وانهزم المسلمون وقتل منهم تسعون رجلاً .

وأما إيلغازي فأقام أياماً وصلح من مرضه وسار إلى ماردين ثم خرج منها من ميافارقين ، فاشتد مرضه في الطريق وتوفي بالقرب من ميافارقين بقرية يقال لها عجولين في أول شهر رمضان من سنة ست عشرة وخمسمائة .

وملك ابنه سليمان ميافارقين وابنه تمرتاش ماردين وابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق حلب .

ولما سمع صاحب أنطاكية بوفاته حشد عسكره وجماعة من الأرمن ونزل وادي بزاعة وعاث فيه وأفسد ما قدر عليه ، وحمل إليه أهل الباب مالاً وخدموه فرحل إلى بالس وقاتلها بالمنجنيقات ، وقرروا على بالس مع ابن مالك مالاً يحمل إليه فأسرف في الطلب ، وكان ببالس جماعة من التركمان ومن خيل حلب فخرج أهلها والخيل إليهم واقتتلوا فقتل من الفرنج جماعة من المقدمين وظفر المسلمون أحسن ظفر ، فرحل بغدوين إلى الوادي وقد وصلهم ابن إيلغازي فحصر البيرة وتسلم حصنها على أن يؤمن أهلها أنفسهم فأخذهم وسار بهم إلى أنطاكية .

وتتابعت غارات الفرنج حول حلب إلى آخر سنة ست عشرة وستمائة وولي بدر الدولة سليمان الوزارة بحلب أبا الرجاء سعد الله بن هبة الله بن السرطان في صفر (أي في سنة ٥١٧) بعدما قبض عليه إيلغازي كما تقدم ذكره .

أول مدرسة بنيت في حلب

قال ابن الأثير : في هذه السنة بنيت مدرسة بحلب لأصحاب الشافعي اهـ .

قال في الدر المنتخب المنسوب لابن الشحنة نقلاً عن ابن شداد في الكلام على المدارس :

المدرسة الزجّاجية :

أنشأها بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب ، وهي أول مدرسة بنيت بها ، ابتدأ في عمارتها في سنة عشرة وخمسمائة على حائطها مكتوب سنة سبعة عشرة ، ولما أراد بناءها لم يمكنه الحلبيون إذ كان الغالب عليهم حينئذ التشيع [قلت] [القائل ابن الشحنة] : أخبرني شيخي أبو الوفا رحمه الله تعالى غير مرة أن أهل حلب كانوا كلهم سنية وكلهم حنفية ، حتى قدم شخص إلى حلب فصار فيهم شيعية وصار فيهم شافعية ، فقلت يا سيدي من هو ؟ فقال : الشريف أبو إبراهيم الممدوح (ممدوح أبي العلاء المعري) قال : فكان كلما بني فيها شيء نهاراً أخربوه ليلاً ، إلى أن أعياه ذلك فأحضر الشريف زهرة علي بن أبي إبراهيم الإسحاقي الحسيني وهو الشريف أبو إبراهيم الذي أشار شيخنا عنه (قال) : والتمس منه أن يباشر بناءها لينكف العامة عن هدم ما يبني ، فباشر الشريف البناء ملازماً له حتى فرغ منها ، وكان هذا الشريف من أكابر الأشراف وذوي الرأي والأصالة والوجاهة مقدماً في بلده يرجع الناس إلى أمره ونهيه ، وكان معظّم القدر عند الملوك ، ولما توجه عماد الدين زنكي إلى الموصل في سنة تسع وثلاثين وخمس مائة أخذه معه فمات بالموصل .

وقال في الزبد والضرب : وفي سنة ست عشرة وخمسمائة ولى بدر الدولة سلمان الوزارة بحلب أبا الرجاء سعد الله بن هبة الله بن النسرطان وجدد (الصحيح أنشأ كما تقدم) المدرسة التي بالزجّاجين بحلب المعروفة ببني العجمي بإشارة أبي طالب بن العجمي ، وذكر لي أنه عزم على أن يقفها على الفرق الأربع ، ونقل آلتها من كنيسة دائرة كانت بالطحّانين بحلب اهـ . قال ابن الشحنة : وهذه المدرسة هي الآن خراب داثرة وقد عمر بها دور للسكنى اهـ .

أقول : أخبرني بعض أهل المعرفة من أهل محلة الجلّوم أن مكانها الداران اللتان هما تجاه الدار التابعة لوقف الجلبي التي فيها الحوض المعد للسباحة في الزقاق المعروف بزقاق أبي درجين في المحلة المذكورة .

سنة ٥١٧

ذكر ملك الفرنج حصن الأثارب

قال ابن الأثير : في هذه السنة في صفر ملك الفرنج حصن الأثارب من أعمال حلب ، وسبب ذلك أنهم كانوا قد أكثروا قصد حلب وأعمالها بالإغارة والتخريب والتحريق ، وكان بحلب حينئذ بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق وهو صاحبها ، ولم يكن له بالفرنج قوة وخافهم فهادنهم على أن يسلم الأثارب ويكفوا عن بلاده ، فأجابوه إلى ذلك وتسلموا الحصن وتمت الهدنة بينهم واستقام أمر الرعية بحلب وجلبت إليهم الأقوات وغيرها ، ولم تزل الأثارب بأيدي الفرنج إلى أن ملكها أتابك زنكي بن آقسنقر على ما نذكره إن شاء الله تعالى اهـ .

قال ابن العديم : وفي العاشر من شهر صفر من سنة سبع عشرة وخمسمائة استقر الصلح بين بدر الدولة صاحب حلب وبين بغدوين صاحب أنطاكية على أن يسلم بدر الدولة إليه قلعة الأثارب ، فسلموها وصارت لصاحبها أولاً (سير ألان دمسخن) وبقيت في يده إلى أن مات ، وكانت في يد الحاجب جبريل بن يسرق فعوضه بدر الدولة عنها شحنكية حلب .

استيلاء بلك بن بهرام على حلب ورحيله عنها ومحاصرة جوسلين إلى حلب والفظايع التي أجراها وقت ذلك

قال ابن العديم : وفي يوم الأربعاء تاسع عشر صفر سار بغدوين صاحب أنطاكية لقتال نور الدولة بلك بن بهرام بن أرتق ، وكان محاصراً قلعة كركر ، فالتقيا على موضع اسمه أدرش بالقرب من قنطرة سبخة ، فكسره نور الدولة بلك وأسره وقتل معظم عسكره ومقدميه ونهب وفتح الكركر بعد جمعة ، وكان في دون عدة الفرنج ، وجعل بغدوين في خرتبرت مع جوسلين وقلران ، ثم إن نور الدولة بلك عبر الفرات ونزل على حلب[1] وضايقها ونزل من

(١) قال ابن الأثير : وسبب مسيره إليها أنه بلغه أن صاحبها بدر الدولة قد سلم قلعة الأثارب إلى الفرنج فعظم ذلك عليه وعلم عجزه عن حفظ بلاده فقوي طمعه في ملكها ، فسار إليها ونازلها في ربيع الأول وضايقها ومنع الميرة عنها وأحرق زروعها ، فسلم إليه ابن عمه البلد والقلعة بالأمان غرة جمادى الأولى من السنة وتزوج ابنة الملك رضوان وبقي مالكاً لها إلى أن قتل على ما نذكره .

قبليها ، ثم انتقل إلى بانقوسة وأقام أياماً ورحل إلى أرض النيرب وجبرين وأمر بحرق الغلة وأخذ الدواب ، ومضى قطعة من عسكره إلى حذادين فأخذ أحدهم عنزاً فرماه بعض فلاحي الضيعة بسهم فقتله ، فحصرت مغارتها وأخذت بعد أن امتنع أهلها من التسليم فدخنوا على المغارة فاختنق بها مائة وخمسون ، وخنق في مغارة تل عبود وتعجين جماعة وسبوا نساء عُفر تنور وأولادها وباعوا بعضهم واستعبدوا بعضاً ، وأخذ لأهل حلب جشير خيل ثلثمائة رأس وكان حريق الزرع من رهقات بلك وكان سبباً للغلاء العظيم .

وفي صباح يوم الثلثاء غرة جمادى الأولى من سنة سبع عشرة وخمسمائة تسلم مدينة حلب سلمها إليه مقلد بن سقويق بالأمان ومفرج بن الفضل ونودي بشعار بلك من عدة جهات ، وكسر باب أنطاكية وأخربت ثلمة من غربي باب اليهود . وفي يوم الجمعة رابع الشهر تسلم القلعة وجلس بها بعدما نزل بدر الدولة فيها بيوم وقرر حالها وأخرج سلطان شاه بن رضوان وسيره إلى حران ، وكان قد فتحها في شهر ربيع الآخر خوفاً منه ، ثم إنه سار إلى البارة وهجمها وأسر الأسقف الذي بها وقيده ووكل به ، ورحل إلى كفر طاب فغفل الموكل به فهرب إلى كفر طاب فعزم على قتال حصنها واسترجاع الأسقف في يوم الثلثاء الثاني عشر من جمادى الآخرة ، فوصله من أخبره أن بغدوين الرونس وجوسلين وقلران وابن أخت طنكريد وابن أخت بغدوين وغيرهم من الأسرى الذين كانوا مسجونين بجب خرتبرت عاملوا قوماً من أهل حصن خرتبرت فأطلقوهم ووثبوا على الحصن فملكوه وأخذوا كل ما كان لنوز الدولة فيه وكان جملة عظيمة فقال جوسلين : كنا قد أشرفنا على الهلاك والآن قد خلصنا والصواب أن نمضي ونحمل ما قدرنا عليه ، فما سمحت نفس بغدوين بترك الحصن والخروج منه ، فاتفق رأيهم على خروج جوسلين وحلفوه على أنه لا يغير ثيابه ولا يأكل لحماً ولا يشرب إلا وقت القربان إلى أن يجمع الجموع الفرنجية ويصل بهم إلى خرتبرت ويخلصهم . وأما بلك فإنه سار حتى نزل على خرتبرت ففتحه بالسيف في ثالث وعشرين من رجب وقتل كل من كان به من أصحابه الذين كفروا نعمته ومن كان فيه من الفرنج ، ولم يستبق سوى بغدوين الملك وقلران وابن أخت بغدوين وسيرهم إلى حران وحبسهم بها .

وأما جوسلين فمضى إلى القدس واستنجد بالفرنج ، ووصلوا إلى تل باشر فسمعوا خبر فتح خرتبرت بالسيف ، فسار إلى الوادي وقاتل بزاعة وأحرق بعض جدارها ثم أحرق

الباب وقطع شجره وأحرق ما سواه من الوادي ، ثم نزل حيلان ثم حلب من ناحية مشهد الجف من الشمال وخرب المشاهد والبساتين وكسر الناس عند مشهد طرود بالقرب من بساتين البقرة ، وقتل وسبى مقدار عشرين نفراً ، ثم رحل ونزل الجانب الغربي في البقعة السوداء وخرب مشاهد الجانب القبلي وبساتينه ونبش الضريح الذي بمشهد الدّكة فلم يجد فيه شيئاً ، فألقى فيه النار . والحلبيون في كل يوم يقاتلونه أشد قتال ويخسر معهم في كل حركة .

ثم رحل يوم الثلثاء مستهل شهر رمضان ونزل السعدي وقطع شجره وافترقوا منه وسار كل إلى بلده، فأمر القاضي ابن الخشاب بموافقة من مقدمي حلب أن يهدم محاريب الكنائس التي للنصارى بحلب وأن يعمل لها محاريب إلى جهة القبلة وتغير أبوابها وتتخذ مساجد ، ففعل ذلك بكنيستهم العظمى وسمي مسجد السرّاجين وهو مسجد الحلاويين الآن وكنيسة الحدّادين وهي مدرسة الحدّادين الآن وكنيسة بدرب الحراف وهي مكان مدرسة ابن المقدم ، ولم يترك لهم بحلب سوى كنيستين لا غير وهي الآن باقية .

هذا كله ونور الدولة بلك غائب عن مدينة حلب في بلاده .

ثم إن جوسلين خرج في تاسع عشر رمضان إلى الوادي والنقرة والأحص وأخذ ما يزيد على خمسمائة فرس كانت في الغريب حتى لم يبق بحلب من الخيالة خمسون فارساً لهم خيل ، وأخذ من الدواب والبقر والغنم والجمال مالا يحصى، وقتل وسبى وخرب ما أمكنه وعاد إلى تل باشر .

وخرج سير ألان في عسكر أنطاكية من الأثارب حتى وصل الحانوتة وحلفا وأخذ ما كان بها من خيل حلب في الغريب في الجانب القبلي وذلك مقدار ثلثمائة فرس ، وأخذ قافلة كانت واصلة من شيزر بغلة، ثم عبر جوسلين من الفرات إلى شبختان وأغار على تركمان وأكراد فأخذ من الغنم والخيل ما يزيد على عشرة آلاف وسبى وقتل ، ومن سلم له فرس من عسكر حلب يخرجون مع الحرامية والأوباش يقطعون الغارات على بلادهم ويحضرون الأسارى مرة بعد أخرى .

ثم أغار جوسلين على الجبّول وما حولها وأخذ دواب كثيرة وتوجه إلى دير حافر فخنق أهلها بالدخان في المغاير وفتح المقابر وسلب الموتى أكفانهم .

وفي يوم الأربعا سادس وعشرين من ذي القعدة عبر بلك إلى الشام وقبض على نائب بهرام داعي الباطنية بحلب وأمر بإخراجهم من حلب ، فباعوا أموالهم ورحالهم وخرجوا منها .

ثم إن الأمير نور الدين بلك جمع العساكر. ووصله أتابك طغتكين بعسكر دمشق وعسكر آق سنقر البرسقي وعبروا حتى نزلوا على عزاز وضايقوها بالحصار وأخذوا عليها نقوباً إلى أن سهل أمرها ، فتجمع الفرنج وقصدوا ترحيل المسلمين عنها ، فالتقى الجيشان وهزم المسلمون وتفرقوا بعد قتل من قتل وأسر من أسر وعمر بلك حصن الناعورة بالنقرة وحصن إيلغارة على شط الفرات وتزوج بالخاتون فرخنده خاتون بنت رضوان في ثالث وعشرين ذي الحجة (من سنة سبع عشرة وخمسمائة)★ .

سنة ٥١٨

ذكر محاصرة بلك منبج وقتله واستيلاء تمرتاش ثم آقسنقر البرسقي على حلب

قال ابن العديم : وفي المحرم من سنة ثمان عشرة وخمسمائة تنكر بلك على رئيس حلب وكان رجلاً من أهل حران اسمه محمد بن سعدان ويعرف بابن سعدانة ، وكثر الأمن من الذعار وقطاع الطريق عند قدوم بلك حلب ، وأقام الهيبة العظيمة وتقدم بفتح أبواب حلب ليلاً ونهاراً وحسم مادة أرباب الفساد ، وقال للحارس : إن عدت سمعتك تصيح ضربت عنقك ، ونقل بغدوين ومن كان معه من حبس حران فحبسه في قلعة حلب .

وتوجه في شهر صفر فرقة من أصحابه الأتراك إلى ناحية عزاز فوقع بينهم وبين الفرنج وقعة عند مشحلا وظفر بهم الأتراك وقتلوا منهم أربعين رجلاً من الخيّالة والرجّالة وأخذوا سلاحهم ، ووصل الباقون عزاز وما فيهم إلا من جرح عدة جروح .

وانقطع المطر في كانون ونصف شباط ثم تدارك فأخصب الزرع واستغل الناس وكان بحلب غلاء شديد .

★ ما بين قوسين أثبتناه من زبدة الحلب .

وفي صفر من سنة ثمان عشرة وخمسمائة تنكر نور الدولة بلك على حسان بن كمشتكين صاحب منبج لشيء بلغه عنه فأنفذ قطعة من عسكره مع ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق وتقدم إليهم أن يمروا على منبج ويطلبوا حساناً أن يخرج معهم للإغارة على تل باشر ، فإذا خرج يقبضونه ، ففعلوا ذلك ودخلوا منبج وعصى عليهم الحصن ودخله عيسى أخوه ، وسُيِّر حسان فحبس في حصن بالو بعد أن عوقب وعرّي وسحب على الشوك فلم يسلمها أخوه .

وكتب عيسى إلى جوسلين : إن وصلتني وكشفت عني عسكر بلك سلمت إليك منبج . وقيل إنه نادى بشعار جوسلين بمنبج فمضى إلى بيت المقدس وطرابلس وجميع بلاد الفرنج وحشد ما يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل ووصل نحو منبج ليرحل بلك عن منبج ، فسار إليه بلك لما قرب من منبج والتقيا يوم الاثنين ثامن عشر شهر ربيع الأول واقتتل العسكران وانهزم الفرنج وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى آخر النهار ، وحمل فيهم بلك ذلك اليوم خمسين حملة يقتل فيهم ويخرج سالماً يضرب بالسيوف ويطعن بالرماح ولا يكلم ، وعاد إلى منبج فبات مصلياً مبتهلاً إلى الله تعالى لما جدده على يده من الظفر بالفرنج . وأصبح يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول فقتل كل أسير أسره في الوقعة ، ثم زحف نحو الحصن ليختار موضعاً ينصب فيه المنجنيق وعليه بيضة وبيده ترس ، وكان عزم على أن يستخلف ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي على حصار منبج ويطلع منجداً لأهل صور ، فإن الفرنج كانوا يضايقونها وفي تلك المضايقة أخذوها ، فبينا بلك قائماً يأمر وينهى إذ جاءه سهم من الحصن ، وقيل إنه كان من يد عيسى فوقع في ترقوته اليسرى فانتزعه وبصق عليه وقال : هذا قتل المسلمين كلهم ، ومات لوقته ، وقيل بقي ساعات وقضى نحبه رحمه الله وحمل إلى حلب ودفن بها قبلي مقام ابراهيم عليه السلام[1] .

---

(١) قال في المختار من الكواكب المضية : لما قتل بلك بن بهرام بن أرتق عند منبج كان معه تمرتاش بن إيلغازي فحمل بلك مقتولاً إلى حلب ودفن بها قبلي مقام إبراهيم الخليل عليه السلام وقبره عليه حجارة كبار مكتوب عليها بالكوفي قوله تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله الآية ﴾ وتاريخ وفاته في سنة ثمان عشرة وخمسمائة اهـ .

أقول : لم يزل قبلي المقام المذكور في وطأة من الأرض قبر عليه حجارة كبيرة وعليه كتابة بالخط الكوفي المسمى بالمزهر ، ويغلب على الظن أنه قبر بلك المذكور ، إلا أن ما كتب عليه هو آية الكرسي لا الآية المتقدمة ، وعن يمين المقام المذكور بين قبور آل راغب آغا كبير محرر عليه بالخط الكوفي المزهر آية الكرسي أيضاً ، إلا أن بعض الكتابة مطمور في الأرض ، والكتابة في هذين القبرين هو غاية في الحسن مثل الكتابة التي على منارة الجامع الكبير، ويصلح أن يعد هذان القبران من نفائس الآثار العربية القديمة وهما يمثلان ما كان عليه الخط الكوفي في ذلك العصر .

ووصل حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي إلى حلب يوم الأربعاء العشرين من شهر ربيع الأول ودخل القلعة ونصب علمه ونادى الناس بشعاره وسار في رجب سنة ثمان عشرة واستوزر أبا الرجاء بن السرطان ، وولى الرياسة بحلب فضايل بن صاعد ، وسير إلى حران فجعل منها سلطان شاه بن رضوان وكان بلك أسكنه بها فاعتقله في دار بقلعة ماردين ، وكان فيها طاقة فتدلى منها بحبل وهرب إلى دارا ثم رحل منها إلى حصن كيفا إلى داود بن سكمان .

وفي العشر الأواخر من ربيع الأول سار نايب جوسلين من الرها وأغار على ناحية شبختان ونهبها ، فسار إليه نايب تمرتاش عمر الخاص وكان نائبه وربيب أبيه إيلغازي وركب خلفه في ثلاثمائة فارس فلحقه على مرج أكساس فقاتله وهزمه وقتله وقتل أكثر من كان معه من الفرنج وعاد غانماً وأنفذ رؤوسهم وما غنم إلى تمرتاش إلى حلب ، وولاه تمرتاش شحنكية حلب ، وهو المدفون في القبة التي مقابل باب مشهد إبراهيم عليه السلام واسمه مكتوب على جهاتها الأربع ، وولى قلعة حلب رجلاً يقال له عبد الكريم .

وفي عشرة جمادى الأولى* من هذه السنة استقر الأمر بين الملك بغدوين صاحب أنطاكية وكان في سجن بلك بحلب وبين تمرتاش بن إيلغازي على تسليم الأثارب وزردنا والجزر وكفرطاب وعلى تسليم عزاز وثمانين ألف دينار ، وقدم منها عشرين ألف دينار وحلف على ذلك وعلى أن يخرج دبيساً بن صدقة من الناس وكان قد وصل دبيس منهزماً من المسترشد بعد أن كسره المسترشد وقتل خلقاً من عسكره فنزل بلاده وحمل ما قدر عليه من العين والعروض على ظهور المطايا ووفد على ابن سالم بن مالك بن بدران إلى قلعة دوسر واستجار به فأجاره وغاضب المسترشد والسلطان محمود في أمره ، وكاتب دبيس قوماً من أهل حلب وأنفذ لهم جملة دنانير وسامهم تسليمها إليه ، وكشف ذلك رئيسها فضايل بن صاعد بن بديع فأطلع على ذلك تمرتاش بن إيلغازي فأخذهم وعذبهم وشنق بعضهم وصادر بعضاً . وكان المتوسط في حديث بغدوين مع تمرتاش الأمير أبو العساكر سلطان بن منقذ ، وسيّر أولاده وأولاد أخوته رهناً عن بغدوين إلى حلب وفكت قيود بغدوين وأحضر إلى مجلس تمرتاش وتآكلا وتشاربا وخلع عليه قباء ملكياً وقلنسوة ذهب وخفافاً مزّاناً وأعيد عليه

* في زبدة الحلب : وفي غرة جمادى الأولى ...

الحصان الذي كان أخذه منه بلك يوم أسره ، فركب وسار إلى شيزر يوم الأربعاء رابع جمادى الأولى فبقي عند أبي العساكر حتى أحضر جماعة رهناً على الوفاء بما شرطه لتمرتاش ، وهم ابنته وابن جوسلين وغيرهما من أولاد الفرنج وعدتهم اثنا عشر نفراً ، وحمل العشرين ألف دينار التي عجلها ، وقبض صاحب شيزر الرهائن وأطلق بغدوين من سجن شيزر في يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب ، فخرج وغدر بتمرتاش وأنفذ إليه يقول : البطريك الذي لا يمكن خلافه سألني عما بذلت وما الذي استقر ، فحين سمع حديث عزاز وتسليم حصنها مني أبى وأمرني بالدفع عنها وقال : إن خطيتك تلزمني ولا أقدر على خلافه ، فترددت الرسائل بينهما فلم يستقر قاعدة ، وغالط دبيس جوسلين وبغدوين وصافاهم وصافوه بوساطة الأمير مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر ، واتفق دبيس والفرنج على قواعد تعاهدوا عليها . منها أن يكون حلب لدبيس والأموال والأرواح للفرنج مع مواضع من بلد حلب تكون للفرنج ، وتقدم دبيس إلى مرج دابق فخرج إليه حسام الدين تمرتاش فكسره .

وسار تمرتاش من حلب عندما علم بغدر الفرنج به إلى ماردين في الخامس والعشرين من شهر رجب ليستنجد بأخيه سليمان بن إيلغازي وجمع العساكر ، وبقي بنو منقذ رهائن بقلعة حلب عند تمرتاش وأولاد الفرنج رهائن عند أبي العساكر بن منقذ بشيزر ، والرسل مع هذا تتردد بين تمرتاش وبغدوين إلى أن عادت الرسل في ثامن عشر شعبان مخبرة بنقض الهدنة وبخروج بغدوين إلى أرتاح قاصداً النزول على حلب .

ورحل بغدوين من أرتاح حتى نزل على نهر قويق وأفسد كل ما كان عليه ، ثم رحل فنزل على باب حلب في يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان وهو السادس من تشرين الأول .

وخرج دبيس وجوسلين من تل باشر وقصدا ناحية الوادي وأفسدا القطن والدخن وسائر ما كان به وقوّم ذلك بمائة ألف دينار ، ورحلا ونزلا مع بغدوين على حلب ، ووصل إليهم الملك سلطان شاه بن رضوان ، ونزل بغدوين مقدم الفرنج من الجانب الغربي من حلب في الحلبة ، ونزل جوسلين على طريق عزاز وما يجاوره يمنة ويسرة ، ونزل دبيس وسلطان شاه بن رضوان مما يلي جوسلين من الشرق ، وفي صحبة دبيس عيسى بن سالم ابن مالك ، ونزل ياغيسيان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب بالس مما يلي دبيس من

الشرق ، وكانت عدة الخيم ثلاثمائة ، للفرنج مائتا خيمة وللمسلمين مائة خيمة ، وأقاموا على حلب يزاحفونها وقطعوا الشجر وخربوا مشاهد كثيرة ونبشوا قبور موتى المسلمين وأخذوا توابيتهم إلى الخيم وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الأكفان وعمدوا إلى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم مقابل المسلمين ، وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمد وآخر يقول : هذا عليّكم ، وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا : يا مسلم أبصر كتابكم ، وشقه الفرنجي بيده وشده بخيطين وعمله ثفراً لبرذونه فظل البرذون يروث عليه ، وكلما أبصر الروث على المصحف صفق بيديه وضحك عجباً وزهواً .

وأقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه إلى المسلمين والمسلمون يفعلون بمن يأسرونه من الفرنج كذلك ، وربما شنق المسلمون بعضهم ، ويخرج الغزاة من باب العراق ويسرقونهم من المخيم ويقطعون عليهم الطريق ويقتلون ويأسرون ، ويصيح المسلمون على دبيس من الأسوار : دبيس يانجيس ، والرسل تتردد بينهم في الصلح ولا يستتب إلى أن ضاق الأمر بالمسلمين جداً .

وكان بحلب بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار والحاجب عمر الخاص ومعهما مقدار خمسمائة فارس ، والذي يتولى تدبيرها وهو في مقام الرياسة القاضي أبو الفضل بن الخشاب ، وتولى حفظ المكان وبذل المال والغلال ، فاتفقوا على أن سيّروا جد أبي قاضي حلب القاضي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة ونقيب الأشراف وأبا عبد الله بن الحلي ، فخرجوا ليلاً ومضوا إلى تمرتاش إلى ماردين مستصرخين إليه ومستغيثين به ، فوجدوه وقد مات أخوه سليمان بن إيلغازي صاحب ميافارقين في شهر رمضان . وسار تمرتاش إلى بلاده ليملكها واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب ، وكانت الرسل مترددة بينه وبين آقسنقر البرسقي صاحب الموصل في اتفاق الكلمة على قصد الفرنج وكشفهم عن حلب ، فاشتغل بهذا الأمر عن هذا التقرير والحلبيون عنده يمنيهم ويمطلهم ، ولما خرج الحلبيون من حلب بلغ الفرنج ذلك فسيروا خلفهم من يلحقهم فلم يدركهم وأصبحوا في صباح تلك الليلة وصاحوا إلى أهل حلب : أين قاضيكم وأين شريفكم ، فأسقط في أيديهم إلى أن وصل منهم كتاب يخبر بسلامتهم .

وبقي الحلبيون عند تمرتاش يحثونه على التوجه إلى حلب وهو يعدهم ولا يفعل ، وهم يقولون له : نريد منك أن تصل بنفسك والحلبيون يكفونك أمرهم ، فضاق الأمر بالحلبيين إلى حد يأكلون فيه الكلاب والميتات ، وقلت الأقوات ونفد ما عندهم وفشا المرض فيهم فكان المرضى يئنون من شدة المرض ، فإذا ضرب البوق لزحف الفرنج قام المرضى كأنما أنشطوا من عقال وزحفوا إلى الفرنج وردّوهم إلى خيامهم ، ثم يعودون إلى مضاجعهم . فكتب جدي أبو الفضل هبة الله بن القاضي أبي غانم كتاباً إلى والده يخبره بما آل أمر حلب إليه من الجوع وأكل الميتات والمرض فوقع كتابه في يد تمرتاش فغضب وقال : انظر إلى هؤلاء يتجلدون عليّ ويقولون إذا وصلت فأهل حلب يكفونك أمرهم ويغرون بي حتى أصل في قلة وقد بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة .

ثم أمر بالتوكيل والتضييق عليهم فشرعوا في إعمال الحيلة والهرب إلى آقسنقر البرسقي ليستصرخوا به ، فاحتالوا على الموكلين بهم حتى ناموا وخرجوا هاربين ، فأصبحوا بدارا وساروا حتى أتوا الموصل فوجدوا البرسقي مريضاً مدنفاً والناس قد منعوا من الدخول عليه إلا الأطباء والفروج تدق له لشدة الضعف . ووصل إلى دبيس من أخبره بذلك فضرب البشارة في عسكره وارتفع عنده التكبير والتهليل ونادى بعض أصحابه : أهل حلب قد مات من أملتم نصره ، فكادت أنفس الحلبيين تزهق .

واستأذن الحلبيون على البرسقي فأذن لهم فدخلوا عليه واستغاثوا به وذكروا له ما أهل حلب فيه من الضر ، فأكرمهم رحمه الله وقال لهم : ترون ما أنا فيه الآن من المرض ، ولكن قد جعلت لله عليّ نذراً إن عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في نصرتكم والذب عن بلدكم وقتال أعدائكم .

قال القاضي أبو غانم قاضي حلب : فما مضى ثلاثة أيام بعد ذلك حتى فارقته الحمى فأخرج خيمته ونادى في العساكر بالتأهب للجهاد إلى حلب ، وبقي أياماً وعمل العسكر أشغاله ، وخرج رحمه الله في عسكر قوي فوصل إلى الرحبة وكاتب أتابك طغتكين صاحب دمشق وصمصام الدين خير خان بن قراجا صاحب حمص ، ورحل إلى بالس وسار منها إلى حلب فوصلها يوم الخميس لثمان بقين من ذي الحجة من سنة ثمان عشرة .

ولما قرب من حلب رحل دبيس ناشراً أعلامه البيض إلى الفرنج عند قربه من حلب ، وتحولوا إلى جبل جوشن كلهم ، وخرج الحلبيون إلى خيامهم فنهبوها ونالوا منها ما أرادوا .

وخرج أهل حلب والتقوا قسيم الدولة عند وصوله وسار نحو الفرنج فانهزموا بين يديه من جبل جوشن وهو يسير وراءهم على مهل حتى أبعدوا عن البلد ، فأرسل الشاليشية وأمرهم أن يردوا العسكر ، فجعل القاضي ابن الخشاب يقول له : يا مولانا لو ساق العسكر خلفهم أخذناهم فإنهم منهزمون والعساكر محيطة بهم ، فقال له : يا قاضي تعلم أن في بلدكم ما يقوم بكم وبعسكري لو قدر علينا والعياذ بالله كسرة ، فقال: لا فقال: ما يؤمننا أن يرجعوا علينا ويكسرونا ويهلك المسلمون ، ولكن قد كفى الله شرهم وندخل إلى البلد ونقويه وننظر في مصالحه ونجمع لهم إن شاء الله ونخرج إليهم بعد ذلك .

ورجع ودخل البلد وتسلم قلعتها ونظر في مصالح البلد وقوّاه وأزال الظلم والمكوس وعدل فيهم عدلاً شاملاً وأحسن إليهم إحساناً كاملاً . وكتب لأهل حلب توقيعاً بإطلاق المظالم والمكوس نسخته موجودة بعد ما كان الحلبيون متعوا به من الظلم والمصادرة من عبد الكريم والي القلعة وعمر الخاص والي البلد وتسليطهما الجند والأتراك على مصادرة الناس بحيث إنهم استصفوا أموال جماعة من الأكابر والصدور وغيرهم في حالة الحصار .

وأما الفرنج فإنهم توجهوا إلى الأثارب ودخلوا أنطاكية .

وشرع الناس في الزرع ببلد حلب في الثاني عشر من شباط وجعلوا يبلون الغلة بالماء ويزرعونها فنبتت وتداركت عليها الأمطار فأخصبت وجاءت الغلة من أجود الغلال وأزكاها .

زيادة بيان لأسباب استيلاء آقسنقر البرسقي على حلب

قال ابن الأثير : في هذه السنة في ذي الحجة ملك آقسنقر البرسقي مدينة حلب وقلعتها ، وسبب ذلك أن الفرنج لما ملكوا مدينة صور على ماذكرنا طمعوا وقويت نفوسهم وتيقنوا الاستيلاء على بلاد الشام واستكثروا من الجمع ، ثم وصل إليهم دبيس بن صدقة صاحب الحلة [من أعمال بغداد] فأطمعهم طمعاً ثانياً لاسيما في حلب وقال لهم : إن أهلها شيعة وهم يميلون إلي لأجل المذهب ، فمتى رأوني سلموا البلد إليّ ، وبذل لهم على

مساعدته بذولاً كثيرة وقال : إنني أكون ههنا نائباً عنكم ومطيعاً لكم ، فساروا معه إليها وحصروها وقاتلوا قتالاً شديداً ووطنوا نفوسهم على المقام الطويل وأنهم لا يفارقونها حتى يملكوها وبنوا البيوت لأجل البرد والحر . فلما رأى أهلها ذلك ضعفت نفوسهم وخافوا الهلاك وظهر لهم من صاحبهم تمرتاش الوهن والعجز وقلت الأقوات عندهم ، فلما رأوا ما دفعوا إليه من هذه الأسباب أعملوا الرأي في طريق يتخلصون به فرأوا أنه ليس لهم غير البرسقي صاحب الموصل ، فأرسلوا إليه يستنجدونه ويسألونه المجيء إليهم ليسلموا البلد إليه ، فجمع عساكره وقصدهم وأرسل إلى من في البلد وهو في الطريق يقول : إنني لا أقدر على الوصول إليكم والفرنج يقاتلونكم إلا إذا سلمتم القلعة إلى نوابي وصار أصحابي فيها ، لأنني لا أدري ما يقدره الله تعالى إذا أنا لقيت الفرنج ، فإذا انهزمنا منهم وليست حلب بيد أصحابي حتى أحتمي أنا وعسكري بها لم يبق منا أحد وحينئذ تؤخذ حلب وغيرها ، فأجابوه إلى ذلك وسلموا القلعة إلى نوابه . فلما استقروا فيها واستولوا عليها سار في العسكر التي معه ، فلما أشرف عليها رحل الفرنج عنها وهو يراهم ، فأراد من في مقدمة عسكره أن يحمل عليهم فمنعهم هو بنفسه وقال : قد كفينا شرهم وحفظنا بلدنا منهم والمصلحة تركهم حتى يتقرر أمر حلب وتصلح حالها وتكثر ذخائرها ثم حينئذ نقصدهم ونقاتلهم . فلما رحل الفرنج خرج أهل حلب ولقوه وفرحوا به وأقام عندهم حتى أصلح الأمور وقررها .

سنة ٥١٩ و ٥٢٠

ذكر فتح البرسقي كفرطاب وانهزامه من الفرنج وتولية البرسقي بابك ثم كافوراً الخادم ثم ولده مسعوداً على حلب

قال ابن العديم : في سنة تسع عشرة وخمسمائة في أواخر المحرم رحل البرسقي إلى تل السلطان ومنها إلى شيزر ، ثم أقام بأرض حماة أياماً حتى وصل إليه أتابك طغتكين ، فرحل في عسكره التي لا تحد كثرة ونزل كفرطاب ، فسلمت إليه يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الآخر وسلمها إلى صمصام الدين خير خان بن قراجا ، وكان قد وصل إليه من حمص والتقاه بتل السلطان ، وسار إلى عزاز وقاتلها ، ونقبت قلعتها فقصدهم الفرنج فالتقوا

سادس عشر ربيع الآخر وكسر البرسقي كسرة عظيمة واستشهد جماعة من المسلمين من السوقة والعامة ، ولم يقتل من الأمراء والمقدمين أحد . ووصل آقسنقر البرسقي سالماً إلى حلب وأقام على قنسرين أياماً وتفرقت العساكر إلى بلدهم ، ووصل أمير حاجب صارم الدين بابك بن طلماس فولاه البرسقي حلب وبلدها وعزل عنها سوتكين والياً كان ولاه .

ووقعت الهدنة بين البرسقي والفرنج على أن يناصفوهم في جبل السماق وغيره مما كان بأيدي الفرنج . وسار البرسقي إلى الموصل فلم يزل الفرنج يعللون الشحن والمقطعين بالمحال في مَغَلّ ما وقعت الهدنة عليه العشرين من شعبان من السنة .

وسار بغدوين إلى بيت المقدس والرسول خلفه يعلمه بأن الفرنج لا يمكنون أحداً من رفع شيء من الصافي وأخذ بعض متصرفي المسلمين بعض ارتفاع من الأماكن والهدنة على حالها ، فتجمع الفرنج ونزلوا رفنية ، وخرج شمس الخواص صاحبها طالباً آقسنقر البرسقي مستصرخاً به ، وسلمها إليهم ولده المستخلف فيها في آخر صفر من سنة عشرين وخمسمائة . وقصدوا بلد حمص فشعثوه فجمع البرسقي العساكر وحشد وسار نحو الشام لحربهم حتى وصل الرقة أواخر شهر ربيع الآخر ، وسار إلى أن نزل بالنقرة على الناعورة في الشهر المذكور وأقام بها أياماً والفرنج يراسلونه ، فراسله جوسلين على أن يكون الضياع ما بين عزاز وحلب مناصفة وأن يكون الحرب بينهما على غير ذلك فاستقر هذا الأمر .

وكان بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار وسر باريك ابن عمه قد توجه مع جماعة من التركمان إلى المعرة فأوقعوا بعسكر الفرنج وقتل المسلمون منهم مائة وخمسين وأسروا جفري بلنك صاحب بسرفوث من جبل بني علي وأودع في سجن حلب ، وكان قد سير البرسقي ولده عز الدين مسعوداً منجداً لصاحب حمص ، فاندفع الفرنج عنها فعاد عز الدين إلى والده فتركه بحلب وعزل بابك عن ولايتها وولاها كافوراً الخادم إلى أن ينظر فيمن يوليه إياها ولاية مستقلة .

ورحل قسيم الدولة إلى الأثارب في الثامن من جمادى الآخرة من سنة عشرين وسير بابك بن طلماس في جماعة من العسكر والنقابين إلى حصن الدير المجدد فوق سرمد ففتحه سلماً وقتل من الخيّالة بعد ذلك خمسين فارساً ، ونهب العسكر الغلال والفلاحين من سائر البلد الذي وصلت الغارات إليه ورفعوا الغلة جميعها إلى حلب وزحفوا إلى قلعة الأثارب

وخربوا الحوشين ولم يتيسر فتحها . ووصل بغدوين من القدس في جموع الفرنج ووصل إليه جوسلين ونزلوا عِمّ وأرتاح وسيروا إلى البرسقي : ارحل عن هذا الموضع ونتفق على ما كنا عليه من العام الخالي ونعيد رفنية عليك ، فتجنب الحرب وخشي أن يتم على المسلمين ما تم على عزاز ، فصالحهم على أن يزيل الخناق عن الأثارب ويخرج صاحبها بماله ورجاله ، فغدر الفرنج وقالوا : ما نصالح إلا على أن تكون الأماكن التي ناصفنا فيها في العام الماضي لنا دون المسلمين ، فامتنع من ذلك وأقام على حلب أياماً والرسل تتردد بينهم ، فلما لم يتفق حال عاد آقسنقر ونزل قنسرين ورحل إلى سرمين ، وامتدت العساكر إلى الفوعة ودانيث ، ونزل الفرنج على حوض معرة مصرين فأقاموا كذلك إلى نصف رجب ، ونفدت أزواد الفرنج فعادوا إلى بلادهم ، ثم عاد البرسقي وفي صحبته أتابك طغتكين وكان وصل إليه وهو على قنسرين فرحلوا مع العسكر ونزلوا باب حلب .

ومرض أتابك فعملت له المحفات وأوصى إلى البرسقي وتوجه إلى دمشق وسلم البرسقي حلب وتدبيرها إلى ولده عز الدين مسعود ، فدخل حلب وأجمل السيرة وتحلى بفعل الخير . وسار أبوه إلى الموصل فدخلها في ذي القعدة .

ترجمة آقسنقر البرسقي وخبر قتله على إثر عوده إلى الموصل :

قال ابن العديم : هو آقسنقر بن عبد الله البرسقي ، وقيل اسمه سنقر ، وكان مملوك الأمير برسق مملوك السلطان فترقت به الحال إلى أن ولاه السلطان محمد بن محمود الموصل وولاه شحنكية بغداد ، وتقدم عسكرها في أيام المسترشد ، ثم عزل عن شحنكية بغداد في سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، فوصل إلى الموصل واستدعاه الحلبيون إلى حلب وقد حصرهم الفرنج وضاق بهم الأمر فوصل إليهم في سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، ورحل الفرنج عنها وملك حلب وأحسن إلى أهلها وعدل فيهم وأزال المكوس والمظالم . ووقع إلي نسخة التوقيع الذي كتبه لأهل حلب بإزالة المكوس والضرائب وتعفية آثار الظلم والجور رحمه الله .

وكان على ما يحكى حسن الأحوال كثير الخير جميل النية كثير الصلاة والتهجد والعبادة والصوم ، وكان لا يستعين في وضوئه بأحد وقتل رحمه الله شهيداً وهو صائم .

وكان من حديثه في ملك حلب واستيلائه عليها أن بلك بن بهرام بن أرتق لما قتل بمنبج ملك ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق حلب ، فباع تمرتاش بغدوين ملك الفرنج وكان أسيراً في يد بلك فباعه نفسه وهادنه وأطلقه ، ومات شمس الدولة بن إيلغازي صاحب ماردين فتوجه تمرتاش إليها واشتغل بملك ماردين ، فلما علم بغدوين بذلك غدر بالهدنة واتفق هو ودبيس بن صدقة وإبراهيم بن الملك رضوان بن تتش على أن نازلوا حلب ، واتفقوا على أن تكون البلاد للمسلمين وأن حلب لإبراهيم بن الملك رضوان لأنها كانت لأبيه ، وأن تكون الأموال للفرنج . وطال حصار حلب وأشرفت على الاستيلاء عليها وبلغ بهم الضر إلى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات والجيف ووقع فيهم المرض ، فحكى لي والدي أنهم كانوا في وقت الحصار مطرحين من المرض في أزقة البلد ، فإذا زحف الفرنج وضرب بوق الفزع قاموا كأنما أنشطوا من عقال وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل من المرضى إلى فراشه ، وما زالوا في هذه الشدة إلى أن أعانهم الله بقسيم الدولة آقسنقر البرسقي فأخلص النية لله في نصرهم ، ووصل إلى حلب في ذي الحجة من سنة ثمان عشرة وخمسمائة وأغاث أهلها ورحل العدو عنها .

وكانت رغبات الملوك إذْ ذاك قليلة لمجاورة الفرنج لها وخراب بلدها وقلة ريعه واحتياج من يكون مستولياً عليها إلى الخزائن والأموال والنفقة في الجند ، فأخبرني والدي أبو الحسن أحمد وعمي أبو غانم محمد ، وحديث أحدهما ربما يزيد على الآخر ، قالا : سمعنا جدك يعنيان أباهما أبا الفضل هبة الله يقول : لما اشتد الحصار على حلب وقلت الأقوات بها وضاق الأمر بهم اتفق رأيهم على أن يسيروا أبا غانم قاضي حلب والشريف زهرة وابن الجلي إلى حسام الدين تمرتاش إلى ماردين ، وكان هو المستولي على حلب وهي في أيدي نوابه وقد تركها ومضى إلى ماردين واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب ، قال : فاتفقوا على ذلك وأخرجوا أبي والشريف وابن الجلي ليلاً من البلد ، فلما أصبح الصباح صاح الفرنج إلى أهل البلد : أين قاضيكم وأين شريفكم ؟ قال : فانقطعت ظهورنا وتشوشت قلوبنا وأيقنا أنهم ظفروا بهم ، فوصلنا منهم كتاب يخبر أنهم قد وصلوا إلى مكان آمن عليهم بالوصول ، فطابت قلوب أهل حلب لذلك ، قال عمي ووالدي : فسمعنا والدنا يقول : لما وصلنا إلى ماردين ودخلنا على حسام الدين تمرتاش وذكرنا له ما حل بأهل حلب وما هم فيه من ضيق

الحصار والضر وعدنا بالنصر وأنه يتوجه إليها ويرحّل الفرنج عنها ، وأنزلنا في مكان بماردين وجعلنا نطالبه بما وعد وهو يدافعنا من يوم إلى يوم ، وكان آخر كلامه : خلوهم إذا أخذوا حلب عدت وأخذتها ، فقلنا في أنفسنا ما هذا إلا فرصة ، وقلنا : لا تفعل ولا تسلم المسلمين إلى الفرنج فقال : وكيف أقدر على لقائهم في هذا الوقت ؟ فقال له القاضي أبو غانم : وأيش هم حتى لا نقدر عليهم ونحن أهل البلد إذا وصلت إلينا نكفيك أمرهم ، قال القاضي أبو الفضل : فكتبت كتاباً من حلب إلى والدي أبي غانم أخبره بما حل بأهل حلب من الضرر وأنه قد آل الأمر بهم إلى أكل القطاط والكلاب والميتة ، فوقع الكتاب في أيدي تمرتاش وشق عليه وغضب وقال : انظروا إلى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة قد بلغ الأمر بهم إلى هذه الحالة وهم يكتمون ذلك ويتجلدون ويغرونني ويقولون : إذا وصلت إلينا تكفيك أمرهم ، قال القاضي غانم : فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا من يحفظنا خوفاً أن ننفصل عنه إلى غيره ، فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل وأن نمضي إلى البرسقي ونستصرخ به ونستنجده ، فتحدثنا مع من يهربنا ، وكان للمنزل الذي كنا فيه باب يصر صريراً عظيماً إذا فتح أو أغلق ، فأمرنا بعض أصحابنا أن يطرح في صائر الباب زيتاً ويعالجه ليفتح عند الحاجة ولا يعلم الجماعة الموكلون بنا إذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا الغلمان إذا جن الليل أن يسرحوا الدواب ويأتونا بها ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي . قال : وكان الزمان شتاءوالثلج كثير على الأرض .

قال القاضي أبو غانم : فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم إلا غلامي ياقوت وأخبر غلمان رفاقي أن قيد الدابة تعسر عليه فتحه وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك وقلت لأصحابي : قوموا أنتم وانتهزوا الفرصة ولا تنتظروني ، فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكراً لا يأخذني نوم ، حتى كان وقت السحر فجاءني غلامي ياقوت بالدابة وقال : الساعة انكسر القيد ، قال : فقمت وركبت لا أعرف الطريق ومشيت في الثلج أقصد الجهة التي أقصدها ، قال : فما طلع الصبح إلا أنا وأصحابي الذين سبقوني في مكان واحد وقد ساروا من أول الليل وسرت من آخره ، وكانوا قد ضلوا عن الطريق ، فنزلنا جميعاً وصلينا الصبح وركبنا وجثثنا دوابنا وأعملنا السير حتى وصلنا الموصل فوجدنا البرسقي مريضاً وهو يسقى

أمراق الفراريج المدقوقة ، فأعلم بمجيئنا فأذن لنا ، فدخلنا عليه ووجدناه مريضاً مدنفاً ، فشكونا إليه وطلبنا منه أن يغيث المسلمين وذكرنا له ما حل بهم من الحصار والضيق وقلة الأقوات وما آل إليه أمرهم فقال : كيف بالوصول إلى ذلك وأنا على ما ترون ؟ فقلنا له : يجعل المولى في نيته وعزمه إن خلصه الله من هذا المرض أن ينصر المسلمين ، فقال : إي والله ، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إني أشهدك على أنني إن عوفيت من مرضي لأنصرنهم ، قال : فما استتم ثلاثة أيام حتى فارقته الحمى واغتدى ونادى في عسكره للغزاة وبرز خيمته وخرجت عساكره وعملوا أشغالهم ، وتوجه بهم حتى أتى حلب ، فلما قاربها وأشرفت عساكره من الرتب رحل الفرنج ونزلوا على جبل جوشن وتأخروا عن المدينة ، وساق إلى أن قارب المدينة وخرج أهلها إلى لقائه ، فقصد نحو الفرنج وأهل البلد مع عسكره ، فانهزم الفرنج بين يديه وهو يسير وراءهم على مهل حتى أبعدوا عن البلد ، فأرسل الشاليشية وأمرهم برد العسكر . قال : فجعل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يقول له : يا مولانا لو ساق المولى خلفهم أخذناهم بأسرهم فإنهم منهزمون ، قال : فقال له : يا قاضي كن عاقلاً ، أتعلم أن في بلدكم ما يقوم بكم وبعسكري لو قدر والعياذ بالله علينا كسرة من العدو ، فقال : لا ، فقال : فما يؤمننا أن يكسرونا وندخل البلد ويقووا علينا فلا ننفع أنفسنا والله تعالى قد دفع شرهم ، فنرجع إلى البلد ونقويه ونرتب أحواله وبعد ذلك نستعد لهم ويكون ما يقدره الله تعالى ونرجو إن شاء الله تعالى أننا نلقاهم ونكسرهم .

قال : ورجع ودخل البلد ورتب الأحوال وجلب إليه الغلال وأمن الناس واستقروا ، قال : وكان ذلك في آذار فجعل الناس يأخذون الحنطة والشعير ويبلونها بالماء ويزرعونها فاستغل الناس في تلك السنة مغلاً صالحاً . هذا معنى ما حدثني به والدي وعمي .

ونقلت من خط عبد المنعم بن الحسن بن اللعيبة الحلبي : دخلت سنة تسع عشرة وخمسمائة ووصلت العساكر من الشرق ومقدمها آقسنقر البرسقي وكان الإفرنج نزلوا على حلب في شهر رمضان سنة ثمان عشرة وخمسمائة وحاصروها وضيقوا على أهلها ، ومضى القاضي ابن العديم والأشراف وقوم من مقدمي أهلها مستصرخين لأنه ما كان بقي من أخذها شيء ، فوصل البرسقي معهم في محرم سنة تسع عشرة وخمسمائة ونزل بالس ، وكانت رسله مذ وصل الرحبة متواترة إلى حمص ودمشق يستدعي مالكيهما ، وسار الأمير

صمصام الدين عن حمص في أول ربيع الأول ، فلقي الأمير قسيم الدولة البرسقي بتل السلطان بعد انفصاله عن حلب وانهزام الإفرنج عنها ، وكان سرى إليهم من بالس ووصل إلى حلب وفرح أهل حلب ونهبوا من خيام الإفرنج مقدار المائة خيمة من على جبل جوشن وما بقي من هلاكهم شيء ، لكن الله أمسك أيدي الترك عنهم بمشيئته .

وقرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن الحصين في تاريخه في حوادث سنة ثمان عشرة وخمسمائة : وفي ثاني عشر ذي حجتها دخل البرسقي إلى حلب وفي غده رحل الإفرنج عنها . قلت : وبعد أن أقام البرسقي بحلب ورتب أحوالها ترك ولده بها وعاد إلى الموصل فقتله الإسماعيلية على ما نذكره .

قال لي شيخنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجوزي : كان آقسنقر البرسقي خيّراً عادلاً لين الأخلاق حسن العشرة مع أصحابه ، قال لي : أخبرني أبي محمد ابن عبد الكريم قال : حكى بعض الغلمان الذين كانوا يخدمون البرسقي قال : كان يصلي البرسقي كل ليلة صلاة كثيرة ، وكان يتوضأ هو بنفسه ولا يستعين بأحد ، قال : فرأيته في بعض ليالي الشتاء بالموصل وقد قام من فراشه وعليه فرجية وبر صغيرة وبيده إبريق نحاس وقد قصد دجلة ليأخذ ماء يتوضأ به ، قال : فلما رأيته قمت إليه لآخذ الإبريق من يده فمنعني وقال : يا مسكين ارجع إلى مكانك لأنه برد ، فاجتهدت به لآخذ الإبريق من يده فلم يفعل ، ولم يزل حتى ردني إلى مكاني ثم توضأ ووقف يصلي . قال : وذكر لي من أحواله الحسنة أشياء يطول ذكرها .

سمعت شيخنا الصاحب قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم يقول : كان البرسقي ديّناً عادلاً ، قال : ومما يؤثر عنه أنه قال يوماً لقاضي الموصل أظنه المرتضى الشهرزوري : أريد أن تساوي بين الرفيع والوضيع في مجلس الحكم وأن لا تخص أولي الهيئات والمراتب بزيادة احترام في مجلس الحكم ، فقال له القاضي : وكيف لي بذلك ؟ فقال : ما لهذا طريق إلا أن ترتاد خصماً يخاصمني في قضية ويدعوني إلى مجلس الحكم وأحضر إليك وتلتزم معي ما تلتزمه مع خصمي ، وسوف أرسل إليك خصماً لا تشك في أنه خصم لي ويدعي علي بدعوى ، فادعني حينئذ إلى مجلس الحكم لأحضر إليك ، وجاء إلى زوجته الخاتون ابنة السلطان محمود فيما أظن وقال لها : وكلي وكيلاً

يطالبني بصداقك ، فوكلت وكيلاً ، ومضى الوكيل إلى مجلس الحكم وقال : لي خصومة مع قسيم الدولة البرسقي وأطلب حضوره إلى مجلس الحكم ، فسيّر القاضي إليه ودعاه فأجاب وحضر مجلس الحكم ، فلم يقم له القاضي وساوى بينه وبين خصمه في ترك القيام والاحترام ، وادعى عليه الوكيل وأثبت الوكالة واعترف البرسقي بالصداق ، فأمره القاضي بدفعه إليه فأخذه وقام إلى خزانته ودفع إليه الصداق .

ثم إنه أمر القاضي أن يتخذ مسماراً على باب داره يختم عليه بشمعة وعلى المسمار منقوش : أجب داعي الله ، وأنه من كان له خصم حضر وختم بشمعة على ذلك المسمار ويمضي بالشمعة المختومة إلى خصمه كائناً من كان ، فلا يجسر أحد على التخلف عن مجلس الحكم .

وقرأت بخط الحافظ أبي طاهر السلفي (عالم الإسكندرية) : وسنقر البرسقي ولي العراق سنتين وبلغ مبلغاً عظيماً ، ثم ولي ديار مضر ودار ملكه الموصل ثم حلب وكثيراً من مدن الشام ، وجاهد الفرنج ، ثم قتله بعض الملاحدة لعنهم الله ، وكان سيفاً عليهم قلّ ما يرى في جيشه مثله رحمه الله ورضي عنه ، رأيته بالعراق في حال ولايته وبالشام قبل أن وليها .

وقال لي عز الدين أبو الحسن بن الأثير : في سنة عشرين وخمسماية قتل آقسنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة قتله باطنية ، وكان رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به فقتل بعضها ونال منه الباقون أذى شديداً ، فقص رؤياه على أصحابه فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام فقال : لا أترك الجمعة لشيء أبداً ، وكان يشهدها في الجامع مع العامة ، فحضر الجامع على عادته فثار به الباطنية ما يزيد عن عشرة أنفس فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله .

قرأت بخط أبي الفوارس حمدان بن عبد الرحيم في تاريخه الذي جمعه ووقع إليَّ منه أوراق نقلت منها في حوادث سنة عشرين وخمسمائة أن البرسقي سلم حلب وتدبيرها إلى ولده الأمير عز الدين مسعود ، فدخل حلب وأجمل السيرة وتحلى بفعل الخير ، وسار أبوه إلى الموصل والجزيرتين وما هو جار في مملكته حتى دخل شهر ذي القعدة من السنة ، فلما كان يوم الجمعة تاسع الشهر قصد الجامع بالموصل ليصلي جماعة ويسمع الخطيب كما جرت

عادته في أكثر الجمع وقصد المنبر ، فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زيّ الزهاد فاخترطوا خناجر وقصدوه وسبقوا الحفظة الذين حوله فضربوه حتى أثخنوه وجرحوا قوماً من حفظته ، وقتل الحفظة منهم قوماً وقبضوا قوماً ، وحمل البرسقي بآخر رمقه إلى بيته وهرب كل من في الجامع وبطلت صلاة الجمعة ومات الرجل من يومه ، وقتل أصحابه من بقي بأيديهم من الباطنية ، ولم يفلت منهم سوى شاب كان من كفر ناصح ضيعة من عزاز من شمالي حلب .

قال حمدان فيما نقلته من خطه : وحدثني رجل منها أنه كان له والدة عجوز لما سمعت بقتله البرسقي وكانت تعرف أن ولدها من جملة من ندب لقتله فرحت واكتحلت وجلست مسرورة كأنه عندها يوم العيد ، وبعد أيام وصلها سالماً فأحزنها ذلك وقامت وجزت شعرها وسودت وجهها . اهـ .

قال ابن خلكان في ترجمته : إن سبب قتل الباطنية له أنه كان تصدى لاستئصال شأفتهم وتتبعهم وقتل منهم عصبة كبيرة رحمه الله تعالى قال : والبرسقي بضم الباء والسين .

تتمة حوادث سنة ٥٢٠ و ٥٢١

استيلاء عز الدين مسعود بن آقسنقر على حلب وتوليته عليها تومان ثم توجهه إلى الرحبة وموته أمامها فجأة وتوليته خلب لختلغ أبه ثم لسليمان بن عبد الجبّار

قال ابن العديم : ملك عز الدين مسعود حلب عند ورود الخبر عليه بقتل أبيه في سنة عشرين واستوزر المؤيد وزير أبيه وولى فيها من قبله الأمير تومان . وسار من حلب في سنة إحدى وعشرين وخمسماية إلى السلطان محمود وهو ببغداد فسأله أن ينعم عليه ببلاد أبيه ، فكتب له منشوراً بذلك ، فوصل إلى الموصل وملكها ، ثم نزل إلى الرحبة قاصداً إلى الشام ، وكان يظن أن قاتلي أبيه قوم من أهل حماة ، فأضمر للشام وأهله شراً عظيماً ورجع عما كان عليه من الأفعال المحمودة والإقبال على مجاهدة الفرنج . وبلغ طغتكين عنه أنه يقصده فتأهب له ، فلما نزل بظاهر الرحبة امتنع واليها من تسليمها فحاصرها أياماً فسلمها

الوالي إليه ونزل فوجده قد مات فجأة ، وقيل سقي سماً فمات ، وندم الوالي على تسليم الرحبة ، وكان قد وصلت قطيعة من العسكر لتقوية حلب فمنعهم تومان من الدخول إليها فوقع الشر بينه وبين رئيس حلب فضايل بن بديع وأدخلهم إلى حلب ، فوصل إلى حلب ختلغ أبه السلطاني غلام السلطان محمود ومعه توقيع مسعود بن البرسقي بحلب كتبه قبل وصوله إلى الرحبة ، فلم يقبله تومان والي حلب ، فعاد ختلغ أبه إلى الرحبة وقد جرى فيها ما ذكرناه من موت مسعود ، فعاد ختلغ أبه على فوره إلى حلب فتسلمها من يد تومان آخر جمادى الآخرة ، وصعد إلى قلعتها بطالع اختاره له المنجمون فأخذه الطمع في أموال الناس وصادر جماعة من أهل حلب واتهمهم بودايع المجن الفوعي رئيس حلب المقتول في أيام رضوان ، وقبض على شرف الدين أبي طالب بن العجمي وعمه أبي عبد الله واعتقلهما بقلعة حلب ، وثقب كعاب أبي طالب وصادره فعاد فعله القبيح عليه بالبوار وضل رأي منجمه في ذلك الاختيار . وقام أهل حلب عليه فحصروه وقدموا عليهم بدر الدولة سليمان ابن عبد الجبار ، ونادى أهل حلب بشعار بدر الدولة ، وساعده على ذلك رئيس حلب فضايل بن صاعد بن بديع ، وقبض على أصحاب ختلغ أبه وذلك في الثاني من شوال ، وقصد في تلك الحال ملك أنطاكية جوسلين فصانعوه على مال حتى رحل وضايقوا القلعة وحرقوا القصر ، ودخل إليهم إلى المدينة الملك إبراهيم بن رضوان ووصل إليهم حسان صاحب منبج وصاحب بزاعة ودام الحصار إلى النصف من ذي الحجة .

ولاية عماد الدين زنكي على الموصل وأعمالها واستيلاؤه على سروج والرها والبيرة وحران

قال ابن الأثير : لما توفي عز الدين مسعود بن البرسقي ولي السلطان عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها ، فتوجه واستولى عليها وعلى بلاد الجزيرة .

وبسط ابن الأثير الخبر في ذلك إلى أن قال : ثم سار إلى حران وهي للمسلمين وكانت الرها وسروج والبيرة وتلك النواحي جميعها للفرنج وأهل حران معهم في ضرر عظيم وضيق شديد لخلو البلاد من حام يذب عنها وسلطان يمنعها ، فلما قارب حران خرج أهل

البلد وأطاعوه وسلموا إليه ، فلما ملكها أرسل إلى جوسلين صاحب الرها وتلك البلاد وراسله وهادنه مدة يسيرة ، وكان غرضه أن يتفرغ لاصلاح البلاد وجند الأجناد ، وكان أهم الأمور إليه أن يعبر الفرات إلى الشام ويملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية ، فاستقر الصلح بينهم وأمن الناس .

سنة ٥٢٢

ذكر ملك أتابك عماد الدين زنكي مدينة حلب

قال ابن الأثير : في هذه السنة أول محرم ملك عماد الدين زنكي بن آقسنقر مدينة حلب وقلعتها ، ونحن نذكر كيف كان سبب ملكها فنقول : قد ذكرنا ملك البرسقي لمدينة حلب وقلعتها سنة ثمان عشرة واستخلافه بها ابنه مسعوداً ، ولما قتل البرسقي سار مسعود عنها إلى الموصل وملكها واستناب بحلب أميراً اسمه تومان . ثم إنه ولى عليها أميراً اسمه ختلغ أبه وسيره إلى تومان بتسليمها فقال : بيني وبين عز الدين علامة لم أرها ولا أسلم إلا بها ، وكانت العلامة بينهما صورة غزال ، وكان مسعود بن البرسقي حسن التصوير فعاد ختلغ أبه إلى مسعود وهو يحاصر الرحبة فوجده قد مات ، فعاد إلى حلب مسرعاً ، وعرف الناس موته فسلم الرئيس فضايل ابن البديع البلد وأطاعه المقدمون به واستنزلوا تومان من القلعة بعد أن صح عنده وفاة صاحبه مسعود وأعطوه ألف دينار ، فتسلم ختلغ القلعة في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين فظهر منه بعد أيام جور شديد وظلم عظيم ، ومد يده إلى أموال الناس لاسيما التركات فإنه أخذها ، وتقرب إليه الأشرار فنفرت قلوب الناس منه ، وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق الذي كان قديماً صاحبها فأطاعه أهلها ، وقاموا ليلة الثلاثاء ثاني شوال فقبضوا على كل من في البلد من أصحاب ختلغ أبه ، وكان أكثرهم يشربون في البلد صبحة العيد وزحفوا إلى القلعة فتحصن ختلغ أبه فيها بمن معه فحصروه .

ووصل إلى حلب حسان صاحب منبج وصاحب بزاعة لإصلاح الأمر فلم ينصلح ، وسمع الفرنج بذلك فتقدم جوسلين بعسكره إلى المدينة فصونع بمال فعاد عنها ، ثم وصل بعده صاحب أنطاكية في جمع من الفرنج فخندق الحلبيون حول القلعة فمنع الداخل

والخارج إليها من ظاهر البلد ، وأشرف الناس على الخطر العظيم إلى منتصف ذي الحجة من السنة .

وكان عماد الدين قد ملك الموصل والجزيرة والشام فسير إلى حلب الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقوش وهما من أكابر أمراء البرسقي وقد صاروا معه في عسكر قوي ومعه التوقيع من السلطان بالموصل والجزيرة والشام ، فاستقر الأمر أن يسير بدر الدولة بن عبد الجبار وختلغ أبه إلى الموصل إلى عماد الدين ، فسار إليه ، وأقام حسن قراقوش بحلب والياً عليها ولاية مستعارة ، فلما وصل بدر الدولة وختلغ أبه إلى عماد الدين أصلح بينهما ولم يرد واحداً منهما إلى حلب وسير حاجبه صلاح الدين محمد الباغيسياني إليها في عسكر ، فصعد إلى القلعة ورتب الأمور وجعل فيها والياً .

وسار عماد الدين زنكي إلى الشام في جيوشه وعساكره فملك في طريقه مدينة منبج وبزاعة ، وخرج أهل حلب إليه فالتقوه واستبشروا بقدومه ، ودخل البلد واستولى عليه ورتب أموره وأقطع أعماله الأجناد والأمراء ، فلما فرغ من الذي أراده قبض على ختلغ أبه وسلمه إلى ابن بديع فكحله بداره بحلب فمات ختلغ أبه ، واستوحش ابن بديع فهرب إلى قلعة جعبر واستجار بصاحبها فأجاره .

وجعل عماد الدين في رياسة حلب أبا الحسن علي بن عبد الرزاق ، ولولا أن الله تعالى منَّ على المسلمين بملك أتابك ببلاد الشام لملكها الفرنج ، لأنه كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية ، وإذا علم ظهير الدين طغتكين [صاحب دمشق] بذلك جمع عساكره وقصد بلادهم وحصرها وأغار عليها فيضطر الفرنج إلى الرحيل لدفعه عن بلادهم ، فقدر الله تعالى أنه توفي هذه السنة فخلا لهم الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين ففعل بالفرنج ما نذكره إن شاء الله تعالى اهـ .

زيادة بيان في استيلاء عماد الدين زنكي على حلب سنة ٥٢٢ ثم استيلائه على حماة سنة ٥٢٣ وتوليته حلب سنة ٥٢٤ لسوار بن إيتكين

قال ابن العديم : وكان أتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آقسنقر قد ملك

الموصل بتواقيع السلطان محمود ، فسير إليه شهاب الدين مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر وأعلمه بأحوال حلب وحصارها ، فسير أتابك إليها عسكراً مع الأمير سنقر دراز والأمير الحاجب صلاح الدين حسن ودخل الأمير صلاح الدين فأصلح الحال ووفق بينهما على أن استدعيا أتابك زنكي من الموصل ، فتوجه بالجيوش إلى حلب ، وقيل إن بدر الدولة وختلغ سارا إليه ، وقيل إن ختلغ أبه لم يزل بالقلعة حتى وصل أتابك فنزل إليه وصعد أتابك إلى القلعة يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة من سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة .

وأما الملك إبراهيم بن رضوان فإنه هرب منه إلى نصيبين وكانت في إقطاعه إلى أن مات ، وأما ختلغ أبه فإنه سلمه إلى فضايل بن بديع فكحله بداره ثم قتله أتابك بعد ذلك ، وقيل إن بدر الدولة هرب منه عند ذلك وهرب فضائل بن بديع إلى قلعة ابن مالك خوفاً من أتابك .

وولى أتابك رياسة حلب الرئيس صفي الدين أبا الحسن علي بن عبد الرزاق العجلاني البالسي ، فسلك أجمل طريقة مع الناس ، وخرج أتابك من حلب وسار حتى نزل أرض حماة فوصله صمصام الدين خير خان بن قراجا وتأكدت بينهما مودة لم تحمد عاقبتها فيما نذكره بعد ، ولذلك وصله سونج بن تاج الملوك .

ثم سار أتابك بعد ذلك فوطىء بساط السلطان في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وعاد بالتواقيع السلطانية بملك الغرب كله ، ودخل الموصل ثم فتح قلعة السن وتوجه إلى حلب ورعى عسكره زرع الرها ، وعبر أتابك الفرات إلى حلب بتوقيع السلطان محمود ، وقد كان السلطان آثر أن تكون البلاد لدبيس فقبح المسترشد ذلك وكاتب السلطان وقال له في ما قال : إن هذا أعان الفرنج على المسلمين وكثر سوادهم ، فبطل التدبير واستقر ملك أتابك بالموصل والجزيرة والرحبة وحلب والتوقيع له بجميع البلاد الشامية وغيرها . وتزوج أتابك خاتون بنت الملك رضوان وبنى بها في دير الزبيب ، وكانت معه إلى أن فتح الخزانة بحلب واعتبر ما فيها فرأى الذي كان على أبيه آقسنقر حين قتله تتش جدها وهو ملوث بالدم ، فهجرها من ذلك اليوم ، وقيل إنه هدم المشهد الذي على قبر رضوان عند ذلك . ودام أتابك مهاجراً لها إلى أن دخلت على القاضي أبي غانم قاضي حلب وشكت حالها ، فصعد إليه وكان جباراً إلا أنه ينقاد إلى الحق وإذا خوف بالله خاف ، فخرج ليركب ، فلما

ركب ذكر له القاضي ما ذكرته خاتون فساق أتابك دابته ولم يرد عليه جواباً ، فجذب القاضي أبو غانم بلجام دابته فوقفت وقال له : يا مولانا هذا الشرع لا ينبغي العدول عنه ، فقال له أتابك : اشهد علي أنها طالق ، فأرسل اللجام وقال : أما الساعة فنعم .

واستوحش الأمير سوار بن إيتكين من تاج الملوك بوري صاحب دمشق وكان في خدمته ، فورد إلى حلب إلى خدمة أتابك في سنة أربع وعشرين فأكرمه وشرفه وخلع عليه وأجرى له الإقطاعات الكثيرة وأعطاه ولاية حلب وأعمالها واعتمد عليه في قتال الفرنج ، وكان له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور وله وقعات كثيرة مع الفرنج ومواقف مشهورة أبان فيها عن شجاعة وإقدام وصار له بسببها الهيبة في قلوبهم .

وعزم أتابك في هذه السنة على الجهاد ، وكتب إلى تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق يلتمس منه المساعدة فأجابه إلى ذلك وتحالفا على الصفاء . وكتب تاج الملوك إلى ولده بهاء الدين سونج بحماة يأمره بالخروج بعسكره وجهز إليه من دمشق خمسمائة فارس وجماعة من الأمراء مقدمهم شمس الخواص ، فخرجوا حتى وصلوا إلى مخيم أتابك على حلب فأكرمهم وتلقاهم وأقاموا عنده ثلاثاً . ثم أظهروا الغارة على عزاز وركبوا وعطفوا على سونج وغدر به وبأصحابه ونهب خيامهم وأثقالهم وكراعهم ، وهرب بعضهم وقبض على سونج والباقين وحملهم إلى حلب فاعتقلهم ، وسار من يومه إلى حماة فأخذها يوم السبت ثامن شوال وأقام بها ، أياماً وطلبها خير خان بن قراجا صاحب حمص وبذل عليها مالاً فسلمها إليه بكرة الجمعة رابع عشر شوال وضربت بوفاته عليها وخطب له الخطيب على المنبر . فلما كان وقت العشي من ذلك اليوم قبض عليه ونهب خيامه وجميع ما فيها ، وسار فنزل حمص فقاتلها أربعين يوماً لم يظفر فيها بطايل غير الربض ، وكان يربط خير خان على غراير التبن ويعاقبه ويعذبه أنواع العذاب ، وانتقم الله منه ببعض ظلمه في الدنيا وهو كان يحرض أتابك على الغدر بسونج فكافاه الله .

وهجم الشتاء فعاد أتابك إلى حلب في ذي الحجة .

سنة ٥٢٥

عود عماد الدين زنكي إلى الموصل

قال ابن العديم : وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة توجه أتابك إلى الموصل واستصحب معه سونج بن تاج الملوك وبعض المقدمين من عسكر دمشق وترك الباقين بحلب ، وترددت المراسلات في إطلاقهم فلم يفعل والتمس عنهم خمسين ألف دينار أجاب تاج الملوك إلى حملها فحملها .

ووقع في هذه السنة وقعة بين جوسلين وسوار بناحية حلب الشمالية فكانت الغلبة لجوسلين وقتل من المسلمين جماعة ، وخرج سوار بعد ذلك وهجم ربض الأثارب ونهبه اهـ .

فتح عماد الدين زنكي حصن الأثارب وهزيمة الفرنج

قال ابن الأثير في حوادث هذه السنة : لما فرغ عماد الدين زنكي من أمر البلاد الشامية حلب وأعمالها وما ملكه وقرر قواعده عاد إلى الموصل وديار الجزيرة ليستريح عسكره ، ثم أمرهم بالتجهز للغزاة فتجهزوا وأعدوا واستعدوا ، وعاد إلى الشام وقصد حلب فقوي عزمه على قصد حصن الأثارب ومحاصرته لشدة ضرره على المسلمين . وهذا الحصن بينه وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ واقع بينها وبين أنطاكية ، وكان من به من الفرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية حتى على رحا لأهل حلب بظاهر باب الجنان بينها وبين البلد عرض الطريق [هي طاحون عربية الآن] وكان أهل البلد معهم في ضر شديد وضيق كل يوم قد أغاروا عليهم ونهبوا أموالهم ، فلما رأى الشهيد هذه الحال صمم العزم على حصر هذا الحصن فسار إليه ونازله ، فلما علم الفرنج بذلك جمعوا فارسهم وراجلهم وعلموا أن هذه وقعة لها ما بعدها ، فحشدوا وجمعوا ولم يتركوا من طاقتهم شيئاً إلا واستنفدوه ، فلما فرغوا من أمرهم ساروا نحوه فاستشار أصحابه فيما يفعل ، وكان أشار بالعود عن الحصن فإن لقاء الفرنج في بلادهم خطر لا يدرى على أي شيء تكون العاقبة ، فقال لهم : إن الفرنج متى رأونا قد عدنا من أيديهم طمعوا وساروا في إثرنا وخربوا بلادنا ولا بد من لقائهم

على كل حال . ثم ترك الحصن وتقدم إليهم فالتقوا واصطفوا للقتال وصبر كل فريق لخصمه واشتد الأمر بينهم ، ثم إن الله تعالى أنزل نصره على المسلمين فظفروا وانهزم الفرنج أقبح هزيمة ووقع كثير من فرسانهم في الأسر وقتل منهم خلق كثير ، وتقدم عماد الدين إلى عسكره بالإنجاز وقال : هذا أول مصاف عملناه معهم فلنذقهم من بأسنا ما يبقي رعبه في قلوبهم ، ففعلوا ما أمرهم .

ولقد اجتزت بتلك الأرض سنة أربع وثمانين وخمسمائة ليلاً فقيل لي : إن كثيراً من العظام باق إلى ذلك الوقت . فلما فرغ المسلمون من ظفرهم عادوا إلى الحصن فتسلموه عنوة وقتلوا وأسروا كل من فيه وأخربه عماد الدين وجعله دكاً وبقي إلى الآن خراباً . ثم سار منه إلى قلعة حارم وهي بالقرب من أنطاكية فحصرها وهي أيضاً للفرنج فبذل له أهلها نصف دخل حارم وهادنوه فأجابهم إلى ذلك ، وعاد عنهم وقد استدار المسلمون بتلك الأعمال وضعفت قوى الفرنج وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع اهـ .

سنة ٥٢٦ و ٢٧ و ٢٨

قال ابن العديم : في سنة ست وعشرين وخمسمائة فتح الملك كليام (رام حمدان) ووقع بين الفرنج في هذه السنة فتن وقتل بعضهم بعضاً وقتل صاحب زردنا ، ونزل التركمان على بلد المعرة وكفرطاب وقسموا المغلات ، فاجتمع الفرنج وهزموهم عن البلد وفتحوا حصن قبة ابن ملاعب(١) وأسروا منه بنت سالم بن مالك وحريم ابن ملاعب وخربوا الموضع ، وأوقع الأمير سيف الدين سوار بفرنج تل باشر وقتل منهم خلقاً كثيراً ، ورتب قوم من أهل الجبل على حصن القدموس وأخذوه وسلموه إلى سيف الملك بن عمرون فاشتراه أبو الفتح الداعي الباطني منه ، ووصل صاحب القدموس إلى أنطاكية وجمع وخرج إلى سوار وسار إلى قنسرين في جموع الفرنج والتقوا بعسكر حلب وسوار في سنة ثمان وعشرين في ربيع الأول ، فكسروا المسلمين وقتلوا أبا القاسم التركمان وكان شجاعاً ، وقتلوا القاضي أبا يعلى بن الخشاب وغيرهما ، وتحول الفرنج إلى النقرة فصالحهم سوار والعسكر فأوقعوا بسرية منهم فقتلوهم وعادوا برؤوسهم وأسرى منهم ، فسر الناس بذلك بعد مساءتهم بالأمس . وأغارت خيل

(١) هكذا في الأصل ولعله حصن رفنية وفيه ابن ملاعب.

الرها من الفرنج ببلد الشمال وهي عابرة إلى عساكر الفرنج فأوقع بهم سوار وحسان صاحب منبج وقتلوهم بأسرهم وحملوا الرؤوس والأسرى إلى حلب .

وأغار سوار في هذه السنة على الجزر وحصن زردنا وأوقع بالفرنج على حارم وشن الغارة على بلد المعرَّتين وعاد بالغنائم إلى حلب .

ذكر الحرب بين صاحب البيت المقدس وبين أسوار نائب حلب

قال ابن الأثير : في هذه السنة (سنة ٥٢٧) في صفر سار ملك الفرنج صاحب البيت المقدس في خيالته ورجالته إلى أطراف أعمال حلب ، فتوجه إليه الأمير أسوار النائب بحلب فيمن عنده بالعساكر ، وانضاف إليه كثير من التركمان فاقتتلوا عند قنسرين فقتل من الطائفتين جماعة كثيرة وانهزم المسلمون إلى حلب . وتردد ملك الفرنج في أعمال حلب فعاد أسوار وخرج إليه فيمن معه من العسكر فوقع على طائفة منهم فأوقع بهم وأكثر القتل فيهم والأسر ، فعاد من سلم منهزماً إلى بلادهم وانجبر ذلك المصاب بهذا الظفر ، ودخل أسوار حلب ومعه الأسرى ورؤوس القتلى وكان يوماً مشهوداً .

ثم إن طائفة من الفرنج من الرها قصدوا أعمال حلب للغارة عليها ، فسمع بهم أسوار فخرج إليهم هو والأمير حسان البعلبكي فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم في بلد الشمال وأسروا من لم يقتل ورجعوا إلى حلب سالمين .

سنة ٥٣٠
ذكر غزاة العسكر الأتابكي إلى بلاد الفرنج

قال ابن الأثير : في هذه السنة في شعبان اجتمعت عساكر أتابك زنكي صاحب حلب وحماة مع الأمير أسوار نائبه بحلب وقصدوا بلاد الفرنج على حين غفلة منهم ، وقصدوا أعمال اللاذقية ولم يتمكن أهلها من الانتقال عنها والاحتراز ، فنهبوا منها ما يزيد عن الوصف وقتلوا وأسروا وفعلوا في بلاد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم . وكان الأسرى سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار

وبقر وغنم ، وأما ما سوى ذلك من الأقمشة والعين والحلي فيخرج عن الحد . وأخربوا بلد اللاذقية وما جاورها ولم يسلم منها إلا القليل ، وخرجوا إلى شيزر بما معهم من الغنائم سالمين منتصف رجب ، فامتلأ من الأسارى والدواب ، وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً ولم يقدر الفرنج على شيء يفعلونه مقابل هذه الحادثة عجزاً منهم ووهناً وضعفاً .اهـ .

سنة ٥٣١

محاصرة زنكي لحمص ثم لبارين

قال ابن العديم : في الرابع والعشرين من شهر رمضان من سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة وصل أتابك زنكي من الموصل إلى حلب وسير صلاح الدين في مقدمته ، فنزل حمص وسار أتابك إلى حماة وعيّد عيد الفطر في الطريق ، وأخذ من حلب معه خمسمائة راجل لحصار حمص .

ورحل أتابك من حماة إلى حمص في شوال وبها (أنر) من قبل صاحب دمشق فحصرها مدة ، وخرج الفرنج نجدة لحمص وغيلة لزنكي فرحل عن حمص ولقيهم تحت قلعة بارين فكسرتهم طلائع زنكي مع أسوار فأفنوا عامتهم قتلاً وأسراً ، وقتل أكثر من ألفين من الفرنج ونجا القليل منهم ، فرحل إلى بارين مع ملكهم كندياجور صاحب القدس ، وأقام الحصار على بارين بعشر مجانيق ليلاً ونهاراً . ثم تقرر الصلح في العشر الأواخر من ذي القعدة على التسليم بعد خراب القلعة ، وخلع على الملك وأطلق وخرج الفرنج منها وتبسلمها زنكي ، وعاد إلى حلب واستقر الصلح بين أتابك وصاحب دمشق . وتزوج أتابك خاتون بنت جناح الدولة حسين على يد الإمام برهان الدين البلخي ودخل عليها بحلب في هذه السنة .

زيادة بيان لهذه الحوادث واستيلاء زنكي على المعرة وكفرطاب

قال ابن الأثير : في هذه السنة في شوال سار أتابك زنكي من حمص وحصر قلعة بعرين وهي للفرنج تقارب مدينة حماة ، وهي من أمنع الحصون وأحصنها ، فلما نزل عليها قاتلها وزحف إليها ، فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وساروا في قضهم وقضيضهم وملوكهم

وقمامصتهم وكنودهم إلى أتابك زنكي ليرحلوه عن بعرين فلم يرحل وصبر لهم إلى أن وصلوا إليه ، فلقيهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان . ثم أجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج وأخذتهم سيوف المسلمون ومنع أتابك زنكي عنهم كل شيء حتى الأخبار ، فكان من به منهم لا يعلم شيئاً من أخبار بلادهم لشدة ضبطه الطرق وهيبته من جنوده .

ثم إن القسوس والرهبان دخلوا بلاد الروم وبلاد الفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين وأعلموهم أن زنكي إن أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم المحامي عنها وأن المسلمين ليس لهم نية إلا قصد البيت المقدس فحينئذ اجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام مع ملك الروم وكان منهم ما نذكره .

وأما زنكي فإنه جد في قتال الفرنج فصبروا وقلت عنهم الميرة والذخيرة ، فإنهم كانوا غير مستعدين ولم يكونوا يعتقدون أن أحداً يقدر عليهم ، بل كانوا يتوقعون ملك باقي بلاد الشام ، فلما قلت الذخيرة أكلوا دوابهم وأذعنوا بالتسليم ليؤمنهم ويتركهم يعودون إلى بلادهم فلم يجبهم إلى ذلك ، فلما سمع بقرب ملك الروم من الشام واجتماعه بمن بقي من الفرنج أعطى لمن في الحصن الأمان وقرر عليهم تسليم الحصن ومن المال خمسين ألف دينار يحملونها إليه ، فأجابوه إلى ذلك فخرجوا وسلموا إليه ، فلما فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم ، وكان لا يصلهم شيء من الأخبار البتة فلهذا سلموه .

وكان زنكي في مدة مقامه عليهم فتح المعرة وكفرطاب من الفرنج ، فكان أهلها وأهل سائر الولايات التي بينها وبين حلب وحماة مع أهل بعرين في الخزي لأن الحرب بينهم قائمةعلى ساق والنهب والقتل لا يزال بينهم ، فلما ملك أمن الناس وعمرت البلاد وعظم دخلها وكان فتحاً مبيناً ، ومن أحسن الأعمال ماعمله زنكي مع أهل المعرة، فإن الفرنج لما ملكوها كانوا قد أخذوا أملاكهم ، فلما فتحها زنكي الآن حضر من بقي من أهلها ومعهم أعقاب من هلك وطلبوا أملاكهم فطلب منهم كتبها ، فقالوا : إن الفرنج أخذوا كل مالنا والكتب التي للأملاك فيها ، فقال : اطلبوا دفاتر حلب وكل من عليه خراج على ملك يسلم إليه ، ففعلوا ذاك وأعاد على الناس أملاكهم ، وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها اهـ .

قال في الروضتين[1] : في هذه السنة (وهي سنة أربع وثلاثين) سار أتابك الشهيد إلى بلاد الفرنج فأغار عليها ، واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه فلقيهم بالقرب من حصن بارين وهو للفرنج ، فصبر الفريقان صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير ، ونصر الله المسلمين وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم فدخلوا حصن بارين فحصره حصراً شديداً ، فراسلوه في طلب الأمان ليسلموا ويسلموا الحصن فأبى إلا أخذهم قهراً ، فبلغه أن من بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم وينهون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل ومن بالحصن لا يعلمون بشيء من ذلك لقوة الحصن عليهم ، فأعادوا مراسلته في طلب الأمان فأجابهم وتسلم الحصن وساروا ، فلقيتهم أمداد النصرانية فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن فلاموهم وقالوا : عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين ، فحلفوا لهم إنا لم نعلم بوصولكم ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرونا إلى الآن ، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم أهملتم أمرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن .

قال ابن الأثير : وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم . وفي مدة مقامه على حصن بارين سير جنده إلى المعرة وكفرطاب وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها وهي بلاد كبيرة وقرى عظيمة .

قلت : وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج ويمدح زنكي قصيدة أولها :

حذارِ منا وأنى ينفع الحذرُ	وهي الصوارمُ لا تبقي ولا تذرُ
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك	من خيله النصر لا بل جندُه القدرُ
سلوا سيوفاً كإغماد السيوف بها	صالوا فما غمدوا نصلاً ولا شهروا
حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم	في مأزق من سناه يبرق البصرُ
ولو تضيق بهم ذرعاً مسالكهم	والموتُ لا ملجأ منه ولا وزر
وفي المسافة من دون النجاة لهم	طولٌ وإن كان في أقطارها قصر

(1) صاحب الروضتين ذكر ذلك في حوادث سنة ٥٣٤ وابن الأثير وابن العديم ذكراها في حوادث سنة ٥٣١ ، ويظهر أنه الأصح والله أعلم . وتاريخ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية هو للإمام شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة المتوفى سنة ٦٦٥ وسماه صاحب الكشف أزهار الروضتين وهو مطبوع .

فلا تخف بعدها الإفرنج قاطبة ... فالقوم إن نفروا ألوى بهم بقر
إن قاتلوا قُتلوا أو حاربوا حُربوا ... أو طاردوا طُردوا أو حاصروا حُصروا
وطالما استفحل الخطبُ البهيمُ بهم ... حتى أتى مَلِك آراؤه غرر
والسيف مفترع أبكار أنفسهم ... ومن هنالك قيل الصارم الذكر
لا فارقت ظل محيي العدل لامعة ... كالصبح تطوي من الأعداء ما نشروا
ولا انثنى النصر عن أنصار دولته ... بحيث كان وإن كانوا به نصروا
حتى تعود ثغورُ الشام ضاحكةً ... كأنما حل في أكنافهم عمر

وقال ابن منير :

فدتك الملـــوكُ وأيـامُهـــا ... ودام لنـــقضك إبرامُـهـــا
وزلّت لعـــيشك أقدامـهـــا ... وزال لبـــطشك إقدامـهـــا
ولو لم تسلّم إليك القلوبُ ... هواهـــا لما صح إسلامـهـــا
أيا محيي العدل لمـــا نعـــا ... ه أيامـى البرايـــا وأيتامـهـــا
ومستنقـذ الديـن مـن أمـــة ... أزال المحـــاريبُ أصنامـهـــا
دلـفت لهـــا تقتفيك الأسـو ... د والبيض والسـمر آجامـهـا
جزرت جزيـــرتها بالسيـــو ... ف حتى تشاءمها شامـهـا

قال في معجم البلدان : بارين بكسر الراء والعامة تقول بعرين : مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب اهـ .

سنة ٥٣٢

قال ابن الأثير : في هذه السنة في المحرم استولى أتابك زنكي على حمص وحصن المجدل .

ذكر وصول ملك الروم إلى الشام وملكه بزاعة وما فعله بالمسلمين

قال ابن الأثير : قد ذكرنا سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة خروج ملك الروم من بلاده وشغله بالفرنج وابن ليون . فلما دخلت هذه السنة ووصل إلى الشام وخافه الناس خوفاً عظيماً وقصد بزاعة فحصرها وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب ، فمضى

جماعة من أعيان حلب إلى أتابك زنكي وهو يحاصر حمص فاستغاثوا به واستنصروه ، فسير معهم كثيراً من العساكر فدخلوا إلى حلب ليمنعوها من الروم إن حصروها . ثم إن ملك الروم قاتل بزاعة ونصب عليها منجنيقات وضيق على من بها فملكها بالأمان في الخامس والعشرين من رجب ثم غدر بأهلها فقتل منهم وأسر وسبى ، وكان عدة من جرح فيها من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس ، وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يتطلبون من اختفى ، فقيل لهم إن جمعاً كثيراً من أهل هذه الناحية قد نزلوا المغارات فدخنوا عليهم وهلكوا في المغاير ثم رحلوا إلى حلب من الغد في خيلهم ورجلهم ، فخرج إليهم أحداث حلب فقاتلوهم قتالاً شديداً ، فقتل من الروم وجرح خلق كثير وقتل بطريق جليل القدر عندهم وعادوا خاسرون ، وأقاموا ثلاثة أيام فلم يروا فيها طمعاً فرحلوا إلى قلعة الأثارب ، فخاف من فيها من المسلمين فهربوا عنها تاسع شعبان ، فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعة والأسرى ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا .

فلما سمع الأمير أسوار بحلب ذلك رحل فيمن عنده من العسكر إلى الأثارب فأوقع بمن فيها من الروم فقتلهم وخلص الأسرى والسبي وعاد إلى حلب .

وأما عماد الدين زنكي فإنه فارق حمص وسار إلى سلمية فنازلها ، وعبر ثقله الفرات إلى الرقة وأقام جريدة ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة .

وأما الروم فإنهم قصدوا قلعة شيزر فإنها من أمنع الحصون ، وإنما حصروها لأنها لم تكن لزنكي فلا يكون له في حفظها اهتمام ، وإنما كانت للأمير أبي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني ، فنازلوها وحصروها ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً ، فأرسل صاحبها إلى زنكي يستنجده ، فسار إليه فنزل على نهر العاصي بالقرب منها بينها وبين حماة ، وكان يركب كل يوم ويسير إلى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم ، ثم إنه أرسل إلى ملك الروم يقول له : إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم وإن ظفرتم استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها ، ولم يكن له فيهم قوة وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه ، فأشار فرنج الشام على ملك الروم بمصافاته وهونوا أمره

عليه فلم يفعل وقال : أتظنون أن ليس له من العساكر إلا ما ترون ، إنما هو يريد أن تلقوه فيجيئه من نجدات المسلمين مالا حد له .

وكان زنكي يرسل أيضاً إلى ملك الروم يوهمه بأن فرنج الشام خائفون منه فلو فارق مكانه تخلفوا عنه ، ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم : إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً ، فاستشعر كل من صاحبه ، فرحل ملك الروم عنها في رمضان وكان مقامه عليها أربعين يوماً ، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها ، فسار أتابك زنكي يتبع ساقة العسكر فظفر بكثير ممن تخلف منهم وأخذ جميع ما تركوه ورفعه إلى قلعة حلب .

زيادة بيان لهذه الحوادث

قال ابن العديم في حوادث سنة ٥٣١ : وفي أواخر هذه السنة وصل ملك الروم كالياني من القسطنطينية في جموعه ووصل إلى أنطاكية ، فخالفه الفرنج لطفاً من الله تعالى ، وأقام إلى أن وصلته مراكبه البحرية بالأثقال والميرة والمال فاعتمد لاون بن روبال صاحب الثغور في حقه فتحاً عظيماً وتخوف أهل حلب منه ، فشرعوا في تحصينها وحفر خنادقها ، فعاد إلى بلاد لاون فافتتحها جميعها فدخل إليه لاون متطارحاً فقال : أنت بين الفرنج والأتراك لا يصلح لك المقام ، فسيره إلى قسطنطينية في عين زربة وآذنة والثغور مدة الشتاء ، وكان في عوده عن أنطاكية إلى ناحية بغراس في الثاني والعشرين ذي الحجة من سنة إحدى وعشرين أنفذ رسوله إلى زنكي وظفر سوار بسرية وافرة العدد من عسكره فقتل وأسر ودخل بهم إلى حلب ، ووصل الرسول إلى زنكي وهو متوجه إلى القبلة فرده ومعه هدية إلى ملك الروم فهود وبزاة وصقور على يد الحاجب حسن ، فعاد إليه ومعه رسول منه وأخبره بأنه يحاصر بلاد لاون ، فسار إلى حماة ورحل إلى حمص فقاتلها ، ثم سار في نصف المحرم من سنة اثنتين وثلاثين فنزل بعلبك وأخذ منها مالاً وسار إلى ناحية البقاع فملك حصن المجدل من أيدي الدمشقيين ، ودخل في طاعته إبراهيم بن طرغث والي بانياس وشتى أتابك زنكي بأرض دمشق . وورد عليه رسول الخليفة المكتفي والسلطان مسعود بالتشريف . ثم رحل أتابك عن دمشق في شهر ربيع الآخر وعاد إلى حماة ، ثم رحل عنها

إلى حمص فخيم عليها وجرد من حلب رجالاً لحصارها وجمع عليها جموعاً كثيرة وهجم المدينة وكسر أهلها ونال منهم منالاً عظيماً .

ونقض الفرنج الهدنة التي كانت بينهم وبين زنكي على حلب وأظهروا العناد وقبضوا على التجار بأنطاكية والسفار من أهل حلب في جمادى الأولى من السنة بعد إحسانه إليهم واصطناعه لمقدميهم حين أظفره الله بهم ، وانضافوا إلى ملك الروم كاليالي ، وظهر ملك الروم بغتة من طريق مدينة البلاط يوم الخميس الكبير من صومهم ، ونزل في الحادي والعشرين من رجب على حصن بزاعة ، وانتشرت الخيل بغتة فلطف الله بالمسلمين ، فرأوا رجلاً من [كافر ترك] ومعه جماعة منهم قد تاهوا عن عسكر الروم وأظهروا أنهم مستأمنة ، وأنذروا من بحلب بالروم فتحذر الناس وتحفظوا وكاتبوا أتابك زنكي بذلك ، فوصله الخبر وهو على حمص فسير في الحال الأمير سيف الدين سوار والرجّالة الحلبيين وخمسمائة فارس في أربعة من الأمراء الاصفهسلارية منهم زين الدين علي كوجك ، فقويت قلوب أهل حلب بهم ووصلوا في سابع وعشرين من رجب .

وأما الروم فإنهم حصروا حصن بزاعة وقاتلوه سبعة أيام فضعفت قلوب المسلمين ، وكان الحصن في يد امرأة فسلموه إلى الروم بالأمان بعد أن توثقوا منهم بالعهود والأيمان ، فغدروا بهم وأسروا من بزاعة ستة آلاف مسلم أو يزيدون .

وأقام الملك بالوادي يدخن على مغاير الباب عشرة أيام فهلكوا بالدخان ، ثم رحل فنزل يوم الأربعاء الخامس من شعبان بأرض الناعورة ، ثم رحل يوم الخميس سادس شعبان ومعه ريمند صاحب أنطاكية وابن جوسلين ، فنزل على حلب ونصب خيمته من قبليها على نهر قويق وأرض السعدي وقاتل حلب يوم الثلاثاء من ناحية برج الغنم ، وخرج إليهم أحداث حلب فقاتلوهم وظهروا عليهم وقتل من الروم مقدم كبير ، ورجعوا إلى خيمهم خائبين . ورحل يوم الأربعاء ثامن شعبان مقتبلاً إلى السعدي فخاف من بقلعة الأثارب من جند المسلمين فهربوا منها يوم الخميس تاسع شعبان وطرحوا النار في خزائنهم ، وعرف الروم ذلك فخفت منهم سرية وجماعة من الفرنج ومعهم سبي بزاعة والوادي فملكوا القلعة وألجؤوا السبي إلى خنادقها وأحواشها ، فهرب جماعة منهم إلى حلب وأعلموا الأمير سيف الدين سوار بن إيتكين بذلك وأن الروم انعزلوا عنها ، ونهض إليهم سوار في شرذمة من العسكر

فصابحهم وقد انتشروا بعد طلوع الشمس ، فوقع عليهم واستخلص السبي جميعه إلا اليسير منهم وأركب الضعفاء منهم خلف الخيالة ، حتى إنه أخذ بنفسه جماعة من الصبيان وأركبهم بين يديه ومن خلفه ووصل بهم إلى حلب ولم يبق من السبي إلا القليل ، ووصل بهم إلى حلب في يوم السبت الحادي عشر من شعبان فسر أهل حلب سروراً عظيماً .

وكان أتابك قد رحل من حمص إلى حماة ثم رحل إلى سلمية ورحل ملك الروم إلى بلد معرة النعمان ، ورحل عنها يوم الاثنين ثالث عشر شعبان إلى جهة شيزر ونزلوا كفر طاب ورموها بالمجانيق فسلمها أهلها في نصف شعبان ، وهرب أهل الجسر وتركوه خالياً ، فوصله الروم وجلسوا فيه ورحلوا إلى شيزر يوم الخميس سادس عشر شعبان ، فوصلوها في مائة ألف راكب ومائة ألف راجل ومعهم من الكراع والسلاح ما لا يحصيه إلا الله ، فنزلوا الرابية المشرفة على بلدة شيزر وأقاموا يومهم ويوم الجمعة إلى آخر النهار ، وركبوا وهجموا البلد فقاتلهم الناس وجرح أبو المرهف نصر بن منقذ ومات في رمضان من جرحه ذلك ، ثم انهزم الروم وخرجوا ، ونزل صاحب أنطاكية في مسجد سمنون وجوسلين في المصلى ، وركب الملك يوم السبت وطلع إلى الجبل المقابل لقلعة شيزر المعروف بجريجس ونصب على القلعة ثمانية عشر منجنيقاً وأربع لعب تمنع الناس من الماء ، ودام القتال عشرة أيام ولقي أهل قلعة شيزر بلاءً عظيماً ، ثم اقتصروا في القتال على المجانيق وأقاموا إلى يوم السبت تاسع عشر رمضان ، وبلغهم أن قرا أرسلان بن داود بن سكمان بن أرتق عبر الفرات في جموع عظيمة تزيد عن خمسين ألفاً من التركمان وغيرهم ، فأحرقوا آلات الحصار ورحلوا عن شيزر وتركوا مجانيق عظاماً رفعها أتابك إلى قلعة حلب بعد رحيلهم . وساروا بعد أن هجموا ربض شيزر دفعات عدة ويخرجهم المسلمون منها ، فوصل صلاح الدين من حماة يوم السبت تاسع الشهر وبلغه أن الفرنج هربوا من كفر طاب ، فسار إليها وملكها ، ووصل أتابك يوم الأحد عاشر الشهر وسار إلى الجسر يوم الاثنين فوجد الفرنج قد هربوا نصف الليل ونزل أهله من أبي قبيس (هكذا) فمنعوهم ، ودخل الروم مضيق أفامية إلى أنطاكية وطلبها من الفرنج فلم يعطوه إياها ، فرحل عنها إلى بلاده وسير أتابك خلفهم سرية من العسكر تتخطفهم ، هذا كله وأتابك لم يستحضر قرا أرسلان بن داود ولم يجتمع به ، بل بعث إليه يأمره بالعود إلى أبيه وأنه مستغن عنه . وانحاز عنهم فنزل أرض حمص

وكتب إلى شهاب الدين محمود بن بوري يطلبها ، وترددت الرسل بينهم على أن يسلم أتابك حمص ويعوض أنر واليها ببارين واللكمة والحصن الشرقي ، وتسلم أتابك حمص وتسلم الدمشقيون المواضع المذكورة .

ورحل أتابك عن حمص وسار إلى حلب ، ثم خرج منها إلى بزاعة وفتحها بالسيف يوم الثلاثاء تاسع عشر محرم من سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وقتل كل من كان بها على قبر شرف الدولة مسلم بن قريش ، وكان ضرب عليها بسهم في عينه فمات ، وعاد منها إلى حلب وسار إلى الأثارب ففتحها في ثالث صفر .

قال في الروضتين : ولما يسر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا . منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن مسلم بن قسيم الحموي له قصيدة قد ذكرتها في ترجمته في التاريخ أولها :

بعزمك أيها الملك العظيمُ تذل لك الصعابُ وتستقيمُ
ألم تر أن كلب الروم لما تبين أنك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلاً كأن الجحفل الليل البهيم
وقد ترك الزمان على رضاه فكان لخطبه الخطب الجسيم
فحين رميته بك في خميس تيقن أن ذلك لا يدوم
وأبصر في المفاضة منك جيشاً فأحزن لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهابُ نورٍ توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى وليس سوى الحمامِ له حميم
يؤمل أن تجود بها عليه وأنت بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنج لديك عفواً وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرعتها غصصَ المنايا بيوم فيه يكتهل الفطيم
ولما أن طلبتهم تمنى الـ ـمنية جوسلينهم اللئيم
أقام يطوّف الآفاق حيناً وأنت على معاقله مقيم
فسار وما يعادله مليك وعاد وما يعادله سقيم
إذا خطرت سيوفك في نفوس فأول ما يفارقها الجسوم

قال ابن الآثير : ومن عجائب ما يحكى في هذه الحادثة أن الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر قام الأمير مرشد بن علي أخو صاحبها وهو ينسخ مصحفاً فرفعه بيده وقال : اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجيء الروم فاقبضني إليك . فتوفي بعد أيام ونزل الروم بعد وفاته .

قال في الروضتين : لما وصل الروم والفرنج إلى الشام ورأوا الأمر قد فات أرادوا جبر مصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين ، فنازلوا حلب وحصروها فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم لأنهم كانوا في جمع عظيم ، فانحاز عنهم ونزل (في بزاعة) قريباً منهم يمنع عنهم الميرة ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها والإغارة عليها ، وأرسل القاضي كمال الدين بن الشهرزوري إلى السلطان مسعود ينهي إليه الحال بأمر البلاد وكثرة العدو ، ويطلب منه النجدة وإرسال العساكر ، فقال له كمال الدين : أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة وينفذ العساكر ، فإذا توسطوا البلاد ملكوها ، فقال الشهيد: إن هذا العدو قد طمع فيّ وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام ، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الفرنج ، قال : فلما وصلت إلى بغداد وأديت الرسالة وعدني السلطان بإنفاذ العساكر وأنا أخاطب فلا أزاد على الوعد ، قال : فلما رأيت عدم اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرت فلاناً وهو فقيه وكان ينوب عنه في القضاء فقلت : خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم ، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد والإسلاماه وادين محمداه ، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين ، ثم وضعت إنساناً آخر يفعل مثل ذلك في جامع السلطان . فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح ، وتبعه أولئك النفر بالصياح والبكاء فلم يبق بالجامع إلا من قام يبكي وبطلت الجمعة ، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان ، وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعساكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون ، وخرج الأمراء عن الضبط وخاف السلطان في داره وقال : ما الخبر ؟ فقيل له : إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة ، فقال : أحضروا ابن الشهرزوري ، قال : فحضرت عنده وأنا خائف منه إلا أنني قد عزمت على

صدقه وقول الحق ، فلما دخلت عليه قال : يا قاضي ما هذه الفتنة ؟ فقلت : إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر ، ولاشك أن السلطان ما يعلم كم بينه وبين العدو وإنما بينكم نحو أسبوع ، ولئن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات وفي البر وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد ، وعظّمت الأمر عليه حتى جعلته كأنه ينظر إليهم ، فقال : اردد هؤلاء العامة عنا وخذ من العساكر ما شئت وسر بهم والأمداد تلحقك ، قال : فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم فأخبرتهم وعرفتهم الحال وأمرتهم بالعود ، فعادوا وتفرقوا ، وانتخبت من عسكرهِ عشرة آلاف فارس وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير وأجدد استئذانه في ذلك ، فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك ، فعبرت العساكر الجانب الغربي . فبينما نحن نتجهز للحركة وإذا قد وصل نجاب من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضاً ويأمرني بترك استصحاب العساكر ، فلما خوطب السلطان في ذلك أصر إلى إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها ، وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها ، فلم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي وسرت إلى الشهيد . قال ابن الأثير : فانظروا إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس يعني كمال الدين ، رحم الله الشهيد فلقد كان ذا همة عالية ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل يرغبهم ويخطبهم من البلاد ويوفر لهم العطاء . [حكى لي والدي] قال : قيل للشهيد : إن هذا كمال الدين يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار ، فقال لهم : بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي ، إن كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار ، فإن شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار . وكان كما قال رحمه الله تعالى .

سنة ٥٣٣

سنة الزلازل

قال ابن الأثير : في هذه السنة في صفر كانت زلازل كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد ، وكان أشدها بالشام ، وكانت متوالية عشر ليال كل ليلة عشر دفعات ،

فخرب كثير من البلاد ولا سيما حلب ، فإن أهلها لما كثرت عليهم فارقوا البلاد والبيوت وخرجوا إلى الصحراء ، وعدوا ليلة واحدة جاءتهم ثمانين مرة ، ولم تزل بالشام تتعاهدهم من رابع صفر إلى تاسع عشره ، وكان معها صوت وهزة شديدة اهـ .

قال ابن العديم وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر حدثت زلزلة شديدة ثم أتبعتها أخرى ، وتواصلت الزلازل فهرب الناس من حلب إلى ظاهر البلد ، وخرجت الأحجار من الحيطان إلى الطريق ، وسمع الناس دوياً عظيماً وانقلبت الأثارب فهلك فيها ستمائة من المسلمين وسلم الوالي ومعه نفر يسير ، وهلك أكثر البلاد من شيح وتل عماد وتل خالد وزردنا ، وشوهدت الأرض تموج والأحجار عليها تضطرب كالحنطة في الغربال ، وانهدم في حلب دور كثيرة وتشعث السور واضطربت جدران القلعة . وسار أتابك مشرقاً فنزل القلعة وسار منها إلى القلعة [هكذا] ثم إلى الموصل ، وتواترت الزلازل وقيل إن عدتها كانت ثمانين زلزلة .

وكان في سنة اثنتين وثلاثين قد عول أتابك على قبض أملاك الحلبيين التي استحدثوها من أيام رضوان إلى آخر أيام إيلغازي ، ثم قرر عليهم عشرة آلاف ، فأدوا من ذلك ألف دينار ، وجاءت هذه الزلازل فهرب أتابك من القلعة إلى ميدانها خائفاً وأطلق القطيعة .

وفي هذه السنة نهض سوار إلى الفرنج فغنم من بلادهم ولحقوه فاستخلصوا ما غنم ، وانهزم المسلمون فغنم الفرنج وأخذوا منهم ألفاً ومائتي فارس وأسروا صاحب الكهف ابن عمرون وكان قد سلمها إلى الباطنية .

سنة ٥٣٤

قال ابن الأثير : في هذه السنة حصر أتابك زنكي دمشق مرتين . وملك شهرزور وأعمالها وما يجاورها ، وبسط الخبر في ذلك .

وفيها في ربيع الآخر مات قاضي حلب أبو غانم محمد بن أبي جرادة فولي قضاءها ولده أبو الفضل هبة الله محمد ، ولما استحضره أتابك وولاه القضاء قال له : هذا أمر قد نزعته من عنقي وقلدتك إياه فينبغي أن تتقي الله تعالى وأن تساوي بين الخصمين هكذا ، وجمع بين أصابعه . اهـ .

سنة ٥٣٦

إغارة الفرنج على سرمين

قال ابن العديم : في هذه السنة أغار الفرنج على بلد سرمين وأخربوا ونهبوا ، ثم تحولوا إلى جبل السمّاق ، وكذلك فعلوا بكفر طاب وتفرقوا فأغار علم الدين بن سيف الدين سوار مع التركان إلى باب أنطاكية وعادوا بالغنائم والوسيق العظيم .

وأغار لجه التركي وكان قد برح عن دمشق إلى خدمة زنكي على بلد الفرنج في جمادى فساق وسبى وقتل ، وذكر أن عدة المقتولين سبعمائة رجل .

ونهض سوار (نائب أتابك زنكي في حلب) في شهر رمضان إلى بلد أنطاكية ، وعند الجسر جمع عظيم وخيم مضروبة من الفرنج ، فخاض التركان إليهم العاصي وكسروا الجميع هناك وقتلوا كل من كان بالخيم ونهبوا وسبوا وعادوا إلى حلب بالوسيق العظيم والأسرى والرؤوس . وخرج ملك أنطاكية إلى وادي بزاعة فخرج سوار فردهم إلى الشمال ، واجتمع سوار وجوسلين بين العسكرين فاتفق الصلح بينهما .

سنة ٥٣٧

قال في الروضتين : في هذه السنة سار الشهيد إلى بلد الهكارية وكان بيد الأكراد وقد أكثروا في البلاد الفساد ، إلا أن نصير الدين جقر نائب السلطان الشهيد بالموصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم ، فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشبعباني (اسمها أشب) وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها فملكها وأخربها وأمر ببناء قلعة العمادية عوضاً عنها ، وكانت هذه العمادية حصناً كبيراً عظيماً فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره ، فلما ملك أتابك الشهيد البلاد التي لهم قال : إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول الله لا أعجز عنه ، فأمر ببنائه ، وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر فبنى الحصن وسماه القلعة العمادية نسبة إلى لقبه عماد الدين . اهـ .

سنة ٥٣٨

ذكر فتح أتابك قلعتي أبزون وحيزان وغيرهما

قال ابن العديم : في هذه السنة فتح أتابك قلعة أبزون وبعدها قلعة حيزان ومما كان بيد الفرنج جملين والمؤزر وتل موز وغيرها ، وخرج عسكر حلب فظفروا برفقة كبيرة كثيرة من التجاره والأجناد وغيرهم خرجت من أنطاكية تريد بلاد الفرنج معها مال كثير ودواب ومتاع ، فأوقعوا بهم وقتلوا جميع الخيّالة من الفرنج الخارجين لحمايتهم وأخذوا ما كان معهم وعادوا إلى حلب ، وذلك في جمادى الأولى من السنة .

وفي ذي القعدة من السنة توجهت خيل التركمان من حلب فأوقعت بخيل خارجة من باسوطا فقتلوهم ، وأسروا صاحب باسوطا جاؤوا به إلى حلب فسلموه إلى سوار فقيده .

ذكر فتح أتابك زنكي طنزة وأسعرد وغير ذلك

قال ابن الأثير : وفي هذه السنة سار أتابك زنكي إلى ديار بكر ففتح منها عدة بلاد وحصون ، فمن ذلك مدينة طنزة ، ومن ذلك مدينة أسعرد ومدينة حيزان وحصن الدوق وحصن مطليس وحصن بانسية وحصن ذي القرنين وغير ذلك مما لم يبلغ غيره هذه الأماكن ، وأخذ أيضاً من بلد ماردين مما هو بيد الفرنج جملين والمؤزر وتل موزر وغيرها من حصون جوسلين ، ورتب أمور الجميع وخلى فيها من الأجناد من يحفظها ، وقصد مدينة آمد وحاني فحصرهما وأقام بتلك الناحية مصلحاً لما فتحه ومحصراً لما لم يفتحه .

وفيها سير أتابك زنكي عسكراً إلى مدينة عانة من أعمال الفرات فملكوها .

قال في الروضتين وفي الكامل : في هذه السنة وصل السلطان مسعود إلى بغداد على عادته في كل سنة وجمع العساكر وتجهز لقصد أتابك زنكي ، وكان حقد عليه حقداً شديداً ، وسبب ذلك أن أصحاب الأطراف الخارجين على السلطان مسعود كانوا يخرجون عليه ، فكان ينسب ذلك إلى أتابك زنكي ويقول : هو الذي سعى فيه وأشار به لعلمه

أنهم كلهم يصدرون عن رأيه ، فكان أتابك زنكي لا شك يفعل ذلك لئلا يخلو السلطان فيتمكن منه ومن غيره ، فلما تفرغ السلطان هذه السنة جمع العساكر ليسيروا إلى بلاده ، فسير أتابك يستعطفه ويستميله ، فأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري في تقرير القواعد فاستقرت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها الشهيد إلى السلطان ليعود عنه ، فحمل عشرين ألف دينار أكثرها عروض وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج ، فعذره وشرط عليه فتح الرها . وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له إن مملكة البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين ، فإنها قد وليها قبله مثل جاولي سقاوة ومودود وجيوش بك والبرسقي وغيرهم من الأكابر ، وكان السلاطين يمدونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدرون على حفظها ، ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتابك فلم يمده أحد من السلاطين بفارس واحد ولا بمال ، ومع هذا فقد فتح من بلاد العدو عدة حصون وولايات وهزمهم غير مرة واستضعفهم وعز الإسلام به . ومن الأسباب المانعة له أيضاً أن الشهيد كان لايزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده ، وكان السلطان يحبه ويقربه ويعتمد عليه ويثق به ، فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب والمجيء ، إلى الموصل ، وأرسل إلى نائبه بالموصل يأمره أن يمنعه من دخول الموصل ومن المسير إليه ، ففعل ذلك وقال له : ترسل إلى والدك تستأذنه في الذي نفعله ، فأرسل إليه فعاد الجواب : إنني لا أريدك ما دام السلطان ساخطاً عليك ، فألزمه بالعود إليه ، فعاد ومعه رسول إلى السلطان يقول له : إنني لما بلغني أن ولدي فارق الخدمة بغير إذن لم أجتمع به ورددته إلى بابك ، فحل هذا عند السلطان محلاً كبيراً وأجاب إلى ما أراد الشهيد . ثم إن الأمور تقلبت وعاد أصحاب الأطراف خرجوا على السلطان فاحتاج إلى مداراة الشهيد وأطلق له الباقي مما تقرر عليه استمالةً له .

سنة ٥٣٩

ذكر فتح الرها وغيرها من البلاد الجزرية

قال ابن العديم : كان أتابك زنكي لايزال يفكر في فتح الرها ونفسه في كل حين تطالبه بذلك ، إلى أن عرف أن جوسلين صاحبها قد خرج منها في معظم عسكره في

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة لأمر اقتضاه ، فسارع أتابك إلى النزول عليها في عسكر عظيم ، وكاتب التركمان بالوصول إليه فوصل خلق عظيم ، وأحاط المسلمون بها من كل الجهات وحالوا بينها وبين من يدخل إليها بميرة وغيرها ونصب عليها المجانيق . وشرع الحلبيون فنقبوا عدة مواضع عرفوا أمرها إلى أن وصلوا إلى تحت أساس أبراج السور فعلقوه بالأخشاب واستأذنوا أتابك في إطلاق النار فيه ، فدخل إلى النقب بنفسه وشاهده ، ثم أذن لهم فألقوا النار فيه فوقع السور في الحال وهجم المسلمون البلد وملكوه بالسيف يوم السبت سادس عشر جمادى الآخرة وشرعوا في النهب والقتل والأسر والسبي حتى امتلأت أيديهم من الغنايم .

ثم أمر أتابك برفع السيف عن أهلها ومنع السبي ورده من أيدي المسلمين وأوصى بأهلها خيراً ، وشرع في عمارة ما انهدم منها وترميمه .

وكان جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان رئيس حران هو الذي يحث أتابك في جميع الأوقات على أخذها ويسهل عليه أمرها ، فوجد على عضادة محرابها مكتوباً :

أصبحت صفراً من بين الأصفرِ أختال بالأعلام والمنبرِ
دانٍ من المعروف حالٍ به ناء عن الفحشاء والمنكرِ
مطهر الرحب على أنني لولا جمالُ الدين لم أطهرِ

فبلغ ذلك رئيس حران فقال : امحوا جمال الدين واكتبوا عماد الدين ، فبلغ ذلك زنكي فقال : صدق الشاعر لولاه لما طمعنا فيها .

وأمر عماله بتخفيف الوطأة في الخراج وأن يأخذوه على قد مغلاتها .

ثم رحل إلى سروج ففتحها وهرب الفرنج منها ، ثم رحل فنزل على البيرة فحاصرها في هذه السنة . وجاء الخبر من الموصل أن نصير الدين جقر نائبه بالموصل قتل ، فخاف عليها وترك البيرة بعد أن قارب أخذها وسار حتى دخل الموصل وأخذ فرخانشاه ابن السلطان الذي قتل جقر وعزم على تملك الموصل ، فقتله بدم جقر وولى الموصل مكان الأمير زين الدين علي كوجك .

قال في الروضتين وفي الكامل : إن الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً ، وهي أحد الكراسي عندهم ، فأشرفها البيت المقدس ثم أنطاكية ثم رومية ثم

قسطنطينية والرها ، وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شر عظيم ، وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات على طريق شبختان عدة حصون كسروج والبيرة وجملين والموزر ، وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر وماردين ورأس عين والرقة ، وأما حران فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صبحوها بالغارة ، وكانت الرها لجوسلين وهو عاتي الفرنج وشيطانهم والمقدم على رجالهم وفرسانهم . فلما رأى أتابك الشهيد الحال هكذا أنف منهم وكان يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فتعذر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة ولما هو عليه من المكر والشجاعة ، فأخذ في إعمال الحيل والخداع لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الإسلام كحاني وجبل جور وآمد ، فكان يقاتل من بها قتالاً فيه إبقاء وهو يسر حسواً في ارتغاء ، فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ويطلبها وسواها يروم ، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده ، فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظن أنه لا فراغ له إليه وأنه لا يمكنه الإقدام عليه .

قال في الكامل : وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى بلاد الغربية فجاءت عيون أتابك إليه فأخبروه الخبر فنادى في العسكر بالرحيل وأن لا يأكل معي على مائدتي هذه إلا من يطعن غداً معي بباب الرها ، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد وصبي لا يعرف لما يعلمون من إقدامه وشجاعته وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب ، فقال الأمير لذلك الصبي : ما أنت في هذا المقام ، فقال أتابك : دعوه فوالله إني أرى وجهاً لا يختلف عني ، وسار العساكر معه ووصل إلى الرها ، وكان هو أول من حمل على الفرنج ، وحمل ذلك الصبي وحمل فارس من خيالة الفرنج على أتابك عرضاً فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله وسلم الشهيد ، ونازل البلد وقاتله ثمانية وعشرين يوماً فزحف إليه عدة دفعات وقدم النقابين فنقبوا سور البلد ولج في قتاله خوفاً من اجتماع الفرنج والمسير إليه واستنقاذ البلد منه ، فسقطت البدنة التي نقبها النقابون وأخذ البلد عنوة وقهراً وحصر قلعته فملكها أيضاً ، ونهب الناس الأموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال ، فلما رأى أتابك البلد أعجبه ورأى تخريب مثله لا يجوز في السياسة ، فأمر فنودي في العساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوا الجميع عن آخره لم

يفقد منه شيء إلا الشاذ النادر الذي أخذ وفارق من أخذه العسكر ، فعاد البلد على حاله الأول وجعل فيه عسكراً يحفظه .

قال في الروضتين : وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا كسروج وغيرها وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرهم وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين ، وكان فتحاً عظيماً طار في الآفاق ذكره وطاب بها نشره وشهده خلق كثير من الصالحين والأولين .

قال ابن الأثير : حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الشافعي وكان من العلماء والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها وله الكرامات الظاهرة ، ذكر عنه أنه غاب عنهم في زاويته يومه ذلك ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور عنده من الارتياح ما لم يردّه أبداً ، فلما قعد معهم قال : حدثني بعض إخواننا أن أتابك زنكي فتح مدينة الرها وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا ، ثم قال : ما يضرك يا زنكي ما فعلت بعد اليوم ، يردد هذا القول مراراً ، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح . ثم إن نفراً من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له : منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح ، وهو ينكر حضوره وهم يقسمون أنهم رأوه عياناً، قال: وحكى لي بعض العلماء بالأخبار والأنساب وهو أعلم من رأيت بها قال : كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين ، وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين ، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرها سير ملك الفرنج هذا جيشاً إلى إفريقية فنهبوا وغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس وهو شبيه النائم فأيقظه الملك وقال : يا فقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت ، أين كان محمد عن نصرتهم ؟ فقال له : كان قد حضر فتح الرها ، فتضاحك من عنده من الفرنج ، فقال لهم الملك : لا تضحكوا فوالله ما قال عن غير علم ، واشتد هذا على الملك فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين فأنساهم شدة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر لعلو منزلة الرها عند النصرانية . قال : وحكى لي أيضاً غير واحد ممن أثق إليهم أن رجلاً من الصالحين قال : رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال فقلت له: ما فعل الله بك؟

فقال : غفر لي ، قلت : بماذا ؟ قال : بفتح الرها . قلت : وهنأه القيسراني عند فتح الرها بقصيدة أولها :

هو السيف لا يغنيك إلا جلادُه ... وهل طوق الأملاك إلا نجادُه
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا ... سناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الإسلام فخراً بطوله ... ولم يك يسمو الدين لولا عماده
وزاد قسيم الدولة ابن قسيمها ... عن الله ما لا يستطاع زياده
ليهن بني الإيمان أمنٌ ترفعت ... رواسيه عزاً واطمأن مهاده
وفتح حديث في السماع حديثه ... شهي إلى يوم المعاد معاده
أراح قلوباً طرن عن وكناتها ... عليها قواف كل صبدر فؤاده
لقد كان في فتح الرهاء دلالة ... على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجون ميلاد ابن مريم نصرة ... ولم يغن عند القوم عنه ولاده
مدينة أفك منذ خمسين حجة ... يغلّ حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الأبصار حتى لو انها ... ترقت إليه خان طرفاً سواده
وجامحة عز الملوك قيادها ... إلى أن ثناها من يعز قياده
فأوسعها حر القراع مؤيد ... شرار ولكن في يديه زناده
فأضرمها نارين حرباً وخدعة ... فما راع إلا سورها وانهداده
فصدت صدود البكر عند افتضاضها ... وهيهات كان السيف حتماً سفاده
فيا ظفراً عم البلاد صلاحه ... بمن كان قد عم البلاد فساده
فلا مطلق إلا وشد وثاقه ... ولا موثق إلا وحل صفاده
ولا منبر إلا ترنح عوده ... ولا مصحف إلا أنار مداده
فإن يثكل [الأبرنز] فيها حياته ... وإلا فقل للنجم كيف سهاده
وبانت سرايا القمص تقمص دونها ... كما تتنزى عن حريق حراده
إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها ... لقد ذلّ غاويكم وعز رشاده
رويدكم لا مانع من مظفر ... يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأي لو أن عزمه ... رمى سدّ ذي القرنين أصمى سداده

وقل لملوك الكفر تسلم بعدها ممالكهـا إن البـلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح فلينته الدجى فيا طالما غال الظلام امتداده
ومن كان أملاك السموات جنده فأية أرض لم ترضها جياده
ولله عزم ماء سيحان ورده وروضة قسطنطينـة مستـراده

وله من قصيدة هنأ بها القاضي كمال الدين بن الشهرزوري أولها :

هي جنة المأوى فهل من خاطب

إن الصفائح يوم صافحت الرها عطفت عليها كل أشوس ناكب
فتـح الفتـوح مبشراً بتمامـه كالفجر في صدر النهار الآيب
لله أيـة وقفـة بدريـة نصرت صحائبها بأيمن صاحب
ظفر كمال الدين كنت لقاحه كم ناهض بالحرب غير محارب
وأمـدكم جيش الملايك نصرة بكتـائب محثوثـة بكتـائب
جنبوا الدبور وقدمـو ريح الصبا جند النبوة هل لها من غـالب
أترى الرها الورهاء يوم تمنعت ظنت وجوب السور سورة لاعب
لا أين لا أسرى المهالك بعدها ضاق الفضاء على نجاة الهـارب
شدّاً إلى أرض الفرنجة بعدهـا إن الدروب على الطريق اللاحب
أفغـركم والثـار رهـن دمائكـم ما كان من إطراق لحظ الطالب
وإذا رأيت الليث يجمع نفسه دون الفريسة فهو عين الهارب

وقال ابن منير :

صفات مجدك لفظ جل معنـاه فلا استرد الذي أعطاكه الله
يا صارماً بيمين الله قائمـه وفي أعـالي أعادي الله حداه
أضبحت دون ملوك الأرض منفرداً بلا شبيه إذ الأملاك أشباه
فداك من صاولت مسعاك همته جهلاً وقصر عن مسعاك مسعاه
قل للأعادي ألا موتوا به كمداً فالله خيبكـم والله أعطـاه
ملك تنام عن الفحشـاء همته تقىً وتسهر للمعـروف عينـاه
ما زال يسمك والأيام تخدمه فيما ابتلاه يؤدي ما توخـاه

حتى تعالت عن الشعرى مشاعره ... قدراً وجاوزت الجوزاء نعلاه
وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا ... وأين مما رووه ما رأيناه
أين الخلائق عن فتح أتيح له ... مظلل أفق الدنيا جناحاه
على المنابر من أنبائه أرج ... مقطوبة بفتيق المسك ريّاه
فتح أعاد على الإسلام بهجته ... فافتر مبسمه واهتز عطفاه
يهذي بمعتصم بالله فتكته ... حديثها نسخ الماضي وأنساه
إن الرها غير عمورية وكذا ... من رامها ليس مغزاه كمغزاه
أخت الكواكب عزاً ما بغى أحد ... من الملوك لها وقماً فواتاه
حتى دلفت لها بالعزم يشحذه ... رأي يبيت فويق النجم مسراه
يا محيي العدل إذ قامت نوادبه ... وعامر الجود لما مح مغناه
يا نعمة الله يستصفي المزيد بها ... للشاكرين ويستغني صفاياه
أبقاك للدين والدنيا تحوطهما ... من لم يتوجك هذا التاج إلا هو

وله من قصيدة أخرى :

بعماد الدين أضحت عروة الـ ... ـدين معصوباً بها الفتح المبينْ
واستزادت بقسيم الدولة الـ ... ـقسم من إدحاض كيد المارقين
ملك أسهر عيناً لم تزل ... همها تشريد همّ الراقدين
لا خلت من كحل النصر فقد ... فقأت غيظاً عيون الحاسدين
كل يوم مر من أيامه ... فهو عيد عائد للمسلمين
لو جرى الإنصاف في أوصافه ... كان أولاها أمير المؤمنين
ما روى الراوون بل ما سطروا ... مثل ما خطت له أيدي السنين

ومنها :

والرها لو لم تكن إلا الرها ... لكفت قطعاً لشك الممترين
همَّ قسطنطين أن يفزعها ... ومضى لم يحو منها قسط طين
ولكم من ملك حاولها ... فتحلى الحين وسماً في الجبين

هي أخت النجم إلا أنها منه كالنجم لرأي المبصرين
منيت منه بليث قائد بعران الذل آساد العرين
زارها يزأر في أسد وغى تبدل الأسد من الزأر الأنين

وهي طويلة اقتصرنا منها على هذا المقدار .

قال في الروضتين : ولما فرغ الشهيد من أخذ الرها وإصلاح حالها والاستيلاء على ما وراءها من البلاد والولايات سار إلى قلعة البيرة وهي حصن حصين مطل على الفرات وهو لجوسلين أيضاً فحصره وضايقه ، فأتاه الخبر بقتل نائبه بالموصل والبلاد الشرقية نصير الدين جقر بن يعقوب ، فرحل عنها خوفاً من أن يحدث في البلاد فتن يحتاج إلى المسير إليها ، فلما رحل عنها سير إليها حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي صاحب ماردين عسكراً فسلمها الفرنج إليهم خوفاً من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها . ثم ساق السبب في قتل نصير الدين وتوجه أتابك إلى الموصل لإصلاح شؤونها إلى أن قال : ولما رأى الشهيد صلاح أمر الموصل سار إلى حلب فجهز منها جيشاً إلى قلعة شيزر وبينها وبين حماة نحو أربعة فراسخ فحصرها . ولم يذكر هل أنه ملكها أو رحل عنها .

سنة ٥٤١

حصر عماد الدين زنكي قلعة جعبر ثم خبر قتله وترجمته

قال ابن العديم : ثم شرع زنكي في الجمع والاحتشاد والاستكثار من عمل المجانيق وآلة الحرب في أوائل سنة أربعين وخمسمائة ، ويظهر للناس أن ذلك لقصد الجهاد وبعض الناس يقول إنه لقصد دمشق ومنازلتها ، وكان ببعلبك مجانيق فحملت إلى حمص في شعبان من هذه السنة . وقيل إن عزمه انثنى عن الجهاد في هذه السنة وإن جماعة من الأرمن بالرها عاملوا عليها وأرادوا الإيقاع بمن كان فيها من المسلمين ، واطلع على حالهم وتوجه أتابك من الموصل نحوها وقوبل من عزم على الفساد بالقتل والصلب ، وسار ونزل على قلعة جعبر بالبرج الشرقي تحت القلعة يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة فأقام عليها إلى ليلة الأحد سادس شهر ربيع الآخر نصف الليل من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، فقتله برتقش الخادم ، كان يهدده في النهار فخاف منه فقتله في الليل في فراشه ، وقيل إنه شرب ونام فأنتبه فوجد

برتقش الخادم وجماعة من غلمانه يشربون فضل شرابه ، فتوعدهم ونام فأجمعوا على قتله ، وجاء برتقش إلى تحت القلعة فنادى أهل: القلعة شيلوني فقد قتلت أتابك، فقالوا له: اذهب إلى لعنة الله فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله .

وقد كان أتابك ضايق القلعة فقل الماء فيها جداً ، والرسل من صاحبها علي بن مالك تتردد بينه وبين أتابك ، فبذل علي بن مالك له ثلاثين ألف دينار ليرحل عنها ، فأجابه إلى ذلك ، ونزل الرسول وقد جمع الذهب حتى قلع الحلق من آذان أخواته وأحضر الرسول وقال لبعض خواصه : امض بفرسه وقربه إلى قدر اليخني فإن شرب منه فأعلمني ، ففعل ذلك فشرب الفرس مرقة اليخني فعلم أن الماء قد قل عندهم ، فغالط الرسول ودافعه ولم يجبه إلى ملتمسه فأسقط في يد علي بن مالك ، وكان في القلعة عنده بقرة وحش وقد أجهدها العطش فصعدت في درجة المئذنة حتى علت عليها ورفعت رأسها إلى السماء وصاحت صيحة عظيمة ، فأرسل الله سحابة ظللت القلعة وأمطروا حتى رووا ، فتقدم حسان البعلبكي صاحب منبج إلى تحت القلعة ونادى علي بن مالك وقال : يا أمير علي أيش بقى يخلصك من أتابك ، فقال له : يا غافل يخلصني الذي خلصك من حبس بلك ، يعني حين نزل بلك على منبج وخلص حسان ، فصدق فأله وكان ما ذكرناه .

وأخبرني والدي رحمه الله أن حارس أتابك كان يحرسه في الليلة التي قتل فيها بهذين البيتين :

يا راقد الليل مسروراً بأوله … إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
لا تأمنن بليل طاب أوله … فرب آخر ليل أجج النارا

قال ابن الأثير : في هذه السنة سار أتابك زنكي إلى حصن جعبر وهو مطل على الفرات ، وكان بيد سالم بن مالك العقيلي سلمه السلطان ملكشاه إلى أبيه لما أخذ منه حلب وقد ذكرناه ، فحصره وسير جيشاً إلى قلعة فنك وهي تجاور جزيرة ابن عمر بينهما فرسخان ، فحصرها أيضاً وصاحبها حينئذ الأمير حسام الدين الكردي البشتوي ، وكان سبب ذلك أنه كان لا يريد أن يكون في وسط بلاده ما هو ملك غيره حزماً واحتياطاً ، فنازل قلعة جعبر وحصرها وقاتله من بها .

قال في الروضتين نقلاً عن يحيى بن أبي طي في كتاب السيرة الصلاحية : ومن أعجب ما حكي أنه لما اشتد حصار قلعة جعبر جاء في الليل ابن حسان المنبجي ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه ، فقال له : هذا المولى أتابك صاحب البلاد قد نزل عليك بعساكر الدنيا وأنت بلا وزير ولا معين وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وآخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان ، وإن لم يفعل فأي شيء تنتظر ، فقال له صاحب القلعة : أنتظر الذي انتظر أبوك ، وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشد حصار ونصب عليه عدة مجانيق ، وقال يوماً لحسان وقد أحرقه بحجارة المنجنيق : أي شيء تنتظر ؟ أما تسلم الحصن ؟ فقال له حسان : أنتظر سهماً من سهام الله، فلما كان من الغد بينا بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم غرب وقع في لبته فخر ميتاً ، ولم يكن من جسده شيء ظاهر إلا ذلك المكان لأنه كان قد لبس الدرع ولم يزرها على صدره ، فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه ، وفي تلك الليلة قتل أتابك زنكي فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغريبة اهـ .

قال ابن الأثير : ولما قتل أتابك زنكي رحل العسكر الذين كانوا يحاصرون قلعة فنك عنها وهي بيد عقب صاحبها إلى الآن ، وسمعتهم يذكرون أن لهم بها نحو ثلثمائة سنة ولهم مقصد حسن وفيهم وفاء وعصبية يأخذون بيد كل من يلتجي إليهم ويقصدهم ولا يسلمونه إلى طالبه كائناً من كان قريباً أم غريباً اهـ .

ذكر خبر قتله :

قال في الروضتين : قصد زنكي حصار قلعة جعبر فنازلها ، وكان إذا نام ينام حوله عدة من خدامه الصباح وهو يحبهم ويحبونه ، ولكنهم مع الوفاء منه يجفونه وهم أبناء الفحول القروم من الترك والروم ، وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه وأقصاه واستبقى ولده عنده وأخصاه ، فنام ليلة موته وهو سكران فشرع الخدم في اللعب فزجرهم وزبرهم وتوعدهم فخافوا من سطوته ، فلما نام ركبه كبيرهم واسمه برتقش فذبحه ولم يجهز عليه ، وخرج فركب فرس النوبة موهماً أنه يمضي في مهم وهو لا يرتاب به لأنه خاص زنكي ، ولم يشعر أصحابه بقتله، فأتى الخادم أهل القلعة فأعلم من بها من أهلها بقتله فبادر أصحابه

إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق ، ثم ختم الله له بالشهادة أعماله ، وكان ذلك لخمس مضين من ربيع الآخر .

لاقي الحمام ولم أكن مستيقناً أن الحمام سيبتلى بحمام

قال ابن الأثير : حدثني والدي عن بعض خواصه قال : دخلت إليه في الحال وهو حي ، فحين رآني ظن أني أريد قتله فأشار إلي بأصبعه السبابة يستعطفني فوقعت من هيبته ، فقلت : يا مولاي من فعل هذا ؟ فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه رحمه الله .

قال : وكان حسن الصورة أسمر اللون مليح العينين قد وخطه الشيب ، وكان قد زاد عمره على ستين سنة لأنه كان لما قتل والده صغيراً . ولما قتل دفن بالرقة وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته عظيم السياسة لا يقدر القوي على ظلم الضعيف ، وكانت البلاد قبل أن يملكها خراباً من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلأت أهلاً وسكاناً .

قال في المختار من الكواكب المضية : لما قتل بقي وحده فخرج إليه أهل الرافقة فغسلوه بقحف جرة ودفنوه على باب مشهد علي في جوار الشهداء من الصحابة ، وبنوا عليه قبة ، وكان بالمشهد قيم أعجمي وكان رجلاً صالحاً ، فاتفق أنه رأى ليلة النصف من شعبان كأنه خرج من البلد وجاء للمشهد فرأى على بابه ثلاثة أفراس يمسكها عبد أسود قال : فدخلت المشهد فرأيت ثلاثة رجال فقلت: من أنتم ؟ فقال أحدهم : أنا علي وهذا الحسن والحسين ، ثم سألني عن القبر فقلت : هذا قبر سلطان عظيم ، فقال : مه ، السلطان العظيم هو الله ، فقلت : هذا قبر زنكي الشهيد ، فقال لي : امض إلى ولده محمود وقل له : نحن جعلنا هذا المكان معبداً فلم يجعله مدفناً ، فقل له ينقله من هنا ، [ثم] مشوا إلى المكان الذي يقال فيه الكف ودعوا ثم قال : أنت ما تقول له نحن نقول له ، قال: فأصبح الرائي ودخل إلى مدبر المدينة أبي مسلم فحكى له ما رأى وعنده جماعة فكتب كتاباً إلى نور الدين يخبره بالمنام فلم يصل إليه الكتاب حتى سير نور الدين كتاباً إلى المذكور يقول له : رأيت ليلة نصف شعبان علياً وولديه وقالوا لي : تنقل أباك من المشهد فنحن جعلناه معبداً لم نجعله مدفناً ، وقد سيرت إليك أربعة آلاف قرطيس تبني له تربة مثل تربة الفقراء لا مثل تربة الملوك وتنقله إليها . فبنى له حظيرة بالقرب من المشهد ونقله إليها اهـ .

وفي الرضتين : في ثامن عشر جمادى الآخرة وصل الخادم برتقش القاتل لعماد الدين زنكي وانفصل من قلعة جعبر لخوف صاحبها من طلبه منه ، فوصل دمشق موقناً أنه قد أمن بها ومدلاً بما فعله وظناً منه أن الحال على ما توهمه ، فقبض عليه وأنفذ إلى حلب من صحبه من حفظته وأوصله ، فأقام بها أياماً ثم حمل إلى الموصل وذكر أنه قتل بها .

ترجمته وشيء من سيرته :

قال ابن خلكان : هو أبو الجود عماد الدين زنكي بن آقسنقر بن عبد الله الملقب بالملك المنصور المعروف والده بالحاجب ، كان صاحب الموصل ، وكان من الأمراء المقدمين ، وفوض إليه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ولاية بغداد في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، وكان لما قتل آقسنقر البرسقي وتوفي ولده مسعود ورد مرسوم السلطان محمود من خراسان بتسليم الموصل إلى دبيس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة ، فتجهز دبيس للمسير ، وكان بالموصل أمير كبير المنزلة يعرف بالجاولي وهو مستحفظ قلعة الموصل ومتولي أمورها من جهة البرسقي ، فطمع في البلاد وحدثته نفسه بتملكها ، فأرسل إلى بغداد بهاء الدين أبا الحسن علي بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين محمد الباغيسياني لتقرير قاعدته ، فلما وصلا إليها وجدا الإمام المسترشد قد أنكر توليته دبيس وقال لا سبيل إلى هذا ، وترددت الرسائل بينه وبين السلطان محمود في ذلك ، وآخر ماوقع اختيار المسترشد عليه تولية زنكي ، فاستدعى الرسولين الواصلين من الموصل وقرر معهما أن يكون الحديث في البلاد لزنكي ، ففعلا ذلك وضمنا للسلطان مالاً وبذل له على ذلك المسترشد من ماله مائة ألف دينار ، فبطل أمر دبيس وتوجه زنكي إلى الموصل وتسلمها ودخلها في عاشر رمضان سنة إحدى وعشرين وخمسمائة .

ولما تقلد زنكي الموصل سلم إليه السلطان محمود ولديه آلب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيهما ، فلهذا قيل له أتابك ، لأن الأتابك هو الذي يربي أولاد الملوك ، فالأتابك بالتركية هو الأب وبك هو الأمير ، فأتابك مركب من هذين المعنيين ، ثم استولى زنكي على ما والى الموصل من البلاد وفتح الرها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وكانت لجوسلين الأرمني ، ثم ساق خبر قتله .

قال ابن العديم : وكان أتابك جباراً عظيماً ذا هيبة وسطوة ، وقيل إن الشاووش كان يصيح خارج باب العراق وهو نازل من القلعة ، وكان إذا ركب مشى العسكر خلفه كأنه بين خيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع ولا يجسر أحد من هيبته أن يدوس عرقاً منه ولا يمشي فرسه فيه ، ولا يجسر أحد من أجناده أن يأخذ لفلاح علاقة تبن إلا بثمنها أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية ، وإن تعدى أحد صلبه ، وكان يقول : ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد ، يعني نفسه ، فعمرت البلاد في أيامه بعد خرابها وأمنت بعد خوفها ، وكان لا يبقي على مفسد . وأوصى ولاته وعماله بأهل حران ، ونهى عن الكلف والسخر والتثقيل على الرعية ، هذا ما حكاه أهل حران عنه . وأما فلاحو حلب فإنهم يذكرون عنه ضد ذلك ، وكانت الأسعار في السنة التي توفي فيها رخيةً جداً ، الحنطة ست مكايك بدينار ، والشعير اثنا عشر مكوكاً بدينار ، والعدس أربع مكايك بدينار ، والجلبان خمسة مكايك بدينار ، والقطن ستون رطلاً بدينار ، والدينار هو الذي جعله أتابك دينار الغلة ، وقدره خمسون قرطيساً برساً (برشاً) وذلك لقلة العالم .

ولما قتل افترقت عساكره ، فأخذ عسكر حلب ولده نور الدين أبا القاسم محمود بن زنكي وطلبوه إلى حلب فملكوه إياها ، وأخذ نور الدين خاتمه من إصبعه قبل مسيره إلى حلب ، وسار أجناد الموصل بسيف الدين غازي إلى الموصل وملكها وبقي أتابك وحده ، فخرج أهل الرافقة فغسلوه بقحف جرة ودفنوه على باب مشهد علي عليه السلام في جوار الشهداء من الصحابة رضوان الله عليهم وبنى بنوه قبة فهي باقية إلى الآن(١) .

قال في الروضتين : (فصل) في بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي ، وكانت من أحسن سير الملوك ، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف .

قال ابن الأثير : حدثني والدي قال : قدم الشهيد إلينا بجزيرة ابن عمر في بعض السنين وكان زمن الشتاء ، فنزل بالقلعة ونزل العسكر في الخيام ، وكان في جملة أمرائه الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسي وهو من أكابر أمرائه ومن ذوي الرأي عنده ، فدخل الدبيسي البلد ونزل بدار إنسان يهودي وأخرجه منها ، فاستغاث اليهودي إلى الشهيد وهو راكب

(١) إلى هنا آخر المنتخبات من بغية الطلب في تاريخ حلب للصاحب كمال الدين عمر بن أحمد المشهور بابن العديم الحلبي المطبوعة في باريس مع ترجمتها بالإفرنسية .

فسأل عن حاله فأخبره به ، وكان الشهيد واقفاً والدبيسي إلى جانبه ليس فوقه أحد ، فلما سمع أتابك الخبر نظر إلى الدبيسي نظر مغضب ولم يكلمه كلمة واحدة ، فتأخر القهقرى ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد ، ولم تكن الأرض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين ، قال : فلقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته ، فلما رأوا كثرته جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها ونصبوا الخيام وخرج إليها من ساعته .

قال : وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول : مهما كانت البلاد لنا فأي حاجة لكم إلى الأملاك ، فإن الإقطاعات تغني عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها ، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم .

قال : ومن أحسن آرائه أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم لاسيما دركات السلطان ، وكان يغرم على ذلك المال الجزيل ، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد وغير ذلك ، فكان يصل إليه كل يوم من عيونه عدة قاصدين .

وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار لا يهمل الاطلاع على الصغير وكان يقول : إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيراً . وكان لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير أمره ، وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده أذن له وأرسل إليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم ، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئاً . وكان يتعهد أصحابه ويمتحنهم . سلم يوماً خشكنانكة إلى ظشتت دار له وقال له : احفظ هذه ، فبقي نحو سنة لا يفارق الخشكنانكة خوفاً أن يطلبها منه ، فلما كان بعد ذلك قال له : أين الخشكنانكة ، فأخرجها في منديل وقدمها بين يديه ، فاستحسن ذلك منه وقال : مثلك ينبغي أن يكون مستحفظاً لحصن ، وأمر له بدزدارية قلعة كواشي ، فبقي فيها إلى أن قتل أتابك .

وكان لا يمكن أحداً من خدمه من مفارقة بلاده ويقول : إن البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم إليها .

قال : ومن صائب رأيه وجيده أن سير طائفة من التركمان الأيوانية مع الأمير اليارق إلى الشام وأسكنهم بولاية حلب وأمرهم بجهاد الفرنج وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد للفرنج وجعله ملكاً لهم ، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم ، وأخذوا كثيراً من السواد وسدوا ذلك الثغر العظيم ، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستمائة .

قال : ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل وبعضها بسنجار وبعضها بحلب وقال : إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو خيل بيني وبينه استعنت على سد الخرق بالمال في غيره .

قال : وأما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية فيهما وبه كانت تضرب الأمثال ، ويكفي في معرفة ذلك جملة أن ولايته أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب : الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها بيت سكمان وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا وابن عمه صاحب ماردين ثم الفرنج ثم صاحب دمشق ، وكان ينتصف منهم ويغزو كلاً منهم في عقر داره ويفتح بلادهم ما عدا السلطان مسعوداً فإنه كان لا يباشر قصده بل يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه ، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه وطلب منه أن يجمعهم على طاعته فيصير كالحاكم على الجميع ، وكل يداريه ويخضع له ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده .

قال : وأما غيرته فكانت شديدة ولاسيما على نساء الأجناد فإن التعرض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها ، وكان يقول : إن جندي لا يفارقونني في أسفاري وقلما يقيمون عند أهلهم فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن . قال ابن الأثير : وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دزداراً اسمه نور الدين حسن البربطي وكان من خواصه وأقرب الناس إليه ، وكان غير مرضي السيرة ، فبلغه عنه أنه يتعرض للحرم ، فأمر حاجبه صلاح الدين الباغيسياني أن يسير مجداً ويدخل الجزيرة فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره وقلع عينه عقوبة لنظره بهما إلى الحريم ثم يصلبه ، فسار الصلاح مجداً فلم يشعر البربطي إلا وقد

وصل إلى البلد فخرج إلى لقائه فأكرمه ودخل معه البلد وقال : المولى أتابك يسلم عليك ويريد أن يعلي قدرك ويرفع منزلتك ويسلم إليك قلعة حلب ويوليك جميع البلاد الشامية لتكون هناك مثل نصير الدين فتجهز وتحدر مالك في الماء إلى الموصل وتسير إلى خدمته ، ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السفن ليحدرها إلى الموصل في دجلة ، فحين فرغ من جميع ذلك أخذه الصلاح وأمضى فيه ما أمر به وأخذ جميع ماله ، فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله .

قال : وأما صدقاته فقد كان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهراً ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به . وركب يوماً فعثرت به دابته فكاد يسقط عنها فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته وودع أهله عازماً على الهرب ، فقالت له زوجته : ما ذنبك وما حملك على هذا الهرب ؟ فذكر لها الحال فقالت له : إن نصير الدين له بك عناية فاذكر له قصتك وافعل ما يأمرك به ، فقال : أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلك ، فلم تزل زوجته تراجعه وتقوي عزمه فعرّف النصير حاله ، فضحك منه وقال له : خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه فهي التي أراد فقال : الله الله في دمي ونفسي ، فقال : لابأس عليك فإنه ما أراد غير هذه الصرة ، فحملها إليه ، فحين رآه قال : أمعك شيء ؟ قال : نعم ، فأمره أن يتصدق به ، فلما فرغ من الصدقة قصد النصير وشكره وقال : من أين علمت أنه أراد الصرة ؟ فقال : إنه يتصدق في هذا اليوم بمثل هذا القدر يرسل إلى من يأخذه من الليل وفي يومنا هذا لم يأخذه ، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض وأرسلك إلي فعلمت أنه ذكر الصدقة .

قال : وحكي لي من شدة هيبته ما هو أشد من هذا ، قال والدي : خرج يوماً الشهيد من القلعة بالجزيرة من السر خلوة وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندارية وقال له : اقعد ، فحين رأى الشهيد سقط إلى الأرض فحركوه فوجدوه ميتاً .

قال : وكان الشهيد قليل التلون والتنقل بطيء الملل والتغير شديد العزم ، لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل إلا بذنب يوجب التغير ، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولاهم الذين بقوا أخيراً من سلم منهم من الموت، فلذا كانوا ينصحونه

ويبذلون نفوسهم له ، وكان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً إن كان جندياً اشتمل عليه الأجناد وأضافوه ، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان ، وإن كان عالماً قصد القضاة بني الشهرزوري فيحسنون إليه ويؤنسون غربته فيعود كأنه أهل ، وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العلية والآراء الصائبة والأنفس الأبية ويوسع عليهم في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف .

قلت: وما أحسن ما وصفه به أحمد بن منير (الطرابلسي) من قوله في قصيدة :

في ذرا ملك هو الدهـ ... ـر عطاء واستلابا
من له كف تبذ الـ ... ـغيث سحاً وانسكابا
فاتح في وجه كل ... أمة للنصر بابا
ترجف الدنيا إذا حر ... ك للسير الركابا
وتخز المشمخرا ... ت اختلالاً واضطرابا
وترى الأعداء من هيـ ... ـبته تأوي الشعابا
وإذا ما لفحتهم ... ناره صاروا كبابا
يا عماد الدين لازلـ ... ـت على الدين سحابا
جاعلاً من دونه ... سيفك إن ريع حجابا
فالبس النعماء في الأمـ ... ـن الذي طبت وطابا
واضف عيشاً إن أعدا ... ءك قد صاروا ترابا

تم بتوفيقه تعالى الجزء الأول من «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» ويليه الجزء الثاني أوله ولاية نور الدين محمود الشهيد على حلب سنة ٥٤١ .

الفهرس

الدولة الطولونية

دولة بني حمدان

دولة بني مرداس

الدولة السلجوقية بحلب

تصويبات واستدراكات*
الجزء الأول

الصفحة	السطر	الصواب
١٣	٢	١٣٧٠ هـ .
٧٧	—	تنقل الحاشية (٣) إلى الصفحة ٨٥ .
٧٩	—	تنقل الحاشية (١) إلى الصفحة ٨٧ .
٩٣	٧	فتحصنوا .
٩٣	١١	المعتم .
٩٦	٤	فوجه إليهم .
١٠٠	٨	علقمة بن مجزّر .
١٠٠	١٩	ساكت .
١٠١	٧	ولكن الناس فخموه .
١١٠	١٠	وله بها دار .
١١٦	١	أبو الوليد .
١١٨	١٩	العهد وتولية .
١٣٤	١٥	إلى مروان بن محمد .
١٣٤	١٨	أبو غانم .
١٣٥	١٦	وشاورهم .
١٣٦	١٧	وعلى الخيل .
١٣٦	١٨	خازم .
١٣٧	١٧	وقبل عتبة .
١٣٧	٢٢—٢٤	أبا الخصيب .
١٤٦	١٨	لجلب من بتلك .
١٤٧	٤	خالد بن برمك .
١٤٨	٣	أربعة وخمسون ألفاً .
١٥١	٧	المسيب .
١٥٥	١٠	فوهبه لله .
١٥٦	١٣	الصقالبة ودبسة .
١٥٦	٢٣	سرادقاً .
١٥٨	١	الحال .
١٧٠	١٣	العافية .
١٧٦	٨	وكتابه ، واجتنب .
١٧٦	٢٥	ويحجز .
١٧٧	١٦	أعرفت شيئاً .
١٨٩	٧	قطعت .
١٩٧	٩	تحوز .
١٩٩	١٧	فأقام بالكحيل .
١٩٩	١٨	وثب ابن .
١٩٩	١٩	نيزك .
٢٠٠	٤	فعذله .
٢٢٣	٥	يانس المونسي .

* وقعت بعض الأغلاط المطبعية والتصحيفات في الطبعة الأولى من الكتاب مما فاتنا استدراكه ، ونحن نشير إليها معتذرين إلى القارىء الكريم .

الصفحة	السطر	الصواب
٢٢٨		تنقل الحاشية إلى الصفحة ٢٢٧ .
٢٣٠	٤	عربسوس .
٢٣٢	٤	أن يجعلاه .
٢٥٢	١٦	وتوفي الحسين .
٢٨٣	١٧	ثم تصالحا .
٢٩٠	١٧	قصداً لشر .
٢٩٢	٦	ومعه جماعة .
٢٩٢	٢٣	راسل أرمانوس .
٢٩٤		الحاشية : هكذا ورد البيت ، ولعل الصواب حلفت (بالفاء) وكف (بالرفع).
٣١١	١	الخبر .
٣١١	١٤	٤٧٦ .
٣١٣	٣	إلى شرف الدولة .
٣١٣	١٢	من أرض الشام .
٣١٩	٢٣	يمكنه المشي .
٣٢٣	٢٠	وسار منها .
٣٣٠	٧	وأفنى .
٣٣١	٦	ولقبه .
٣٣١	١٣	وحضر .
٣٣٢	١٦	سبع وثمانين وأربعمائة .
٣٣٥	١٥	من غلاتهم .
٣٣٩	٩ــ١٠ــ١١	**سنة ٤٩١ ذكر ملك الإفرنج مدينة أنطاكية**
٣٣٩	٢٢	فأفضل .
٣٤٢	٢٠	سحرة .
٣٤٣	١	المسلمين .
٣٤٤	٩	ساروا إلى .
٣٤٨	٢٢	كفر لاثا .
٣٥٠	٩	وسارا .
٣٥٣	٢٤	حسدني .
٣٥٥	٢	فعاد .
٣٥٧	١٩	فخر الملك .
٣٥٩	٢٠	ثلاثة .
٣٦٢	١٥	وتبعهم .
٣٦٧	١٦	وأعيان .
٣٦٩	١٤	مماليكك .
٣٧٠	١٩	وأقام عليها .
٣٧٣	٥	فسارا إليهم .
٣٨١	٦	في الخيل .
٣٨١	٢٤	بغدوين وابن صنجيل .
٣٨٢	٢١	فلقوهم .
٣٨٣	١٣	على البلاط .
٣٨٥	٤	من بلد عزاز .
٣٨٥	١٢	فغدر جوسلين .
٣٨٥	١٣	واحتج بأنه أسر له والي منبج أسيراً .
٣٨٦	١	إلى صفين .
٣٨٦	٨	نواز .
٣٨٦	١٦	رحى .
٣٨٦	١٩	قديم بالقرب .
٣٨٦	٢١	شمس الدولة وابن قرناص .
٣٨٧	١٤	زردنا وعمروها .
٣٨٧	٢٣	على حفظها .
٣٨٧	٢٤	قد عطبت .

الصفحة	السطر	الصواب
٣٨٨	٢٤	فلم يجبه .
٣٩٠	١١ــ١٣ــ١٦	نواز .
٣٩٠	٢٠	تبّل .
٣٩١	١	والحدج .
٣٩١	٥	خرج منها يريد ميافارقين .
٣٩٣	١٩	أورش بالقرب من قنطرة سنجة .
٣٩٤	١٠	نزل بدر الدولة منها بيوم .
٣٩٥	١٩	إلى سنجان .
٣٩٧	١	ثماني عشرة .
٣٩٧	٢٦	قبر كبير محرر عليه .
٣٩٨	٤	فحمل منها .
٣٩٨	٨	سنجان .
٣٩٩	٨	وخالط دبيس .
٤٠٠	١٨	الجلي .
٤٠٢	١٢	منوا به من الظلم .
٤٠٤	٥	يناصفهم .
٤٠٤	٩	من الصيافي .
٤٠٤	١٨	جبل بني عليم .

الصفحة	السطر	الصواب
٤٠٩	١٩	سمعت شيخنا .
٤١١	٨	بقتلة البرسقي .
٤١٤	٦	فسارا إليه .
٤١٥	٢٢	فرأى الكِبْر* الذي .
٤١٦	١٧	وضربت بوقاته .
٤١٧	١٥	على رحى .
٤١٧	٢٠	وكل أشار .
٤٢١	٤	وهيبته على جنده .
٤٢٥	١٧	سنة إحدى وثلاثين .
٤٣٣	٤ــ٥	فظفروا بفرقة كبيرة كثيرة من التجار .
٤٣٣	١٤	وتل موزن .
٤٣٣	١٦	ومحاصراً لما .
٤٣٦	١٨	ومعه ذلك الصبي .
٤٣٧	٩	ذكروا عنه .
٤٤٥	١	وفي الروضتين .
٤٤٨	٢	خارج السياج .
٤٤٨	٢٤	وقلع عينيه .

* الكبر : ضرب من القماش أو الثياب .